

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثالث عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ
أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا
نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ
أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

المفـردات :

(قِسِّيسِينَ) : جمع قِسِّيس ؛ وهو رئيس دينى مسيحى .

(ورُهْبَانًا) : الرهبان ؛ جمع راهب ، وهو المتبتل ، المنقطع للعبادة وحرمان النفس من الاستمتاع بالزوج والولد .

(تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) : أى تمتلئ أعينُهم بالدمع حتى يتدفق منجوانبها ؛ لكثرته .

التفسير

٨٢ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ...) الآية .

بعد أن أقام الله الحججَ القاطعةَ على أهل الكتاب، المعاندين المكذبين . وبعد أن ذكر

فضائحَهم ومخازيَهُم - ذكر تعالى فى هذه الآيات . أحوالَ اليهود والنصارى فى عداوتهم ومحبتهم للمؤمنين . كما بيَّن حالَ المشركين .

سبب النزول :

تعددت الروايات فى سبب نزول هذه الآيات . ولكنها تلتقى فى أن بعض طوائف النصارى ، استمعوا إلى القرآن الكريم ، فتأثَّرت به نفوسهم ، وفاضت أعينهم ، فأعلنوا الإسلام .

ويذهب جمهور المفسرين : أنها نزلت فى النجاشى - ملك الحبشة - ومَن معه من القسيسين والرهبان .

وجميع الروايات : تدل على أنه أسلم هو ومن معه .

وكُتُبُ السيرةِ ، تدل على أن قيصر عظيم الروم - وهو مسيحى - تلقَّى دعوةَ الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فى رِفق وأناة . وأنه - لولا خشيته على مُلْكه - لاستجاب للإسلام .

كما تدل كتب السيرة ، على أن المقوقس - زعيم الأقباط فى مصر - تَلَقَّى دعوةَ الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى مَوَدَّةٍ ولِين . وأرسل إليه بعض الهدايا القيّمة .

وكان تَلقِّى الناس للدعوة الإسلامية متنوعًا بتنوع عقائدهم وطبائعهم .

وأبرز الطوائف التى استقبلت هذه الدعوة الجديدة :

أولا - اليهود : وقد استقبلوا الإسلام بالعداوة والبغضاء ، مع أن ملَّتَهم تقوم على التوحيد ؛ لأن تطوّر اليهودية ، وعبَثَ اليهود بكتابهم - أبْعَدَ اليهودَ عن أُصول عقيدتهم ، وجعلها قائمة على التعصب الأعمى والأنانية الحمقاء ؛ حيث زعموا أنهم : شعب الله المختار وأنهم لهذا لن يدخلوا النار مهما فعلوا إلا أياما معدودات . فاسترسلوا فى شهواتهم ونزواتهم . فقتلوا الأنبياء . واستباحوا الحُرُماتِ . وأكلوا أموالَ الناس بالباطل . وأسرفوا فى التمرد والعصيان ، مما مسخ فِطَرَهم الإنسانية إلى غرائز القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت .

ولهذا – لما جاء الإسلام – عادوه بألوان العداء، وشنوا عليه الحروب الطاغية : بقوة السلاح، أو بالدسائس والمؤامرات، أو بمحاولة تشويهه بما دسُّوا فيه من الإسرائيليات : « حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ »(١) ولا يزال هذا دأبهم حتى الآن . ولهذا صدرتهم الآية ، وصرحت بهم .

ثانيًا – المشركون : وهم كفار مكة وأمثالهم . فقد قاوموا الدعوة الإسلامية مقاومة عنيفة ؛ لأن الإسلام يحدُّ من طغيانهم وعصبياتهم الحمقاء، وما اعتادوه من استعلاء وكبرياء وهم – إلى هذا – تشتعل نفوسهم بالحسد والبغضاء للرسول صلى الله عليه وسلم، فقالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٢) وجاهروا المسلمين بالعداء، حتى قالوا : « أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا »(٣) وما زالوا بهم تعذيبا واضطهادا، حتى أخرجوهم من ديارهم، وصادروا أموالهم .

ثالثا – النصارى : أنكر الإسلام على النصارى إيمانهم بالفداء، وبحدوث الصلب وعقيدة التثليث، ولكنه مع هذا أنصف المسيح – عليه السلام – ورفعه إلى مكانته السامية الجديرة به، ونادى بطهارة السيدة مريم وأفضليتها على النساء .

والمسيحية – فى كتابهم(٤) – تقوم على التسامح، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وعلى النفور من العدوان .

كما تقوم المسيحية أيضا : على الحد من الشهوات والمطامع، وحب الاستعلاء وهيَ – فى هذا – تقارب الإسلام .

ونظرا لأن هذه المبادئ تدعو إلى المسامحة، فإنهم لم يقابلوا الإسلام بالعداوة والبغضاء، كما فعل اليهود .

---

(١) البقرة، من الآية : ١٠٩ (٢) الزخرف، من الآية : ٣١

(٣) الأنعام، من الآية : ٥٣

(٤) ورد فى إنجيل لوقا : ٦ / ٢٧–٢٩ : « أيها السامعون أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . من ضربك على خدك فأعرض له الآخر أيضا... » .

وموقف النجاشى ، والمقوقس ، وهرقل - من الدعوة الإسلامية - معروف . والنصارى - لا النصرانية - لم يحاربوا الإسلام ، إلا بعد أن خرجوا على تعاليم النصرانية دينهم ، وبعد أن استبدت بهم المطامع والشهوات ، فَشَنُّوا الحروب البيزنطية ، والحروب الصليبية، والحروب الاستعمارية على الإسلام والمسلمين . والنصرانية من كل هذا براء .

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) :

شدة العداوة من اليهود : قائمة - أساسا - على تعصبهم واستعلائِهِم ، وكراهتهم خروج النبوة من ولد إسرائيل ، ثم على تَرَسُّلِهِم فى شهواتهم ، مما أدى إلى تمرُّدِهم على الأنبياء ، وتكذيبهم ، وقتل المئات - بل الآلاف - منهم فى هذا السبيل .

وأشد ما لاقى الرسول صلى الله عليه وسلم - من الأذى والعنت والعداء - كان من يهود الحجاز فى المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب ، ولا سيما مشركى مكة وما حولها ، ولكنَّ مشركى العرب - على جاهليتهم - كانوا أرقَّ من اليهود قلوبا ، وأعظم مروءة وإيثارًا .

ولهذا بدأ باليهود - كما أسلفنا - فى ترتيب العداء للإسلام . فقد حاربوا الإسلام بالسلاح ، كما حاربوه بالكيد والتآمر ، ومحاولة تشويه تعاليمه السامية ، بما دَسُّوا فيه من إسرائيليات ، فضلا عما اختُصُّوا به من قتل بعض الأنبياء بغير حق ، وإيذائهم لبعضهم الآخر ، واستحلالهم أكل أموال غيرهم بالباطل من الربا والرشوة ، مما يزخر به تاريخهم .

(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) :

أى لتجدن يا محمد ، أقربَ النـاس محبةً ومودةً لك وللمؤمنين : الذين قالوا إنا نصارى .

وقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم ، ورأى صحابته من نصارى الحبشة ، وملكهم - حُسْنَ الحماية والرعاية وطيبَ المودة للذين هاجروا إلى الحبشة ، حيث عاشوا فى أمن وسلام ولم يسلموهم إلى أعدائهم المشركين ، الذين استعْدَوْا عليهم ملك الحبشة ، وحاولوا

أن يوغروا صدره ، ويوقعوا بينه وبين المهاجرين ، من المؤمنين : بأنهم ما جاءوا إلا ليفسدوا عليه قومه .

ولكنه لم يستجب لهم وأكرم المسلمين .

ثم بين سبحانه وتعالى ، سبب مودة النصارى للمؤمنين بقوله :

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) :

وقد تضمن ذلك وصفهم بأن فيهم العلمَ والعبادة ، والتواضعَ والزهد .

فسبب مودة النصارى ومحبتهم للمؤمنين : أن منهم قسيسين يتولون رعاياهم بالتعليم الديني ، ويتعهدونهم بتهذيب الأخلاق ، ويربونهم على الآداب والفضائل .

كما أن منهم - كذلك - رهبانا : عُبَّادًا يضربون لهم المُثُلَ فى الزهد ، والإعراضِ عن زخرف الدنيا وزينتها ، ويُكثِرُون فى نفوسهم الخوف من الله تعالى ومراقبته ، والانقطاع للتبتل والعبادة .

كما أن من أسباب مودتهم للمسلمين : التواضعَ ، وأنهم لا يستكبرون عن الخضوع والإذعان للحق ، متى ظهر لهم .

٨٣ - (وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ . . .) الآية .

قيل : إنه كلام مستأنف . وقيل : إنه معطوف على قوله : (وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) .

فهذه الآية متصلة بما قبلها .

والمعنى : ولتجدن أقربهم مودة للمؤمنين ، أولئك الذين قالوا إنا نصارى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) وأنهم :(إِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) عند سماع القرآن وهم الذين استجابوا للإسلام فآمنوا عندما سمعوا القرآن ، لِما عرفوا من الحق ، الذى جاء فى كتابهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن دينه .

وفى تفسير الخازن ؛ قال ابن عباس : يريد النجاشى وأصحابه ، لمَّا قرأ عليهم جعفر ابن أبى طالب سورةَ مريم . قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

(مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) :

أى تفيض عيونهم من الدمع ، من أجل ما عرفوه من الحق[١] .

وهذا شأن العلماء المخلصين ، كما قال تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . . . »[٢] الآية .

(يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) :

يقولون - بعد أن اطمأنت قلوبهم للإسلام - ربنا آمنا بنبيك محمد ورسالته . فتقبل منا ، واجعلنا مع أُمة محمد الذين سيشهدون على الأُمم يوم القيامة ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ . . . »[٣] الآية .

نقل هذا عن ابن عباس ، وابن جريج .

وقال الحسن : الذين يشهدون بالإيمان .

وقال أبو على : الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك .

٨٤ - (وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) :

وأىُّ شىء يصرفنا عن الإيمان بالله ، وتصديق ما جاءنا من الحق بعد ما تبين لنا صدق الرسول ، وصحة رسالته - أى لا شىء يصرفنا عن ذلك ! ! .

ونظير هذا الأُسلوب قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى »[٤] .

والمراد بالحق : القرآن والإسلام .

---

(١) وقد جاءت « مِنْ » للتعليل - هنا - كما فى قوله تعالى : « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا » نوح ، من الآية : ٢٥ ، وفى قول الفرزدق فى على زين العابدين رضى الله عنه :

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم

(٢) الزمر ، من الآية : ٢٣

(٣) البقرة ، من الآية : ١٤٣

(٤) يس من الآية : ٢٢

والمراد من (الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم - أى وكيف ننصرف عن الإيمان ، ونحن نطمع أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين ، أى من جملتهم !

٨٥ - (فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) :

أى فجازاهم الله وكافأهم - بسبب قولهم : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين - وأسعدهم بما أعدَّ لهم من جنات ، وصفها الله تعالى ، بأن الأنهار تجرى من تحت قصورها وأشجارها ، كما وصفهم بالخلود والبقاء فى نعيمها فلا يزول عنهم النعيم ولا يفارقونه .

وقد رتب الله تعالى الجزاء المذكور ، على قولهم : (رَبَّنَا آمَنَّا) وما اقترن به ، مما يدل على كمال الإخلاص : من بكائهم عند سماع القرآن ، وقولهم : (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ . . .) . إلخ .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ) : ليبين أن هذا الجزاء الكريم ، ليس قاصرا على من نزلت الآية بسببهم ، بل هو يعمُّ كلَّ من أحسن إحسانهم .

٨٦ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

فى هذه الآية ، يبين الله تعالى ، سوء مصير الكافرين ، بعد بيان حسن مصير المؤمنين وبضدها تتميز الأشياء .

والمعنى : والذين كفروا - من اليهود والنصارى والمشركين ومن لا دين لهم - ودأبوا على التكذيب عنادا واستكبارا ، بعدما وضح الحق ، وقامت الأدلة والحجج على صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

أى أولئك هم أصحاب النار وسُكَّانها المقيمون بها ، لا يبرحونها .

والجَاحِم والجَحِيم : هو ما اشتدَّ حَرُّه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾) .

التفسير

٨٧ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ . . .) الآية .

الربط : لما مدح الله مَن آمن من علماء أهل الكِتاب ، ناسب أن يؤدبهم بأدب الإسلام فبين لهم : أن الدين الإسلامى ، لا يحرم الطيبات ، التى كانوا يحرمونها على أنفسهم ، حينما يسلكون سبيل الرهبانية . وإنما هو دين يحرم الاعتداء والتجاوز .

وجاء ذلك بأسلوب عام لجميع المؤمنين ، حتى يتأدَّبَ به كل مؤمن .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن أنس ، قال : جاء ثلاثة رَهْطٍ[1] إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا - كأنهم تقالُّوها - فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر :

فقال أحدهم : أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى اللَّيلَ أَبَدًا . وقَالَ آخَرُ : أَمَّا أنا فَأَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفطِرُ . وقال آخَرُ : أَمَّا أَنَا فَأَعْتَزِلُ النِّسَاء ، ولَا أَتَزَوَّجُ أَبَدا .

فجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أَنتُمُ الَّذِينَ قُلْتُم : كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللهِ ، إِنِّى لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لِلهِ ... لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفطِرُ ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاء . فَمنْ رَغِب عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » .

(١) إضافة ثلاثة إلى رهط : بيانية ، أى ثلاثة هم رهط . والرهط : يطلق على العدد من ثلاثة إلى تسعة .

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ) :

أى لا تمنعوا - أيها المؤمنون - أنفسكم مما طاب ولذَّ من الطعام ، الذى أحله الله لكم .

(وَلَا تَعْتَدُوا) :

أى لا تتجاوزوا الحَدَّ بتحريم حلال ، أو تحليل حرام ، أو إسراف فى طعام . قال تعالى : « يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[١] .

٨٨ - (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

أى تمتعوا بأنواع الرزق ، من أكل وشرب ولباس ، وغير ذلك من الطيبات ، التى أحلها الله تعالى .

وخص الأكل بالذكر ؛ لأنه معظم مقاصد الرزق .

وقد دلت هذه الآية - وسابقتها - على أن الإسلام يُعْنَى بالأجسام ، كما يُعنى بالأرواح .

(وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) :

أى اجعلوا أنفسكم فى وقاية من غضب الله ، الذى أنتم به مؤمنون . فلا تتجاوزوا ماشرعه الله لكم .

وعن الحسن البصرى رضى الله عنه : إن اللهَ أَدَّب عبادَه فأَحسن أَدبهم ، فقال : « لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ »[٢] . ماعاب الله قوما وسَّع عليهم الدنيا فتنعموا وأطاعوا ، ولا عَذَر قوما زواها عنهم فعصوْه .

وعنه أنه قيل له : فلان لايأكل الفالوذج[٣] ، ويقول : لا أُؤدى شكره . قال : أفيشرب الماءَ البارد ؟ قالوا : نعم . قال : إنه جاهل . إن نعمةَ الله عليه فى الماءِ البارد ، أكثرُ من نعمته عليه فى الفالوذج .

والمعروف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه كان يأكل ماوجده . . . فتارة يأكل أطيبَ الطعام ؛ كلحوم الأنعام والطير والدجاج . وتارة يأكل أَخْشَنَهُ ؛ كخبز الشعير

(١) الأعراف ، الآية : ٣١ (٢) الطلاق ، من الآية : ٧ (٣) حلواء تصنع من الدقيق والعسل والماء .

بالملح أو بالزيت أو بالخل ، وأحيانا يجوع ، وأحيانا أخرى يشبع ، فكان ـ فى كل ذلك ـ قُدْوَةً للموسر وللمعسر على السواء .

وَلْيُعْلَمْ : أن التمتُّعَ بالطيبات من الرزق ، مشروعٌ فى جميع الرسالات . قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »[1] .

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾).

المفردات :

(بِاللَّغْوِ) اللغو فى اليمين : الحلف من غير قصد القَسَم .

(بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ) أصل العقد : نقيض الحل . فَعَقْد الأيمان وتعقيدها : توكيدها بالقصد والتصميم .

(فَكَفَّارَتُهُ) أصل الكفارة : من الكَفْر . وهو : الستر والتغطية ، ثم صارت ـ فى اصطلاح الشرع ـ اسمًا لأعمال تكفِّر ـ أى تمحو ـ بعض الذنوب .

(مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ): الأوسط ؛ المعتدل من كل شىء . والمراد هنا : الأغلب من الطعام ، الذى هو وسط بين الدُّون الذى يُتَقَشَّفُ به ، وبين الأعلى الذى يُتوسَّع به .

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : أى إعتاق رقيق مملوك له .

---

(١) المؤمنون ، الآية : ٥١

التفسير

٨٩ - (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ . . .) الآية .

الربط وسبب النزول :

روى ابن جرير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ . . .) فى القوم الذين كانوا قد حرَّموا النساء والنَّوْمَ واللحْمَ على أنفسهم ، قالوا : يارسول الله ، كيف نَصنع بأيماننا التى حلفناها ؟ فأنزل الله تعالى :

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ . . .) الآية .

وبهذا تتصل الآية بما قبلها .

ومعنى قوله : (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَانِكُمْ) أى لا يؤاخذكم الله بالأيمان التى تحلفونها بلا قصد ، كما يقول الرجل فى حلفه - من غير قصد ولا نية - لا والله ، وبلى والله ، مما يجرى على الألسنة من غير قصد . فلا مؤاخذة على هذه الأيمان : بكفارة فى الدنيا ، ولا بعقوبة فى الآخرة ؛ لأنها عادة لسان .

وقال مجاهد : هو الرجل يحلف على الشىء يرى أنه كذلك وليس كما ظن . وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى .

(وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ) :

ولكن الله يؤاخذكم بما يصدر عنكم من الأيمان التى أكدتموها بالقصد والتصميم .

(فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) :

فالذى يُكفِّرُ عَقْدَ اليمين - إذا أُريد الحنث فيها ممن حلف أنه سيفعل كذا ، أو حلف أنه لن يفعل كذا ، ثم راجع نفسه فرأى أن تنفيذ اليمين سَيَحْرِمُهُ خيراً كثيرا - فعليه أن يَنْقُضَ يمينَهُ ، وأن يُكفِّرَ عنها . لما جاء فى الصحيحين: عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إِنِّى وَاللهِ - إِنْ شَاءَ اللهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِى ، وَأَتَيْتُ الَّذِى هوَ خَيْرٌ » .

ومن يحلف كاذبا متعمدا ، فعليه ردُّ الحقوق إلى أصحابها ، إذا ترتب على يمينه ضياع حق ثابت . وعليه أيضا الكفارة المبينة فى الآية .

ويمين الكاذب المتعمد تسمى شرعًا : اليمين الغموس .

وسميت بذلك ؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار . وهى : من الكبائر التى ورد فيها وعيد شديد .

أخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو قال : « جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ، ما الكبائر؟ قال : الإشراكُ بِاللهِ . قال : ثم ماذا ؟ . قال : عُقوقُ الوالدين. قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمينُ الغَمُوسُ . قلتُ : وما اليمينُ الغموسُ ؟ قال : الَّتِى يُقْتَطَعُ بِهَا مَالُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ » .

وأخرج مسلم عن أبى أُمامة أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فقال رجل : وإن كان شيئًا يسيراً قال : وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا من أَرَاك » .

فعلى كل مسلم : أن يتجنب الحلف بالله كاذبًا ، حتى لا يستحق هذا الوعيد الشديد .

أما يمينُ المُكْرَه ؛ فلا إثم فيها . وكذا لا كفارة فيها فى بعض المذاهب .

والحلف لا يكون إلا بالله تعالى ، أو باسم من أسمائه ، أو صفةٍ من صفاته .

قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ »(١) .

وكفارة اليمين إذا حنث فيه :

١ - إطعام عشرة مساكين وجبةً واحدةً لكلٍّ منهم من الطعام الغالب الذى يأكله أهلوكم فى بيوتكم لا من أَرْدَئِه ولا من أَجْوَدِه .

فمن كان أكثر طعامه وطعام أهله خبزَ البُرِّ ، وأكثرُ إدامه اللحمَ بالخضر أو بدونها ، فلا يجزئ ما دون ذلك . والأعلى يجزئ على كل حال ، لأنه من الوسط وزيادة .

وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام .

---

(١) رواه ابن عمر فى كتاب الشهادات : باب كيف يستحلف . هداية البارى : ٢-٢٢٧

٢ـ كسوة عشرة مساكين : والكسوة تختلف باختلاف البلاد والأزمنة ـ كالطعام ـ فيجزىءُ من غالب ما يكسو به أهله ، لا من الأرْدَإ ولا من الأجود . والأعلى يجزئُ على كل حال ، كما سبق فى الطعام .

وفى الإطعام والكسوة خلاف بين الفقهاء فمن أراد معرفته واستيفاءه فليرجع إليه فى كتب الفقه .

٣ـ تحرير رقبة : أى إعتاق إنسان رقيق ذكر أو أنثى . وقد يعبر أحيانا عن ذلك بفكِّ رقبة كقوله تعالى : « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ »[(١)] .

ولا يشترط أن تكون الرقبةُ مؤمنةً عند أبى حنيفة ، فإنه يجزئُ عنده عتق الكافرة . خلافا للشافعى ومالك وأحمد . فقد اشترطوا الإيمان ، قياسا على الكفارة فى القتل .

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ) :

أى فمن عجز عن واحد من الثلاثة المتقدمة ، فعليه أن يُكَفِّرَ بصوم ثلاثة أيام : متتابعات عند أبى حنيفة . ولا يشترط التتابع عند الشافعى وغيره ، وهو أيسر . فإن عجز عن الصوم ـ لمرض ـ صام عند القدرة ، فإن لم يقدر فأمره مفوض إلى الله تعالى : يُرْجَى له عَفْوُ الله ورحمته ـ إذا صحت نيته .

والاستطاعة : أن يكون ذلك القَدْرُ اللازمُ فى الكفارة من الإطعام والكسوة والعتق ـ فاضلا عن قُوتِهِ وقُوتِ عياله ، يومَه وليلتَهُ . وفاضلًا كذلك ، عن كسوته بِقَدْرِ مايطعم أو يكسو أو يعتق .

(ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) :

بالله ـ أو باسم من أسمائه ـ وحنثتم .

(وَاحْفَظُوٓا أَيْمَانَكُمْ) :

أى قلِّلوا منها ، فلا تحلفوا إلا لإحقاق حق أو دفع باطل ، قال تعالى : « وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا ... »[(٢)] الآية .

---

(١) البلد ، الآيات : ١١ ، ١٢ ، ١٣

(٢) البقرة ، من الآية : ٢٢٤

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى مثل ذلك البيان الشافى ، يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه ، لتقوموا بشكره على ما أرشدكم إليه ، من تشريعات نافعة .

وقد وضح بهذا ، أن ما يتداوله الجهلة من حَلِفٍ بغير الله تعالى ، أو بغير اسم من أسمائه ، أو مَنْ حَلِفٍ بغير صفة من صفاته[1] - حرام شرعًا ، وقد يَجرُّ إلى الكفر ، لإشراكه غير الله فى التعظيم والعياذ بالله ؛ « ... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[2] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾) .

المفـردات :

(الْخَمْرُ) : هى كل ما خامر العقل وغيَّبه .

---

(١) كقدرة الله ، وعلم الله ، ووجود الله .

(٢) النور ، من الآية : ٦٣

(الْمَيْسِرُ) : القمار .

(الْأَنصَابُ) : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها . وقيل : إنهم كانوا يعبدونها ، ويتقربون إليها .

(الأَزْلَامُ) : هى قداح ، أى قطع رقيقة من الخشب على هيئة السّهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية ؛ لأجل التفاؤل أو التشاؤم .

(رِجْسٌ) : الرجس ؛ كل ما يستقذر ؛ حسا أو معنى .

(فِيمَا طَعِمُوا) : أى فيما تناولوا قبل التحريم .

التفسير

٩٠ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . . .) الآية .

لمّا سبق النهىُ عن تحريم الطيب الحلال ، والأمرُ بالأكل مما رزق الله من الحلال الطيب - وكانت الخمر والميسر من جملة الأُمور المستطابة عندهم ، بحسب العرف والإلف .

عقب الله ذلك ببيان أنهما ليسا من الحلال الطيب . بل هما مما حرَّم الله تعالى .

سبب النزول :

أورد ابن جرير وابن مردويه ، فى سبب نزول هذه الآيات : أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه - قال : « فِيَّ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ ... صَنَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا ، فَدَعَانَا فَأَتَاهُ نَاسٌ . فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا حَتَّى انْتَشَوْا مِنَ الْخَمْرِ . وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا . فَفَاخَرُوا . فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : الْأَنْصَارُ خَيْرٌ . وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: قُرَيْشٌ خَيْرٌ . فَأَهْوَى رَجُلٌ بِلَحْيِ جَزُورٍ [1] . فَضَرَبَ عَلَى أَنْفِي فَفَزَرَهُ [2] قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِك فَنَزَلَتْ » :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

---

(١) اللحى : هو الفك الذى ينبت عليه الأسنان السفلى . (٢) فزره : أى شقه .

خاطَب الله المسلمينَ – بوصف الإيمان – ليستجيبوا إلى ما يأْمرهم به ، ويقلعوا عما نهاهم عنه ، تحقيقا لإيمانهم .

وفى هذه الآية ، ينهاهم عن شرب الخمر نَهْيًا حاسما .

والخمر : هى كل ما خامر العقل ، فستره وحجبه عن التفكير . وهو يصدق على كل مُسْكر : مصنوع من عصير العنب أو غيره ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ »[١] .

وفى رواية لمسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأَبى داود ، وابن ماجه ، وأَحمد ، عنه صلَّى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » .

وخرَّج أبو داود : « نزل تحريم الخمر يوم نزل ، وهو من خمسة : من العنب ، والتمر ، والحنطة ، والشعير ، والذرة . والخمر : ما خامر العقل » .

والواقع : أن أى شراب – تغير طعمه وظهر فيه الغول (الكحول) وأسكر – فهو خمر . وهو حرام . قَلَّ أو كَثُرَ . لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ »[٢] .

وهذا ينطبق على ما يسمونه الآن « البيرة » ، كما ينطبق على جميع المخدرات ، مثل : الأَفيون ، والحشيش ، والقات ، والكوكايين ، والهيروين . . .

فقد ورد : أَن النبى صلَّى الله عليه وسلم « نَهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ »[٣] .

وقد الْتبس الأَمر على بعض الباحثين ، فظنوا النبيذَ – المعروف الآن – حلالا .

والواقع أنه حرام بالإجماع ؛ لأَنه مُسْكر .[٤]

أَما النبيذ الوارد فى كتب الفقه فهو ما يسميه أهل مصر – الآن – بالخشاف ، ويسميه أَهل سورية بالنقوع (النقيع) وهو شراب منقوع فيه التمر أَو الزبيب أَو المشمش وغيرها ويغلى حتى ينضج ويحلو ماؤُه فهذا لا حرج فيه إذا لم يتخمر . أَما إذا ترك فترة طويلة ، حتى

(١) رواه مسلم والدارقطنى .
(٢) رواه الترمذى ، والنسائى وأبو داود ، وابن ماجه ، وأحمد ، وابن حبان .
(٣) فتر الشراب الجسم : جعله خامدا خاملا .
(٤) رواه ، أحمد ، وأبو داود . عن أم سلمة ، رضى الله عنهم .

تغيَّر ، وقذف بالزبد ، وظهر فيه الغول (الكحول) فإنه - حينئذ - يصبح مُسْكِرا ، ويكون حراما : شأنه - فى هذا - شأن عصير العنب ، واللبن الحامض .

والدقيق الذائب فى الماء « البوظة » وأشباهها ، إذا تغيرت وأسكرت فهى حرام . وإذا لم تتغير ، فلا حُرْمة فيها .

وتحريم الخمر قائم على الصالح العام ، لأنها تتلف الأجسام ، وتنهك الأعصاب ، وتؤثر على العقول . وتدفع إلى التصرفات السيئة كارتكاب الآثام ، وهَتْكِ الحُرُمات ، وتبديد الأموال . وضياع المروءات ، والتقصير فى أداء العبادات .

وكما حَرَّمت الآيةُ الكريمة الخمرَ ، حَرَّمَت الميسرَ ؛ لأنه يصرف صاحبه عن الأعمال المثمرة ويدفع إلى الخسائر المتوالية ويولد الأمراض العصبية والنفسية ، ويزعزع كيان الأسرة والمجتمع . بما قد يثير الضغائنَ والأحقاد ويمزق صلاتِ الأرحام . ويدعو إلى سيطرة التشاؤم على نفوس اللاعبين وعلى التعلق بالخيالات والأوهام .

ومن الميسر : ما يعرف الآن بأوراق اليانصيب .

أما الأنصاب : فتقوم على تقديس الأحجار ، فإن كانت للذبح عليها ، وتقديم القرابين إلى الأوثان ، فهى لَوْن من الشِّرك بالله : وإن كانت للعبادة فهى شِرْك صريح ؛ والله سبحانه « لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . . »[1] .

وأما القداح (وهى الأزلام) فقد سبق تفسيرها ، فى الآية الثالثة من هذه السورة .

وشبيه بهذه القداح ما يزعمه الزاعمون الآن من : قراءةِ الكف ، والفنجانِ ، وأوراقِ اللعب ، أو تحضيرِ الأرواح ، واستشارةِ الكهنة والعرافين ، وراصدى النجوم وغيرهم من مدعى الغيوب .

وخير لمن الْتبس عليه الرأى وحار فى أمره أن يؤدىَ صلاة الاستخارة ويدعوَ دعاءها وقد بسطنا ذلك فى شرح الآية الثالثة من هذه السورة .

(١) النساء ، من الآية : ٤٨

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا – أَوْ كَاهِنًا – فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّد »[1] .

هذه المنكرات كلها ، ينفر منها العقل ، وينكرها الشرع . وقد زينها الشيطان وخدع بها بعض المفتونين ، فصدهم عن السبيل ، حيث أوهمهم أن قليل الخمر مفيد للصحة ، وأن فى الميسر فائدةً للفقراء ، وأن الأنصابَ وسيلةٌ لذبح القرابين والانتفاع بلحومها ، وأن إجالَة القداح استخارةٌ ... وكل هذه مغالطات واهية : تنكرها العقول الرشيدة ، والطبائع السليمة .

(فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

فاتركوا هذا الرجس القبيح ، رجاءَ أن تكونوا فى عداد المفلحين الفائزين ، بتزكية أنفسكم ، وسلامة أبدانكم . والتوادّ فيما بينكم .

وقد جمع الله سبحانه الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام فى هذه الآية لتأكيد تحريم الخمر والميسر . ثم أفرد الخمرَ والميسر فى الآية التى تليها لأن الخطاب فيها ، مع المؤمنين الذين هجروا الأنصاب والأزلام بدافع من إيمانهم ، أى من تلقاء أنفسهم ، ولم تكن الخمر قبل هذا محرمة ، بدليل قوله تعالى : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...) الآية .

والمقصودُ نَهْىُ المؤمنين – جميعا – عن شرب الخمر ، وعن اللعب بالقمار . قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا »[2] .

وقد أكَّد الله تحريم هذه الأُمور فى الآية الأُولى ، بقصرها على الرجس الذى هو من عمل الشيطان . وحيث كانت كذلك ، فلا يرجى منها خير . وجعل اجتنابها سببا يرجى منه الفلاح .

وحَدُّ من ثبت عليه شُرْبُ الخمر بإقرار أو شهود : أربعون جَلدة ، وقيل : ثمانون . وتفصيل ذلك فى كتب الفقه .

---

(١) رواه مسلم والحاكم . (٢) رواه أبو داود والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر . الفتح الكبير : ٣ – ١٣

وبعد أن أمر الله باجتناب هذه الموبقات ، ذكر سبحانه وتعالى أن فى الخمر والميسر مَفْسَدَتَيْنِ كبيرتين : إحداهما دنيوية ، والأخرى دينية ، فقال تعالى :

٩١ـ (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ...) الآية .

أى لا يريد الشيطان ـ بتزيينه الخمر والميسر ـ إلا أن يقطع ما بينكم من صلات المودة ، ويجعل مكانها العداوة والبغضاء ، بسبب ما تثيره الخمرُ والميسر من أسباب القطيعة ، ويصرفكم عن ذكر الله الذى به صلاح دنياكم وآخرتكم ، ويصرفكم عن الصلاة التى هى عماد الدين ، وفى أدائها تزكيةٌ لنفوسكم ،وتطهير لقلوبكم ؛ لأن السكران لا يذكر الله ، ولا يميز أوقات الصلاة ، ولا يقيم أركانها ، ولأن المقامر : يشغله اللعب والاستغراق فيه ، عن ذكر الله وعن الصلاة .

ولما بيّن ـ جَلَّ اسمه ـ حكمة تحريم الخمر والميسر ، أكد ذلك التحريم ، بما يفيد الوعيد على عدم الامتثال ، فقال :

(فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) :

وهذا أمر بالانتهاء ، جاء بأسلوب الاستفهام . فكأنه قال : قد أوضحتُ لكم ما فى الخمر والميسر من أنواع المفاسد والمضار الدنيوية والدينية ، فانتهوا عن تلك المفاسد ، حتى لا يحل بكم عقابى .

وقد فهم هذا المعنى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه .

قال الطبرى فى تفسيره : لمّا علم عمر رضى الله تعالى عنه : أن هذا وعيد شديد زائد على معنى : انتهوا .. قال : « انتهينا يارب » .

ثم أمر النّبى صلى الله عليه وسلم ، مناديَهُ أن يُنَادِىَ فِى سِكَكِ المدينة : أَلَا إِنَّ الخمرَ قد حُرِّمت ... فكُسرت أوانيها ، بعد ما أُريقت حتى جرت فى سكك المدينة .

ثم زاد الله النهى عن تلك الموبقات تأكيدا ، فقال :

٩٢ـ (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا . . .) الآية .

والمعنى : وأطيعوا الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول فيما بلغه عن ربه . واحذروا المخالفة والعصيان ، حتى لا تتعرضوا للعقاب .

وبدهى : أن يدخل فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، اجتنابُ ما تقدم من المنهيات فإن الإسلام أَمَرَ بالمعروف ، ونَهَى عن المنكر .

(فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله ، فعليكم وِزر مخالفتكم .

أمّا الرسول فقد بلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة . وليس مسئولا عن مخالفتكم . قال تعالى :

« . . . فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وعَلَيْنَا الْحِسَابُ »[1] .

٩٣ – (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

سبب النزول :

روى الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : عن جابر بن عبد الله ، يقول :

اصطبح ناسٌ الخمرَ ، من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [قبل تحريمها] ، ثم قُتِلوا شهداءَ يوم أُحد . فقالت اليهود . فقد مات بعض الذين قتلوا وهي فى بطونهم فأنزل الله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا . . .) الآية[2] .

أى ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثمٌ وعقوبة ، فيما تناولوه – من طعام أو شراب – قبل تحريمه . وذلك إذا اتقوا الله وخافوه وعملوا الأعمال الصالحة ، ثم خافوا الله وآمنوا بما نُزِّل إليهم – بعد ذلك – من الأحكام والتزموه ، ثم استمروا على تقوى الله والخوف منه ، وأحْسنوا الأعمال والطاعة ، وعبدوا الله بإخلاص فى السر والعلن .

(وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) :

أى يرضى عنهم ويشملهم برحمته .

---

(١) الرعد ، من الآية : ٤٠

(٢) ابن كثير : ٢/ ٩٥

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ـ الإحسان فى جواب من سأله عنه بقوله : « الْإِحْسَانُ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِن لَّمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما جاء في الصحيحين عن عمر.

ويستفاد من الآية الكريمة : أن من مات ـ قبل تحريم الخمر أو بعد تحريمها ـ وكان ملتزما بما جاء فيها ـ كان بمنجاةٍ من عذاب الله .

كما يستفاد منها : أنه ينبغى للمؤمن ، أن يترقَّى فى معارج التقوى ، حتى يصل إلى درجة الإحسان .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾) .

المفـردات :

(لَيَبْلُوَنَّكُمْ) : الابتلاءُ ؛ الاختبار .

(بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ) : الصيد : ما صِيدَ من حيوان البحر ، ومن حيوان البر الوحشية ، ومن الطيور .

(تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) : يراد به كثرته وسهولة اصطياده .

روى عن ابن عباس : أنه ما تناله الأيدى : الصغار والفراخ من الصيد . وما يؤخذ وينال بالرماح الكبار .

(لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) : أى ليعاملكم معاملة المختبر ، الذى يريد أن يعلم الشىء علم وقوع - وإن كان سبحانه وتعالى يعلمه علم غيب - فهو علام الغيوب .

(وَأَنتُمْ حُرُمٌ) الحُرُم : جمع حرام . ويطلق على الذكر والأُنثى . يقال : رجل وامرأة حرام . أى رجل محرم وامرأة محرمة : بحج أو عمرة .

(مِنَ النَّعَمِ) النعم : الأنعام من الإبل والبقر والغنم .

(أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ) العَدل (بفتح العين) : المعادل للشىء ، والمساوى له . مما يدرك بالعقل والعِدل (بكسر العين) : المساوى للشىء مما يدرك بالحس .

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) الوبال : من الوبل والوابل . وهو : المطر الثقيل . وطعامٌ وبيلٌ أى ثقيل . ويقال للأمر الذى يُخْشَى ضَرَرُهُ : هو وبال .

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ) البحر المراد به : الماء الكثير الذى يوجد فيه السَّمَك ، كالأنهار . والبِرَك ونحوها ... وصيد البحر ما يصاد منه مما يعيش فيه عامة .

(وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ) وطعام البحر : ما قذف به إلى ساحله .

(وَلِلسَّيَّارَةِ) والسيارة : هم المسافرون ، يتزودون منه .

(الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ):أى تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة .

التفسير

٩٤ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ . . .) الآية .

بعد أن سبق النهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من الطيبات ، ثم استثنى الله الخمر والميسر . استثنى هنا مما يحل : الصيد فى حال الإحرام . وأوجب جزاء على قتله . وأوضح أن صيد البحر وطعامه حلال .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية عام الحديبية ، حين أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكانوا ألفا وأربعمائة : أحرموا بالعمرة من ذى الحليفة . وأرسل النبى عليه السلام ، عثمانَ لأهل مكة يخبرهم : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قاصدٌ زيارةَ بيتِ الله ، فجلسوا ينتظرون عثمان . فكانت وحوش البر والطيور تأتى إليهم من كل فج . فنزلت هذه الآية .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ) :

والمعنى : يَـٰٓأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ليختبرَنكم الله - وأنتم محرمون - ببعضٍ من الصيد ، يسهل عليكم تناوله ، بحيث تناله أيديكم ورماحكم .

(لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ) :

ليعلم الله - علما كاشفا - مَن يخافه ويخشاه فينفذ أوامره ويجتنب نواهيه وهو لا يرى الله سبحانه لقوة إيمانه . والمقصود بالعلم : العلم التنجيزى الواقعى - أى العلم الكاشف فإنه تعالى قد عَلِمَ أزلا ما سوف يكون عليه حال عباده فى سِرِّهِم وجهرهم .

(فَمَنِ اعْتَدَى) : فاصطاد .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ) : أى بعد الابتلاء .

(فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى شديد الإيلام . لأن من لا يملك نفسه - فى هذا الموطن ولا يرعى جانب الله ولا يخشاه - كيف يكون حاله وشأنه فيما هو أشد من هذا الابتلاء ، مما تكون النفس إليه أميل . وعليه أحرص ؟ !

٩٥ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ...) الآية .

سبب النزول :

يروى المفسرون : أن أبا اليسر ، قتل حماراً وحشيًا - عمدًا - وهو محرم ، فنزلت .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا ، لا تقتلوا الصيد ، وأنتم محرمون بِحَج أو عُمْرَة .

والمراد بالقتل : ما يعم الذبح وغيره .

والمراد بالصيد : المصيد . وخصه بعض الفقهاء بما يؤكل لحمه ؛ لأنه الغالب فيه عرفا .

والجمهور ، على أن غير المأكول يحرم قتله أيضا . ولا يستثنى من ذلك ، إلا مانصّ عليه فى قوله عليه الصلاة والسلام : «خَمْسُ فواسقَ : يُقْتَلْنَ فى الْحِلِّ وَالحَرَم : الغرابُ ، والحدأةُ ، والعقربُ ، والفأرةُ ، والكلبُ العقورُ »[1] .

وقد ألحق مالكٌ وأحمدُ بالكلب العقور : الذئبَ ، والسبعَ ، والنمرَ ، والفهد؛ لأنها أشد ضررا منها . وهكذا كل ما يكون خطرًا على حياة الإنسان .

ولما كان قتل الصيد - فى حال الإحرام - ذنبًا كبيرًا كرّر النهى عنه - فى هذه السورة - أربع مرات :

أولها : فى قوله تعالى فى أول السورة : (. . . غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ) .

وثانيها : فى قوله عز وجل : (. . . لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَىْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ...) .

وثالثها : فى قوله تعالى : (. . . لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ...) .

ورابعها : فى قوله تعالى : (. . . وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ...) .

(وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ) :

أى ومن تعمد منكم قتل الصيد ، أو كان له دخل فى قتله ، سواءٌ أقتله فى الحَرم أم فى خارجه .

وكذلك من قتله فى الحرم - وهو غير محرم - فعليه فى كل حالة مما ذكر جزاءٌ من النعم مماثلٌ لِمَا قَتَلَهُ إن وجد .

---

(١) أخرجه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها .

وقد اختلف فى المراد بالمثل :

فقيل : هو النظير أى الشبيه . فى الظبية : شاة . وفى النعامة : بعير .

روى الدارقطنى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فى الضَّبع إذَا أَصَابَهُ الْمُحْرِمُ : كَبْشٌ . وَفِى الظَّبْى : شَاةٌ . وَفِى الأَرْنَبِ : عنَاقٌ[1] . وَفِى الْيَرْبوعِ[2] : جَفْرَةٌ[3] » .

وقيل المراد بالمثل : قيمة الصيد المقتول - يُقَوَّمُ فى المكان الذى صِيدَ فيه ، أو فى أقرب الأماكن إليه ، ويراعى زمان القتل فى التقدير لأن القيمة تتفاوت باعتبار الزمان والمكان .

وقوله تعالى : (مُتَعَمِّدًا) ليس قيدًا لوجوب الجزاء والكفارة . فإن الخطأ مثل العمد فى الكفارة المذكورة . فالتعبير بقوله : (مُتَعَمِّدًا) لبيان الواقع . لأن الآية - كما سبق - نزلت فى أبى اليسر لَمَّا قتلَ - عمدًا - حِمارًا وحشيًّا وهو محرم .

وإن لم يوجد هذا المماثل من النعم ، وجبت قيمة هذا المماثل - فى محل الصيد - أو فى أقرب الأماكن إليه .

ويرجع فى المزيد فى هذا ، إلى التفصيل فى كتب الفقه .

(يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ) :

أى يحكم ويقضى بالمماثل للمقتول من صيد الحَرَم : رجلان عدلان من المؤمنين ؛ لأن المماثلة بين النعم والصيد : مما يخفى على أكثر الناس . وما لا مثل له من النَّعم ، يحكم العدلان فيه بالقيمة .

(هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ) :

هذه العبارة مرتبطة بقوله : (فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ...) إلخ .

والمعنى : إن جزاء الصيد الذى يحكم به العدلان ، يكون هدية تبلغ الحرم المكى ، أى تساق إليه وتذبح فيه وتوزع على الفقراء .

---

(١) العناق : الأنثى من ولد الماعز قبل أن تبلغ سنة .
(٢) اليربوع : دابة صغيرة تشبه الفأر .
(٣) الجفرة : الأنثى من ولد الضأن التى بلغت أربعة أشهر .

(أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا) :

المعنى : أن من قتل الصيد وهو محرم ، أو قتله فى الحرم وهو غير محرم ؛ فهو مخير بين ثلاثة أمور : الجزاءُ بالمثل - كما سبق بيانه - أو إطعام المساكين ، أو الصيام .

فأما الإطعام : فبقيمة ما قتِل من الصيد . . . وأما الصيام : فصيام أيام بعدد الأمداد - جمع مُدٌّ - التى يُقوَّمُ بها الصَّوْمُ . . . لكل مُدٌّ يوم . ويرجع فى تفصيل ذلك إلى المراجع الفقهية . فإنها أوْفى . . .

وظاهر الآية : يفيد التخيير بين الكفارات الثلاث ، كما قلنا . وعليه المذاهب الأربعة[1] .

وذهب ابن عباس ، إلى أنه لا يُنتقل من كفارةٍ إلى أُخرى ، إلا إذا عجز عن التى قبلها

(لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) :

أى أوجب الله هذا الجزاء السابق ، على قاتل الصيد ، ليذوق عقاب جنايته ، لهتكه حرمة الإحرام أو الحرمِ .

(عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ) :

أى عفا الله عما تقدم من قتلكم الصيد - قبل نزول هذا الجزاء : فلا يكلفكم بالجزاء عنه ولا يعاقبكم عليه .

(وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) :

أى ومن عاد إلى قتل الصيد - بعد نزول هذه الآية - فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك ، الكفارة .

قال ابن جريج : « قلت لعطاء : فهل فى العَوْدِ من حدٌّ تَعْلَمُه ؟ قال : لا . قال : قلت : فترى حقا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا ، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفتدى »[2]

---

(١) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة .
(٢) رواه ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير .

(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) :

أى والله منيع فى سلطانه ، لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن عصاه مانع .

٩٦ـ (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ...) الآية .

المراد بالبحر : ما يعم المياه العذبة والملحة . والمراد بصيده : ما صيد منه . فهو حلال كله . سواء أكان صيده للطعام كالسمك ، أم لغيره من وجوه النفع الأُخرى ، كاللؤلؤ والمرْجان .

(وَطَعَامُهُ) :

أى وأكل ما يصلح للأكل منه ، سواء أُخذ من البحر حيًّا أم ميتًا ، لقوله عليه الصلاة والسلام فى البحر : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ »[1] .

وإنما تحل ميتة البحر ، مالم يتسرب إليها الفساد .

(مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ) :

أى يتمتعُ بصيد البَرِّ وينتفع به المقيم والمسافر .

(وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا) :

أى وحرَّم اللهُ عليكم اصطياد حيوان البر ـ أو طيره ـ مادمتم محرمين . بخلاف ماصاده غير المحرمين ، أو ما صِدْتُموه قبل إحرامكم . فليس محرَّما عليكم أن تأكلوه ولو فى حال إحرامكم .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

أى وخافوا الله ، واحذروا مخالفته ، والتزموا طاعته ، فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما حذَّركم ونهاكم عنه ، من جميع محارمه . فهو الذى إليه ـ وحده ـ مرجعكم ومآلكم ، فيجازيكم على طاعتكم أو معصيتكم .

---

(١) أخرجه مالك والنسائى .

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

المفردات :

(قِيَامًا لِّلنَّاسِ) : ما يَقوم به أَمر الناس ، ويُصلح شأْنهم : فى دينهم ودنياهم .

(وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ) : الحرام؛ (أل) فى الشهر ، للجنس . فيعم الأَشهر الحرم الأَربعة . وهى : ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب. وقيل : « الشهر » هو شهر ذى الحجة .

(وَالْهَدْىَ) : ما يهدى إلى الحرم من الأَنعام قربة إلى الله ، للتوسعة على فقراء الحرم .

(وَالْقَلَائِدَ) : جمع قلادة ، وهى كل ما علق على أَسنمة الأَنعام وأَعناقها ، علامة على أَنها لله . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد إذا ساقوها هَدْيا .

التفسير

٩٧ ـ (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ ...) الآية .

لما تقدم ـ فى الآية السابقة ـ النهىُ عن الاصطياد فى الحرم ، ذكر هنا : أَن البيت الحرام كما جعله الله تعالى سبباً لأَمن الطير والوحوش ، جعله كذلك ملاذًا للناس وأَمنًا من المخاوف وسببا لحصول الخيرات ، وتحصيل البركات فى الدنيا والآخرة .

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ) :

أَى صيَّر الله الكعبة ـ التى هى البيت الحرام ـ قياما للناس أَى سببا لقيام وصلاح أَمر دينهم ودنياهم .. فهى مركز الإسلام الأَوّل .

فصلاح أَمر الدين : بالحج إليه وأَداء المناسك والعبادات . التى تُقَرِّبُهم إلى الله تعالى .

وصحة الصلاة باستقباله . وتقويم الشهور العربية : عن أَهلته .

وصلاح أمر الدنيا وقيامها : بأمنِ داخل الحرم بسبب حرمة التعرض له ، ويجبى إليه ثمرات كل شيء ، وذلك لأن مكة بلد لا زرع فيه ولا ضرع .

فقد جعل الله الكعبة مُعَظَّمةً فى القلوب يَفِدُ إليها الناس من كل فج عميق ، لأداء المناسك ، وصار ذلك سببا فى إسباغ النعم على أهلها ، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم الخليل ، صلوات الله وسلامه عليه . كما حكاه الله تعالى عنه فى قوله سبحانه : « رَبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »(١)

ولقد حقق الله دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فأصبحت الكعبةُ مثابةً للناس وأمْنًا لمن لاذ بها . كما صارت أمنا لأهلها على أنفسهم وأموالهم. فقد كان العرب يغير بعضهم على بعض إلا فى الحرم . فلو لَقِيَ الرجلُ قَاتِلَ أبيه أو ابنه ، لم يتعرض له بسوءٍ .

وقد أُثر عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قال : « لو ظَفِرْتُ فيه بقاتِلِ الخطاب – أبيه – ما مَسَسْتُه » .

وكذلك جعل اللهُ الشهر الحرامَ سببًا لقيام الناس لأن العرب كانوا يتقاتلون فى سائر الأشهر ، حتى إذا دخل الشهر الحرام ، كفُّوا عن القتال ، وزال الخوف والفزع ، وباشروا الأسفار والتجارات . وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم . ولهذا كانوا يكتسبون – فى الشهر الحرام – أقواتهم التى تغنيهم وتسد حاجتهم طول العام . وكذلك جعل الله تعالى الهَدْىَ قياما للدين وللدنيا لأنه يُهْدَى إلى البيت الحرام ، ويُذبَح ويُفرَّق على فقراء الحرم ومساكينه . فيكون نسكا للمُهدِى : يُثَاب عليه ، وقياما لمعيشة الفقراءِ والمساكين .

وكذلك القلائد : أى النعم المقلَّدة ؛ جعلها الله سبحانه قياما للناس . فإن لحمها طعام لمساكين الحرم ؛ يقوم به أمر دنياهم . وثوابها يرجع إلى من يقدمها . فيقوم بها أمر أُخراه . وتخصيصها بالذكر – مع شمول الهدى إياها – لبيان أن الشرع أباح تقليد المهدى ، لما فيه من إظهار شعائر الله والمبالغة فى منع التعرض لها .

---

(١) إبراهيم ، الآية : ٣٧

(ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) :

أى ذلك الذى شرعه الله – فى شأن الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد – ليعلم الناس ويتدبروا عظيمَ لُطْفِ الله ؛ الذى يعلم شئون خلقه ، ويعلم ما يحتاج إليه أهل هذا الإقليم – الذى لازرع فيه – من أسباب الرزق ، وأن علمه محيط بكل شىء . فلا تخفى عليه خافية .

وفى تكرار العلم فى (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ؛ توكيد ؛ لإحاطته تعالى بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون .

(ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾) .

التفسير

٩٨ – (اعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

بعد أن بيَّن الله – فى الآيات السابقة – بعض مناسك الحج ، عقب ذلك بالتحذير من عقابه لمن يخالف أمره ، والترغيب فى ثوابه ومغفرته لمن يتبع هداه . فقال :

(اعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى اعلموا – أيها المكلَّفون – أن الله شديد العقاب ، لمن اجترأ منكم على حُرُماته ، ولم يبال بأوامره ونواهيه ، ولم يعقب سيئاته بالندم عليها والمتاب منها . واعلموا أن الله عظيم الغفران والرحمة ، لمن تاب من ذنبه وعاد إلى ربه ، وندم على ما فرط منه .

والآية قدمت الوعيد بالعقاب على الوعد بالغفران والرحمة ، ليدرك الناس مبلغ خطورة الذنب . كيلا يُقدِموا عليه . فإن أقدموا عليه - جَهْلا - سارعوا إلى المتاب منه ؛ ندما واستغفارا ، ليكونوا أهلا لمغفرة الله ورحمته .

٩٩ - (مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

أى : ليس على الرسول إلا أن يبلغ ما أُنزِل إليهِ من ربه . وقد أدى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه كاملةً . فبشر وأنذر ، وأعلن ذلك فى حجة الوداع . وقال : « أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَن سَمِعَهُ . أَلَا هَلْ بَلَّغْت ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْت . . ؟ »(١) .

والله سبحانه وتعالى، يعلم ما تُظهرون وما تُخفُون من طاعة ومعصية ، فَيُحَاسِبُكم عليه ، ويجازيكم به ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

١٠٠ - (قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ...) الآية .

المراد من الخبيث : ما يَعُمُّ الردىءَ والحرامَ . والمراد مِن الطيب : ما يعم الجيدَ والحلال .

وقد أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم : أن يبلغ أُمَّتَه هذه القاعدة العامة ، التى لا يمارى فيها العقلاءُ . وهى أنه : لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو كان الخبيث كثيرا والطيب قليلا .

فالطيب : - من كل شىء - راجح محمود وإن قل . والخبيث : مرجوح مرذول ، وإن كثر !!

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا يعقل أن يتقبل الله الخبيث - مهما كثر - ويدع الطيب وإن كان قليلا . فإن اللهَ طَيِّبٌ ، لا يقبل إلا طيِّبًا . ولذا ، عقبه بقوله :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :

أى : اجعلوا لأنفسكم وقاية من عقاب الله ، يا أصحاب العقول السليمة ، بفعل الطيب مِن الأعمال وترك خبيثها ؛ لكى تفوزوا برضوان الله ، وتنجوا من غضبه وعقابه .

(١) صحيح البخارى فى حجة الوداع .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾) .

التفسير

١٠١ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...) الآية .

بين الله تعالى - فيما سبق - أن وظيفة الرسول هى : التبليغ وبيانُ شرع الله . وقد أدَّى الرسول ما أُوحِيَ إليه من ربه ، وبرئت ذمته .

واستطرد الحديث ، إلى الكلام على حال العباد ، وأعمالهم ، ومكاسبهم ، ومبلغ تأثرهم بالرسالة . فناسَبَ - بعد ذلك - أن يُنبِّه المؤمنين : إلى أنه لا ينبغى لهم أن يكثروا على الرسول من السؤال ، حتى لا يؤدى ذلك إلى كثرة التكاليف ، فيشقَّ عليهم ذلك فيقعوا فى الحرج ، ويعجزوا عن القيام بما يُكَلَّفون به ، ويخالفوا أوامر الله ، ويكونوا من صنف الخبيث من الناس . فيبوءُوا بغضب الله وسخطه .

سبب النزول :

روى الإمام أحمد - بسنده - عن عليّ قال : « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة ، (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) . قَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ ، أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَت ، فَقَالُوا : أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ . ثُمَّ قَالُوا : أَفِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَقَالَ : لاَ .. وَلَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ ... وَلَوْ وَجَبَتْ ، لَمَا اسْتَطَعتم » ؛ فأنزل الله تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ...) الآية .

وروى البخارى – بسنده ، عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . وقال فيها : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » قال : فغطَّى أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وُجُوهَهم – لهم حنينٌ – فقال رجل : مَنْ أبى ؟ فقال : فلان ... فنزلت هذه الآية :

(يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) :

أى : يَٰأيها الذين آمنوا ، لا تسألوا رسولَ الله عن أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف . أو من أمور الغيب ، أو الأسرار الخفية . أو غير ذلك – حتى لا يحرجكم بيانه أو يحزنكم ويسوءكم سماعه : إما بتشريعٍ ما يشق عليكم ، أو بذكرِ أسرار تفضح أهلها .

(وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ) :

أى : وإن تسألوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم . عن تلك الأشياء – فى زمان نزول الوحى ووجود الرسول بينكم – فإن الله تعالى يُظْهِرها ويُبْدِيها لكم على لسان رسوله .

وفى هذا تحذير من السؤال عن أشياء : يكون من شأن إبدائها ، حرج للسائلين .

أما السؤال لغرض التَّفَقُّهِ أو الحكم فى أمر دينى ، فلا مانع منه . كما وقع فى شأن تحريم الخمر ، بعد نزول آية البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... »[1] الآية .

فقد سأل عمرُ بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وكرَّر المسألة : « اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا » . حتى انتهى التشريع إلى تحريم الخمر تحريما قاطعا .

(عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) :

أى : عفا الله عما سلف من مساءلتكم عنها قبل التحريم . فلا تعودوا إلى مثل ذلك فيما بعد .

ومعنى قوله تعالى :

(وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) :

أى : عظيم الغفران والحلم ، فلا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم من الذنوب فهو تعالى يعفو عن كثير .

---

(١) البقرة ، من الآية : ٢١٩

ثم بيَّن لهم الآثارَ المترتبةَ على إلحافهم فى السؤال فقال :

١٠٢ ـ (قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) :

أى : قد سأل مثل هذه المسائل المنِهِىّ عنها ، قوم من قبلكم فأُجيبوا ، ثم لم يعملوا ، فأصبحوا بها كافرين .

(مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾) .

المفـردات :

(بَحِيرَةٍ) : البحيرة ؛ هى الناقة التى يبحرون أذنها . أى يشقونها إذا أنتجت خمسة أبطن ؛ خامسها أنثى .

(سَآئِبَةٍ) : السائبة ؛ هى الناقة التى تُسَيَّبُ بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شىء ، ولا يُجَزُّ وَبَرُها ، ولا يُحْلَبُ لَبَنُها إلا لضيف .

(وَصِيلَةٍ) : الوصيلة ؛ هى الشاة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرا : كان لآلهتهم ، وإذا ولدت أنثى : كانت لهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(حَامٍ) : الحامى ؛ هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون : حَمَى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

التفسير

١٠٣ ـ ﴿مَاجَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ...﴾ الآية .

بعد أن نهى الله عن تحريم ما أحلَّ من الطيبات ، وعن الاعتداء ومجاوزة الحد فيما أحل أو حرّم .

وبعد أن نهى عن كثرة السؤال مما قد يؤدى إلى مساءلتهم وتكليفهم ـ بعد كل هذا ـ ناسب أن يُبيِّنَ ضلال أهل الجاهلية ، فيما حَرَّمُوه على أنفسهم وما شرعوه ، مما لم يأذن به الله تعالى ، وفيما قلَّد فيه بعضهم بعضا ، مبينا بطلان التقليد ، وأنه يتنافى مع العقل ، والعلم ، والدين الصحيح . فقال تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ :

هذا رَدٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية . وهو أنهم كانوا إذا نُتِجت الناقةُ خمسة أبطن ـ آخرها ذكر ـ بحروا أذنها . أى شقوها . وخلَّوْا سبيلها . فلا تُركب ولا تُحلب . وكان الرجل منهم يقول : إن شُفِيتُ ، فناقتى سائبة . ويجعلها كالبَحِيرة : فى تخلية سبيلها ، وتحريم الانتفاع بها . وإذا ولدت الشاةُ أُنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم . وإن ولَدتْ ذكرا وأُنثى معا . قالوا : وصلت الأُنثى أخاها فلا يُذْبَحُ الذكر . وإذا نُتِجَت من صلب الفحل عشرة أبطن . حرموا ظهره ، ولم يمنعوه من ماءٍ ولا مرعى . وقالوا : قد حَمَى ظهره .

فمعنى قوله : ﴿مَاجَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ :

أى : ماشرع الله ذلك ولا أَذِنَ به . وإنما هو مبتدع مختلق من عندهم .

﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ :

إذ يفعلون ما يفعلون ، ويزعمون ـ زُورًا ـ أن الله تعالى يأْمرهم به .

وأول من سَنَّ لأهل الشرك تلك السُّنن الباطلة المنكرة ، ونسبها إلى الله ، هو عمرو بن لُحَىٍّ الخزاعى ، فهو الذى غَيَّر دِينَ إبراهيم وإسماعيل ، وبَحَر البحيرة وسَيَّبَ السائبة ، وحمى الحامى . وزعم أن ذلك شَرْعُ إبراهيم عليه السلام .

أخرج ابن جرير ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : « يا أكثمُ ، عُرِضتْ عَلَيَّ النارُ . فرَأيْتُ فِيهَا عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ بن قَمَعة ابن خِنْدِف يَجُرُّ قُصْبَهُ[1] فِي النارِ فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِرَجُلٍ ، مِنْكَ بِهِ وَلَا بِهِ مِنْكَ . فقال أكثمُ : أخشى أن يضرنى شبهه يارسول الله . فقال رسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم : لَا . . إنَّكَ مُؤْمِنٌ . وَهُوَ كَافِرٌ . إنه أول من غَيّرَ دينَ إسماعيل ، وبحَر البحيرةَ ، وسيّبَ السائبةَ ، وحمى الحامىَ » .

(وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) : أن ذلك افتراءٌ ؛ لأنهم قلدوا فيه آباءهم .

والمعنى : ولكن الكافرين – من الرؤساء والكهان[2] – افتَرَوُا الباطل ، وأضافوه – زورا – إلى الله . أمَّا أكثرهم – وهم عوامهم الذين يَتَّبعونهم – فهم قوم لا يعقلون أنه افتراءٌ باطل حتّى يخالفوهم ويهتدوا إلى الحق بأنفسهم . لذلك قلدوهم واستمروا على تقليدهم .

وفى هذه الجملة تنديد بقصور عقلهم ، وسوء تقليدهم ، لمن أضلوهم من الكهان .

١٠٤ – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا ...) الآية .

هذا بيان لقصورهم ، وانهماكهم فى التقليد ، دون أن يُحَكِّموا عقولَهم .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول : تعالَوْا إلى ما أنزل الله من تشريع ، وإلى الرسول ليبينه لكم ، أعرضوا ولم يستجيبوا لداعى الهُدَى والحق قائلين : كافينا ما وجدنا عليه آباءنا من الدين والتشريع . فردَّ الله تعالى عليهم بقوله :

(أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) :

أى : أيكفيهم ما وجدوا عليه الآباء ، ولو كان أولئك الآباء جاهلين : لايعلمون شيئا من شرع الله ، ولايهتدون إلى سبيل الحق والرشاد ؟

والاستفهام فى قوله : (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ) للإنكار والتوبيخ ، والتعجيب من فرط جهالتهم ، وتقليدهم الأعمى .

---

(١) القصب – بضم فسكون – المعى . وجمعه قصبان .

(٢) رجال الدين من المشركين .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾) .

التفسير

١٠٥ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ...) الآية.

بعد أن نعى الله تعالى ، على المشركين تقليدهم لآبائهم بغير علم ، واتباعهم إياهم في ضلالهم ، وأبان : أنهم لم تنفعهم المواعظ ولم يُجْدِهم التذكير بتجهيل الآباء ، بل استمرُّوا على تقليدهم وجهلهم - بعد كل هذا - أمر الله المؤمنين أن يقوِّموا أنفسهم بالإصلاح ، والعلم النافع ، والعمل الصالح . وأوضح لهم : أنهم إذا التزموا الطريق المستقيم ، لايضيرهم - بعد ذلك - ضلال الضالين ، وغواية الغاوين ... ومعنى قوله تعالى :

(يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) :

أي : التزموا إصلاح أنفسكم ، واحفظوها من المعاصي ، واعملوا خيرا يقربكم من الله تعالى ، ويحفظكم من سخطه وعقابه . فإنه لايضركم ضلال الضالين إذا كنتم على هدى .

روى الترمذي ، عن أبي أُمية الشيباني . قال : « أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : ما تصنع في هذه الآية ؟ فقال : أَيَّةُ آية ؟ قلت : قول الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) : قال : أَمَا والله ، لقد سألت عنها خبيرا .. سألتُ عنها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنَاهَوْا عَنِ المنكرِ ، حتَّى إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعا ، وَهَوًى متَّبعًا ، ودُنْيا مُؤْثَرَةً وإعجابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ برأْيه ، فَعليْكَ بِخاصَّةِ نفْسِكَ .. ودَعْ عَنْكَ العَوَامَّ ، فإِنَّ مِنْ وَرَائِكُم أَيَّامًا : الصَّابِرُ فِيهنَّ ، مِثْل القابضِ عَلى الجَمْرِ . للعامل فِيهنَّ أَجْرُ خَمْسِين رَجُلا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُم » .

وزاد فى رواية أُخرى « قيل : يارسولَ اللهِ ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَو منْهم ؟ » قال : « بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُم » .

وروى ابن كثير ، عن الإمام أحمد : أن أبا بكر رضى الله عنه قام فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم قال : « أيها الناس ، إنكم تَقْرَءُون هذه الآية : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ الناسَ إذَا رأَوُا المنكرَ ولَم يُغَيِّرُوهُ ، يُوشِكُ اللهُ – عزَّ وجل – أَن يَعُمَّهُم بِعقابِه » .

وظاهر هذه الآية ، يوهم أن الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد يسقطان عن المستقيم الصالح ، إذا رأى الضال مصرًّا على ضلاله .

ولكنَّ فَهْمَ الآية على هذا الوجه خطأٌ . فإن الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر – لايسقط وجوبهما عن القادر عليهما بحال من الأَحوال . قال تعالى : « وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... »[1] وقال تعالى : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ... »[2] وقال صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عن المنكَر ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِّن عِنْدِه ، ثُم لَتَدْعُنَّه فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » .

وقد لعن الله اليهود ؛ لأنهم : « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ... »[3] .

وقد سبق شرح هذه الآية .

(إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى : إليه وحده ، رجوعكم جميعا : من ضل ومن اهتدى . فيخبركم – عند الحساب – بما قدمتم من أعمال ، ويجزيكم على حسب ماعلمه من هدايتكم أو ضلالكم .

وفى هذا وعد للمهتدين ، ووعيد للضالين ، وأنه لايُؤَاخِذُ أحدا بذنب غيره . لهذا كله ، يجب تأويل الآية كما يلى :

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٠٤ (٢) آل عمران ، من الآية : ١١٠
(٣) المائدة ، من الآية : ٧٩

يَأيها الذين آمنوا ، عليكم إصلاح أنفسكم ، بفعل ما أُمِرتُم به من التزامِ الحق والدعوة إليه ، وتَرْكِ الباطل والنَّهْيِ عنه . لا يضركم - بعد هذا - ضلالُ من ضل ، إذا اهتديتم.

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... »[1] .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾) .

المفـردات :

(شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) : الشهادة ؛ قول صادر عن علم حصل ، بطريق البصر أو السمع ، أو بهما جميعا .

(١) فاطر ، من الآية : ١٨

(إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ) : أى سافرتم فيها .

(تَحْبِسُونَهُمَا) : أى تُمسكونهما ، وتمنعونهما من الانطلاق والهرب .

(إِنِ ارْتَبْتُمْ) : أى شككتم فى صدقهما فيما يُقِرَّان به .

(لَمِنَ الْآثِمِينَ) : أى العاصين .

(فَإِنْ عُثِرَ) : عثر من العثور على الشىء ، وهو : الاطلاع عليه من غير سبق طلب له . وأعثره عليه : وقفه عليه ، فأعلمه به ، من حيث لم يكن يتوقع ذلك .

التفسير

١٠٦ - (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ . . .) الآية .

لمّا بين الله تعالى - فى الآية السابقة - أن المرجع إليه وحده بعد الموت ، وأنه هو الذى يتولى الحساب ، وجزاء المحسن والمسيء ، أرشدنا سبحانه - فى هذه الآية - إلى أنه يلزم - فى الوصية قبل الموت - الإشهاد عليها ، حفاظا على أداء الحقوق الموصَّى بها لمستحقيها .

سبب النزول :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى ابن بداء ، فمات السهمى بأرضٍ ليس بها مسلم . فلما قدما بتركته ، فقدوا جامًا من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، بالله تعالى : ماكتمتما ولا اطلعتما . ثم وُجِد الجامُ بمكة . فقيل اشتريناه من تميم وعدى . فقام رجلان من أولياء السهمى ، فحلفا بالله ؛ لشهادتنا أحق من شهادتهما . وإن الجامَ لصاحبهم . .

وفيهم نزلت : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ . . .) الآية »[1] .

---

(١) البخارى فى التاريخ والترمذى ، وحسنه ابن جرير وابن المنذر .

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ) :

أَعْلَمَ اللهُ سبحانه المؤمنين : أن الشهادة المشروعة بينهم – حين الوصية – هى شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى : يُشْهِدهما الموصِى على وصيته ، فيتحملان هذه الشهادة ، لأدائها عند الحاجة .

(مِنكُمْ) : أى من المؤمنين ، وقيل : من أقارب الموصِى .

(أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) :

أى من غير المسلمين . فكأنه قال : أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين .

(إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ) :

أى : إن أنتم سافرتم فى الأرض ، ونزلت بكم مصيبة الموت . وأردتم الإيصاء . فأشهِدوا عَدْلَيْن من أقارب الموصى أو من المؤمنين أو آخرَين من أهل الذمة . أى فأشهدوا عدلَين منكم معشر المؤمنين . وقيل عَدْلَيْن من أقارب الموصى . وذلك إذا تَيَسَّرَ وجودهما . فإن لم يتيسر وجودهما – بسبب السفر مثلا – فيجوز اختيارُ اثنين من أهل الذمة . وقيل من غير أقارب الموصى له .

(تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ) :

تمنعونهما من الانصراف للتحليف بعد الصلاة . والمراد بالصلاة التى يُحْبَسان بعدها ، صلاة العصر ؛ لأنه وقت اجتماع الناس ؛ ولأنَّ الحُكَّام كانوا يجلسون للقضاء فى هذا الوقت بين الخصوم .

وقيل : بعد أى صلاة كانت ؛ لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن الكذب لقوله تعالى : « ... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... »(١) .

والمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه حلَّف عديا وتميما الدارىَّ بعد العصر .

وقد جرى العمل على هذا بين المسلمين .

---

(١) العنكبوت ، من الآية : ٤٥

(فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ) :

فيقسمان عند ارتياب الورثة وشكّهم ، فإذا لم تكن ريبة ، فَيُصَدَّق الشاهدان ، لأمانتهما وعدم الارتياب فيهما .

(لَا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) :

أى : لا نستبدل بالقَسَمِ بالله عَرَضا زائلا من الدنيا . فلا نحلف بالله كاذبين ، ولو كان القَسَمُ يحقق مصلحة لبعض الأقارب ، طمعا فى عَرَض الدنيا .

(وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ) : أى ويقول الحالفان - فى يمينهما - ولانكتم الشهادة التى أمر الله تعالى بإقامتها . كما قال تعالى : « ... وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ... »(١) . وكقوله سبحانه : « ... وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... »(٢) .

(إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ) :

أى : أننا إذا اشترينا بالقَسَمِ ثمنا ، أو راعينا فيه قرابة . بأن كذبنا فى الشهادة - ابتغاء المنفعة لأنفسنا أو لقرابتنا ، أو كتمنا الشهادة كلها أو بعضها - كنا من الواقعين فى الإثم ، المستحقين للعقوبة من الله عليه .

١٠٧ - (فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ ...) الآية .

فإن اطُّلِعَ - بعد القسم - على أن الشاهِدَيْنِ الحالِفَيْنِ استحقّا إثما ، بسبب الكذب أو الكتمان فى الشهادة ، أو الخيانة فى شىء من التركة : التى تحت أيديهما - فَعَدْلان آخران من أقرباء الميت : الذين وجب عليهم أداء الشهادة والقسم - وهذان الشاهدان هما : الأَوْلَيان بالشهادة والقسم . من سائر أقرباء الميت ، لقوة قرابتهما من الميت واستحقاقهما فى وصيته . فيحلفان بالله قائلَيْن : لَشهادَتُنا أَحَقُّ وأولى بالقبول من شهادة الشاهدين الآثمين السابقين . وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به ، وأقسمنا عليه .

---

(١) الطلاق ، من الآية : ٢ (٢) البقرة ، من الآية : ٢٨٣

(إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى : إنا – إذا اعتدينا عليهما ، ونسبنا إليهما الباطل ، وأقسمنا زورا وبهتانا – لنكونن حينئذ ، من الظالمين : لهما بالكذب عليهما ، ولأنفسنا بتعريضها لسخط الله وعقابه .

١٠٨ – (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ . . .) الآية .

بيان للحكمة فى مشروعية الشهادة ، وهذه الأَيْمَان .

والمعنى : أن ذلك التشريع الحكيم ، الذى شرعناه ، أقرب إلى أن يؤدىَ المؤتمن على الوصية . الشهادة على وجه الحق والعدل ، بلا تغيير ولا تبديل ، مراقبةً لجانب الله ، وخوفًا من عقابه .

فإن فى أداء الشاهدين للقَسَم – على مَلَإٍ من الناس بعد الصلاة – ما يبعث الرهبة من الله والخوف من عذابه ، والرغبة فى مثوبته وعظيم أجره .

والذى لا يرتقى إلى هذه المرتبة – من مخافة الله ومراقبته – فإنه – قطعا – يخاف الافتضاح والتشهير به ، بردّ اليمين على الورثة الأقربين ، حيث يقوم بالشهادة والحلف الأَوليان ، والأَحقَّان بوصية الموصى .

وفى ذلك من الخزى والفضيحة ، ما فيه .

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا) :

أى : واتقوا الله تعالى – وراقبوه واسمعوا ، وأطيعوا ، واحذروا أن تحلفوا كاذبين فى أيمانكم ، أو أن تخونوا فى الأمانات التى تحت أيديكم . فإن لم تتقوا – ولم تسمعوا ما أُمرتم به ، وما نهيتم عنه – كنتم الفاسقين الخارجين عن طاعة الله .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) : إلى سبيل الرشاد .

(يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ
نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى
فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ
وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾).

المفردات :

(بِرُوحِ الْقُدُسِ) : هو مَلَكُ الوَحْيِ ؛ جبريل عليه السلام .

(الْكِتَابَ) : الكتب السماوية ، أو الكتابة .

(وَالْحِكْمَةَ) : العلم الصحيح الذى يبعث الإنسان على إصابة الحق ؛ فى الرأى والقول والعمل

(وَالتَّوْرَاةَ) : الكتاب الذى أنزله الله على موسى ، أساسا لشريعته . ولا يسمى به إلا الذى كان قبل التحريف . فما يتداوله اليهود الآن ، يحرم تسميته التوراة .

(وَالْإِنجِيلَ) : الكتاب الذى أنزله الله على عيسى : أساسا لشريعته . وينطبق عليه ما انطبق على التوراة فى التسمية .

(تَخْلُقُ) : تصوِّر .

(الْأَكْمَهَ) : مَن وُلِد أعمى .

(وَالْأَبْرَصَ) : المريض ببياض الجلد . والبرص : مرض جلدى يُغَيِّرُ لون البشرة إلى البياض .

(سِحْرٌ مُّبِينٌ) : السحر : تمويه وتخييل . به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته .

التفسير

١٠٩ - (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ...) الآية .

لمَّا أَوجب الله على عباده - فى الآيات السابقة . إقامة الشهادة على وجهها : وحَذَّرهم من شِهادة الزور : وأمرهم بتقوى الله تعالى ، عقب ذلك ببيان أهوال يوم القيامة ، حتى تتمكن خشية الله وتقواه من نفوسهم ، ويعملوا بما كلفهم به .

والمعنى : واذكر - أيها المكلف - حين يجمع الله الرسل يوم القيامة . فيقول لهم : ماذا أُجبتم من أقوامكم حين دعوتموهم إلى توحيدى وطاعتى ؟ أهى إجابة قبول ؟ أَم إجابة رَدّ وإباء ؟

وبما أن الله تعالى - يعلم جواب الأُمم لرسلهم.فالمقصود بسؤال الله إياهم : وهو إظهارُ أمانة الرسل وحرصِهم على تحرِّى الصدق فيما يقولون . ليكون ذلك تنبيها على وجوب تحرى الصدق فى الشهادة : والبعد عن قول الزور : ولذا قال سبحانه حكاية عنهم :

(قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

أَى : يقولون للمولى -عَزَّ وجل- لا علم لنا بما أَجابونا به ، أَهو موافق لقلوبهم ؟ أَم مخالف لها ؟ وكل ما عرفناه ، ظاهر أَحوالهم . فمنهم من أَظهر الإيمان فعاملناه معاملة المؤمنين : ومنهم من أَظهر الكفر فعاملناه معاملة الكافرين .

أَمَّا أَمْرُ القلوب ، فهو إليك . إنك أنت علام الغيوب . وصدق الله إذ يقول :

« يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »[1] .

---

(١) غافر ، الآية : ١٩

ثم شرع الله فى حكاية ما أجاب به بنو إسرائيل نبيَّهم عيسى عليه السلام ، بعد أن أيَّده الله بالمعجزات الباهرات ، فقال :

١١٠ - ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾ الآية .

فى هذه الآية الكريمة ، يذكِّر اللهُ تعالى نبيَّه عيسى عليه السلام ، بنِعَمِه عليه وعلى والدته مريمَ عليهما السلام . حين أيده بروح القدس ؛ وهو جبريل عليه السلام .

ومعنى روح القدس : الروح المطهر من شوائب النقص .

وتأْييده لعيسى عليه السلام ؛ أنه صاحَبَهُ - من حين ولادته إلى أن رفعه الله إليه .

فأما تأْييده له - من حين ولادته - فذلك أنه أقدره على أن يكلم الناس - بحكمة وعلم - وهو فى المهد . قبل أوان الكلام . ومن ذلك قوله لقومه : «... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ ...»[1] . وذلك ردًّا على اتهامهم أُمَّهُ بسوءِ السلوك ، حين ولدته دون زوج .

وأما تأْييده له فى الكهولة : فهو إعانته على تبليغه رسالة ربه ، بنزوله بالوحى عليه ، وإظهار المعجزات على يديه .

وقد جعل الله تأْييده عيسى بروح القدس نعمة عليه ، وعلى والدته مريم - عليهما السلام - لما ترتب عليه من إثبات كرامتهما على الله وطُهْر مَنْشَئِه ، ونظافة عِرْض أُمِّه .

وكذلك سائر النعم التى أنعم الله بها على عيسى هى - فى الوقت نفسه - نِعَمٌ على أُمه مريم عليهما السلام .

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة :

واذكر - أيها المتأمل المُنصِف - وقت أن قال الله لعيسى بن مريم ؛ تذَكَّرْ نعمتى عليك ياعيسى وعلى والدتك : حين قَوَّيْتُكَ وأَعَنْتُكَ بجبريل الروح المطهر . وكان تأْييدنا لك به : أنك تكلم الناس - فى مهد الطفولة ، وفى زمان الكهولة - كلام الحكماءِ الراسخين فى العلم . الملهمين من العليم الحكيم .

(١) مريم ، من الآيتين : ٣٠ ، ٣١

(وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ) :

وتذكَّر ياعيسى . نعمتى عليك ، إذ علمتك (الْكِتَابَ) : أى جنس الكتاب . فيشمل الكتب السابقة ؛ لأنها - جميعا - متفقة فى أصول العقيدة ، وأصول الشريعة .

وعلمتك (الْحِكْمَةَ) : أى سداد الرأى ، وإصابة الحق ، وفَهْمَ أسرار العلوم .

(وَالتَّوْرَاةَ) : التى أنزلتها على موسى .

(وَالْإِنجِيلَ) : الذى أنزلته عليك لتكتمل بهما رسالتك .

وخصهما بالذكر - مع شمول الكتاب لهما - لأنهما أهم الكتب التى أنزلها الله على أنبياء بنى إسرائيل : ومنهما تؤخذ شريعتك .

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي) :

وتذكَّرْ نعمتى عليك : إذ تُصَوِّر من الطين مثل صورة الطير - بأمرى وتَيْسِيرِى - فتنفخ فى هذه الصورة فتكون طيرا حقيقيا بتيسيرى ، ليكون ذلك آية لك . ولولا معونتى لما قدرت على تحقيق هذه المعجزة الباهرة . التى أيدنا بها رسالتك ، وحققنا بها نبوتك .

وقد أفادت هذه الآية : أن عيسى - عليه السلام - لم يكن له عمل فى شأن تكوين الطير ، سوى صنع صورته من الطين بتيسير الله ، ونفخه فى هذه الصورة بإذن الله .

أما تحقيق الحياة للطير ، فكان بإذن الله وأمره التكوينى ، بعد اتخاذ عيسى - عليه السلام ، تلك الأسباب اليسيرة ، التى لا علاقة لها بالتكوين أصلا .

(وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) :

وتذكَّرْ يا عيسى ، نعمتى عليك ، حين تُبْرِئُ الأكمَهَ - وهو مَنْ وُلِد أعمى - فتمنحُه الإبصارَ بإذن الله وتيسيره .

وحين تخرج الموتى من قبورهم أحياءً - بعد أن صارت رمما - بإذن الله تعالى وتيسيره . وليس لعيسى من ذلك إلا إجراءُ الله ذلك على يديه . فالكُلُّ فعل الله أبرزه الله على يديه ؛ تأييدًا له ، ومعجزةً تَشُدّ أزرَ دعوته .

ولهذا كرر الله إذنه فى كل معجزة من هذه المعجزات . حتى لا يتسرب إلى الذهن : أن تلك الخوارق من صُنع عيسى الذاتى .

(وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَٰئِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

واذكر يا عيسى ، نعمتى عليك وعلى والدتك ، حين منعت من أراد السوء بك من بنى إسرائيل ، حين جئتهم بالمعجزات الواضحات ، سواء ما ذُكِر منها هنا أم فى موضع آخر ، كإخبارهم بما يأكلون وما يَدَّخِرون فى بيوتهم . فقال الكافرون منهم : ما هذا الذى جئت به إلا سِحْرٌ بَيِّنٌ واضح[1] .

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾) .

المفـردات :

(الْحَوَارِيِّينَ) : واحدهم حوارىّ ، وهو : مَنْ أَخلص سرًّا وجهرا فى مَوَدَّتك . وحواريُّو الأنبياء : المخلصون لهم .

التفسير

١١١ - (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى ....) الآية .

المراد بالإيحاء هنا : الإلهام . ومنه قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ... »[2] .

وهكذا ألقى الله فى قلوب الحواريين الإيمانَ به وبرسوله عيسى عليه السلام .

والمعنى على هذا : واذكر نعمتى عليك حين أَلهمْتُ المخْلِصِينَ لك : أن يؤمنوا بى ربًّا ، وبك يا عيسى رسولا . فاستجابوا ، وقالوا : آمنا بالله وبرسوله ، واشهد بأننا مخلصون .

(١) راجع ما كتبناه فى قصة عيسى ومريم عليهما السلام، فى سورة آل عمران ابتداء من الآية : ٤٥ إلى نهاية الآية : ٥١

(٢) القصص ، من الآية : ٧

(إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾
قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا
وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ
أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا
وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا
عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ
أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾) .

المفـردات :

(هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) : هل يستجيب ربك .

(مَآئِدَةً) : المائدة ؛ الخوان الذى عليه الطعام ، أو الطعام نفسه .

(تَكُونُ لَنَا عِيدًا) : العيد ؛ السُّرور ، أو موسم السرور .

(وَآيَةً مِّنكَ) : أى علامة على صدق فى دعوتى ونُبُوَّتى .

التفسير

١١٢ - (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ...) الآية .

فى هذه الآية - والثّلاث التاليات لها - قِصَّةُ المائدة التى إليها تُنْسَبُ هذه السورة . وهى من النعم التى أنعم الله عزَّ وجل بها على عبده ورسوله عيسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر أيها المتأمل ، حين قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستجيب لك ربُّك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

(قَالَ اتَّقُوا اللهَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

قال عيسى : خافوا الله ، فلا تقترحوا عليه الآيات ، تَأَدُّبًا معه تعالى ، إن كنتم مؤمنين بما جئتكم به .

١١٣ ـ (قَالُوا نُرِيدُ أن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

أى : نطلب المائدة لأربعة أسباب ؛ أن نأكل منها . وأن تطمئن قلوبُنا بأننا على الحق ، بانضمام المشاهدة ، واللمس ، والذوق ، والشم ، إلى علم السمع . وأن نعلم – علم اليقين – أنك قد صدقتنا فيما جئتنا به بعد أن علمناه بالبرهان . وأن نكون على هذه المعجزة من الشاهدين عند الذين لم يَرَوْها من قومنا ، لِيؤْمِنَ كافِرُهم ، ويزدادَ الذين آمنوا إيمانا .

١١٤ ـ (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا ...) الآية .

قال عيسى بن مريم – بعد أن علم من الحواريين أن سؤالهم كان لزيادة العلم واليقين – يا ألله ، ياربنا ، ومالكَ أمرنا ، ومتولى تربيتنا :

(أنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ) : لأول هذه الأُمة وآخرها ، واجعلْها آية منك وعلامة من لدنك : ترشد القوم إلى صحة نُبُوَّتِى .

(وَارْزُقْنَا) : منها ومن غيرها .

(وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : ترزق من تشاءُ بغير حساب .

١١٥ ـ (قَالَ اللهُ إنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ...) الآية .

هذا وَعْدٌ من الله تعالى – بإنزال المائدة . أجاب به سؤال عيسى . وهو يقتضى : أنه قد أنزلها ، فإن وعده الحق . وقد رتب الله – عز وجل – على هذا الوعد شرطا ، فقال سبحانه :

(فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ) :

أى : أن منْ يكْفر منكم – بعد نزول هذه الآية التى اقترحتموها – فإنى أُعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . حيث لا عذر لمن يرى الآيات تترى من رسوله ، ثم يطلب بعد ذلك آية على النحو الذى اقترحه ، فيجاب لها ، ثم بعد ذلك يكفر !!

أما صفة المائدة ، وأنواع طعامها ، فلم يجئ فيها دليل يُعَوَّل عليه !

ولهذا ينبغى ألا ينساق القارئ إلى مايُرْوَى فى ذلك من روايات . ويفوض الحقيقة لله .

وما أحسن قول بعض العلماء : العلمُ بذلك لا ينفع . والجهل به لا يضر !!

(وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ
إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ
مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى
بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ
فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾) .

المفـردات :

(سُبْحَانَكَ) : أى تنزيها لك عما لا يليق بك .

(وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) : أى رقيبا ، أو شاهِدًا لأحوالهم من كُفْر وإيمان .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى) : التوفى ؛ أَخْذُ الشَّىْء وافيا كاملا ، ومنه الموت ؛ لأن الميت استوفى أجَلَه .

(الرَّقِيبَ) : المطَّلِعَ على أحوالهم .

التفسير

١١٦ - (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ...) الآية .

أفادت هذه الآية : أن الله - سبحانه - يبكت أتباع عيسى على اتخاذه وأمه إلَهَيْن من دون الله . وأن عيسى - عليه السلام - تبرأ من دعواهم هذه . وأشهد اللهَ على براءته .

ويرى بعضُ العلماء : أن ماجاء فى الآية حَدَثَ فى الدنيا .

ويرى آخرون : أنه سَيحْدُثُ فى الآخرة .

والتعبير بلفظ (قال) ؛ لتحققه .

وإليه ذهب قتادة .

والمعنى على هذا : واذكر يامحمد للناس ، وقت قول الله - عزَّ وجل - فى الآخرة ؛ توبيخا للكفرة ، وتبكيتا لهم : أأنت ياعيسى ، قلت للناس : اتخذونى وأُمِّيَ إلَـهَيْن من دون الله ، مع أنك أرسلت إليهم بدعوة التوحيد ؟

وقد نعى الله على الذين اتخذوا المسيح إلَها ، فى مواضع عدة من هذه السورة .

وعبادة أمه كانت معروفة فى الكنائس الشرقية والغربية ، وسُمِّيَ الذين عبدوها : « المَرْيَمِيُّونَ » . . . وهذه العبادة منها :

ماهو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود .

ومنها ماهو استغاثة ، واستشفاع .

ومنها ماهو صيام ينسب إليها ، ويسمى صيام العذراء .

وكل ذلك يقترن بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها ، وأنها تنفع وتضر : فى الدنيا والآخرة ، إما بنفسها أو بواسطة ابنها . ويسمونها : « والدة الإلَه » .

ولا تزال هذه الصور موجودةً لدى طوائف المسيحيين على اختلاف مذاهبهم .

(قَالَ سُبْحَانَكَ) :

أى : تنزيهًا لك يا ألله ، عن أن يكون معك إلَه آخر .

وبذا ، نزَّه عيسى ربَّه – على رءوس الأشهاد – عن المشاركة فى الذات والصفات ، مع الخضوع لعزته والخوف من سطوته .

(مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) :

أى : ليس من شأنى – ولا ينبغى لى – أن أَدَّعِيَ لنفسى ما ليس من حقها ، فأنا مَرْبُوبٌ ولست برب ، وعابد ولست بمعبود . وذلك القول – بافتراض صدوره منى ، فقد علمته . إذ عِلْمُكَ واسِعٌ محيط بكل شىء : تعلم سِرِّى وما انطوى عليه ضميرى . ولا أعلم شيئا مما استأْثرتَ به من غيبك وعلمك ، إلا بِقَدْرِ ما تُظْهِرُه لى بالوحى . فالشك المفهوم من قوله : (إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) افتراضى لا حقيقى ، ليقين عيسى عليه السلام بأنه لم يَقُلْه .

(إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) :

إنك أنت المحيط بجميع الغيوب ، لا يخفى عليك شىء منها ، فى الأرض ولا فى السماء .

ومن كان كذلك ، فلا تخفى عليه براءتى مما نسبه إِلَىَّ مَنْ أَلَّهُونِى وأُمى .

١١٧ – (مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...) الآية .

هذا تأْييد لعدم شكه ، وأَن الشك ادعائى أو افتراضى ، إمعانا فى العبودية ، وإعظاما للربوبية .

أى : ما قلتُ لهم إلا ما أَمرتَنى بإبلاغه إليهم . وهو الأَمر بعبادة الله ربى وربهم ؛ لأَن الله خصَّنى بالرسالة إليهم . وما كان لرسول أن يُغَيِّرَ فى تبليغ الرسالة .

(وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ) :

أى : وكنت عليهم مراقبا لأَحوالهم ؛ مرشدا لهم مدة بقائى بينهم .

(فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي) :

أى : فلما رَفَعْتَنِى إليك ؛ مستوفيا ما قدرته لى ؛ إنجاءً لى من كيد بنى إسرائيل وتدبيرهم لقتلى .

وقد جاء التَّوَفِّى بهذا المعنى ، فى قوله تعالى : « . . . يَاعِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... »[1] .

ولا ينبغى أن يحمل على الإماتة ؛ لأن إماتة عيسَى – فى الوقت الذى كان فيه بنو إسرائيل يتربصون له ، ويتحينون الفرصة للفَتْك به – ليس فيها تكريم له .

(كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) :

كنت أَنت المطلعَ عليهم دونى ، والعليمَ بأَحوالهم ؛ لأَنى شَهِدتُ من أَفعالهم ما عملوه مدة وجودى معهم .

(وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

أى : أَنت وحدك المحيط علما بكل شىء . فلا تخفى عليك أَحوالهم ولا أَحوال غيرهم .

١١٨ – (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أَى : إن تعذبْ من أَرسلتنى إليهم وقمتُ بتبليغهم ما أَمرتنى به من توحيدك وعبادتك ، فآمن منهم مَنْ آمَن ، وكفر منهم مَنْ كَفر – فإنما تعذب بالعدل من يستحق التعذيب ، لكفرهم بعد وجوب الحجة عليهم ، وإن تغفرْ لمن آمن – وكان أهلا لفضلك – فذلك تَفَضُّلٌ منك وأَنت العزيز الغالب لا يمتنع عليك ما تريد . الحكيم فى تَصرفك وصُنْعِك : تضع كل جزاء فى موضعه .

(قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾) .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٥٥

التفسير

١١٩ - (قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ...) الآية .

هذه إجابة من الله تعالى ؛ يوم القيامة ، أجاب بها عيسى عليه السلام ؛ بعد ما تبرأ من ادعاء قومه ألوهيته ، وألوهية أمه ، وردّ الأمر فيه إلى الله تعالى .

والمعنى: (قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) فى توحيد الله وعبادته فى الدنيا ، حتى لقوا ربّهم .

(لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى : لهؤلاء الصادقين فى توحيده ، جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا جزيلا من عند الله ؛ حيث رَضِيَ عنهم رضًا ما بعده رضا ، وذلك هو الفوز العظيم ، الذى لا مطلب لهم بعده .

وبعد أن بين عز وجل ، ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الأوفى ، بين عقبه - فى ختام السورة - سعة مُلْكِهِ وتفرده به ، وشمول قدرته فقال :

١٢٠ - (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أى: إن الملك كله ، والقدرة الكاملة - فى السموات والأرض - لله وحده . فلا مُلْك ولا تصرف لعيسى وأمّه ولا لغيرهما فيهما . فهما داخلان - ضمنا - تحت قبضته كسائر خلقه .

وغاية ما أعطاهما : الكرامة لديه ، والمنزلة الرفيعة بين عباده .

سورة الأنعام

وآياتها : ١٦٥ نزلت بعد الحِجْر

هذه السورة مكية إلا بعض آيات فمدنية ، وآياتها خمس وستون ومائة ، نزلت بعد سورة الْحِجْر . وقد نزلت دفعة واحدة .

فعن ابن عباس أنها نزلت ليلًا جملة .

وهى تناسب سورة المائدة فى أغراضها المختلفة .

ومن ذلك محاجة أهل الكفر .

ففى سورة المائدة دار الحجاج مع أهل الكتاب . وفى سورة الأنعام دار الحجاج مع من فى مكة من المشركين والمبتدعين والمكذبين بالبعث والنشور .

ومن ذلك أنهما - كلتيهما - تضمنتا أحكام الأطعمة ، إلى غير ذلك من المناسبات وتنفرد - بكثرة ذِكْرِ الشِّرْك والمشرك والمشركين - فقد ورد ذلك فيها فى عشرين موضعا .

ومن مقاصدها :

١ - تقرير وحدانية الله تعالى - وما يجب له من صفات الكمال ، وهدم عقيدة الشرك ، وتقويض أركانه . بالحجة والبرهان .

فقد قال العلماء فى هذه السورة : إنها أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذَّب بالبعث والنشور .

وعليها بَنَى المتكلمون أصولَ الدِّين .

وقد بين الله تعالى - فى صدرها أنه يستحق الحَمْدَ وحْدَه ، فإنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وذكر أن الكافرين يعدلون به آلهتهم ، حيث جعلوها شركاء له فى الألوهية ، مع أنهم يُقِرُّون بأنه هو الخالق لهذا الكون دون آلهتهم . كما قال تعالى :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... »[1] .

(١) العنكبوت ، من الآية : ٦١

ثم يتبع ذلك بالآيات البينات ، الدالة على وحدانيته تعالى ، حتى يصل إلى محاجة إبراهيم لقومه فى شأن عبادة الأصنام والكواكب .

وقد جاءت تلك المحاجة فى أسلوب التنزل مع المشركين والتظاهر بأنه - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - يسايرهم فى عقائدهم ، ليثبت لهم - فى النهاية - فساد عبادتهم لها ، ويقول لهم : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [٨١] الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ [٨٢]) .

ثم يستمر السياق من آن لآخر ، يُذَكِّرُ الناسَ بعظمة الله وتَفَرُّدِهِ بالألوهية ، حتى تنتهى قبيل نهاية السورة بقوله : (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ... [١٦٤]) .

٢ - التنبيه إلى خطإ الكافرين فى تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم - وبيان أنهم وصلوا من العناد ، إلى أنهم لو نَزل عليهم كتابٌ من السماء ولَمسوه بأيديهم ، وتَحققوا من نزوله من السماء ، وكان هذا الكتاب يدعوهم إلى الإيمان بالرسول - لزعموا أنه سحر مبين ، وجاء فيها بعد ذلك بيان فساد رأيهم فى طلب أن يكون الرسول مَلَكًا ، إذ أنه لو نزل بصورته الحقيقية لهلكوا ؛ لأنهم لايحتملون لقاءه . ولو نزل بصورة بشر لالتبس الأمر عليهم .

٣ - تسلية الرسول بما أصاب الرسل قبله من سخرية أقوامهم بهم وتكذيبهم إياهم ، وتهديد مكذبى الرسول بمثل عاقبة المكذبين قبلهم .

ثم يمضى الحجاج بين الرسول وبين قومه ، فى أنحاء السورة ، ويبين تارة أن على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا . وتارة أخرى أنهم إن يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها ، ويقولوا سحر مبين .

ثم تمضى السورة فى هذا الحوار العجيب ، بين الحق الواضح والباطل الفاضح ، حتى تدمغهم وتدحض حججهم .

٤ ـ فقدان الكفار ميزات الإنسانية ، فهم مَوْتَى ، والموتى لا يستجيبون إلى الحق ، وهم صم وبكم فى الظلمات ؛ وتهددهم بالإبادة إن استمروا على كفرهم : (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ [٤٧]) .

٥ ـ بيان الرحمة الإلٰهية بالإنسان وأن الكفار (... مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ... [٩١]) .

وتذكر أن الله أمر الرسول أن يقول ـ ردًّا على هذا الافتراء ـ (... مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ... [٩١]) .

وتذكر لهم : أن القرآن كتاب ـ أنزله الله ـ مبارك ومصدق لما تقدمه من الكتب السماوية وأن الرسول مكلف أن ينذر به أُمَّ القرى ومَنْ حولها ، وأن الذين يؤْمنون بالآخرة ـ أينما كانوا على ظهر البسيطة ـ يؤْمنون به ، وأنه لا يوجد أَظلم ممن يفترى الكذبَ على الله ، ويدعى أنه أُوحى إليه شىء . وأن مَن كذب على الله سيُجزَى يوم القيامة عذاب الهون .

٦ ـ العودة إلى دعوتهم إلى الإيمان بكتاب الله بصورة محببة ؛ وذلك بقوله تعالى فى أواخر السورة : (وَهٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [١٥٥]) .

٧ ـ إبراز حقيقة البعث ، وإقامة الأَدلة عليها ، والكلام على الجزاء فيها ، ووعْدُ المؤْمنين بمزيد الثواب ، ووعيد الكافرين بشديد العقاب .

وقد بدأ الحديث عن يوم القيامة بقوله تعالى فى أول السورة : (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ [٢]) ثم قال عزَّ وجل : (... لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... [١٢]) ثم قال سبحانه : (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَافَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَايَزِرُونَ [٣١]) ثم قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [٤٠]) .

وهكذا مضت السورة تهتم بشأن الحديث عن البعث ، ومصير الناس إلى ربهم ، لكى يتبصروا فى عواقب ما هم عليه ، ويعملوا للخلاص من العذاب ، ونَيْلِ جميل الثواب .

وآخر ماجاء عنه فى هذه السورة ، قوله تعالى : (...ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [١٦٤]) .

٨ - رسم معالم الدين الحق ، ومناهج السلوك الفاضل . وأعظمها : الإيمان بالله ، وتصديق الرسل ، والإصلاح فى جميع الأعمال : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [٤٨]) .

ومن تلك المناهج : أن نُعْرِضَ عمَّن يخوضون فى آيات الله ، حتى يخوضوا فى حديث غيره . فإن نسينا فلا نقعد بعد التذكرة مع القوم الظالمين (١) .

ومنها : دوام تذكير الذين اتخذوا دينهم لَعِبًا ولَهْوًا ، حتى لا تهلك نفس بما كسبت (٢) .

ومن مناهج السلوك الفاضل أيضا : إقامة الصلاة ، وتقوى الله (٣) .

ومنها : أَلَّا نَسُبَّ الذين يدعون من دون الله فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بغير علم (٤) .

ومنها : تأثيم الذين يقتلون أولادهم سَفَهًا ، والذين يُحَرِّمون ما فى بطون الأنعام على الإناث ، ويُحِلُّونها للذكور : (... وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ... [١٣٩]) وغير ذلك مما استحدثه المشركون فى المطاعم ، وحَرَّموا مارزقهم الله افتراءً على الله (٥) .

وقد تبعها ببيان أن الرسول لايجد شيئا حرَّمه الله من المطاعم ، إلا أن يكون ميتةً ، أو دما مسفوحا ، أو لَحْمَ خِنزير ، أو ذبيحةً مذكورا عليها اسم غير الله ، وأن المضطر : يغفر الله له (٦) .

---

(١) انظر الآية : ٦٨ من سورة الأنعام .
(٢) انظرالآية : ٦٩ من سورة الأنعام .
(٣) انظر الآية : ٧٢ » » .
(٤) انظرالآية: ١٠٨ » » .
(٥) انظر الآيات من : ١٣٨ - ١٤٤ من سورة الأنعام .
(٦) انظرالآية : ١٤٥ » » .

٩ - بيان ما أنعم الله علينا من إنشاء جَنَّاتٍ معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أُكُله ، والزيتون والرُّمان ، متشابها وغير متشابه .

١٠ - وجوب زكاة الزرع ، فأوجب عليهم أن يُؤْتُوا حَقَّهُ يوم حصاده .

١١ - الوصايا العشر التى تعتبر جماعا لشتى الفضائل ، من : توحيدِ الله ، والبِرِّ بالوالدين ، والابتعادِ عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وعدم قتل النفس إلا بالحق ، والامتناعِ عن تناول مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يَبْلُغَ أَشُدَّه ، وإيفاءِ الكيل والميزان بالقسط ، والعدلِ فى القولِ ولو كان ضد الأقارب ؛ والوفاء بالعهد ؛ واتباع سبيل الله دون غيرها[1] .

١٢ - وجوب وَحْدة الدين ، وعدم التَّفَرُّقِ فيه : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ... [١٥٩]) .

١٣ - بيان أن جزاء الناس على حسب أعمالهم ، ودرجة انبعاثها عن ضمائرهم ونفوسهم . كما قال تعالى : (... سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [١٣٩]) وأنه لا تحمل نفس وزر نفس أخرى ، (... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [١٦٤]) .

وأن الجزاء على الأعمال يتناول ظاهرها وباطنها . كما جاء فى قوله تعالى : (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... [١٢٠]) .

١٤ - كما اشتملت - فى مقاصدها - على الحث على السياحة ، والسير فى الأرض ؛ للنظر والاعتبار قال تعالى :

(قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [١١]) .

١٥ - الحث على البحث فى علوم الكائنات ؛ لمعرفة سنن الله الكونية الدالة على علمه وحكمته ، ووافر قدرته ورحمته ، ومن ذلك قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ...) إلى قوله تعالى : (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[2] .

---

(١) انظر الآيات من : ١٥١ - ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات : ٩٥ - ٩٩ من سورة الأنعام .

١٦ ـ بيان أن عالَم الحيوان عالَم عظيم ، يشبه ـ فى أموره الكثيرة ـ عالَمَ الإنسان ؛ (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ . . . [٣٨]) . وتعتبر هذه الآية الكريمة أساسا فى علم الحيوان .

١٧ ـ كما اشتملت على أنه تعالى ، كتب على نفسِهِ الرحمة لمن تاب ؛ قال تعالى : (. . . كَتَبَ ربُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٥٤]) .

إلى غير ذلك من عظائم الأُمور ، التى احتوتها هذه السورة الجليلة ، التى تعتبر أعظم دستور للحياة الصحيحة ، والسلوك النظيف ، والعقيدة المستقيمة . وكان نزولها بمكة ، فى صدر الإسلام ، حكمة من صنع الحكيم الخبير .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾) .

المفـردات :

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) : أى يُسوُّون به غيرَه ، تعالى الله عن ذلك .

(ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا) : أى قَدَّر حدًّا معينا من الزمان .

(وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ) :أى وأجلٌ آخرُ معينٌ عنده سبحانه وتعالى ؛ لا يعلم وقتَ حلوله سواه ، وهو وقت البعث والجزاء .

(ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) : أى ثم أنتم تَشُكُّون فى البعث ، وتجادلون فيه .

التفسير

١ ـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ...) الآية .

الثناء بالجميل : مستحَق لله الذى أبدع السمٰوات ، بما اشتملت عليه من مجرات عظيمة ، ونجوم مُتَّقِدة ، وكواكب منيرة ، وكائنات وعجائب لا يعلمها سواه . وأبدع الأرض وما فيها من يابس وماء ، وهضاب ووهاد ، وإنسان وحيوان وزروع نضرة ، وثمار نافعة ، وغيرذلك من الروائع .

(وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ) : لتكون للناس سكنا .

(وَالنُّورَ) :أى وجعل النور ، ليكون مجال نشاطهم ، وسرّ الحياة لزروعهم وحيواناتهم.

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) :

هذا تعجب من النتيجة أى ـ مع هذا الإبداع ـ الذين كفروا ، يسوون ربهم ـ الذى أبدع هذه الكائنات ـ بما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا !

٢ ـ (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ...) الآية .

أفادت هذه الآية : أن الله تعالى ، خلق الناس من طين . وهى تشير إلى المادة التى خلق الله منها آدم ؛ أصل البشرية .

وإذا كان أصل الإنسان من طين ، فكل أولاده - إلى يوم القيامة - يعتبرون مخلوقين من طين أيضا ، باعتبار أصلهم .

ويجوز أن يراد من الآية : ما هو مشاهد ، من أن الطين مادة هامة فى حياتنا .

فمن الأغذية التى تكونت من الطين ، تحيا الكائنات .

ولتلك الأغذية دخل كبير فى تكوين النطف والبويضات ، التى هى أساس الأجيال الإنسانية والحيوانية .

على أننا لو حللنا مادة الأجسام البشرية إلى عناصرها الأولية ؛ لوجدناها من العناصر التى يتكون منها الطين . مثل الكربون والكلسيوم والحديد ... إلخ .

(ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ) :

أى ثم قدر حدًّا معينا من الزمان - بَدْءًا ونهاية - لكم فى هذه الدنيا ، وقضى حدًّا من الزمان ، تبعثون فيه : سماه الله عنده وعيَّنه لديه . لا يعلمه سواه .

(ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) :

يطلق الامتراء على الشك ، والجدل ، والإنكار ، مع وضوح الأدلة ... وكُلٌّ من هذه المعانى ، يجوز أن يراد هنا : أى ثم أنتم أيها المشركون - مع وضوح هذه الدلائل - تَشُكُّون فى الحق ، وتجادلون فيه ، وتصلون فى جدالكم إلى حد الإنكار و(ثُمَّ) الأُولى : للترتيب الزمنى . أما الثانية : فلبيان تراخيهم فى الاستجابة للحق وامترائهم فيه .

٣ - (وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ...) الآية .

أى : وهو الإله المدبر المعبود ، فى السموات وفى الأرض .

(يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) :

يعلم ما انطوت عليه قلوبكم ، وما تفعلون بجوارحكم علانية .

(وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) :

من الخير والشر ، فيحصى ذلك عليكم ، ليجازيكم به عند معادكم .

وفى هذا استدعاءٌ للإنسان الشارد عن الله ، الغافل عن ذكره ، المستخف بشرائعه : أن يعود إلى الله ، وأن يخشاه ، ويتقِيَ محارمه ؛ لأن الله يطلع على كل ما ظهر وما بطن .

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ۖ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾) .

المفـردات :

(مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ) : المراد بالآيات ؛ القرآن ، أو ما يعمه ، من الآيات الكونية .

(مُعْرِضِينَ) : الإعراض ؛ الانصراف عن الشيء .

(مِن قَرْنٍ) : القرن ؛ مدة من الزمان يعيش فيها أهل عصر[1] . وقد يطلق على أهله ، وهو المراد هنا .

---

(١) اختلف فى تحديد مدة القرن ، وأشهر الأقوال : أنه مائة سنة .

(مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ) : جعلناهم مُتَمكِّنِينَ من التصرف فيها .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ) : أى المطر ، وعَبَّر عنه بالسماء ؛ لأنه ينزل منها . فإن السحاب سماء .

(مِدْرَارًا) : متتابعا .

التفسير

٤ - (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

وما تأْتيهم من حجة من حجج ربهم : دالة على وحدانية الله تعالى وصدق رسوله - سواءٌ أكانت قرآنية أم كونية - إلا قابلوها بالإعراض عنها ، وعدم التدبر فيها .

٥ - (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ...) الآية .

أى فقد زادوا - على إعراضهم - تكذيبهم بالحق حين جاءهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، من غير تَرَيُّث ولا تفكر .

(فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

الأَنباءُ : الأَخبار . والمراد بها هنا ؛ ما أنبأَهم الله به من العقوبة على تكذيبهم .

والمعنى : فسوف تأْتيهم العقوبات التى تَوعَّدَهم الله بها ، جزاء تكذيبهم بالحق ، وإصرارهم على هذا التكذيب .

٦ - (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ...) الآية .

أى : أَلَم يعلم هؤلاء المكذبون - بمعاينة الآثار ، وسماع الأَخبار - كم أَهلكنا قبلهم من أَهل قرن : مكناهم فى الأَرض ما لم نمكن لكم ، حيث مَنَحْناهم الغِنَى والسعة والاقتدار على التعمير . فعمروا الأَرض ، وبَنَوْا الحصون والقصور .

(وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ) :

أى وأرسلنا عليهم السحاب يدر عليهم المطر الغزير ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم ، وبين مزارعهم . فيستمتعون بحسن مرآها ، وجمال جريانها ، ولا يجدون صعوبة فى الانتفاع بها .

(فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

أى فكان عاقبة أمرهم : أن أهلكنا أهل كل قرن منهم ، بسبب ذنوبهم التى كانوا يَجْتَرِحُونَها ، وأوجدنا – من بعدهم – ناسا آخرين يعمرون البلاد .

وفى هذه الآية وعيد لأهل مكة ، بمثل ما عوقبت به الأمم السابقة ، من الإهلاك بكفرهم وذنوبهم ؛ كما أُهلِك هؤلاء السابقون ، ولم تغن عنهم قُوَّتُهُم وتمكينهم شيئا .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾) .

المفـردات :

(فِى قِرْطَاسٍ) : القرطاس ؛ – بتثليث القاف ، والكسر أشهر – ما يكتب فيه .

(فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) : اللمس ؛ كالمس ؛ إدراك الشىء بظاهر البشرة . وقد يستعمل بمعنى طلب الشىء والبحث عنه . والمراد هنا : الأول .

(إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ) : أى خداع وتمويه .

(لَقُضِىَ الْأَمْرُ) : أى لَتَمَّ أمرُ إهلاكهم .

(ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) : أى لا يمهلون طرفة عين .

(وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم) : من اللَّبْسِ وهو : الخَلْط . تقول : لَبَس الحق بالباطل يلبسُه به . أى خلطه به ، حتى اشتبه على الناس .

التفسير

٧ - (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...) الآية .

لقد بلغ الحزن والأسف ، من الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل مبلغ ، لِتمسُّكِ قومه بالكفر به ، مع وضوح برهانه ، وقيام حجته .

فبين الله فى هذه الآيةِ : أنه لا سبب لكفرهم ، إلا مجرد العناد والمكابرة .

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ) أى يامحمد (كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ) أى كتابا مكتوبا فى صحائفه فلمسوه بأَيديهم ، وتيقنوا من معرفته وأنه منزل من الله عليك .

(لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى لقال الذين كفروا : ما هذا الكتاب الذى نزل ، إلا سحرٌ بيِّنٌ واضح التمويه . وإنما قالوا ذلك ؛ إمعانا فى الجحود والعناد .

٨ - (وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ...) الآية .

روى ابن المنذر ، وابن أَبي حاتم ، عن محمد بن إسحق ، فى سبب نزول هذه الآية فقال : « دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قومَه إلى الإسلام ، وكلَّمهم فأَبلغ . فقال . زمعة بن الأَسود بن المطلب ، والنضر بن الحرث بن كَلدة ، وعبدة بن عبد يغوث ، وأُبَىُّ بن خلف ، والعاصى بن وائل بن هشام : لو جُعِلَ معك يامحمد ، مَلَكٌ يحدّث عنك الناس ، ويُرى معك ؟ » . فأَنزل الله فى ذلك قوله :

(وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) :

والمعنى : هلَّا أُنزل على محمد ملكٌ نشاهده معه ؛ ويخبرنا أنه رسولٌ من عند الله ، فيكونَ معه نذيرا ؟

وقد أجاب الله على مقالتهم بجوابين : الأول قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) :

أى لو أنزلنا عليه ملكا ، فى صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم ، لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون ، من غير تأخير أو انتظار . أو لأن الله أجرى سنته بأن مَن طلب آية وأجيب لها فلم يؤمن ، عَذَّبه الله فى الحال - عذاب استئصال .

ومن أجل هذا ، لم يستجب الله لِمُقْتَرَحِ أهل مكة ، حتى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إذا كذبوا ، تكريما لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وتحقيقا لوعده « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »(١) .

والجواب الثانى قوله تعالى :

٩ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) :

أى لو جعلنا النذير الذى اقترحوا إنزاله معه مَلَكا ، لمثلناه رجلا ؛ لِيَقْوَوْا على مشاهدته وسماع كلامه ، لعدم استطاعتهم رؤية الْمَلَكِ على صورته الأصلية .

ومن أجل هذا ، كانت الملائكةُ تأتى الأنبياء فى صورة الإنس أحيانا . كما جاء جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى صورة دِحْية الكلبى . وكما أتت الملائكة إلى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - فى صورة رجال .

ولو جعلناه فى صورة بشر ليأنسوا به ، لاعتقدوا أنه بشرٌ ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاتهِ التى تمثَّل بها . وحينئذ ، يقعون فى نفس اللَّبْسِ والاشتباه الذى وقعوا فيه ؛ بسبب كَوْن الرسول بشرًا يقترحون جَعْلَه ملَكًا .

وإذا كان إرسال الْمَلَكِ سيؤدى إلى هذه النتيجة - أو تلك - فليس من الحكمة جعل الرسول مَلَكا . بل الحكمة : أن يكون بشرا من بينهم ، مؤيَّدا من الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به .

---

(١) الأنفال ، الآية : ٣٣

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾) .

المفـردات :

(فَحَاقَ) : حاق به الأمر ؛ أحاط به . ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر .

التفسير

١٠ ـ (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

لما كان اقتراحُ المشركين إنزالَ المَلَك على الرسول من باب الاستهزاء ، أنزل الله تعالى هذه الآية ، لتسليته صلى الله عليه وسلم بأَنَّ ما حَدَثَ له ، قد حدث مثله لإخوانه المرسلين من قبله ، ولتهديد المشركين بأَنهم سيصيبهم ما أَصاب مَنْ قبلهُم إن استمرُّوا على كفرهم .

أَخبر الله رسوله خبرا مؤكدا بصيغة القسم : أَن الكفار قد استهزءوا برسل كرام قبلك ، كما جاءَ فى قوله تعالى : «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» [1] فليس بدعًا ماتراه من صناديد الكفر من قريش . وقد استهزءوا بك وسخروا منك . فما ذلك منهم إلا جَرْيا على آثار أَعداءِ حَمَلَةِ الهدى من عباد اللهِ قبلهم ، وقد حاق بأُولئك الساخرين من العذاب ما يستحقونه ، جزاءَ أَفعالهم الشنيعة ، وسوءِ صنيعهم مع مَن اصطفاهم ربهم من خلقه .

(١) الحجر ، الآية : ١١

وفى الآية :

١ ـ تعليم للنبى صلى الله عليه وسلم ، سُنَنَ الله فى الأُمم مع رسلهم .

٢ ـ تسلية وعزاءٌ له مما يلقى من المشركين من عناد ، وما يساق إليه منهم من ضُرٍّ وأذى ، وتثبيت لقلبه ، وإعانةٌ له على المضى فى تبليغ رسالته .

٣ ـ بشارة له بحسن العاقبة ، وماسيكون له من نصرٍ وتأْييد ، وقد كان جزاءُ المستهزئين ـ بمن قبله من الرسل ـ عذابَ الخزى باستئصال . ولكن الله كفاه المستهزئين به ، فأَهلكهم ولم يجعلهم سببا لهلاك قومهم : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »[1] .

ولما كان ما يحل بالمستهزئين بالرسل من الهلاك ـ بحسب سنة الله المطردة فيهم ، مما يرتاب فيه مشركو مكة لجهلهم بالتاريخ ، وعدم تسليمهم بخبر الآية ـ أمر الله تعالى رسوله ، بأن يدلهم على الطريق الموصل إلى علم ذلك بأنفسهم . فقال :

١١ ـ (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) :

أى قلْ يامحمد ، للمكذبين المستهزئين بك من قومك ، المحبين للأَسفار مع الغفلة ، عن شئون الأُمم ، والاعتبار بعاقبة الماضين ، وأحوال المعاصرين : سافروا فى الأَرض ـ كشأْنكم وعادتكم ـ وتنقلوا فى ديار أُولئك الأُمم الذين مَكَّنَّاهم فى الأرض ، ثم انظروا ـ فى أثناء رحلاتكم صيفا أو شتاءً ـ آثارَ ماحل بهم من دَمار ساحق ، وعذاب أَليم . وتأملوا كيف كانت آخرتهم ونهايتهم : بما تشاهدون من آثارهم ، وماتسمعون من أَخبارهم ، ليكون فى ذلك لكم عبرةٌ إن لم تصدقوا ولم تزجرْكم حُجَجُ الله عليكم !!

---

(١) الحجر ، الآية : ٩٥

(قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ
نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾) .

المفردات :

(كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) : أى أوجبها على نفسه ، فضلا منه وكرما .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ) : سكن ؛ من السُّكنى . والمعنى : ما اشتمل عليه الليل والنهار . وقيل : سكن هنا ؛ من السكون .

والمعنى وله ما سكن فى الليل والنهار وما تحرك . فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر . كما جاء فى قوله تعالى : « ... سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ... »[1] أى والبرد .

(وَلِيًّا) : أى ناصرًا ومعينًا .

(١) النحل ، من الآية : ٨١

(فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعهما على غير مثال يحتذى من الفَطر وهو : الإبداع والإيجاد .

(وَهُوَ يُطْعِمُ ولَا يُطْعَمُ) : أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد .

(مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ) : أى يبعد عنه العذاب يوم القيامة .

التفسير

١٢ - (قُل لِّمَن مَّا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ...) الآية .

بَيَّنَ الله عز وجل ، فى الآيات السابقة ، أُصول الدين الثلاثة : التوحيد ، والبعث ، والجزاء .

وبَيَّنَ شبهاتِ الكفار على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ما يدحضها .

كما أَرشد رسولَهُ ، إلى سُنَّته فيمن كَذَّب الرسل ، وأَن عاقِبتَهم الخزْىُ والدمار . ثم قفّى على ذلك ، ببيان أَدلة وجود الله ووحدانيته وشمول ملكه .

والمعنى : قل أَيها الرسول ، لقومك ، الجاحدين لرسالتك ، المعرضين عن دعوتك : لِمَنْ هذا الكون : علويه وسفليه . بما فيه من عجائب وغرائب ؟ (قُل لِّلَّهِ) .

وإنما أمرالله رسولَه بـأَن يتولى الإجابة عنهم ، لأَن هذا الجواب معترف به منهم : لا يسعهم إنكارُه . فقد كانوا يعترفون بذلك . قال تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ... »(١)

فإذا سأَلتهم : لِم تعبدون غيره من أَصنام وأَوهام . وأَنتم معترفون بذلك ؟ أَجابوا بقولهم :

« ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ... »(٢)

والمقصود من السؤال - كما ذكر صاحب الكشاف - التبكيت والتوبيخ .

(كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) :

---

(١) العنكبوت ، من الآية : ٦١

(٢) الزمر ، من الآية : ٣

أى أوجبها على نفسه، كَرَمًا منه وفضلا . وقد شمِلَ برحمته فى الدنيا المؤمنَ والكافر، والْبَرَّ والفاجر . فلا تغترُّوا أيها الكفار بما تنالون فى الدنيا من رحمته . واعملوا ليومٍ يجمعكم فيه للحساب والجزاء . كما قال سبحانه :

(لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ) :

يؤكد الله تعالى فى هذه الجملة : أنه سَيُحْيِى الناسَ ويَبْعثُهم فى يوم القيامة ؛ الذى لا ينبغى أن يرتاب فيه عاقل .

ولا ريب أن تهديد الناس بهذا اليوم العصيب ، يعتبر من رحمة الله بالناس . إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة ، لَعَمَّ الفسادُ فى الأرض . واختلت نُظمُ الاجتماع ، وأكَلَ القوىُّ الضعيف ؛ – ولا وازع ولا زاجر – فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع ؛ لأجل الحساب والجزاء . كما أنه حافز للمؤمنين على زيادة الطاعة ، رغبة فى حسن الجزاء .

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى الذين خسروا أنفسهم بإهدار قُواهم العقلية ، وتعطيلها عن النظر فى آيات الله ، فهؤلاء ، لا يؤمنون بما دعوتهم إليه ، من توحيد الله ، والإيمان بيوم البعث والنشور .

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

هذا معطوف على ماقبله . أى لله ما فى السموات وما فى الأرض ، (وَلَهُ مَاسَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى مَا اشتمل عليه الليلُ والنهارُ من موجودات . فكل ما طلع عليه النهار وغشيه الليل والظلام ، هو فى ملك الله وحده . وهو السميع لكل ما من شأنه أن يُسمَع ، العليم بكل ما من شأنه أن يُعلَم . سبحانه !! يعلم دبيبَ النملة فى الليلة الظَّلْماء «يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ »(١) ، « ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ ... »(٢) .

---

(١) غافر ، الآية : ١٩ (٢) البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومن كان كذلك ، فلا يغيب عنه إيمان مؤمن ، ولا كفر كافر ، ولا دعوة داعٍ ، ولا حاجة محتاج .

١٤ - (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ..) الآية .

أى قل يامحمد ، وقد دعوك إلى دين آبائك .

إن الله تعالى ، أمرك : أن تنكر ما دعوكَ إليه ، من اتخاذ غير الله تعالى معبودا ، وهو الذى له ما فى السمٰوات وما فى الأرض . وله ما سكن فى الليل والنهار - وهو الذى فطر السمٰوات والأرض . وأبدعهما على غير مثال سبق . وهو الذى يرزق غيرَه ، ولا يرزقه غيرُه. فهو الذى يرزق الكائنات الحية ويطعمها ، ويمدها بما يحفظ وجودها وبقاءها وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويُطعمه .

وكيف يصح أن يكون مصدر العطاء محتاجا إلى عطاءٍ ؟ وكيف يتخذ المضلون من البشر أولياء مع الغَنِىِّ الحميد الفعال لما يريد ؟

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى قل يامحمد - بعد إيراد هذه الآيات والحجج على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليًّا - إنّى أُمِرتُ من ربى : أن أكون أول من أسلم إليه وانقاد لدينه . من هذه الأمّة التى أنا رسولُها وداعيها إلى الحق . فلستُ أدعو إلى شىءٍ لاآخذ به . بل أنا أولُ مؤمن بهذا الدين . وأول عامل بما جئت به من شريعة وأحكام .

وكما أُمِرتُ أن أكون أولَ من أسلم . قيل لى : لا تكونَنَّ من المشركين : فلا تطمعوا فى استجابتى إلى مادعوتمونى إليه من الإشراك بالله تعالى .

وبعد أن أقنطهم الله من مشاركة الرسول لهم فى شركهم ، أمر الله رسولَه : أن يبين لهم سوء عاقبة من عصى الله وأشرك به . فقال تعالى :

١٥ - (قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى قل يامحمد ، لقومك الذين دعوْك إلى مشاركتهم فى عبادة آلهتهم : إنى أخاف عذاب يوم عظيم ؛ يشيب فيه الوِلْدان ، إن أجبتكم إلى مادعوتمونى إليه من عصيان ربى .

وإذا كان خوف النبى صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتفيا - لانتفائها بالعصمة - فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له - عليه السلام - دائمًا .

١٦ - (مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) :

أى من يُدفعْ عنه هذا العذاب - فى ذلك اليوم ويسلم من الوقوع تحت وطأته - فقد رحمه الله الرحمة العُظمى . وهى النجاة من العذاب ، والتمتُّعُ بالنعيم المقيم . وذلك هو الفوز المبين الذى لا فوز بعده .

(وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾) .

المفـردات :

(وَإِن يَمْسَسْكَ) : المس : الإصابة . يُقال : مَسَّهُ السُّوءُ والكبر والعذاب والتعب أى أصابه ولحق به .

(بِضُرٍّ) : الضُّرّ ؛ البلاء ، كالمرض والفقر ، وفقدان الأحباب .

(بِخَيْرٍ) : الخير ؛ ماكان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلة .

(وَهُوَ الْقَاهِرُ) : القَهْرُ ؛ الغلبة . والقاهر : الغالب .

(أَكْبَرُ شَهَادَةً) : شهادة الشيء ؛ حضوره ومشاهدته . والشهادة به : الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة ؛ بالبصر أو بالعقل والوجدان .

(لِأُنذِرَكُم بِهِ) : الإنذار ؛ التخويف .

التفسير

١٧ - (وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ...) الآية .

بعد أن بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى ، أنّ صرف العذاب عن العبد ، والفوزَ بالنعيم - بعده - من رحمة الله به فى الآخرة - بَيَّنَ كذلك : أن الأَمرَ فى الدنيا والتصرُّفَ فيه ، إنما هو لله الولى الحميد .

والمعنى : وإن يُصِبْك - أيها الإنسان - ضُرٌّ كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا التى يَخْتَبِرُ اللهُ بها عبادَهُ ، فلا يرجى لكشف هذا الضرِّ غيره . إذ لا صارف ولا رافع له إلا هو . لأنه مما قضى به . ولا رادّ لقضائه الذى قضاه ، إلا ماكان من لطفه ورحمته اللذَيْنِ يحفان بقضائه . فيمضى الأَمر فيه على ما قضاه . ومن لطف الله بعبده أن يستقبل هذا القضاء برضا ، ويحتمله فى صبر .

وإن يمسسك بخير - كصحة وغنى وقوة وجاه - فهو وحده قادر على حفظه عليك وإدامته لك ، كما قدر على إعطائك إياه . فهو على كل شيء قدير .

فعلى المؤمن الصادق فى إيمانه : ألَّا يطلب شيئًا من أُمور الدنيا والآخرة : من كَشْف ضُرٍّ ، وصَرْفِ عذاب ، أو إيجاد خير ، ومَنْح ثواب ، إلا من الله تعالى وحده ، دون غيره من الشفعاء والوسطاء ، والمتكهنة والأَولياء الذين لا يملكون لأَنفسهم نفعا ولا ضرًّا .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: « كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمًا فَقَالَ: يَاغُلَامُ، إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ. وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى لَكَ. وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[(١)].

ومن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم: « اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ »[(٢)].

وبعد أن أثبت الله لنفسه كمال القدرة، أثبت كمال السلطان والتسخير لجميع عباده، والاستعلاء عليهم، مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأُمور، ليرشدنا إلى أن مَن اتخذ غيرَه وليًّا من دونه، فقد ضلَّ ضلالا بعيدا. فقال:

١٨ - ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾:

أى وهو الغالب لعباده، المقتدر عليهم: يَملكهم ولا يَملكونه. ويَقضى عليهم ولا يَقضون عليه. ويُعطى ويَمنع، ويُعز ويُذِلُّ. وهو الحكيم فى تدبير مراده وتنفيذه، الخبير بمواضع نعمه ونقمه. فلا تخفى عليه خوافى الأُمور ولا بواديها، ولا يقع فى تدبيره خلل، ولا فى حكمته دخَل[(٣)].

ولما كان المشركون لايستجيبون إلى الحق الذى دعاهم إليه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولايشهدون بصحة نُبُوَّته، أنزل الله عليه الآية التالية:

---

(١) رواه الترمذى، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أى ولا ينفع صاحب الغنى منك غناه.

(٣) الدَّخَل: الفساد.

١٩ـ (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ . . .) الآية .

جاء فى القرطبى : عن الحسن وغيره ، فى سبب نزول هذه الآية : أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : مَن يشهدُ لك بأنك رسولُ الله ؟ فنزلت الآية .

والمعنى : قل يامحمد لقومك :أى شىء شهادته أكبر شهادة وأعظمها ، وأجدر أن تكون أصحها وأصدقها ؟ وما الشاهد الذى تكبرون شهادته . وتنزلون على ما يشهد به .

ولم يمهلهم الله أن يجيبوا ، لأَنهم لايجيبون إلا ضلالا ، ولايقولون إلا زُورا وبهتانا . بل تلقاهم بالشاهد الذى لايصح أن تُرَدَّ شهادته ، لأَنه الشاهد الذى لايجوز أن يقع فى شهادته كذب ولا زور ، ولا خطأٌ . والذى يحكم ولا معقب لحكمه ، ويقضى ولا رَادَّ لقضائه إنه هو الله رب العالمين . هو الشهيد بينى وبينكم . وقد أُوحى إلَيَّ هذا القرآنُ : شاهدًا من لَدُنْهُ برسالتى ، لأُنذرَكم به عذاب يوم عظيم ، ولأُنذر كلَّ من يبلُغه القرآن ـ إلى يوم القيامة . وفى هذا ، دلالة على عموم الرسالة ، وأن أحكام القرآن : تَعُمُّ الثَّقَلَيْن إلى يوم الدين .

أخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال : « ومن بلغه القرآن فكأَنما شافهتُه به » ثم قرأَ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) .

وقد أشارت الآية : إلى وجوب تبليغ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد جاءَ ذلك ـ صراحة ـ فيما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بَلِّغُوا عَنِّى ، وَلَوْ آيَة . . . » الحديث .

وشهادة الله لرسوله : تتجلى فيما يأْتى :

١ ـ شهادة كُتُبِ اللهِ السابقة لنبيه ، وبشارة الرسل السابقين به .

ولا تزال هذه الشهادة ماثلة فى كتب اليهود والنصارى ، وهم يُؤَوِّلُونها .

٢ ـ تأييد الرسول بالآيات الكثيرة ، التى من أعظمها القرآن الخالد . فهو المعجزة الدائمة : بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله . وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ، وَوَعْدِ الرسول والمؤمنين بِنَصْرِ الله .

٣ ـ إخباره بها فى كتابه ، بنحو قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ . . . »(١) وقوله سبحانه : « إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... »(٢) .

(ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾) .

التفسير

٢٠ ـ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ...) الآية .

رُوِىَ أن الكفار ، سألوا اليهود والنصارى ، عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم . فأنكروا أن فى التوراة والإنجيل شيئا يدل على نُبُوَّتِه .

فَبَيَّن الله فى الآية السابقة : أن شهادة الله على صحة نبوته ، كافية فى ثبوتها وتحققها .

(١) الفتح ، من الآية الأخيرة . (٢) البقرة ، من الآية : ١١٩

ثم بَيَّنَ فى هذه الآية : كَذِبَهم فى ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم فهم يعرفونه بالنبوة والرسالة كما يعرفون أبناءهم .

فقد رُوِىَ أن النبي - عليه الصلاة والسلام - لما قدم المدينة ، وأسلم عبد الله بن سلام . قال له عمر : إن الله أنزل على نبيه بمكة :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...) الآية . فكيف هذه المعرفة ؟

قال عبد الله بن سَلَام : ياعمر ، لقد عرفتُه - حين رأيتُهُ - كما أعرف ابنى . ولأنا أشدُّ معرفة بمحمدٍ منى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقًّا . ولا أدرى ما تصنع النساء .

والمعْنى : الذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون محمدا النبىَّ الأُمىَّ خاتم الرسل بحليته ونعته الثابت فى التوراة والإنجيل ، معرفةً مستيقنة ، كما يعرفون أبناءهم بحلاهم ونعوتهم . ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله والكتاب الذى معهم ، لآمنوا بمحمد وبالكتاب الذى معه . ولكنهم كتموا شهادة الحق : بَغْيًا وحَسَدا . فخرسوا ولم ينطقوا . أو نطقوا : كَذِبًا وبهتانا .

(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) : بإفسادهم فطرتهم التى تهديهم إلى الحق ، وإعراضهم عن دلائل النبوة .

(فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بسبب ذلك . لا بسبب فقدان العلم والمعرفة . لأن الله أخبر عنهم : أنهم على علم ومعرفة .

٢١ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ...) الآية .

أفادت هذه الآية : أنه لا يوجد أظلم ممن اختلق الكذبَ على الله ، أو كذَّب بآياته .

فأما اختلاق الكذب على الله : فهو كزعمهم . أن الملائكة بنات الله ، وأن لله شركاء يشفعون عنده .

وأما تكذيبهم بالآيات ، فهو شامل لما حدث منهم من تكذيبهم بآياته المنزلة كالقرآن ،

ثم بيَّن سبحانه ، عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال :

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

أى إنَّ شأْن الله — فى تدبيره — أنه لا يفلح الظالمون . فلا ينتصرون فى دنياهم ، ولا ينجون من العذاب فى أُخراهم .

وإذا كان هذا حال الظالمين ومآلهم ، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته ، فكان أظلم الظالمين ، وأبعد الناس عن رحمة رب العالمين .

٢٢ — (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

أى : واذكر لهم — أيها الرسول — يوم نحشرهم جميعا ، على اختلاف درجاتهم فى ظلم أنفسهم وظلم غيرها . ثم نسأل الذين أشركوا — وهم أشد الناس ظلما — أين الشركاءُ ؟

— سؤال تقريع وتشهير — الذين كنتم تزعمون فى الدنيا . أنهم أولياؤكم من دون الله ، وأنهم يقربونكم إليه زلفى . ويشفعون لكم عنده ؟ فأين هم ؟

لقد ضَلُّوا عنكم وخاب أملكم فى شفاعتهم

وصدق الله إذ يقول : « . . . وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ »[1] .

٢٣ — (ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) :

فالتفت القوم إلى الشركاء ، فلا يجدون لهم أثرا . ويخيل إليهم — من ضلالهم — أن فتنتهم وكفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم ، وافتخروا به — قد اختفى . وأنهم لن يؤاخذوا بهذا الجرم الذى لا يقوم شاهد على وجوده . فيحلفون كذبا وبهتانا : والله ربنا ما ...

---

(١) الأنعام ، من الآية [illegible]

مشركين . . . ليغفروا بذلك من الموقف الرهيب : تَوَهُّمًا منهم ، أن ذلك يُفْلِتُهُم ؛ ولاسيما أنهم رأوا سعة رحمة الله ، وشفاعةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين .

قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره . فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : إن ربَّنا يغفر الذنوب . ولا يغفر الشرك . فتعالَوْا نَقُل : إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين . فقال الله تعالى : أمَا إذ كتموا الشرك — فاختِمُوا على أفواههم فيختم على أفواههم . فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك ، يَعْرِف المشركون : أن اللهَ لا يُكْتَمُ حديثا . فذلك قوله : « . . . وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا »[1] .

قال أبو إسحاق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جدا . وذلك أنه تعالى ، بَيَّنَ كَوْنَ المشركين مفتونين بشركهم ، متهالكين فى حبه . فذكَر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه ، وافتخروا به ، وقالوا : إنه دين آبائنا ، لم يكن حين رأوا الحقائق — إلا أن تبرَّأوا من الشِّرْكِ ، وأقسموا على عدم التدين به .

ونظير هذا فى اللغة : أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة . فإذا وقع فى محنة بسببه تَبرَّأَ منه . فيقال له : ماكانت عاقبة محبتك لفلان : إلا أن تبرَّأْتَ منه وتركته .

٢٤ — (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ . . .) الآية .

هذا تعجيب من قولهم المفضوح ، وكذبهم الصريح ، بنفى أنهم أشركوا فى الدنيا على حين أن حقيقة إشراكهم معروفة لربهم . وإن كذبوا على أنفسهم بنفيها .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وغاب عنهم ما كانوا يختلقونه من ألوهية أصنامهم ، وشفاعتها لهم . فلم يكن لذلك اعتبار فى نفوسهم ، حين أقسموا متبرئين من شركهم .

---

(١) النساء ، من الآية : ٤٢

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾) .

المفـردات :

(أَكِنَّةً) : الأكنّة ، الأغطية . جمع كنان .

(وَقْرًا) : الوقر بالفتح ، الثِّقَل فى السمع ، يقال : وَقَرَتْ ووَقِرَتْ أُذنُه من باب تَعِب ووعد : صَمَّتْ وثَقُل سمعها .

(يُجَادِلُونَكَ) : يخاصمونك وينازعونك .

(أَسَاطِيرُ) : أباطيل .

(وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى : يبعدون عنه .

التفسير

٢٥ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ آذَانِهِمْ وَقْرًا . . .) الآية .

بيان لما صدر عن المشركين فى الدنيا ، من أُمور منافية للإيمان ، معبرة عن تعمقهم فى الكفر .

جاء فى سبب نزول هذه الآية ، ما رُوِىَ عن ابن عباس . قال : حضر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أبو سفيان ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، والحرث بن عامر ، وأبو جهل

فى جمع كثير . واستمعوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو يقرأ القرآن . فقالوا للنضر يا أبا قتيلة[١] ، ما يقول محمد ؟ فقال : والذى جعل الكعبة بيته ؛ ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين . مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية ـ وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى . يحدث قريشا بما يستملحونه ـ قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول محمد حقًّا . فقال أبو جهل : كلّا . . . فأنزل الله الآية :

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

أى ومنهم من يستمع إليك أيها الرسول . استماع استعلاء وانتقاد . لا استماع تدبر وانقياد حين تتلو القرآن : داعيا إلى توحيد الله . ولهذا قد جعلنا على قلوبهم أغطية من الكبر والعجرفة ونعرة الجاهلية . فلم تعد تَبْلُغُ كلماتُ الله مواطنَ القبول من قلوبهم ؛ ولا تنفذ أسماعهم ؛ لأنهم لايريدون إلا ذلك .

وفى هذا تشبيه للحُجُبِ والموانع المعنوية ، بالحجب والموانع الحسية .

فالقلب الذى لايقبل الحق ولا يتدبره ؛ كالوعاء الذى وُضِع عليه الغطاءُ فلا يدخل فيه شىء . والآذان التى لا تنتفع بما يصل إليها من نصائح ، كالآذان المصابة بالثقل والصمم فسمعها وعدمه سواء .

(وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا) :

أى وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك ، وصدق دعوتك ، لايؤمنوا بها عنادا واستكبارا ، مع وضوح حجتها ، وظهور الحق فيها ؛ لأن قلوبهم وأسماعهم مستغرقة فى أنانيتهم وعنجهيتهم ؛ فلا تستجيب للإيمان ، ولا تتقبل الهدى .

---

(١) فى تفسير الخازن فى رواية الكلبى : « يا أبا قتيبة » .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

أى بلغ عنادهم إلى وقت مجيئهم إليك مجادلين منكرين الحق . حيث يقولون : ماهذا الذى جئتنا به ، إلا أباطيلُ السابقين وخرافاتُهم : نَقَلْتَها إلينا من كُتُبِهم .

فلم يكن مجيئهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، طلبا لحق ، أو تعرفا على خير ، بل للمماحكة والمجادلة ، لأنهم لم يتقبلوا ما فى القرآن من أنباء الغيب ، إلَّا على أنها حكاياتٌ وخرافاتٌ ، تُسَطَّرُ وتُكْتَبُ . كغيرها .

وذكر نعتهم بالذين كفروا ، وأظهر الفاعل ولم يضمره فى (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) تقريرٌ لكفرهم ، لإيغالهم وغلوهم فى اللدد واللجاج .

٢٦ - (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ...) الآية .

أى وأولئك المشركون الكافرون المعاندون للنبي ، الجاحدون لنبوته ، لم يكتفوا بتكذيبهم وإعراضهم عن الدين الذى جاء به ، وإنما تجاوزوا ذلك إلى صدِّ غيرهم ، والوقوف فى وجه مَن يطلبون الهدى منه . هم يبالغونَ فى مقاطعته والنَّأى عنه : مستكبرين عن الإيمان به .

(وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) :

أى وما يهلكون أحدا بهذا التصرف الأحمق ، والجحود المطلق - إلا أنفسَهم ، حيث أوْرَدُوها موارد الدمار والبوار . وما يشعر هؤلاء الجانون على أنفسهم تلك الجناية - أنهم إلى هذا المصير صائرون ، لِمَا استولى عليهم من غفلة ، وما غشيهم من ضلال .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾) .

المفـردات :

(إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) : حُبِسُوا عليها يوم القيامة . ومن معانى الوقف : الحبس .

(بَدَا لَهُمْ) : ظهر لهم .

التفسير

٢٧ - (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ...) الآية .

بعد أن بَيَّن سبحانه - فى الآيتين السابقتين - حال أُولئك المشركين الكافرين الذين يستمعون إلى النبى صلى الله عليه وسلم - وما يرتل من كلمات الله - ولا ينتفعون بما سمعوا ، بيّن - فى هاتين الآيتين - بعضَ ما يكون من مآل أمرهم فى الآخرة . فقال :

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) :

(لَوْ) : شرطية حذف جوابها ، لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب . وذلك أبلغُ من ذكره .

والمعنى : ولو ترى يامحمد أو أيها السامع ، ما يحل بأُولئك المكذبين المعاندين ، من الفزَع والهَوْل ، حين يُحبسون على النار ، مشرفين عليها - لرأيت شيئا مخيفا ؛ لا يحيط به الوصف وهَوْلًا مفزعا ؛ لا تُدْرِكُه العبارة . وحين يعاينون هذه الأهوال ، يَتَمنَّوْنَ الرجوعَ إلى الدنيا ، والإيمان بما كذبوا به فى حياتهم .

وفى (عَلَى النَّارِ) : ما يُشْعِرُ بأنهم سيسقطون فيها ، وتبتلعهم ، وأنه لا مفر من ذلك . مما يصور لنا مشهدا مخيفا ، تقشعر منه القلوب والأبدان .

(فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى ويقول هؤلاء المشركون – وقد تَدَلَّوْا على النار – ليتنا نردُّ إلى الدنيا ، حتى نتوب ونعملَ صالحا ، ولانكذِّبَ بآيات الله وحججه ، التى نَصَبها دلالة على وحدانيته وصدقِ رسله بل نكون من المصدقين به وبرسله ، ومن المتبعين لأمره ونهيه .

وفى تَمَنِّيهم الرد ، دليل على أنهم يلجأُون حتى إلى المستحيل ، وهو عودتهم إلى الدنيا ، لشدة الضيق والحرج الذى هم فيه .

٢٨ – (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

إبطالٌ لأَمانيّهم وَتيئيس لهم منها ؛ لأنها أمان ناشئة عن الفزع والهلع ، من هذا الموقف الذى هم فيه ، حين ظهر لهم ما كانوا يُخفون من البعث والجزاء، حيث كانوا ينكرون ذلك .

(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) :

من الشرك والكفر ، والمكر والمعاصى، لسوء ما فطروا عليه من سوءِ طوية ، وخبث نية ، ودعوى جاهلية .

(وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

فيما تضمنه تمنيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ، والإيمان بالله ورسله ؛ لأنهم لم يكونوا صادقين فى ادعائهم الإيمان بعد رجوعهم إلى الدنيا ، وإنما دفعهم إلى هذا ، ما شاهدوه من الأهوال والشدائد ، والبعد عنها بأَية وسيلة .

ومعنى هذا أن الكفر فيهم غريزة .

٢٩ – (وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى لو رُدُّوا إلى الدنيا ، لعادوا لِمَا نُهُوا عنه من الكفر وسَيِّء الأعمال ، ولأنكروا البعث والحساب والجزاء مرة أُخرى . وكأَنهم لم يَرَوْا ما عاينوه من أَحوال الآخرة ، التى أولها البعث والنشور .

(وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا
بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾) .

المفـردات :

(جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ) : الساعة ؛ القيامة .

(بَغْتَةً) : فَجْأة .

(يَا حَسْرَتَنَا) : الحسرة ؛ الندم الشديد على ما فات .

(عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا) : التفريط ؛ التقصير .

(أَوْزَارَهُمْ) : آثامهم الكبيرة .

(لَعِبٌ وَلَهْوٌ) : اللعب واللهو كلاهما ؛ الاشتغال بما لا يفيد العاقل ولا يهمه .

التفسير

٣٠ – (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ . . .) الآية .

وهكذا : تتوالى المشاهد يوم القيامة .

فمن مَشْهَدِ الحَشْرِ والمحاكمة : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » إلى مشهد الحكم فى جنايتهم التى جَنَوْها على أنفسهم : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ . . » إلى هذا المشهد الذى يتضمن إتمام المحاكمة .

(وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) :

أى ولو ترى – أيها المتأمل – هؤلاء المعاندين المكذبين – وقد حبسوا على ما يكون من قضاء ربهم فيهم – لَهَالَكَ أمرُهم ، ولرأيت ما لا يحيط به نطاق الكلام . وجعلهم موقوفين على ربهم ؛ لأن من تَقِفُهم الملائكة وتحبسهم فى موقف الحساب ، امتثالا لأمر الله فيهم كما قال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ »[1] يكون أمرهم مقصورا على الله حيث لا سلطان فيه لغيره عز وجل « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ »[2] . فهم وقد انتهى بهم المطاف إلى ما لا يحيط به الوصف لن يقتصر أمرهم على ما هم فيه من بلاء وعناء بل يُسأَلون سؤال تأنيب وتبكيت .

(عَلَىٰ رَبِّهِمْ) : (عَلَىٰ) هنا ، بتقدير مضاف ، أى وقفوا على تعذيب ربهم ، وما أعدَّ لهم .

(قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ) : القائل هو الله تعالى أى أليس هذا الجزاء – وما أنتم فيه – هو الحق الذى كنتم به تُكَذِّبون ؟

وفى حسرة أليمة وندم شديد :

(قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا) :

أى قالوا : بلى . أى ما نحن فيه من الشدائد والأهوال ، حق نستحقه ، ولا شك فيه .

وهكذا كان جوابهم . . . اعترافًا مؤكدًا – باليمين – بما أنكروه فى الدنيا .

وبذلك شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

(قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) :

أى فباشروا العذاب ، وانغمسوا فى آلامه وأهواله ، بسبب كفركم الذى كنتم عليه مُصِرِّينَ عليه ، دائبين فيه .

وفى المشهد السابق (وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) : وهنا وقفوا على غضب ربهم ، ما يدل على أن غضب الله ، آلم من نار جهنم ، فلو لم يكن منه إلا حِرْمَانُهم من رؤيته والتمتع برضوانه ، لكفى .

(١) الصافات ، الآية : ٢٤ (٢) الانفطار ، الآية : ١٩

٣١ - (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ . . .) الآية .

أى قد خَسِر وخاب سَعْىُ أولئك الكفار ، الذين كَذَّبُوا بالبعث ، وانكشف لهم ما كانوا فيه من غفلة وضلال .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً) :

أى ما زال هؤلاء مُصِرِّين على التكذيب ، إلى أن جاءتهم الساعة - فجأة - على غير انتظار .

(قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) :

أى قالوا متحسرين بأسلوب النداء ؛ للإشارة إلى شدة وَقْع المفاجأة عليهم .

ولذا نادوا الحسرة : نداء تفجُّع . وقالوا : إن كان لك وقت فهذا وقتك ، حيث قد فَوَّتوا على أنفسهم العمل بما كان ينجيهم من أهوال هذا اليوم ، والضمير فى (فِيهَا) يعنى : الحياة الدنيا .

(وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) :

أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم .

وفى هذا إيماءٌ إلى شدة ما يقاسونه من صنوف العذاب .

(أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ) :

أى بئس ما يحملون .

والمراد : ذم عملهم الذى ارتكبوه فى الدنيا ، حيث لم ينتفعوا به ، بل أوصلهم إلى الهلاك .

٣٢ - (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . .) الآية .

أى وما اشتغال المكلَّف بِمُتَعِ الحياة الدنيا ، وصرف قواه إلى لَذَّاتها - دون الالتفات إلى شئون الآخرة - إلا اشتغال بما لا نفع فيه .

وإنما تكون الحياةُ الدنيا جادةً مفيدة ، إذا التفتَ فيها أصحابُ العقول ، إلى العمل الطَّيب المثمر ؛ الذى يجمع بين سعادَتَى الدنيا والآخرة .

(وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) :

أى ولَلحياة الآخرة : أكثر نفعا ، وأعظم أجرًا للذين تركوا المعاصى فى الدنيا ، وعملوا لنيل الثواب فى الآخرة ، التى هى الغاية ، والدنيا وسيلة لها .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى أتغفلون عما فى الآخرة من ثواب ونعيم ، فلا تعقلون أن الانصراف إلى الدنيا مُهلِك ، وأن العمل للآخرة والإقبال عليها ، هو السعادة والنجاة ؟

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا
فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾) .

المفـردات :

(لَيَحْزُنُكَ) : الحُزْنُ ؛ الشعور بالألم عند وقوع مكروه .

(يَجْحَدُونَ) : الجحود والجحد ؛ نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه.

(لِكَلِمَاتِ اللهِ) : المراد من كلمات الله ؛ وعده للمؤمنين ، ووعيده للكافرين .

(نَبَإِ) : النبأُ ؛ الخبر ذو الشأن العظيم .

(كَبُرَ عَلَيْكَ) : أى شقّ عليك .

(نَفَقًا) : النَّفق ؛ السِّرْب فى الأَرض ، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج .

(أَوْ سُلَّمًا) : السُّلَّم؛الدَّرَج مشتق من السلامة ؛ لأنه يُسْلِمُكَ إلى الوَضع الذى تريده.

(الْجَاهِلِينَ) : الجهل هنا ؛ ضد العلم ، والمراد منه : الجهل بما ينبغى العلم به .

التفسير

٣٣ – (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ . . .) الآية .

بعد أن بَيَّنَ القرآن – فيما سلف من الآيات – أنها نزلت فى بيان موقف المشركين من الدعوة الإسلامية ، وكثرة ما قالوا فى رد هذه الدعوة ، جاءت هذه الآيات تُبَيِّنُ أثرَ هذا العناد فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، وحُزْنَهُ على عدم إيمانهم . فقال بيانًا لذلك ، وتسليةً له صَلَّى الله عليه وسلم :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ . . .) إلى آخر الآيات . . . ومعنى :

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ) :

أى قد أحاط علمنا بِحُزْنِك مما يقوله لك هؤلاء المعاندون ، وأنك مشفق عليهم من لَجاجهم وشَططهم . وهذا بيان لعظمة الإشفاق النبوى الكريم . وتسلية له . فليس المراد الإخبار بالعلم ، فالعلم ثابت لله تعالى . ولكن المراد أننا معك أيها الحزين الآسف على كفر قومه وأهله .

(فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ) : لذاتك ، فقد كنت الأمين . ولكن ما يحدث منهم الآن . هو تكذيب لنا ؛ لأنك رسولنا ومُبلِّغ عنا .

(وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) :

أى ولكنهم – بعدم الاستجابة لآيات الله – قد بلغوا الغاية فى الظلم والجحود والتَّنكُّر لك والافتراء عليك .

٣٤ - (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا . . .) الآية .

هذه الآية من تمام تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - ببيان ماعاناه الرسل السابقون : بالدعوة ، حتى جاءهم نصر الله ، واستقر الأمر لهم : بإهلاك أقوامهم . فإن عموم البلوى مما يعين على احتمالها . فاصبر كما صبروا ، حتى يأتيك النصر . فإن شأنك كشأنهم .

(وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ) :

أى ، إن كلمات الله لا تُبدَّل ، وأحكامَه لا تُنقَض ، ووعدَه لا يَتخلَّف . وسُنَنَهُ ونواميسَه لا تتخلف . قال تعالى :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] .

(وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) :

أى ولقد أتاك من أخبار الرسل ، ماتَسْكُن به نفسُك ، ويطمئن به قلبُك ، ويَثْبُتُ به فؤادك : « وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . . . »[2] .

٣٥ - (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ . . .) الآية .

ومع ذلك يامحمد ، إن كان نفورهم وإعراضهم ، شاقًّا على نفسك ، يتزايد ويكبر أثره شيئا فشيئا . أى ، ولم يَشْفِكَ ما سقناه لتسليتك فالْتَمِسْ ما فى طاقتك لإيمانهم - مهما استحال - نَفَقًا فى الأرض ، أو سُلَّمًا فى السماء ، لِتَهْدِيَهُم بآية فعالة فى نفوسهم . فافعل .

وقد آتيناك من الآيات ، ما يكفى لإيمان مَن ألقى السمع وهو شهيد : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . . . »[3] .

---

(١) الصافات ، الآيات : ١٧١-١٧٣ .

(٢) هود ، من الآية ١٢٠ .

(٣) العنكبوت ، من الآية ٥١ .

(وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) :

أى ولو شاء اللهُ هدايةَ الناس جميعا ، لجمعهم على ذلك . ولكن لم يُرِدْ ذلك ، لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو . ففى علمه الأزلى : أن فريقًا منهم يختار الكفر ، ولو جاءتهم كلُّ آية .

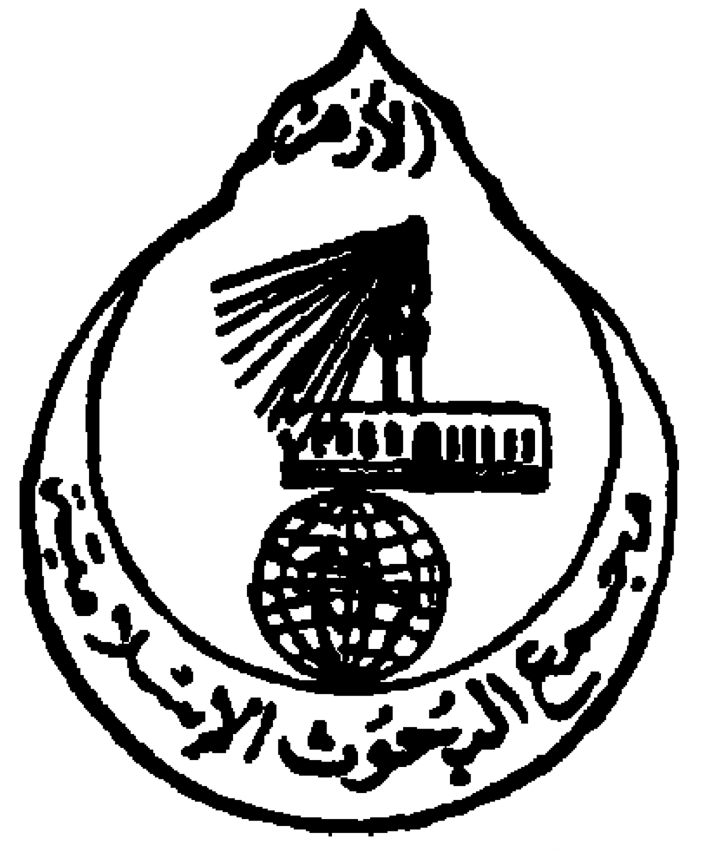
(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

أى فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسرات ، لعدم إيمانهم حتى لا تكون من الجاهلين ، الذين يشتد حُبُّهُم وحنانُهم بذويهم وأهليهم إلى هذا الحد .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ . . . »[1] .

---

(١) القصص ، من الآية : ٥٦



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الرابع عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾) .

المفـردات :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ) : الاستجابة ، هى الإجابة المقارنة للقبول .

(وَالْمَوْتَى) : المراد بهم ، الكفار ، تشبيها لهم بالموتى .

التفسير

٣٦ - (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

لمّا بيَّنَ الله - فى الآية السابقة - إعراض المشركين عن الرسول ، وأن إعراضهم كبر عليه صلى الله عليه وسلم ، أتبع ذلك بيان السرّ فى إعراضهم . وهو شَبَهُهُم بموتى القبور . وذكر أن هؤلاء المعرضين سيلقَون جزاءهم .

والمقصود من ذلك : تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووعيد الكافرين به .

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) :

المعنى : ما يجيبك يامحمد إلى الهدى ، ويقبل منك شريعة الإسلام ، إلا الأحياءُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار .

وهؤلاء المشركون الذين لم يجيبوك ، ولم يهتدوا بهديك ، يُشبهون الموتى ؛ لفقدهم مايميز الأحياءَ عن الأموات ، من السماع والتدبر .

(وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ) :

الواو للاستئناف وجوبا ولزم الوقف قبلها . والمعنى : والموتى يحييهم الله يوم القيامة .

(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

للحساب والجزاء ، فلا يَشُق عليك إعراضهم وأمرهم إلى الله الذى سيتولى عقابهم حين يبعثهم .

ولا يصح أن يراد من بعث الكفار هدايتهم - كما قيل - فإن ذلك لا يناسب قوله تعالى :

(ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) :

فإن ذلك لوعيدهم بالجزاء على كفرهم . لأن هذا هو الأنسب لمقام الكلام .

وهذه الآية مقررة لما مرّ فى السورة ، من أن المشركين أمعنوا فى الإعراض إمعانا ، جعل على قلوبهم أغطية مانعة لها من الفهم . وفى آذانهم حجبا تضع فيها وقرا - أى ثقلا - مانعا من السماع .

كما أنها تفيد أن مَن لم يستجب إلى دعوة الإسلام ، فهو من قبيل الموتى - والموتى لايتصور منهم الإيمان .

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾) .

المفردات :

(لَوْلَا) : حرف يدل على الحثّ والتّحضيض مِثْل : هلَّا .

(نُزِّلَ) : المقصود من التنزيل ؛ الإظهار .

(آيَةٌ) : الآية ، العلامة ، والمراد بها هنا : معجزة كونية تلجئهم إلى الإيمان . كجعل الصفا ذهبا ... وسنوضح ذلك .

(دَابَّةٍ) : الدابة ؛ مايدب على الأرض ، أى يمشى على هيئته .

(أُمَمٌ) : جمع أمة بمعنى ؛ جماعة .

التفسير

٣٧- (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ...) الآية .

لايزال الكلام موصولا فى شأن تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم استجابتهم إلى مادعاهم إليه .

تحكى هذه الفقرة : أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بآية يُنَزِّلها الله ويظهرها ، على حسب هواهم ، فقالوا - على ألسنة رؤسائهم - هَلَّا أنزل عليه آية من ربه ، تلجئنا إلى الإيمان برسالته ؟ ويعنون بها ماحكته سورة الإسراء : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا »[1] .

والمتأمل فى تلك المطالب وأمثالها ، يحسُّ أن الباعث عليها هو التعنت والعناد ، لا الاهتداء إلى الحق .

فلو كانوا طلاب حق ، لكفاهم ما أيده الله به من معجزة القرآن « ... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[2] .

وكما أيده الله بالقرآن ، أيده بكثير من المعجزات الكونية :

كانشقاقِ القمر ، وحَنِين الجذع ، وإنزالِ المطر ، ورَفْعِه ، وتكثير الماء والطعام . إلى غير ذلك ، مما روَته السنَّةُ الصحيحة .

وقد بين الله للرسول صلى الله عليه وسلم ، مايجيب به المشركين بقوله :

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

قل يأيها الرسول لقومك : إن الله قادر على تحقيق الآية التى طلبتموها ولكن أكثرهم ليس من أهل العلم والعقل ، فلذا غفلوا عن الحكمة فى عدم تحقيق ماسألوا ، وهى أنه تعالى لم يشأ إهلاكهم ، فإنه إن حققها فكفروا - بعدها - أُهلِكوا جميعًا كما حدث للأُمم قبلهم ...

---

(١) الإسراء ، الآيات : ٩٠ - ٩٣ (٢) النساء ، من الآية : ٨٢

ونَفْىُ العلم عن أكثرهم : إمّا لأن بعضهم يعلمون الحكمة فى عدم تحقيق ما يقترحون ، ولكنهم يشاركونهم فيما طلبوا عنادا ، وإما لأن الأكثر ، مرادٌ منه : الجميع .

٣٨ـ (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم . . .) الآية .

هذه الآية مسوقة للدلالة على كمال قدرة الله وشمول علمه ، وسعة تدبيره وحكمته ، حتى تعلم قريش : أن مَن كان هذا شأنه ، قادر على تحقيق ما طلبوه ، وإن كان لم يجبهم إليه ، رحمةً بهم .

والدابة : ما يدب ويتحرك على وجه الأرض من الحيوان .

والتعبير بقوله : (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ) : لتأكيد العموم[1] ؛ كأنه قيل :

وما نوع من أنواع الحيوان ، أو الأسماك ـ صغيرًا كان أو كبيرًا ـ فى أية ناحية من نواحى الأرض ـ ظاهرها وباطنها ـ .

(وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ، إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) :

ووصف الطائر بأنه يطير بجناحيه مع أن هذا شأنه ، لتصوير حالة طيرانه العجيبة الدالة على كمال قدرة الله وإحكام تدبيره . حتى يتجه النظر والفكر إليها . فيمجد الله الذى أبدعها .

والمقصود من قوله : (إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم) : بيان أن حيوانات الأرض والبحر ، وطيور الجو ، إنما هى جماعات وطوائف ، لها مثل مالنا من الخصائص فى الجملة .

فالنمل ـ مثلا ـ أمّة أرضية : لها تدبيرها فى السعى على رزقها ، وجمعه فى أجحارها ، استعدادا لفصل الشتاء ، لتقتات به وهى مختبئة فيها طول الفصل . كما أن لها أميرةً منها ، تُوَجِّهُها وتنظم مصالحها . ولها لغة تتفاهم بها . كما يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة النمل : « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2] . وقد فهم سليمان عليه السلام لغتها : « فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا . . . »[3] الآية .

(١) العموم مستفاد من كلمة (دابة) وتأكيد العموم مستفاد من زيادة (من) ، ومن كلمة (فى الأرض) .
(٢) النمل ، الآية : ١٨ (٣) النمل ، من الآية : ١٩

النحل : أمَّةٌ جوية . لها رئيسة يطلق عليها لغة : «اليعسوب» وهذه الأميرة تُوَجِّهُ أمّتها من النحل وتدبر أمرها . ولها نظام فى السعى على الرزق ، وبناء بيوت هندسية دقيقة ، تجمع فيها العسل ، وتحتضن البيض ، حتّى تخرج منه صغارها ، ثم ترعاها حتّى تصير نحلا . إلى غير ذلك من شئونها العظيمة الدالة على قوة إدراكها .

ولذا أخبر الله تعالى ، بأنها موضع لوحيه وإلهامه فقال : «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ»[1] .

وهكذا ، شأن سائر الحيوانات الأرضية والبحرية ، والطيور الجوية .

فالآية فتحت آفاقا من العلم عن أمم أخرى : لها خصائص تقرب من خصائصنا . ظلت مجهولة ، حتى عرفها الباحثون أخيرا ، عن طريق التجربة «... فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»[2] .

(مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ) .

تفريط الشيء . تضييعه وتركه . كما قال الشاعر .

معه سقاءٌ لايفرط حمله *

والتفريط فيه : أن يهمل ما ينبغى أن يكون فيه .

والمعنى : ما أهملنا فيه شيئا ينبغى ذكره فيه .

والمراد من الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو القرآن الكريم .

وعلى الأول ، تكون جملة . (مَافَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ) متوسطة[3] للإيذان بأن كل الأحوال مستقصاة فى اللوح المحفوظ ، غير مقصورة على هذا القدر المجمل .

وعلى الوجه الثانى . تكون الجملة متوسطة ، لتقرير ماقبلها على معنى : ما تركنا فى القرآن شيئا من الأشياء الهامة فى الدنيا والدين . ومن جملتها : بيان أنه تعالى ، مراعٍ لصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى .

---

(١) النحل ، الآية : ٦٨ (٢) المؤمنون ، من الآية ١٤

(٣) يعبر عنها المفسرون ، بأنها جملة اعتراضية أومعترضة . وقد اخترنا التعبير بمتوسطة ، أدبا مع القرآن الكريم .

ثم بين الله أحوال الأمم فى الآخرة فقال :

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) :

استعمل ضمير العقلاء فى كلمتى : (رَبِّهِمْ) و (يُحْشَرُونَ) فى دواب الأرض وطيور الجو ، إجراء لها مجرى العقلاء ، بعد بيان أنها أمثال الناس فى نظم حياتها .

والمعنى : ثم - إلى ربهم ومالك أمورهم - يحشرون كما يحشر الناس ، فينصف بعضهم من بعضهم بموجب مالديهم من إدراك .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشاةِ القَرْنَاءِ » [(١)] .

وعن ابن عباس : حَشْرُ الدواب والطير ؛ مَوْتُها .

والأول أصح ، لظاهر الآية والحديث .

وبه أخذ أبو ذر وأبو هريرة والحسن وغيرهم .

وقال جماعة : هذا الحَشْر الذى فى الآية ، يرجع إلى الكفار ، وماتخلل من كلام ، فهو معترض ، وإقامة حجج . والحديث مقصودٌ منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب ، والقصاص ، والاعتناء فيه . حتى يفهم منه : أنه لابد لكل أحد منه .

وصحح القرطبى الأول ، لصراحة الحديث . وقال : إنها - وإن كان القلم لايجرى عليها فى الأحكام - ولكنها تؤاخذ فيما بينها .

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾) .

المفردات :

(صُمٌّ) : جمع أصم ، وهو ؛ من ثَقُل سمعه .

(١) أخرجه مسلم : انظر القرطبى ٦ طبع دار الكتب . والشاة الجلحاء : التى ليس لها قرن .

(وَبُكْمٌ) : جمع أَبْكَم ، وهو : الأخرس ، وخصه بعضهم : بمن وُلد لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر .

(فِى الظُّلُمَاتِ) : المراد بها : ظلمات الجهل والعناد .

التفسير

٣٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ ...) الآية .

المراد بالآيات : القرآن الكريم ، أو جميع الحجج ، ويدخل فيها القرآن الكريم .

والمعنى : والذين جحدوا بآياتنا ، ولم يهتدوا بهداها ، مثلهم كمثل :الصم الذين لا يسمعون ، البُكْم الذين لا يتكلمون ، الذين احتوتهم الظلمات فلا يبصرون . فكيف يهتدى هؤلاء إلى سواء السبيل – وحالهم ما ذكر – ؟! .

(مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

هذه الجملة مقررة لما سبق من حالهم ، مفيدة أنهم مقيمون على الضلال فلا يستغرب تكذيبهم .

والمعنى : مَن يشإ الله إضلالَه – لفساد طويته – يَخْذُلْهُ ، ومَن يشأْ هدايته – لحسن اختياره – يَجعلْهُ على طَريق مستقيم : فى العقيدة والأخلاق ، ويوفقه لصالح الأعمال .

(قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾).

المفـردات :

(أَرَأَيْتَكُمْ) : أخبرونى .

(السَّاعَةُ) : هى القيامة . وسميت بذلك لأنها تَفْجَأُ الناس فى ساعة علمها عندالله ، والمراد بها : أهوالها .

(وَتَنسَوْنَ) : وتتركون .

٤٠ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَ[illegible] تَدْعُونَ [illegible]
صَادِقِينَ) :

لا يزال الكلام عن المشركين موصولا .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين [illegible] الله
وإلزاما لهم بما لا يستطيعون إنكارَه : أخبرونى ، إن أتاكم عذابُ الله فى الدنيا ، أو أتتكم القيامة بأهوالها فى الآخرة ، وانتقم الله منكم فيها : أغيرَ الله تدعون لكشف الضر عنكم - إن كنتم صادقين فى زعمكم أن أصنامكم آلهة ، أو إن كنتم من أهل الصدق ؟ !

ولما كانت عادتهُم أنهم إذا وقعوا فى شدة تركوا دعاء أصنامهم واتجهوا إلى الله تعالى ؛ يدعونه ليكشفها عنهم ، لاعتقادهم أنهم إن دعوها لا تجيبهم . وإن دعوه سبحانه أجابهم ، وفرَّجها عنهم .

فلهذا تولى الله الإجابة عنهم بما لا يستطيعون إنكاره ، فقال :

٤١ - (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) :

أى : ليس غيرُ الله تدعون . بل تخصونه -وحده- بالدعاء ، فيزيلُ ما تدعونه إلى إزالته ، وتتركون شركاءكم تركا كليًّا ، كما روى عن ابن عباس .

وقيل : النسيان على حقيقته ، فَهُمْ - لشدة الهول وعظيم الخطر - لا تخطر آلهتهم ببالهم .

وتأخير نسيانهم لآلهتهم عن كشف الضُّر - مع أنه سابق عليه - لإظهار كمال العناية بكشف الضر ، والإيذان بترتيبه على دعاء الله خاصة .

فإن قيل : إن العذاب الدنيوى المماثل لعذاب الأُمم السابقة وقوارع الساعة ، لا يكشفان بالدعاء .

فالجواب : أن كشف ذلك معلق بالمشيئة ؛ كما نَصَّ عليه قوله تعالى :
(فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ) :

ومعلوم أن الله تعالى ، لا يَشاء كشفهما . قال تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »[1] .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾) .

المفـردات :

(بِالْبَأْسَآءِ) : بالداهية والشدة .

(وَالضَّرَّآءِ) : والضُّر .

(لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) : لكي يدعوا الله فى تذلل وخضوع .

(فَلَوْلَا) : بمعنى : هَلَّا . وهى هنا ؛ للتوبيخ والتنديم . وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

التفسير

٤٢ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) :

هذا كلام مستأنف ، لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، بذكر ما حدث لإخوانه المرسلين من إعراض أقوامهم وعدم تأثرهم بالزواجر . فإن البلوى إذا عَمَّتْ هانت كما أن فيه إنذارا لقريش بأنهم إذا تمادَوْا فى شركهم ـ أُهْلِكوا ـ كما حدث . لأمثالهم السابقين.

(١) البينة ، الآية : ٦

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلًا إلى أُمم كثيرة ، فى زمان قبل زمانك ، فكذبوهم فعاقبناهم علَى تكذيبهم وكفرهم بالشدائد : كالقحط والجوع ، وبالإضرار : كالمرض ونقصان الأَنفس والأَموال ، لعلهم يبتهلون ويتذللون إلى ربهم تائبين من كفرهم ومعاصيهم .

٤٣ - (فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

لَوْلَا هنا : للتنديم والتوبيخ على تركهم التضرع ، مع وجود مقتضيه وانتفاء المانع منه.

والمعنى : فهلَّا - حين جاءهم بأْسنا وشدتنا - ابتهلوا إلينا خاضعين مستغفرين ، ولكنهم استمرُّوا فى قسوة قلوبهم ، فلم ينزجروا بما بلوناهم به ، ولم يتوجهوا إلينا بالدعاء والاستغفار . وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملونه من الشرك والمعاصى ، وحَسَّنه إليهم ، فأَقاموا عليه .

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾) .

المفـردات :

(نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) : تركوا الاتعاظ بما خُوِّفوا به ، وهو : البأْساء والضراء .

(بَغْتَةً) : فَجْأَة .

(مُبْلِسُونَ) : متحيرون ، آيسون من النجاة .

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ) : فأُهلك آخرهم . من دَبَرَهُ ؛ إذا كان خلفه ، وقَطْع دابرهم : كناية عن إهلاكهم حتى آخرهم وهذا يستلزم - قبل ذلك - إهلاك أولهم بالضرورة .

التفسير

٤٤- (فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . . .) الآية .

فلما غَفَلَ مُكَذِّبو الرسل السابقين ، عمّا ذكِّروا وخُوِّفوا به من البَأْساء والضَّرَّاء ، وتركوا الاتعاظ به ، واستمروا فى كفرهم وتكذيبهم - فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شَيْءٍ من النعم ، لعلهم يذكرون بها فضل ربهم ويؤمنون به ويشكرونه ، حتَّى إذا بَدَّلوا نعمة الله كفرا ، وفَرِحوا بما أُعطوا : بَطَرا وجحودا - أَخذناهم بالعقاب فجأَة فإذا هم متحيرون يائسون .

روى الإمام أحمد بسنده ، عن عقبة بن عامر ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِن الدُّنيَا - عَلَى مَعاصِيهِ - مَا يُحِبُّ ، فَإِنَّمَا هُوَ استِدْرا جٌ ... ثُمّ تَلَا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) »[1] .

٤٥ - (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

المعنى : فَأُهْلِك القومُ الذين ظلموا أَنفسَهم بالكفر ، ولم يَنْجُ منهم أَحد ، والحمد لله رب العالمين على إهلاك الظالمين ، لتخليص الناس من شؤْم عقائدهم .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾) .

المفردات :

(وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) : أى غطاها فأَصبحت لا تعقل .

---

(١) ابن كثير : ٢

(نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) : نكرر الدلالات مصروفة من أُسلوب إلى آخر .

(يَصْدِفُونَ) : يعرضون .

(عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً) : فَجْأَة بدون أمارات ، أو ظاهرا تسبقه علامات .

التفسير

٤٦ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) :

قل أيها الرسول لقومك : أخبرونى - إن أذهبَ اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكُم ، وغَطَّى على قلوبكم ، فصرتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون - أىُّ هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - يأْتيكم بما أخذه منكم ؟ . . . انظر وتعجَّب - يامحمد - كيف نبين - لهم الآيات ونصرفها من أُسلوب إلى أُسلوب : ما بين حجج عقلية ، وتوجيه إلى آيات كونية ، وترغيب وترهيب ، وتنبيه وتذكير، ثم هم - بعد ذلك كله - يعرضون عن الحق ! ! واعلم أن القلوب ، تستعمل فى القرآن الكريم ، مصادر للإدراكات العقلية كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا . . . »[١] .

والمعروف طبِّيًّا : أن مراكز معينة فى المخ ، هى موطن العقل .

وبما أن القلب هو سر الحياة - وهو الذى يغذى تلك المراكز العصبية العاقلة فى المخ - فلذا يسند الفهم والتعقل إليه مجازًا . أو لعله المركز الأول للعقل . ولكن لم يعرف ذلك بعد .

والمراد من الخَتْم على القلوب : حَجْبُهَا ومنعها عن تعقل المدركات المختلفة .

والمراد من الآيات التى يصرفها الله : ماجاء فى القرآن من الآيات الدالة على شئونه تعالى .

(١) الأعراف ، من الآية : ١٩٧

٤٧ - (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) :

قل لهم - تبكيتا وتقريرا : أخبرونى ؛ إن جاءكم عذابُ الله فى الدنيا - فجأة بدون أمارات تنبهكم إليه ، أو جهرة تسبقه علامات تدل عليه ، هل يهلك - انتقامًا بهذا العذاب أو ذاك - سواكم أيها القوم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى ؟ !

ومن كان ظالما ، فهو الجدير بتعذيب الله ، دون سواه .

وصحت مقابلة البغتة للجهرة ، لأن البغتة لمَّا كانت مقدماتها خفية ، جعلت بمنزلة الشىء الخفى فقوبلت بالجهرة .

وقيل عذاب البغتة : ماكان ليلا ، لأن الغالب فيه ذلك . وعذاب الجهرة ماكان نهارا ، لتكون هذه الآية - بذلك التأويل - مثل قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ »[1] .

والاستفهام فى قوله تعالى : (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) للتقرير .

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾) .

المفـردات :

(مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) : التبشير : الإخبار بما يسر . والإنذار ؛ التخويف مما يضر .

(يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ) : أى يصيبهم .

(يَفْسُقُونَ) : يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصى .

(١) يونس ، الآية : ٥٠

التفسير

٤٨ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

هذه الآية - والتى تليها - مرتبطتان باقتراح المشركين على الرسول : الآيات التى يشير إليها قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . . . »[1] .

والمعنى : وما نبعث المرسلين إلا مبشرين للمؤمنين الصالحين بحسن الثواب ، ومنذرين للمكذبين الفاسقين بسوء العقاب ، لا لِيُقْتَرَحَ عليهم غيرُ ما جاءوا به من الآيات . فمن آمن بالله ورسله ، وأصلح نيته وعمله ، حسب شرائعهم ، فلا خوف عليهم من عقاب ، ولا هم يحزنون على فوت ثواب .

٤٩ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

والذين كفروا بالمرسلين ، وكذبوا بآياتنا التى أنزلناها عليهم ، وبمعجزاتنا الدالة على صدقهم ، وشغلوا أنفسهم باقتراح الآيات عليهم - غير مكتفين بالمعجزات التى أظهرها الله على أيديهم ، تعنتا وحسدا وعنادا لهم - فهؤلاء ، يصيبهم العذاب - الدنيوى والأخروى - بسبب استمرارهم على فسقهم ، وخروجهم عن طاعة ربهم .

(قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾) .

المفردات :

(خَزَائِنُ اللهِ) : المراد بها ؛ خزائن مقدوراته ؛ كما قال الجبائى .

(الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : المراد بهما ؛ الضال والمهتدى .

---

(١) الأنعام ، من الآية : ٣٧

التفسير

٥٠ - ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ...﴾ الآية .

قل أيها الرسول ، لمن يقترحون عليك غير ماجئت به من الآيات : أنا لا أدّعى أن عندى خزائن مقدورات الله أتصرف فيها كما أشاءُ استقلالا أو استدعاءً من الله ، حتى تطلبوا منى أن أقلب الجبال ذهبا وأن أفجر الينابيع من الأرض ، لتزرعوا على مياهها صحراءكم ، إلى غير ذلك من اقتراحاتكم - فذلك من شأن الله الذى لايتحكم عليه أحد ، فيقترح عليه من الآيات مالا تبدو حكمة فى تحقيقه . وكذلك لا أدعى علم الغيب ، حتى تطالبونى بإخباركم بوقت نزول العذاب بكم بقولكم : « . . . مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] .

ولا أقول لكم إنى مَلَكٌ حتى تطالبونى بأن أَرْقَى فى السماء كما هو شأن الملائكة ، أو تَعُدُّوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى نُبُوَّتِى ، فإنكم قلتم : « .. مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ ... »[2] وما أنا إلا نبى : أتبع ما أوحاه رَبِّى إلىَّ . فلا تطلبوا منى ماليس من شأنى .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ :

قل لهم أيها الرسول : لايمكن أن يستوى الضال الشبيه بالأعمى - فى عدم تبين الحقائق - بالمهتدى الشبيه بالمبصر فى استجلاء الأمور ... أتسمعون هذا التذكير فلا تتفكرون فيه ؟!

واعلم أنه ليس من الحكمة أن يجاب المتعنتون إلى ماسألوا ، فإنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »[3] .

فضلا عن أنهم - إن لم يؤمنوا بما طلبوه بعد مجيئه ، حق عليهم الهلاك ، كما حدث لمن قبلهم . كقوم صالح .

ولا يقتضى تمييز الملائكة بقدرتهم على الرقى فى السماء كلما أرادوا ، أو تمييزهم بأنهم لايأكلون ، ولا يشربون : أن يكونوا أفضلَ من الأنبياء ، كما زعم الجبائى ، فالمزية لا تقتضى الأفضلية ، وإلا لكان بعضُ الحيوان أفضلَ من الإنسان ، بما تميز به عليه ، كالنحل

---

(١) سورة سبإ ، من الآية : ٢٩
(٢) الفرقان ، من الآية : ٧
(٣) يونس ، الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

فى بناء بيوته الهندسية ، وإفرازه العسل ، وكالطيور فى تعَرفها المراعىَ الصالحة ، وسلوكِها السبيل إليها بالغريزة ، دون أن يخبرها بها مخبر ، أو يهديها إليها هادٍ ، ودون أن يكون لها اطلاع سابق ورحلة من قبل إليها .

(وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾) .

المفردات :

(وَأَنذِرْ) : الإنذار ؛ التخويف .

(وَلِىٌّ) : ناصر .

(شَفِيعٌ) : الشفيع ؛ من يرجو رفع ضُر ، أو جلب خير لغيره .

التفسير

٥١ - (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

وأنذر - أيها الرسول بما يوحى إليك من القرآن - الذين يخافون أن يُحشرُوا ويجمَعوا إلى حساب ربهم يوم القيامة ، ليس لهم من غيره نصير يحميهم - من حساب ربهم وعذابه - بقوته ، ولا شفيع يخلصهم من ذلك بشفاعته ورجائه - أنذر هؤلاء بالقرآن ؛ لعلهم يتقون النار بالإيمان والطاعة .

واعلم أن مَن يخافُ الحَشْرَ إلى الله - وليس له ولى ولا شفيع من غيره تعالى - أصناف ثلاثة :

١ - صنف أهْل الكتاب : القاطعين بالبعث ، الشَّاكِّين فى شفاعة أنبيائهم لهم .

٢ - وصنف المشركين : القاطعين بالبعث الشاكين فى شفاعة أصنامهم لهم .

٣ - وصنف المشركين : الشاكين فى البعث وفى شفاعة الأصنام لهم .

فشك هذه الأصناف الثلاثة فى شفاعة هؤلاء الشفعاء ، يجعلهم إذا سمعوا الإنذار يخافون سوء العاقبة حينما يقدرون فى نفوسهم ماجاء به الرسول . فيفكرون فيما يقول . وربما هداهم التفكيرُ إلى الحق ، فآمنوا .

أما المنكرون للحشر إنكارا تاما ، والقائلون به : القاطعون بشفاعة آبائهم أو أصنامهم فهؤلاء لايؤمنون - ولو جاءتهم كل آية - حتى يَرَوُا العذابَ الأليم . كما جاء فى قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »(١)

وقد مرت الإشارة إلى ذلك قريبا .

ولكون موقفهم من الرسالة ماذكر ، مِنَ الرسول بالاهتمام بهذه الطوائف ، التى تخاف الحشر إلى ربها - دون شفيع - لعلهم يتذكرون .

ويستلزم أمر الرسول بالاهتمام بهم ، ألَّا يكترثَ بمن عداهم ، من الصُّم البُكْم : الذين لا يعقلون ولا يهتدون .

(وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾) .

(١) يونس ، الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

المفـردات :

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) : أى بأول النَّهارِ وآخِرِه .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : يريدون ذاته .

(فَتَنَّا) : ابتَلَيْنَا .

التفسير

٥٢ - (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . . .) الآية .

لَـمَّا أمر الله رسوله فى الآية السابقة - بإنذار من يَخْشَوْنَ أن يُحشَروا إلى ربهم ، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ، سواءٌ أكانوا مشركين أم أهل كتاب - نهاه سبحانه وتعالى - عن أن يكون إنذارهم سببا فى طرد المؤمنين الضعفاء - من مجلسه عليه السلام - طمعا فى إيمان هؤلاء .

وسبب نزول هذه الآية - على مارواه الإمام أحمد وغيره : أن رؤساء المشركين . قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردتَ هؤلاء وأرواح[1] جبابهم ، جلسنا إليك وحادثناك : يعنون فقراء المسلمين كعمار ، وصهيب ، وخبَّاب ، وسلمان ، وأضرابهم . رضى الله عنهم - فقال صلَّى الله عليه وسلم : « مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ » فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا . فإذا قمنا فأقعدهم معك ، إن شئت . فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم » طَمَعًا فى إيمانهم ، فنزلت .

والمعنى : ولا تُبْعِد عن مجلسك ضعفاء المؤمنين : الذين يَدعون ربهم ويعبدونه دائمًا . مخلصين . فلا يشركون فى ذلك شركًا : جليا ولاخفيا . بل يريدون وجْهَهُ وذاتَهُ وحده . ليس عليك أيها الرسول من حساب أولئك المشركين - إذا استمروا على شركهم ومعاصيهم - من شىء . فالحساب على ذلك خاص بهم ، لايتجاوزهم إليك . فلا يحملنَّك الحرصُ على إيمانهم : أن يُبْعَدَ الفقراءُ عن مجلسك معهم ، استجابة لرغبتهم . فكما أنه ليس على المشركين من حسابك على عملك شىء ، فكذلك ما عليك من حسابهم على عملهم من شىء .

---

(١) أرواح جمع ريح بمعنى رائحة . قال صاحب القاموس : والراح يجمع على أرواح . ثم ذكر ضمن معانيه ، الرائحة . وكان هؤلاء الفقراء يلبسون جبابا تفوح منها روائح ، تؤذى المشركين ، لأنهم لم يجدوا بديلا عنها حتى يغسلوها ، فكانوا يلبسونها دائما ، فتفوح منها روائح العرق المتراكم ، فلذا طلب المشركون إبعادهم عن المجلس إذا جلسوا مع الرسول . استعلاء وتكبرا .

فلا يحملنَّكَ الحرصُ على إيمان المشركين : أن تطرد فقراء المؤمنين وتُبْعِدَهم عن مجلسك . فتكون بذلك من الظالمين .

واعلم أيها القارئ الكريم : أن الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، قصد من تخصيص الوقت للمشركين حين يجلسون إليه ، تأليف قلوب المشركين، ولم يقصد طَرْدَ المؤمنين حقيقة . ولهذا لم يَرْوِ أحَدٌ أن قلوب فقراء المؤمنين انكسرت لذلك .

وتعبير القرآن الكريم عن تخصيص الوقت للمشركين بأنه طَرْدٌ لفقراء المؤمنين ، يُرَاد منه إظهار كرامةِ المؤمنين على الله دون المشركين . حتى جَعل تخصيصَهم بوقتٍ ، طَرْدًا لهؤلاء المخلصين ... ومعلوم أن النهى عن طرد الضعفاء ، لايلزم فيه سوى جملة (مَاعَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ) .

فنظمه فى سلك مالا شبهة فيه . وهو انتفاءُ أن عليهم من حساب الرسول شيئًا .. على طريقة قوله تعالى : « ... لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

والمقصود الأساسى من الآية : أن من كانوا عند الله بهذه المنزلة ، لايجاب المشركون إلى ماطلبوه من طردهم عن مجلسه إذا كانوا معه . وأنَّ شأنَ المشركين عند الله تعالى : غاية فى الهوان ، فلا يُهْتَمُّ بهم .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الإسلام لا يميز بين الناس بالمال والرياسة ، بل بالإيمان والعمل الصالح ، وإن كانوا فقراء معدمين ، وعلى أن الأمراء مطالبون بإعطاء الفقراء حقهم من مجالس العلم ودوره ، وألَّا يمنعوهم عن مجالسة الأغنياء فيها .

٥٣ ـ (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) :

ومثل ذلك الابتلاء والفتنة ، فتَنَّا المشركين بالمؤمنين ، ليقولوا محتقرين لهم : (أَهَٰؤُلَآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) : كما قالوا محتقرين لدينهم : « ... لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّاسَبَقُونَآ إِلَيْهِ ... »[2] .

---

(١) النحل ، من الآية : ٦١ (٢) الأحقاف ، من الآية : ١١

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) : فيمنحهم من النعم مايستحقون . فكيف يحقر هؤلاء الحاقدون ، غيْرَهم من أهل الاستحقاق لأنعمه سبحانه؟!

(وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾) .

المفردات :

(بِجَهَالَةٍ) : بِسَفَهٍ وسوء رأى .

(وَلِتَسْتَبِينَ) : ولِتَتَّضِحَ .

(سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) : طريق أهل الذنوب .

التفسير

٥٤ـ (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ...) الآية .

هذه الآية الكريمة ، ليست خاصة بالمنهى عن طردهم من ضعفاء المؤمنين ، كما قيل مرويًّا عن عكرمة رأيًا له . فإن اللهَ مدَحهم فيما سبق ـ بأَنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى، وهذا لايتناسب مع الوصف هنا : بأَنهم عملوا السوء بجهالة .

فالحق أنها دستور عام لجميع المؤمنين المقصرين ، إذا ماتابوا وأصلحوا.

والمعنى : وإذا جاءك - يامحمد - الذين آمنوا - وقد أصابوا بعض الذنوب - فقل تبشيرا لهم : سلام عليكم أى مسالمة من الله لكم . وتلك المسالمة ، هى أنه تعالى ، قضى على نفسه بالرحمة لعباده: تفضُّلا . وذلك أنه مَن عمِلَ منكم سوءًا أى ذنبا بجهالة - أى بسفهٍ وسوء رأى - فشأنه تعالى : أنه غَفَّارٌ للذنوب ، رحيم بعباده . فلاتقنطوا من رحمة الله .

واعلم أن هذه الآية الكريمة ، فتحت باب الرجاء أمام أهل الذنوب .

فعلى كل مذنب أن يراجع نفسه أمام هذا الكرم الإلٰهى ، وأن يرعوىَ عن غَيِّه ويتوب من ذنبه ، ويُقْبِلَ على طاعة ربه .

٥٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) :

ومثل ذلك التبيين الواضح ، فى صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام - المصرِّين منهم والأوَّابين - نُبَيِّنُ سائرَ الآياتِ ، لما له من فوائد كثيرة ، ولتتضح طريق المجرمين فيتحاشاها الراشدون .

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ) ﴿٥٨﴾ .

المفردات :

(تَدْعُونَ) : تعبدون .

(بَيِّنَة) : حجة .

(يَقُصُّ الْحَقَّ) : يتبع الحكمة .

التفسير

٥٦ - (قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ...) الآية .

بعد مانَهى الله الرسولَ صلى الله عليه وسلم ، عن إبعاد فقراء المسلمين عن مجلسه ، حين يجلس إليه المشركون تألُّفًا لقلوبهم ، أتبعه بيان رحمته بالمؤمنين التائبين من ذنوبهم ، أمرَه - سبحانه - فى هذه الآية وما بعدها - أن يقطع أطماع المصرِّينَ على الشرك فى صرفه عن دعوة التوحيد .

والمعنى : قل أيها الرسول للمشركين : إنى نُهيت من الله تعالى ؛ أن أعبدَ معكم الأصنام التى تعبدونها من دون الله .

ثم أمره الله - فى إيجاز رائع - أن يبين لهم : أن عبادتهم إياها لاتستند إلى دليل . بل تجرى حسب هواهم ، ومن اتبع الهوى ، ضل عن الهدى . فقال :

(قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا) :

وبَعُدْتُ عن الحق .

(وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) :

إلى سبيل الرشاد ، لو اتبعت منهجكم فى عبادة غير الله .

٥٧ - (قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ ...) الآية .

المراد بالبينة : اليقين ؛ كما قال ابن عباس . أو الحجة الواضحة ، وهى القرآن . كما قال غيره .

والمعنى على رأى ابن عباس : قل لهم أيها الرسول : إنى على يقين من ربى . وكذبتم به ، حيث جعلتم له شركاء عبدتموها معه . ومَن جعل لله شركاء فقد كذب بوحدانيته تعالى ، وإن اعترف بخالقيته .

والمعنى على رأى غيره : قل : إنى على حجة من ربى وهى القرآن الذى أيدنى به ، وكذبتم بهذا القرآن ، حيث زعمتموه : شِعْرا وسِحْرا ، وأساطيرَ الأولين .

وقد كانوا يستعجلون نزول العذاب الذى توعدهم الله به إن استمروا على شركهم . ويقولون مستهزئين : « ...مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] فأمر الله الرسول أن يقول لهم :

(١) سبأ ، من الآية : ٢٩

(مَاعِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) :

أى : ليس من شأنى ولا فى حكمى هذا العذاب الذى تستعجلونه ، وتتخذون من تأخره ذريعة لتكذيب القرآن والصَّدِّ عن الإسلام . فما الحكم - فى شأنه - تعجيلا وتأجيلا ، وفى جميع الشئون - إلا لله تعالى على مقتضى الحِكمة فى حُكمه وقضائه . وهو خير الفاصلين فى قضايا خلقه . وهو يرى الحكمة فى إمهالكم فأمهلكم .

ثم أمره أن يقول لهم :

٥٨ - (قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) :

قل لهم : لو كان أمر عذابكم مفوضا إلىَّ من الله تعالى ، لطلبت من ربِّى أن يعجل به ، غضبا لأجله بسبب كفركم به ، ولَقُضِىَ الأمر بينى وبينكم ، بإنزال هذا العذاب بكم ، والتخلص من شرككم وكفركم . والله أعلم بكم أيها الظالمون ، وبما ينبغى لكم من الإمهال ، استدراجًا لكم لتشديد عذابكم إن بقيتم على ظلمكم وشرككم . ولكونه تعالى أعلم بما ينبغى لكم ، لم يفوض أمر عذابكم إلىَّ حتى أعجله لكم . ولمَّا أتَمَّ الله بيان اختصاص المقدورات الغيبية به تعالى - من جهة القدرة - أتبعه بيان اختصاصها به - كذلك - من جهة العلم ، فقال سبحانه فى ضمن ماأمر به رسوله أن يبلغه لقومه :

(وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾) .

المفـردات :

(مَفَاتِحُ) : جمع مِفْتَح أو مِفتاح - بكسر الميم فيهما ، وهو أداة الفتح . والمراد بمفاتح الغيب : أسباب علمه . ويجوز أن تكون جمع مَفتح - بفتح الميم - وهو

مكان الفتح ، أى المكان الذى يُفتحُ ، والمراد منه : المخزن أو الخزينة .

ويكون المعنى على هذا : وعنده خزائن الغيب .

(كِتَابٍ مُّبِينٍ) : كتاب بين واضح فى ذاته من : أبان بمعنى اتضح . أو موضح لغيره ؛ من : أبانه بمعنى أوضحه ، والمراد بالكتاب المبين : علم الله ، أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٥٩ - (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ . . .) الآية .

المراد من مفاتح الغيب : مايُتَوصل به إلى علم الغيب . ومعنى كونها عنده تعالى : أنها داخلة تحت علمه .

والمعنى المراد من هذه الجملة : أنه تعالى ، اختص بأسباب علم الغيب كله والطرق الموصلة إليه ... ليس له فى العلم بها شريك ، وأكد اختصاصه بالعلم بها بقوله :

(لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) :

أى : لايعلم الأسباب الموصلة إلى الغيب سواه . ومن كان كذلك فلا يقدر غيره على إبراز الغيب الذى استأثر سبحانه ، بمفاتيحه .

ولايمنع اختصاصه تعالى بمفاتيح الغيب : أن يمنح بعض خواص عباده شيئا من علم الغيب - وهم المرسلون - صلوات الله وسلامه عليهم - قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ... »[1] وقال تعالى : « ... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ... »[2] ، لأن العلم الذى اختص به المولى ، هو علم الغيب ذاتيا . أما علم الرسل به فليس كذلك ، إذ هو منحة من الله تعالى لهم ، ولولاها لما حصل لهم .

التنجيم وأمثاله :

عُلِمَ من قوله تعالى : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) أنّ علم الغيب - بالذات - لايكون لأحد سوى الله تعالى .

وعُلِمَ من آيتى سورتى آل عمران والجن - أنه سبحانه وتعالى - قد يُعْلِمُ بعضَ خواصِّ عباده - وهم الرسل - بعضَ الغيب .

---

(١) الجن ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) آل عمران ، من الآية : ١٧٩

وبذلك يتضح : أن علم الغيب مقصور على الله ذاتا ، وعلى رسله - منحةً وعطاءً - بقدر ، فلا يحل لأحد سواهم ، أن يدعى علمَه بالغيب بل قال العلماءُ : إنه كافر ، لتكذيبه ماجاء فى كتاب الله تعالى من اختصاصه - تعالى - بعلم الغيب ، إلا أن يتفضل ببعضه على من يرتضى من الرسل .

أما ظنُّ الغيب بأمارات : فإنه ممكن لعباده ، فلا يكفر ولا يفسق من يدعيه ، كما يحدث من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر - حين يخبرون بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها - وبكسوف الشمس يوم كذا ، وبخسوف القمر ليلة كذا ، وكما يحدث عن علماء الفلك حين يخبرون بزمن نزول المطر ، أو نزول درجة الحرارة وصعودها ، أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا . . وكما يفعَله الأَطباءُ بحكم العادة عندهم ، إذ يقولون : لمن حلمة ثديها الأيمن سوداء : جنينك ذكر ، ولمن حلمة ثديها الأيسر كذلك : جنينك أُنثى ، أو يقولون لها : إن كان جنبك اليمين أثقل فالجنين أُنثى وإلا فهو ذكر . فيقع الأَمر كما قالوا ، ونحو ذلك ، مما يخضع لقواعد علمية ، أو أمارات ظنية .

وأما العَرَّافون الذين يدعون علم الغيب ، كقول أحدهم لمن يستخبره عن مستقبله : إنك ستكسب كذا ، أو تتزوج فلانة أو نحو ذلك ، فهو كافر كما قاله القرطبى .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرَّافين . فقد جاءَ فى صحيح مسلم : « مَنْ أَتى عَرَّافًا فسأَلَهُ عَنْ شَىْءٍ ، لم تُقْبَلْ لهُ صلاةُ أَربَعِينَ لَيْلَةً » .

وعند أحمد وغيره ، من رواية أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أَتى عرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ ، فَقَدْ كَفَرَ بما أُنزِلَ عَلىَ مُحَمَّدٍ » .

(وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) :

بعد أن بين الله سبحانه ، اختصاصه بِعِلْم الغيب كله . عطف عليه بيان علمه لما يشاهد أو يغيب فى البر والبحر . وبما يسقطُ من الأَوراق ، وعلمه بالرَّطب واليابس ، تكملة لمتعلقات علمه ، وإيذانٌ بأَن الكل - بالنسبة إلى علمه المحيط - سواءٌ فى الجلاء .

وخص البر والبحر بالذكر - دون سائر الكائنات - لأنها أقربها إلى البشر جوارا .

والمعنى : ويعلم ما فى البر والبحر من أجزائهما ، وما ظهر أو خفى فيهما : من الإنسان والحيوان والنبات ، والسوائل والجوامد ، والأدهنه والأبخرة ، وعناصرها وذراتها ، ومكونات هذه الذرات !

وبعد أن يبين علمه بذواتها - أتبعه بيان علمه بأحوالها ، رامزا إليها بقوله تعالى : (وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا) فإن سقوط الأوراق ، ليس إلا حالًا من الأحوال .

والمراد أنه يعلم جميع حالات الشجر وصفاته ، التى من جملتها : سقوط أوراقها ، كما أن ذكر حال الورقة - وما عطف عليها خاصة دون سائر أحوال ماعداها مما فى البر والبحر - من الموجودات الفائقة الحصر ، باعتبار أنها أنموذج لسائر أحوال الموجودات .

(وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) :

هذه الثلاثة معطوفة على (وَرَقَةٍ) داخلة معها فى حكم السقوط ، والدخول فى علم الله سبحانه وتعالى .

والمعنى : وما تسقط من ورقةٍ ولا حبةٍ فى ظلمات الأرض ، ومايسقط من رطبٍ ولا يابس إلا يعلمها الله تعالى .

وعبّر عن علمه بالكتاب المبين ، تشبيها له به فى الثبات والوضوح : تقريبا للأذهان وإلّا ، فَعِلْمُ الله أعظم من الكتاب المبين وضوحا وثباتا وأزلية .

وقيل : المراد من الكتاب المبين : اللوح المحفوظ . فيكون ذلك كناية عن علمه تعالى به ؛ فإن من أثبت ذلك فى كتابٍ عنده ، فهو بما أثبته فيه عليم .

وعلى أىّ الرّأيَيْن . فقوله تعالى : (إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) : كالتكرير لقوله : (إِلَّا يَعْلَمُهَا) جئ به للتذكير والتأكيد .

(وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ
ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾) .

المفـردات :

(يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ) : التوفى لغة : قبض الشيء بتمامه، وأكثر ما يستعمل فيه قبض الروح .

والمراد منه هنا : الإنامة ؛ أى يُنِيمكم فى الليل .

(جَرَحْتُمْ) : كسبتم .

(يَبْعَثُكُمْ) : يوقظكم .

(أَجَلٌ مُّسَمًّى) : وقت محدد لكل واحد ينتهى إليه عمره .

(الْقَاهِرُ) : الغالب .

(تَوَفَّتْهُ) : قَبَضَت رُوحَه .

التفسير

٦٠ - (وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ...) الآية .

بيَّن الله - فيما تقدم قريبا - أن الله أمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم : أن يقول لقومه المشركين : «مَاعِندِى مَاتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» الآيات : ردًّا على استعجالهم العذاب الموعود

بقولهم : «... مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » وردًّا على طلبهم له بأسلوب آخر كقولهم : «... فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] وقولهم له : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ... »[2] .

وجاءت هذه الآية ، للإشارة إلى أن إمهال الله - تعالى - لهم ليس لغفلةٍ عن كفرهم ، فإنه محيط بكل أمورهم . ولكن ليُقْضَى أجلٌ مسمى يرجعون بعده إليه تعالى . فيعذبهم .

والمعنى : قل أيها الرسول ، لقومك الذين يستعجلونك بالعذاب : الله الذى توعّدكم به ، هو الذى ينجيكم بالليل ، فيجعلكم - بالنوم - لا تكادون تحسون ولا تميزون . كأنما قبض أرواحكم فعلا .

وهو يعلم ماكسبتم بالنهار ، من ألوان الكفر والمعاصى ويحصيه عليكم ثم إنه يوقظكم بالنهار - مع علمه بما تكسبون فيه من الآثام - لينتهى أجل سمّاه تعالى - لكل واحد منكم ؛ فلا تدفعه معاصيكم إلى تعجيل العذاب بكم ... ثم إليه - وحده - رجوعكم بالبعث والحشر . ثم يخبركم بما كنتم تعملون من السيئات ، ويجازيكم عليها .

وتخصيص الليل بالإنامة ، والكسب بالنهار ؛ لأنه الغالب من عادات الناس .

وقد أشار الله بالبعث بعد النوم الذى يتكرر كل يوم ، إلى إمكان البعث بعد الموت الذى أنكره المشركون ، وأنكروا العذاب بعده . إذ أنه - تعالى - إذا كان يبعث كل نائم بعد أن كان كالأموات بلا حِسٍّ ولا تمييز ، فإنه - بلاشك - قادر على بعثهم بعد الموت.

٦١ - (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) :

أى : وهو الغالب على عباده ، المتصرف فيهم ، إيجادا وإعداما ، وإحياءً وإماتة ، وتعذيبا وتنعيما . إلى غير ذلك من شئون القهر والسلطان : لا يشركه فيها شريك ، ولايرده عن مراده فيهم أحد ، ويرسل عليكم - أيها المكلفون - حفظةً من الملائكة طول حياتكم : يُسَجِّلُونَ

---

(١) الأنفال ، من الآية : ٣٢ (٢) الإسراء ، من الآية : ٩٢

أعمالكم – لكم أو عليكم – حتى إذا جاء أحَدَكم زمانُ الموت ، قَبضَتْ روحَه رسلُنا من الملائكة الموكَّلين بقبضِ الأرواح ، وهم لايقصرون بالتوانى والتأْخير .

وبذلك تنتهى أعمال الحفظة الذين كانوا يسجلون أعمالكم من خير وشر .

وتبدأُ أُولى درجات الآخرة ، فيشعر المكلف ببعض حظه من النعيم أو العذاب .

وقد اختلف العلماءُ فيما يكتبه الحفظة :

فمنهم من قال : إنهم يكتبون الحسنات والسيئات والمباحات ، كما يُشْعِرُ به قوله تعالى :

« ... مَالِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ... »[1] لكنهم لايحاسِبُون على المباحات .

ومنهم من قال : إن المباحات لاتكتب ، إذ لافائدة من كتابتها ، فإنها لاحساب عليها ، وتسجيل الحفظة لأَعمال المكلفين ، ليس لتذكير الله بها فإنه : أحصى كل شىء عددا ، بل لتذكير المكلفين بها – حينما يقرءُونها ، فيعرفون بها عَدْلَ الله ؛ حينما يقضى عليهم ، وإحسانَه ؛ حينما يحسن إليهم .

وإخبارُ الله لهم بكتابة أعمالهم – صغيرها وكبيرها – دافع لهم إلى بذل الجهد فى الاتجاه بها نحو الاستقامة : تحاشيًا لفضيحتهم بنشرها فى ساحة الحساب ، واتقاءً للعقاب عليها . ومالم يُنَبَّهوا إلى ذلك ، تراخَوْا فى العمل ، وتساهلوا فى المعاصى ؛ اعتمادًا على كرم الله تعالى ، مع أنه لاينبغى الاغترار بكرمه ، قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ »[2] فكما أن الله تعالى عفو كريم ، فهو عزيز ذو انتقام .

٦٢ – (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) :

ثم أُعيد جميع المتوفين – مكلفين وغيرهم – إلى الله مولاهم ومالكهم الحق . أما غيره من المعبودات ، فليس له ولاية عليهم . ولهذا لاحُكْمَ له يوم القيامة فيهم . ألا له الحكم يومئذ حقيقة وصورة : لالغيره بأى وجه من الوجوه . وهو أسرع الحاسبين ، إذ لايحتاج إلى فكر وروية ، ولايشغله شأْن عن شأْن ، فهو يحاسب الجميع فى أسرع زمان .

---

(١) الكهف ، من الآية : ٤٩ (٢) الانفطار ، الآية : ٦

وكيفية الحساب ، لم يَرِدْ فى شأنها خبر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولا تحيط بها عقول البشر . فلذا ، يجب الإيمان به - أى بحصول الحساب - وتفويض الأمر فى كيفيته إلى عَلَّام الغيوب .

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾) .

المفردات :

(ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : شدائدهما .

(تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) : إعلانا وإسرارا .

(كَرْبٍ) : الكرب ، هو الغم والحزن الذى يأخذ بالنفس - كالكُربة بضم الكاف .

التفسير

٦٣ - (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . . .) الآية .

المقصود من ظلمات البر والبحر : شدائدهما . على سبيل المجاز .

وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما .

والعرب تقول لليوم ذى الشدائد : يوم مظلم . أو ذو كواكب . وأنشد الزجاج :

بَنِى أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان[1] يومٌ ذو كواكب أشهبُ

وأصل التضرع : الخضوع والتذلل . وقد يستعمل بمعنى : الإعلان ، كما هنا لمقابلته بالخفية . وبذلك قال ابن عباس والحسن .

(١) كان هنا تامة : بمعنى جاء .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، تنبيها لهم على انحطاط شركائهم عن رتبة الألوهية ، وتقريرا لهم بذلك ، وتوبيخا على عبادتها : مَنْ يُنَجِّيكم من شدائد البر والبحر : تدعونه عند نزولها بكم مُعْلنين دعاءكم ومُسِرِّين به فى خضوع وانكسار قائلين : لئن أنجانا الله من هذه الشدائد لنكونن من المستديمين لشكره .

- وقد أمَرَ اللهُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، أن يتولى الإجابة عنهم ؛ إيذانًا بظهورها وتعيُّنِهَا وشهادتهم بها . وذلك بقوله له :

٦٤ - (قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) :

قل لهم يا محمد : الله تعالى ، ينجِّيكم من شدائد البر والبحر ، التى تدعونه - دائمًا - أن ينجِّيكُم منها كلما نزلت بكم . وينجِّيكم من كل غمٍّ ينزل بكم . لا يشاركه فى إنجائكم من ذلك شريك كما تعرفون وتشهدون . ثم أنتم - بعد إنعامه عليكم بالنجاة من المكاره إجابة لدعائكم - تعودون إلى الشرك ، ولا تحققون وعدكم بدوام الشكر . فهل يليق بعاقل أن يشرك بالله آلهةً تَخَلَّتْ عنه فى وقت الشدة ، ويدعَ شكر الله الذى أسدى له نعمة النجاة ، فلا يوحِّده ولا يعبده ؟ !

(قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ
أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ
بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ
بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ
مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا) : أو يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، كل فرقة تشايع هوى

(بَأْسَ بَعْضٍ) : البأس : الشدة .

(كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) : كيف نبين ونلوّن الحجج .

(بِوَكِيلٍ) : بحفيظ .

التفسير

٦٥ - (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ...) الآية .

هذا كلام مستأنف ، لبيان قدرة الله على إيقاعهم فى المهالك - بعد بيان أنه المنجى لهم منها . وفيه وعيد ضمنى بعذابهم إن بقوا على شركهم على طريقة قوله تعالى : «أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا»[1] .

والمراد بالعذاب الذى يبعثه الله من فوقهم : ماكان من جهة العلو وإن لم يكن من فوقهم فعلا . كالصيحة والريح والحجارة .

والمراد بالعذاب الذى يأتى من تحت أرجلهم : ما كان من جهة السّفلى ، كالرجفة والخَسْف ، والإغراق .

واللبس : الخلط . ومنه قول الحماسى :

وكتيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبة حتى إذا التبست نَفَضتُ لها يدى

والشيَع : جمع شيعة . وهم ؛ مَن يجتمعون على أمر يتشيعون له ويؤيدونه . حقًّا كان أو باطلا .

والمعنى : قل أيها الرسول لمشركى قومك : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من أعلاكم ، كالذى حدث لقوم لوط ، وأصحاب الفيل . أو عذابا من أسفل منكم ،كالذى حدث لفرعون وقارون . أو أن يخلطكم فرقًا مختلفة الأهواء : تشايع كل

---

(١) الإسراء ، الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

فرقة رأيا وتناصره . فينشَب القتال بينكم ويذيق بعضَكم شدةَ بعض . فكيف تشركون بمن هذه قدرته ؟ .

انظر كيف نصرف الآيات ، وننوع البراهين والحجج ، على استحقاقنا التفرد بالألوهية ؛ ليفهموا الحق فيرجعوا عما هم فيه من الشرك .

والمراد من البَعْضَيْن فى قوله تعالى : (وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) الكفار يذيق بعضُهم بعضًا ، العذابَ ، بسبب اختلافهم على أنفسهم .

وعن مجاهد : أن الآية عامة فى المسلمين والكفار .

وقد حمى الله الأُمة المحمدية من العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم - بطريقة الاستئصال - كما كان فى الأُمم السابقة . وذلك بدعائه صلى الله عليه وسلم . ولكنه - تعالى - ابتلاها باختلافها شيعا . وإذاقة بعضهم بأْس بعض .

روى البخارى ، عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : « لما نزلت هذه الآية : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) قال صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : « أَعُوذُ بِوَجهِكَ » (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) قال : « هذه أَهْوَنُ أَو أَيْسَرُ » .

وروى مسلم بسنده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سَأَلتُ ربِّى ثلاثا : سَأَلته أَلَّا يُهلِكَ أُمَّتِى بِالغَرَق فأَعْطَانِيهَا . وسَأَلتُهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِى بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا . وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَهم بَيْنَهُم ... فَمَنَعَنِيهَا » . والمراد بالسَّنَةِ : القحط والجدب .

٦٦ - (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ) :

وكذَّب قومك بالقرآن الذى اشتمل على تصريف الآيات المقتضية للتصديق . وهو الحق المطابق للواقع . فكيف استهانوا بتكذيبه !!

قل لهم أَيها الرسول : لستُ عليكم بحفيظ . فلم يوكَلْ أمرُكم إلىّ ، لأَحفظكم من التكذيب ، وما أَنا إلّا منذر ، والله هو الحفيظ ، فمن آمن فلنفسه ، ومن كفر فعليها .

٦٧ - (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

لكل خبر من أخبار القرآن زمانُ استقرار . يستقر ويقع فيه مدلُوله . وسوف تعلمون حال خبركم فى الدنيا والآخرة ، ومبلغه من الصدق .

(وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾) .

المفردات :

(يَخُوضُونَ) : يندفعون .

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) : فاتركهم .

(وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ) : إمَّا ، أصله : « إن » الشرطية المدغمة فى « ما » «وما» صلة للتأكيد أى وإن أنساك الشيطان .

(بَعْدَ الذِّكْرَى) : بعد التذكر .

(وَلَكِن ذِكْرَى) : ولكن تذكير ووعظ .

التفسير

٦٨ - (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ...) الآية .

لا يزال الكلام موصولا فى أحوال المشركين .

وسبب نزولها : أن قريشا ، كانوا يستهزئون بالقرآن . ويقولون فيه : إنه سحر وشعر، وأساطير الأولين ، وما حلا لهم من الأكاذيب ، فنزلت الآية ، تأمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم : أن يُعرِض عنهم إعراض منكر عليهم ، إذا سمع ذلك منهم ، ولا يجلس معهم ، ولا يجادلهم فى ذلك ، حتى لايزدادوا لجاجة فى باطلهم ، وربما دعاهم قيامه عنهم ، إلى تَرْك الاستهزاء لعدم جدواه .

والمعنى : وإذا رأيتَ - يامحمد الذين يندفعون بالباطل فى آياتنا ، فاتركهم وقْت اشتغالهم بباطلهم ، حتى يدخلوا فى حديثٍ غيره ، فلك حينئذ مجالستهم ، وإنْ أنساك الشيطان تَرْكَ مجالستِهم ، فلا تقعد - بعد تذكر النهى عنها - مع هؤلاء القوم الظالمين ، ولا مؤاخذة عليك بهذا النسيان . . . والخطاب - وإن كان خاصًّا بالنبي صلى الله عليه وسلم - فحكمه عام لجميع المسلمين .

رأى العلماء فى نسيان الرسول

يرى بعضُ العلماء : أن ماجاء فى الآية ، من نسيان الرسولِ الأَمرَ بترك مجالستهم - عند ما يخوضون فى آيات القرآن - إنما هو على سبيل الفرض ، إذ لم يقعْ منه نسيان لذلك كما أنه ليس للشيطان عليه سبيل . ولهذا استعملت : « إن » الشرطية فهى لمجرد الفرض لما ليس محقق الوقوع . وذلك على حد قوله تعالى : « . . لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . »[1] .

ويرى بعض آخر من العلماء : أن الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم . والمراد غيره من المؤمنين .

وقيل : لغيره ابتداء . أى وإذا رأيتَ أيها السامع .

ولكن جمهور العلماء على جواز النسيان على النبي صلى الله عليه وسلم فى الأفعال . فقد جاء فى الصحيح : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ : أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِى » .

(١) الزمر ، من الآية : ٦٥

جاء فى الصحيح أيضا : أن صحابيا اسمه ذو اليدين . قال للنبى صلى الله عليه وسلم - بعد أن سلَّم من ركعتين فى صلاة رباعية : «أَقَصُرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ . فقال ذو اليدين : بل بَعْضُ ذلك قَدْ كان . فَقَالَ صلَّى الله عليه وسلم : أَحَقٌّ مايَقُولُ ذُو اليَدَيْن ؟ فَقَالُوا : نعَم . فَأَتَمَّها أربعًا » .

ومع إجازتهم النسيان عليه صلى الله عليه وسلم فى الأفعال ، فقد أجمعوا على استحالته عليه فى الأقوال التى عليه تبليغها .

وفى الموضوع تفصيلات مفيدة ، يرجع إليها فى المبسوطات .

٦٩ـ (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

ذكر بعض المفسرين - فى سبب نزول هذه الآية - أن المسلمين قالوا : لئن كان علينا أن نخرج من الحرم كلما استهزأوا بالقرآن ، لم نستطع أن نستقر فى المسجد الحرام ، ونطوف ، فنزلت ، والأخذ بهذا السبب ، يقتضى نسخَ الأمر بالإعراض عن الخائضين ، وتَرْكِ مجالستهم حين الخوض فى الآيات ، ويرخص فى مجالستهم لحاجة المسلمين إلى العبادة فى المسجد الحرام ، الذى يجلس فيه الخائضون ، ويوجب عليهم أن يذكروهم حين يسمعونهم يخوضون .

ورجح الإمام القشيرى ، عدم النسخ بهذه الآية . وذهب إلى أن معناها كما يلى :

وما على الذين يتقون من حساب الخائضين شىء إن أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم - مع ترك مجالستهم - أن يُذَكِّروهم ويعظوهم .

وهذا المعنى هو الذى نرتضيه تفسيرا للآية الكريمة .

فإن سبب النزول المذكور ، لم يرد بسند صحيح .

وعلى هذا الرأى ، يكون الإعراض عن مجالسة الخائضين واجبا . ويُضَمُّ إليه وجوب تذكير أولئك الخائضين قبل الانصراف عن مجلسهم .

(وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾) .

المفـردات :

(ذَرِ) : اتْرُك .

(غَرَّتْهُمُ) : خدعَتْهم .

(تُبْسَلَ نَفْسٌ) : الإبسال ؛ المنع ، ومنه أَسد باسل ، لأَن فريسته لاتفلت منه .

ومعنى (تُبْسَلَ نَفْسٌ) : تُمْنَع من النجاة .

(وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ) : تُفْدِ نَفْسَها كلَّ فداء .

(حَمِيم) : ماء شديد الحرارة . وقد يطلق على الماءِ البارد . والمراد منه فى الآية المعنى الأَول . لقوله تعالى : « . . . وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ »[1] .

التفسير

٧٠ - (وَذَرِ الَّذِين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . .) الآية .

كان المشركون حريصينَ على إحباط دعوة الإسلام . وقد جربوا كلَّ الوسائل ففشلُوا ،

(١) سورة محمد ، من الآية : ١٥

ومن وسائلهم ما مرَّ قريبا . من أنهم عرضوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، إقصاء الفقراء عن مجلسه إذا جلسوا إليه واستمعوا منه مايدعوهم إليه . وكان هدفهم من ذلك : إيقاع الفرقة بينه وبينهم ، وإيغار صدور المؤمنين من نبيهم . إلى جانب احتقارهم . فنهاه الله عن إبعادهم وكرَّمهم ، فاغتاظ المشركون ، وجعلوا يخوضون فى القرآن تكذيبًا واستهزاء ، يريدون بذلك صَرْفَ المسلمين عنه ، فأمرهم الله بالابتعاد عن مَجَالِسِهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

ثم أمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن سفههم ، وألَّا يبالِى بما يقولونه فى شأنه وشأن ما أُنزل عليه ، وأن يمضِىَ فى إبلاغهم دعوة ربه ، ووعظِهم وتذكيرِهم .

وفى ذلك يقول الله :

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) :

أى : واترك ـ يامحمد ـ المشركين الذين جعلوا دينَهم شيئًا يشبه اللعب واللهو ، حيث عبدوا الأوثان وجعلوها آلهة ، وأباحوا أَكْلَ الميتة ، وحرموا البحيرة والسوائب ، وغيرَ ذلك من الأُمور التى لا أثر للجد فيها .

وقيل : المراد بهذه الجملة ؛ أنهم اتخذوا الإسلام ـ دينهم الذى كلفوا به ـ شيئا يشبه اللعب واللهو ، حيث سخروا بكتابه العظيم .

(وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) :

وخدعتهم الدنيا بأَباطيلها ، فركنوا إليها ، وأنكروا البعث لقصور فهمهم ، وضَعْف إدراكهم .

والمقصود من أمره صلى الله عليه وسلم بتركهم : ألا يبالى بأَباطيلهم . بل يمضى فى تذكيرهم ، كما تقدم .

والدليل على ذلك ، قوله تعالى ، عقب هذه الجملة :

(وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) :

وحذِّر بالقرآن ، أُولئك المشركين ، من أن تهلِكَ نفوسُهم بماكَسَبته من الكفر والمعاصى إذ ليس لها ـ من غير الله ـ نصيرٌ أو شفيع ، يدرأُ عنها العذاب .

(وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا) :

العَدل هنا : بمعنى الفداء ، والمعنى : وإن تُفْدِ كلُّ نفس كافرةٌ ذاتها كل فداء من عذاب يوم القيامة ، لا يقبل منها .

وقيل : العدْل هنا مقابل الظلم ، أى وإن تعدلْ كلُّ نفس كافرةٌ فى هذا اليوم ، بأن تتوب من الكُفر وتؤمن بالله ، لا يقبل منها ؛ لأن التوبة - فى الآخرة - غير مقبولة فهى دار جزاء لا دار توبة وعمل .

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

أى : أولئك الذينَ حُبِسوا للعذاب ، وَمُنِعُوا من النجاة بسبب كفرهم ومعاصيهم ، لهم فى جهنم شرابٌ من ماء شديد الحرارة ؛ تتقطَّع منه أمعاؤهم ، ولهم عذاب شديد الإيلام ، بسبب استمرارهم وإصرارهم على كفرهم .

(قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾) .

المفـردات :

(وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا) : ونرجع إلى الوراء بالعودة إلى الشرك . وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

(اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) : ذهبت بهواه وعقله .

(يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى) : المراد بالهدى ؛ الطريق الهادى إلى المقصد . جُعِلَ نفس الهدى ، للمبالغة .

التفسير

٧١- (قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا . . .) الآية .

سبب نزول هذه الآية : على ما رواه ابن جرير وغيره أن المشركين قالوا للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد .

وقيل : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، حين دعاه ابنه عبد الرحمن – قبل أن يعتنق الإسلام – إلى أن يعود إلى عبادة الأصنام .

وفى توجيه الأمر إلى الرسول ، تعظيم لشأن المؤمنين ، أو لشأن أبى بكر . حيث جعلت دعوتهم إلى الشرك ، كأنها موجهة إلى الرسول .

والذى نراه : أنه ثبت – بالقرآن والسنة – أن المشركين ، طلبوا من الرسول كثيرا : أن يترك الدعوة لهذا الدين الحق ، ويرجع إلى عبادة الأصنام ، وأغروه بكافة المغريات فأبى .

وقد أمره الله فى هذه الآية : أن يقنطهم من استجابته إلى ما طلبوه منه ، كما أمره بذلك – فى قوله تعالى : « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »[1] .

وكما دعوه إلى الشرك ، دعوا المؤمنين إليه أيضا . قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ . . . »[2] .

والمعنى : قل أيها الرسول ، للمشركين الذين يدعونك والمؤمنين إلى الشرك : أنعبد من غير الله المتفرد بصفات الألوهية ، ما لا يقدر على نفعنا إن عبدناه ، ولا على ضرنا

---

(١) سورة الكافرون . (٢) العنكبوت، من الآية : ١٢

إن تركناه . . . ومن شأن الإله الحق أن ينفع ويضر فكيف يليق بنا أن نعبد آلهة خالية من النفع والضر ؟

(وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ) :

الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرِّجْل . والرجوع على الأعقاب ؛ هو الرجوع إلى الوراء ؛ إدبارا بغير رؤية موضع القدم . جُعِلَ هذا فى الآية . مثَلاً للعودة إلى الشرك بعد الإيمان ، فنى كليهما ذهَابٌ بلا علم . وتعرضٌ للخطر .

قال العلامة أبو السعود : « والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب . لزيادة تقبيحه . بتصويره بصورة ما هو عَلَم فى القبح » إه .

ومعنى هذه الجملة مع ما قبلها : كيف يليق بنا أن نعبد غير الله : ما لا ينفع ولا يضر وأن نرتد - بإغوائكم - إلى الشِّرْكِ بعد إذ هدانا الله إلى توحيده وطاعته . ونكونَ بذلك الارتداد :

(كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا) :

أى : أن مثلنا فى الإعراض عن الهُدَى والتخبط فى الضلال كمثل الذى ذهبت الشياطين بهواه وعقله ، وأضلته عن سواء السبيل الموصل إلى المقصد السديد ، فأمسى حيرانَ : لا يدرى كيف ينجو من المهالك . ويصلُ إلى غايته ؟! له رفاقٌ لم يستجيبوا إلى استهواء الشياطين ، بل ثبتوا على الطريق المستقيم الهادى إلى الخير ، وجعلوا يدعونه إليه ، يقولون له : ائتنا لتسلم من متاهات الأرض التى ضللت فيها ؟! .

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) :

قل أيها الرسول . لدعاة الضلال : إن هدى الله - وهو الإسلام - هو الطريق الهادى إلى السلامة فى الدنيا والآخرة. وما عداه فهو الضلال المبين ، وأُمرنا باتِّباع هداه ، لنخضعَ بذلك ، ونذعِنَ لرب العالمين .

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَـٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾) .

التفسير

٧٢ - (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

وأمرنا بأن نقيم الصلاة ونؤديها فى أوقاتها ، مستوفيةً لأركانها وشروطها ، وأن نتقىَ الله ونخشاه : فى أمرنا كله . فلا نُقَصِّرُ فى طاعة ، ولا نُلِمُّ بمعصية ، وهو الذى إليه نُجمَع للحساب والجزاء . لا إلى غيره . فعلينا أن نمتثل أمْرَه ، ونجتنب نهيه .

٧٣ - (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) :

أى : وهو الذى خلق السمٰوات والأرض - وما فيهما - خلقا مشتملا على الحكمة الرفيعة . ومنها أن يُعرَف بآياته فيهما فيُعْبَدَ ويُقْصَدَ . ولم يخلقهما عبثا وباطلا ، وقضاؤه المتصف بالحق والصواب - دائما - نافذ . حين يقول لشىء من الأشياء عظم أوْ هَانَ كُنْ وانتَقِلْ إلى عالَم الوجود ؛ فيكون ويوجد بأمره فورا : وفْقَ تدبيره وإرادته ، وله - وحده - الملك يوم يُنْفَخُ فى الصور ، لبعث الخلائق وحشرها وحسابها وجزائها ، حيث يقوم الناس لرب العالمين . هو عالِم كل غائب وحاضر . وهو الحكيم الذى يصيب الحق فيما يفعله ، الخبير بخفايا الأُمور وظواهرها .

واعلم أن الملك لله دائما فى الدنيا والآخرة . ولكن الله أعطى بعض عباده الملك ظاهرا ، وصورة فى الدنيا ، ويوم القيامة لا يجدون لملكهم ظلا ولا أثرا . فلهذا قال سبحانه :

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ) :

أى : له الملك يوم القيامة : ظاهرا وباطنا ، صورة وحقيقة . فلا أثر لغيره فيه بأى وجه من الوجوه .

والصُّورُ : هو القرن الذى يُنْفَخ فيه ، وهو البوق ، والله أعلم بحقيقته . والنافخ فيه : إسرافيل عليه السلام كما جاء فى السنة .

وقيل : إن الصُّورَ جمع صورة . فإنها تجمع عَلى صُور بوزن بوق ، كما تجمع على صُوَر بوزن عُمَر ، وعِنَب ، ويدل على ذلك قراءة قتادة (فى الصُّوَر) بفتح الواو .

والمراد منها : الإيذان ... والنفخ فيها : إرسال الأرواح إليها ، فتقوم لرب العالمين والله أعلم .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾) .

التفسير

٧٤ـ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً . . .) الآية .

أى : واذكر يامحمد ، حين قال إبراهيم لأبيه آزر ـ منكرًا عبادةَ الأصنام ـ أتتخذ أنت وقومك ، الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، آلهةً : تعبدونها من دون الله ؟ .

وآزر : أب لإبراهيم عليه السلام ، كما هو ظاهر النص القرآنى . وكان آزر وقومه يعبدون الأصنامَ ، وَالشمسَ ، والقمر ، والكواكب .

(إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

أى : إنى أراك ـ وَقومك الذين يتبعونك فى عبادتها ـ فى ضلال عن الحق ؛ ظاهر بين . . وفى هذا تبكيت وتقريع لهم على هذا المسلك الذى يتنافى مع مايقتضيه العقل السليم ، والفطرة الصحيحة .

(وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى
فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ
قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى
فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾) .

المفردات :

(جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) : سَتَرَه بظلامه .

(أَفَلَ) : غَرَبَ وغاب .

(بَازِغًا) : مبتدئا فى الطلوع والظهور .

التفسير

٧٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

أى : وكما عرَّفنا إبراهيم ضلال قومه واضحا ، وأريناه الحقَّ فى مخالفتهم ، نُعَرِّفُهُ ونظهر له ملك السمٰوات والأرض ، ليستدل به على وحدانيتنا .

(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) :

أى : وليكون من جملة المصدقين جازما . إذ اليقين أعلى مراتب الإيمان .

٧٦ـ (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ) :

بعد أن بين القرآن ـ فيما سبق ـ يقين إبراهيم بوحدانيته تعالى بما عرفه من مظاهر القدرة والتدبير فى ملكوت الله ، شرع هنا يفصل كيفية استدلال إبراهيم عليه السلام ، ببعض تلك الظواهر لقومه فقال :

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) :

أى : فلما ستره الليل بظلامه ، أبصر كوكبا ظاهرا فى السماء .

(قَالَ هَٰذَا رَبِّى) :

أى : قال ـ مستعظما شأن هذا الكوكب ـ هذا ربى ... مجاراة لقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، وتأليفا لقلوبهم ، حتى بلغوا بقلوبهم إلى التأمل فى موضع الحجة فى قوله :

(فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ) :

أى : فلما غاب هذا الكوكب وأَفَلَ قال : لا أُحب الْآفلين . أى : لا أُحب اتخاذَ الْآفلين أربابًا ؛ لأَن الرب الحقيقى ، الجدير بالربوبية ، يستحيل عليه التغير والانتقال من حال إلى حال ، لأَن ذلك من شأْن الحوادث . . .

فلم ينتفعوا بهذا الاستدلال .

فانتقل إلى الاستدلال التالى فى قوله :

٧٧ـ (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) :

أى : وحين أبصر إبراهيم القمر ـ مبتدئا فى الطلوع والظهور ـ قال مستعظما شأْنه : (هَٰذَا رَبِّى) مجاراة لقومه ، على نحو ماسبق فى الآية قبلها. فلما أفل وغاب ـ قال إبراهيم

عليه السلام : إرشادًا لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من الله تعالى لئن لم يُرشدْنى ربى إلى الحق ويُثبِّتْنى عليه ـ لأكونن من جملة القوم الذين بعُدوا عن الصراط المستقيم .

ولكن هذا الاستدلال أيضا ، لم يثمر فى عقولهم المستغلقة ، فانتقل إلى استدلال آخر :

٧٨ ـ (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) :

أى فحين أبصر إبراهيم عليه السلام الشمس ، مبتدئة فى الظهور والطلوع ، قال مشيرا إلى الشمس : هذا الذى أبصره هو ربى ـ وهو أكبر من الكوكب والقمر ـ قال ذلك ليشد انتباههم إلى التأمل والنظر ، فى التفسيرات الكونية ، حتى يصلوا منها إلى معرفة الإلٓه الصانع القدير ، المدبر الحكيم .

(فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) :

أى : وحين غابت الشمس وحُجبَت عن أعينهم ، قامت عليهم الحجة ، لكنهم لم يؤمنوا بالإلٓه الخالق المدبر لشئون الكون ـ فأعلن إبراهيم عليه السلام حينئذ ، لقومه براءته من جميع معبوداتهم الحادثة المتغيرة ، التى كانوا يشركونها مع الله فى العبادة .

ولما أبطل ـ بالأدلة السابقة ـ ماكانوا يعبدون من دون الله ، وأعلن براءته منها ، انتقل عليه السلام ، إلى إعلان الإيمان الذى استقر فى قلبه حقا ويقينا . فقال :

٧٩ ـ (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى : إنى جعلت قصدى واتجاهى ـ بعد ظهور الحق ـ لعبادة الذى أنشأ السمٰوات والأرض ومافيهما .

(حَنِيفًا) :

مائلا عن الاعتقادات الباطلة ، إلى عقيدة التوحيد المؤيدة بالدلائل .

(وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى : ولست من الذين أشركوا مع الله بعض مخلوقاته فى عبادته .

وبذلك ثبت أن إبراهيم ليس مع قومه فى عقيدتهم .

(وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ
وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ
شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾) .

المفـردات :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) : وجادله قومه .

(وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) : أحاط علمه بكل شيء .

(سُلْطَانًا) : حجة .

(يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ) : لم يخلطوه بشرك .

التفسير

٨٠ـ (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ...) الآية .

بعد أن ألزمهم إبراهيم عليه السلام الحجة على توحيد الله تعالى ، وأفحمهم بظهور الأدلة لم يجدوا وسيلة إلّا المجادلة بالباطل . فقال تعالى حاكياً عنهم :

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) :

أى : جادله قومه بالباطل فى دينه ، وهددوه بالأصنام ؛ أن تصيبه بسوء ، إن هو ترك عبادتها.

(قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ) :

أى : قال منكرا عليهم مجادلتهم – بعد وضوح الحق – أتجادلوننى فى وحدانية الله تعالى ، وقد أرشدنى سبحانه إلى توحيده ، فأصبحتْ حُجَّتُكُم باطلةً لا تُجدى شيئًا ؟ !

(وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ) :

أى : ولا أخشى أن يَنَالَنى سوءٌ من جهة آلهتكم الباطلة ، التى أشركتم بها مع الله .

(إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْئًا) :

أى : لكن إن شاء ربى وقوع شىء من المكروه لى ، فإنه يكون من فعله وحده – ولا دخل لما تشركون به فى ذلك .

(وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) :

أى : أحاط ربى علما بكل شىء . فلا يقع فى ملكه إلا ما شاءه هو . وليست لآلهتكم مشيئة حتى أخافها .

(أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) :

أى : أتُعرِضون عن التأمل فى أن آلهتكم جماداتٌ ، غيرُ قادرةٍ على شىء مّا ، فلا تتذكرون أنها عاجزة عن إلحاق ضرر بى ؟ !

٨١ - (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . . .) الآية .

أى : وكيف أخاف وقوع مكروه لى من جهة آلهتكم مع عجزها - وأنتم لا تخافون إشراككم بالله - أصنامًا لم يُنزل الله عليكم بصدق ألوهيتها حجة وبرهانا ؟!

وبهذا تبين موقفى وموقفكم .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : فأينا فى موقف الأمن من وقوع المكروه الذى تخوفوننا به ؟!

وفى هذا إلجاءٌ لهم إلى الاعتراف باستحقاقه - عليه الصلاة والسلام - الأمن والطمأنينة دونهم .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : إن كنتم تعلمون الحق من الباطل بالتأمل والتعقل ؟!

٨٢ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . . .) الآية .

هذا جواب السؤال السابق فى الآية قبلها . وهو تأييد لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وتحقيقٌ لمدعاه . وبيانٌ واضح لمن يستحق الأمن . وهم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم من الشرك .

(أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ) :

أى : وحدهم .

(وَهُم مُّهْتَدُونَ) :

أى : إلى الطريق المستقيم دون من سواهم .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾) .

المفردات :

(حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) : أى أدلتنا التى أرشدنا إبراهيم إليها .

(حَكِيمٌ عَلِيمٌ) : بالغ الحكمة واسع العلم .

(وَهَبْنَا) : أنعمنا .

(وَاجْتَبَيْنَاهُمْ) : واختبرناهم .

(لَحَبِطَ) : لَبَطُلَ .

(وَالْحُكْمَ) : والقدرة على الفصل فى الأمور ، على أساس من الحق والصواب .

(اقْتَدِهْ) : أى ؛ تَأَسَّ .

التفسير

٨٣- (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ . . .) الآية .

هذه إشارة إلى تلك الدلائل التى أرشد الله إبراهيم ، إلى الاحتجاج بها على وحدانية الله وإبطال شرك قومه ، الذى كانوا عاكفين عليه وهى تبدأُ من قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . » .

وفى هذا ، إشادة بمكانة إبراهيم عليه السلام ، وبالدلائل التى أرشده الله إليها .

وَيَتَأَيَّدُ هذا بقوله تعالى :

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ) :

أى : نُعْلِى منازلَ من نشاءُ رفع درجاته ؛ بإعطائه الحجة البالغة ، والبرهان الواضح جسبا تقتضيه حكمتنا . كما هو شأْننا ، فيا أَرشدنَا إليه إبراهيم عليه السلام .

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ) :

أى : بالغ الحكمة فى كل ما يقتضيه .

(عَلِيمٌ) :

أى : واسع العلم بحال خلقه . فيعلم حال من شاءَ رفعه .

٨٤ـ (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا . . .) الآية .

بعد أن قام إبراهيم بتبليغ من الله إلى قومه بالحجة والبرهان ، وتمت له الحجة عليهم شرع القرآن يعدِّد بعض نعم الله عليه وإحسانِه إليه ، حيث رفع ذريته ، وأبقى فيهم النُّبوة إلى يوم القيامة . فقال تعالى :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى : ومننَّا على إبراهيم بابنه : (إِسْحَٰقَ) (وَيَعْقُوبَ) بعد إسحاق .

(كُلاًّ هَدَيْنَا) :

أى : هدينا وأرشدنا كلاًّ منهما ، للسير على طريقة إبراهيم .

(وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ) :

أى : وهدينا نوحا ـ النبي السابق على إبراهيم ـ إلى التوحيد والدعوة إليه .

وفى ذكر نوح عليه السلام . فى سياق تعداد النعم على إبراهيم ـ إشارة إلى أن شرف الآباء ، نعمةٌ على الأبناء . كما أن هداية الأبناء نعمة على الآباء .

(وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

أى : كما جزيناهم وأحْسَنَّا إليهم بأنواع الكرامات ، نَجْزِى كلَّ محسِن .

٨٥ـ (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وكذلك هدينا : زكريا ، ويحيي ، وعيسى ، وإلياس . كلٌّ واحد مِن هؤلاء الأنبياء ، بعد تقرير هدايته من جملة الصالحين المستقيمين .

٨٦ـ (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) :

أى : وهدينا : إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطا ، عليهم السلام . وفضَّلنا كلَّ واحد من هؤلاء بالنبوة على سائر العالمين فى عصره .

وهؤلاء الذين ذُكِروا فى الآيات من أول قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا . . .) هم من الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم تفصيلا .

وهناك سبعة آخرون ، يجب الإيمان بهم تفصيلا . وقد ذكروا فى مواضع أُخرى من القرآن الكريم ، وقد جمعوا فى قول بعضهم نظما :

إدريس ، هود ، شعيب ، صالح وكذا ذو الكفل ،آدم ، بالمختار ، قد خُتِمُوا

٨٧ - (وَمِنْ آبَآئِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : وهدينا - من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم - جماعات كثيرة .

(وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : واخترناهم ودامت هدايتنا لهم إلى الدين الحق ، دين التوحيد والاستقامة .

٨٨ - (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ . . .) الآية .

أى ذلك الدين الذى أوحاه الله إليهم ، ووفقهم للإيمان به ، ودعوة الناس إليه ، إنما هو هدى الله : يُرشِد إليه من يشاءُ هدايته من عباده .

(وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ولو حصل منهم الإشراك فرضا - وحاشاهم - لبطُلَ وذهب عنهم الذى كانوا يعملونه من الطاعات .

وفى هذا تنويه بشأْن الدين الذى جاءَ به هؤلاءِ الأَنبياءُ جميعا . وضرورة التمسك به .

٨٩ - (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ . . .) الآية .

أُولئك : أى هؤلاءِ الأَنبياءُ المذكورون - باعتبار اتصافهم بالهداية وغيرها من الصفات السابقة - هم :

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) :

أى : أنزلنا الكتاب على بعضهم . وأمرنا البعض بدعوة الناس إلى التمسك والعمل بما نزل على غيره من الأَنبياء .

(وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) :

أى : أقدرناهم على الفصل بين الناس على ما يقتضيه الحق . وأعطيناهم النبوة والرسالة .

(فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) :

الإشارة فى : (هَٰؤُلَآءِ) لأهل مكة وسائر مَنْ كفر بعد تبليغه .

أى : فإن يكفر - بهذه الأمور المذكورة - هؤلاء الكفار وغيرهم ، فإننا قد أعددنا ووفقنا - للإيمان بها ، والقيام بحقوقها - قومًا لم يكفروا بها فى وقت من الأوقات ، بل استمروا على الإيمان بها .

٩٠ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ . . .) الآية .

جمله (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . . .) صفة لما قبلها : (. . . قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) .

والمعنى : هم أولئك الأنبياءُ الذين وفقهم الله تعالى ، إلى منهج الحق ، والخير ، فاقْتَدِ بهم يامحمد ، وسِرْ على طريقتهم : من التوحيد وأصول الدين ؛ لأن دعوة الأنبياء فى أصولها واحدة .

وبعد أن أمره بالسير على طريقة الأنبياء السابقين ، أمره بأن يقول لأمته : إنه لا يثقلهم بطلب الأجر على دعوته إياهم إلى طريق الخير فى قوله :

(قُل لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى : قل يامحمد ، لِأمتك : لا أطلب . منكم أجرا على تبليغكم الدعوة ، وإرشادكم إلى ما أمر الله به .

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) :

أى : ما القرآن ، إلا عظةٌ وإرشاد للثَّقَلَيْنِ : الإنس والجن . فتبليغهم إياه - بدون سؤاله إياهم أجرا - حَقٌّ لهم . . .

(وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن
شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ
تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن
قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ
ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ
عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ
شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ
بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾) .

المفـردات :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) : وما عظَّموه حق تعظيمه .

(قَرَاطِيسَ) : أوراقا مفرقة .

(فِى خَوْضِهِمْ) : فى باطلهم .

(يَلْعَبُونَ) : يَلْهَوْن .

(أُمَّ الْقُرَى) : مكّة . والمراد : أهلها .

(غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) : سكرات الموت وشدائده .

(خَوَّلْنَاكُمْ) : أعطيناكم .

(وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ) : أى فى الدنيا .

(تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) : تَشَتَّتَ جَمْعُكم .

التفسير

٩١ـ (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . .) الآية .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن القرآن نعمة عظيمة ، ينتفع بها جميع الناس ، لما فِيه من الرشد والهداية ، أتبع ذلك ، ببيان جحود الكفار ـ وخاصة اليهود ـ لتلك النعمة فقال تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) :

أى ماعرفوا الله حَقَّ معرفته ، حتى لاينكروا إنعامه عليهم : بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

(إِذْ قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) :

أى حين قالوا ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ـ وقد خاصموه فى القرآن . مبالغين بغير حق ـ فى إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألزمهم الله بما لاسبيل إلى إنكاره أصلا . فقال لهم :

(قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَى) :

أى قل لهم يامحمد ، رَدًّا عليهم : مَن الذى أنزل التوراة على موسى ؟

وإنما اختار لإلزامهم إنزال التوراة على موسى ، لأنه معترف به ومسلم عندهم ، بدون جدال .

(نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ) :

أى أنزلنا التوراة ، واضحة فى نفسها ، مرشدة للناس إلى الطريق المستقيم .

(تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) :

أى - ومع وضوحه وظهور دلالته - تكتبونه فى أوراق مفرقة ؛ ليسهل عليكم إظهار ماتريدون اطلاع الناس عليه ، وإخفاءُ الكثير من أحكامه وشرائعه ، مما لاتحبون معرفة الناس له ، إرضاءً لشهواتكم .

(وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ) :

أى : وعلمكم الله - على لسان محمد صلى الله عليه وسلم - زيادة على ما فى التوراة ؛ بيانًا لما التبس فَهْمُهُ عليكم وعلى آبائكم ، الذين كانوا أعلمَ منكم .

ومصداق هذا قوله تعالى : « إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »(1)

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) :

أمر الله نبيه - عليه السلام - أن يجيب بجواب لاجواب سواه ، عن الذى أنزل الكتاب على موسى . . . إنما أنزله الله تعالى . ثم أمره - بعد هذا الجواب - أن يهملهم ويتركهم وخوضهم فى باطلهم ، حيث لم تنفع معهم الحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة .

٩٢ - (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا . . .) الآية .

أى : هذا القرآن : كتاب الله المشتمل على ماينفع الناس ، منزلٌ من الله تعالى على محمد ، عظيمُ النفع ، كثيرُ الفوائد ، موافقٌ للكتب التى سبقته فى التوحيد ، وفى تنزيه الله ، وفى أُصول العقائد ، ليكون وسيلةَ إنذار لأهل مكة ، وسائر الناس .

---

(1) النمل ، آية : ٧٦

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

أى : والذين يصدقون بالآخرة تصديقا يُعْتَدُّ به ، ويرجون لقاء الله ، هم الذين يصدقون بالقرآن وينتفعون به . فيحملهم ذلك على المحافظة على صَلَاتهم ، وعلى سائر ما أمرهم الله به من التكاليف .

وتخصيص الصلاة بالذكر ، لأنها عِمادُ الدين .

٩٣ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . . .) الآية .

بعد أن بين الله الفريق الذى اهتدى ، وآمن ، وأدى التكاليف - بيَّن - سبحانه - فى هذه الآية ، الفريق الذى افترى على الله الكذب .

والمعنى : لاأحدَ أشدَّ ظلما ، ممن افترى على الله كذبا ، ادعاء للنبوة ، كمسيلمة الكذَّاب وأمثاله .

(أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللهُ) :

أو ادَّعى نزول الوحى عليه . ولم ينزل عليه شيء . أو ادَّعى - باطلا - القدرةَ على إنزال مثل ماأنزل الله على محمد من القرآن . وهيهات أن يتم له ذلك . فإن الله تعالى يقول :

« قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1]

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) :

بعد أن بيَّنت الآية حالهم الباطل فى الدنيا ،انتقلت إلى بيان حالهم - عند قرب انتقالهم من الدنيا ، وما يعقب ذلك من أهوال وشدائد .

(١) الإسراء ، الآية : ٨٨

والمعنى: ولو ترى يامحمد ، وقت حلول شدائد الموت وأهواله بهؤلاء الظالمين، ورسل الموت المكلفون بقبض أرواحهم تمتد أيديهم مبسوطة إليهم : أن ينزعوا أرواحهم من أجسادهم ويلقوها فى أيدى الملائكة . قائلة لهم – إيلاما وتهكما – انزعوا أرواحكم من أجسادكم ، لأنكم اليوم تُجْزَوْن عذاب الهُون ، بسبب تقوُّلِكم على الله غير الحق ، واستكبارِكم عن الانقياد لآياته . والإيمان بالله وحده !!!

أى: لو ترى يامحمد ذلك – لرأيت أمرًا شديدا ، تقصر العبارة عن وصفه ! ! !

٩٤ – (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . .) الآية .

أى: ويقول الله لهم ، إذا بُعثوا : لقد جئتمونا منفردين عن الأهل والمال والولد والسلطان – كما أوجدناكم – فى أوَّل حياتكم الأُولى – بدون مال ولامتاع ولاولد .

(وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ) :

أى : وتركتم ما أعطيناكم من النعم فى الدنيا ، ولم تحملوا منها – معكم – شيئًا .

(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ) :

أى : ويقال لهم توبيخا ؛ وقَقدتم أنصاركم ، فما نرى منهم أحدا معكم . وقد كنتم تزعمون أنهم – فى استحقاق عبادتكم لهم – شركاءُ لله .

(لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) :

أى : لقد انفصمت الروابط بينكم ، وتَشتَّتَ جَمْعُكم .

(وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

أى: ذهب وضاع منكم الذى كنتم تزعمونه فى الدنيا ، من أنهم شفعاء لكم عند الله ، ومن أنه لا بَعْثَ . ولا جزاء ، ولاحساب .

(إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾) .

المفردات :

(فَالِقُ) : الفَلْق ؛ الشق .

(النَّوَى) : ما فى داخل الثمرة ؛ تمرا أو غيره .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ) : يخرج النبات الحىَّ من التربة الميتة ، والزرعَ من الحبِّ ، والشجرَ من النوى .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : فكيف تُصْرَفون عن عبادته !

(الْإِصْبَاحِ) : الصبح والضياء .

(سَكَنًا) : يُسْكَن فيه من تعب النهار .

(حُسْبَانًا) : يُحسَبُ بهما الأوقات .

(ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : ظلمات الليل فى البر والبحر .

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) : فلكم مكانُ استقرار فى الأَصلاب ، واستيداع فى الأَرحام . أَو العكس .

(يَفْقَهُونَ) : يفهمون .

(خَضِرًا) : أَخضر .

(مُتَرَاكِبًا) : رُكِّب بعضه فَوق بعض .

(قِنْوَانٌ) : الْقِنْوُ ؛ ما يحمل من التمر وهو كالعنقود للعنب .

(وَيَنْعِهِ) : ونُضْجِه .

التفسير

٩٥ـ (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . . .) الآية .

هذا شروع فى بيان قُدْرَةِ الله تعالى العجيبة : الدالة على كمال علمه ودقة تدبيره ، ولطيف صنعه وحكمته . جاءَ بعد تقرير أَدلة التوحيد ، ونفى الشركاء والشفعاء؛ فقال تعالى :

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) :

يخبر الله تعالى عباده : أَنه يَشُقُّ الحَبَّ والنَّوى فى التراب ، فتنبت الزروع ، على اختلاف أَصنافها ، من الحبوب ، والثمار على تنوع أَشكالها وأَلوانها وطعومها ، من النوى .

(يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ) :

هذا تفسير لما تقدم ، فهو يخرج النبات الحى مما يمتصه من عناصر التربة الأرضية الميتة ، كما قال تعالى : « وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ »[1] .

(وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ) :

فهو يخرج الخلايا الميتة من النبات والحيوان . كما يخرج الأظافر والشعر وبقايا الغذاء من الخلايا الحية من الإنسان والحيوان ، وحينما يموت النبات والحيوان والإنسان تتحلل أجسامها جميعا فتعود إلى العناصر الترابية التى كانت قد تكونت منها . وهى بضعة عشر عنصراً على اختلاف فى النسب بين الحيوان والنبات .

(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ) :

أى : صاحب هذه الأفعال العجيبة ، هو الله ذو القدرة العجيبة ، المستحق للعبادة دون سواه .

(فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) :

أى : فكيف تُصرَفُون عن الحق ، وتعدلون عنه إلى الباطل . فتعبدون – مع الله – إلَها آخر :

٩٦ – (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ . . .) الآية .

أى : هو خالق الضياء ، الذى يشق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضىء الوجود ، ويستنير الأفق عن حكمةٍ وسعةِ رحمةٍ . فكلٌّ لنا به حاجة وذلك دليل القدرة التامة ، حيث أوجد الأشياء المتضادة لحاجة حياتنا إليها . مما يدل على حكمته ، وكمال عظمته ، وعظيم سلطانه .

(وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) :

أى : يسكن فيه الإنسان والحيوان ، ليستريح من عناء العمل فى النهار .

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٣٣ ، ٣٤

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا) :

أى : وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر : لا يتغير ، ولا يتبدل ، وبهما تُحْسَبُ الأوقات ، التى تؤدَّى فيها العباداتُ والمعاملات .

(ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) :

أى : ذلك الذى تقدم من ظهور الإصباح ، وجعْل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا - جارٍ وحاصلٌ ، بتقدير العزيز الذى أحسن كل شيء خلقه ، وأبدع تصويره .

(الْعَلِيمِ) :

الذى وسع علمه كل شيء . فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقد وردت هذه الخاتمةُ كثيرا فى القرآن . بعد ذكر خلق الليل والنهار والشمس والقمر مما يدل - دلالةً واضحة - على أن هذه الكائنات من أقوى الأدلة على سعة الله ، وعظيم تدبيره .

٩٧ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . .) الآية .

أى : وهو الذى أوجد النجوم : لهدايتكم فى ظلمات الليل فى البر والبحر . وفى ذلك بيان لبعض آثارها الكونية .

ومن آثارها النافعة : ما ذكر فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِين . . . »[1] الآية . ولا يزال العلم يبحث عن أسرارها فيكشف جوانب من آياته - تعالى - فى هذه الأجرام .

أما مَنْ يحاولون كشْفَ أستار الغيب عن طريق هذه النجوم ، فهم مخطئون مخالفون لتعاليم الإسلام .

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

أى : قد بَيَّنَّاهَا ووضحناها لقومٍ يعلمون معانيهَا ، ويعملون بموجبها ، لِيُتَّبَع الحق ، ويجتنب الباطل .

---

(١) سورة الملك ، من الآية : ٥

٩٨ - (وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .) الآية .

وهذا تذكيرٌ بنعمة الإيجاد من العدم .

أى : وهو الذى أوجدكم من نفس واحدة ؛ هى آدم عليه السلام .

(فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) :

أى : فلكم استقرارٌ فى الأصلاب . أو فوق الأرض . واستيداع فى الأرحام ، أو فى القبر. أو : الاستقرارُ ؛ فى الأرحام ، والاستيداعُ ؛ فى الأصلاب .

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) :

أى قد بيَّناها لمن يفهمون ويَعُون كلام الله وما احتواه من المعانى .

وختمت الآية الأولى . بقوله : (يَعْلَمُونَ) والثانية بقوله : (يَفْقَهُونَ) لأن الإنشاء من نفس واحدة . ألطف وأدقّ تدبيرًا وصنعةً . فكان ذكر الفقه - الذى هو استعمال الفطنة . وتدقيق النظر - مناسبا له .

ذكر مع النجوم العلم . لأن النظر فى أحوالها : لا يحتاج إلَّا إلى العلم . ولَفْت الذهن إليها .

٩٩ - (وَهُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً . . .) الآية .

هذا تذكير بنعمة أخرى من نعمه الجليلة . الدالة على كمال قدرته .

والمراد من الماء : المطر . ومن السماء : السحاب . والماءُ ينزل بقدر : رزقًا للعباد ، ورحمةً من الله بخلقه .

(فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ) :

أى فأخرجنا بسبب هذا الماء كلَّ صنف من أصناف النبات المختلفة . التى ينتفع بها الإنسان والحيوان : « فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[1] .

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ - ٣٢

(فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) :

هذا شروع فى تفصيل ما أجمله ، من إخراج النبات .

أى : فأخرجنا – من النبات – شيئا غضًّا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة .

(نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) :

أى : نخرج من ذلك النبات الأخضر، حبا رُكِّب بعضه فوق بعض ، كما فى السنبل من القمح والشعير .

(وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ) :

وهذا تفصيل حال الشجر بعد النبات .

أى : ومِن طلع النخل ، قنوانٌ يحمل ثمرها ، ويكون فى متناول الأيدى . وهو الدانى القريب . أو فى غير متناول الأيدى . وهو البعيد . . وَنَبَّهَ على الأُولى ، لزيادة النعمة فيها .

والقِنْوَان . مما يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع . مثل : صِنْو ، وصِنْوَان .

(وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ) .

أى : ونخرج منه جناتٍ من أعناب .

وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز . وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا. وقد امتن الله بهما على عباده ، فقال تعالى : « وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا »[1] وكان ذلك قبل تحريم الخمر . وقال سبحانه وتعالى : « وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . »[2] .

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) :

أى : وأخرجنا الزيتون والرُّمان مشتبهًا فى الورق ، فهو قريب الشكل بعضه من بعض . وغير متشابه فى الثمار : شكلا وطعما وطبعا . مما يدل على كمال قدرة خالقها ، وحكمة مبدعها . جلَّ جلاله .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٧٧ (٢) سورة يس ، من الآية : ٣٤

(ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ) :

أى : انظروا نظَرَ اعتبار وَتبصُّرٍ - إلى ثمر الزَّيتون والرُّمان ، إذا أخرج ثمره : كيف يخرجه صغيرا ضئيلا ، لا يكاد ينتفع به ، وإلى حال نضجه ، حيث يصبح ذا نفع عظيم ولذة كاملة .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَـٰتٍ) :

إنَّ فيما أُمرتم بالنظر إليه لَدَلائلَ كثيرةً عظيمة ، على وجود القادر العظيم ، وحكمه ووحدته .

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

لِقَوم يصدقون به ، ويتبعون رسله .

وخَصَّ المؤْمنين بالذكر ؛ لأَنهم هم الذين انتفعوا بذلك ، دون غيرهم .

ووجه دلالة ذلك على وجود إِلٰه حكيم قادر واحد : أَنَّ حدوثَ هذه الأَصناف المختلفة المتشعبة من أَصل واحد ، وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع - لابد أَن يكون بأَحداث صَنَعَهَا صانع حكيم ، يعلم تفاصيلها .

(وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾) .

المفردات :

(الْجِنَّ) : المراد بهم ؛ الشياطين . أَو ما يعمهم والملائكة .

(وَخَرَقُوا) : أَى اختلقوا ، وافْتَرَوْا .

التفسير

١٠٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ . . .) الآية .

بعد ما تقدم من النعم الجليلة ، التى أبدعها الله عز وجل - وهى دالة على توحيده - وَبَّخ مَنْ أشرك به سبحانه ، وعَبَد غيرَه ، وردَّ عليه بقوله :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ) :

أى : وَصَيَّرُوا الجن شركآءَ لله ، حيث اعتقدوا ذلك . وقالوا : إن الملائكة بنات الله . وتسميتهم جنا ، لاجتنانهم واستتارهم عن الأَعين .

أَو المراد بهم : الشياطين ، حيث أَطاعوهم كما يطاع الله تعالى . وعَبدوا الأَصنام وغيرهم : بوسوستهم وتحريضهم .

انظرْ إلى قول الملائكة يوم القيامة : « . . . سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ »[1] .

(وَخَلَقَهُمْ) :

أى : اتخذوا له سبحانه ، شركاءَ ، وقد خلقهم وحده . فلا يصح أن يُعْبَدَ سواه .

(وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى : واختلقوا وافْتَروْا لله سبحانه ، بنين وبنات ، بغير علم بحقيقة ما يقولون . ولكن جَهْلاً بالله وبعظمته إذ لا ينبغى - ما دام إلٰهًا - أَن يكون له بنون وبنات ، أَو صاحبة، أَو أَن يشاركه أحدٌ فى خلقه .

وفى هذا تنبيه على ضلال من ضل ، بادعاءِ أن له ولدًا ، كما يزعم اليهود . حيث قالوا : عزير ابن الله . وكما قال النصارى : المسيح ابن الله . وكما زعم المشركون من العرب فى قولهم : الملائكة بنات الله .

---

(١) سبأ ، من الآية : ٤١

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تَقَدَّس وتنزَّه وتعاظم الله عز وجل ، عما يصفه به الجهلة الضالون ، من نسبة الأولاد والأنداد والشركاء إليه . تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا .

(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾) .

المفردات :

(بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : منشئهما ابتداءً . من غير مثال سبق . وهو صيغة مبالغة . من بَدَعَهُ ؛ بمعنى : اخترعه .

(أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ) : من أين يكون له ولد . أو كيف يكون له ولد ؟

(صَاحِبَةٌ) : زوجة .

(وَكِيلٌ) : تستعمل هذه الكلمة بمعنى : حفيظ . وبمعنى : مَنْ يُوكَلُ إليه الأمر ، ومن يتولاه . . وكلٌّ تصح إرادته هنا .

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) : إدراك الشيء ؛ الوصول إليه ، والإحاطة به .

(الْأَبْصَارُ) : جمع بصر . وهو حاسَّة النظر . وقد يطلق على العين . لأنها محلُّ النظر والإبصار .

(اللَّطِيفُ) : العليمُ بدقائق الأُمور وخوافيها . وقد يراد منه : المحسن . وهو المناسب هنا لإِفادته معنى جديدا .

أَما المعنى الأَول فهو داخلٌ فى عموم معنى الخبير . إذ معناه : العليم بالظواهر والخوافى .

التفسير

١٠١ - (بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ...) الآية .

المعنى : الله مبدع السَّمَٰوَاتِ والأَرض ، بلا مثال يحتذيه ولا شريك يُعينه ، فكيف يكون له ولد - كما يزعمون - ولم تكن له زوجةٌ تصاحبه يأْتى منها الولد ؟!

وخلق كل شىء من الموجودات ، حتى ما زعموه ولدا ، والمخلوق لا يكون ولدا ، وهو بكل شىء عليم . ومن كان كذلك ، فإِنه يعلم ما افْتَرَوْه على الله من البُنُوَّة وسوف يُجْزَوْنَ على افترائهم أَسْوَأَ الجزاء .

وفى الآية دليل على نَفْىِ الولد عن الله تعالى ، من وجوه :

أحدها : أَن من مبدعاته : السموات والأَرض . ومَن كان كذلك ، لا يصح أَن يكون له ولد . لأَن ما ادعوْه ولدا ، لا يقدر على مثل ذلك . ومِنْ شأْن الولد . أَن يكون قادرا على مثل ما يقدر عليه أَبوه .

ثانيها : أَن مِنْ شأْن الولدِ أَن يتولَّد من ذكر وأُنثى متجانسين . والله تعالى ، منزه عن المجانسة والمشابهة ، فلهذا ، لا تكون له زوجة يأْتى منها الولد .

ثالثها : أَن الولد الذى ادعوه ، مخلوقٌ لله تعالى . فقد خلق - سبحانه - كلَّ شىء وهو من جملته . والمخلوق لا يكون ولدًا للخالق ، ولا يسمى به بل يسمى مخلوقا .

رابعها : أَن الولد يشبه أَباه ، والله بكل شىء عليم . فى حين أَن ما ادَّعوه ولدا ، ليس كذلك . فلا يصلح أَن يكون ولدًا لله . لأَنه فقد صفته ، وهى العلم بكل شىء .

١٠٢ – (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) :

أى : ذلكم الموصوف بهذه الصفات الجليلة . هو الله المستحق وحده للعبادة .

(رَبُّكُمْ) :

أى : مالك أموركم دون غيره .

(لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) :

أى : لا معبود – بحق – سواه .

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) :

أى : ما كان منه وما سيكون . فلا يصلح – سواه – أن يكون ولدا له ، يُعبدُ معه . ويقدس تقديسه ، لعدم مشابهته له تعالى ، فى تلك الصفات . فإن مِنْ شأن الولد أن يشبه أباه فى صفاته .

وإذا كان الأمر كذلك . فاعبدوا الله وحده – غير مشركين به ، ولا متخذين له ولدا . والله – مع كل هذه الصفات الجليلة – وكيل ، أى متولٍّ أمورَ خلقه ، قوامٌ عليها . يحفظها من الخلل بعد أن منحها أسباب الوجود . فلا يصلح غيره أن يُعبدَ معه ، أو أن يكون له ولد .

١٠٣ – (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) :

إدراك الشيء : الوصول إليه والإحاطة به .

ولهذا يقول سعيد بن المسيب فى معنى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) : لا تَصل إليه الأبْصارُ ولاتحيط به .

ومعنى الآية مجتمعة : لا تَصِل إلى الله الأبصارُ ولا تحيط به . والله هو الذى يحيط بالأبصار ، ويعلم دقائقها وخفاياها . وهو الرفيق بعباده ، المحسن إليهم ، العليم بظواهر الأمور وخوافيها .

وقد استدل المعتزلة بالآية الكريمة ، على امتناع رؤية البشر لله تعالى .

ولا حجة لهم فيها .

إذ ليس الإدراك مطلقَ الرؤْية ، حتى يكون نفيه نفيا لها ، بل هو رؤْيةٌ مع شمول وإحاطة . وذلك هو المنفى ، فلا مانع من الرؤْية لله - دون إحاطة وشمول - مع نفى الكيف عنها ، فإن الرؤية غير منفية ، إذ نفى الخاص ، ليس نفيًا للعام .

ولا مانع من أن يخلق الله فى البصر قوة غير عادية ، يمكن بها رؤية البارئ سبحانه وتعالى ، بدون مستلزمات رؤْية الحوادث .

وقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ : لا تضامُّون فى رُؤْيَتِه . . . »[1] الحديث .

(قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾) .

المفـردات :

(بَصَآئِرُ) : جمع بصيرة ، وهى : النور الذى تبصر به النفس والقلب . أما البصر : فهو نور العين .

وأُطلقت البصائر على آيات القرآن ، تشبيها لها بها ، فى إظهار الحق .

---

(١) أخرجه البخارى وغيره .

(نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) : نبينها ، أو ننقلها من نوع إلى نوع . مأخوذ من الصرف ، وهو : نقل الشيء من حال إلى حال .

(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) : اللام فى (لِيَقُولُوا) لام الأمر . وقد كسرت . وتؤيده قراءة أخرى بإسكانها .

(دَرَسْتَ) : تعلّمْتَ .

(حَفِيظًا) : حارسا . من حَفِظَهُ بمعنى : حرَسَه .

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) : أى : لست وكيلا فى أمر جزائهم . فدعهم إلى الله .

التفسير

١٠٤ - (قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) الآية .

قد جاءكم أنوارٌ لقلوبكم من مالك أمركم ومربيكم . وتنبعث هذه الأنوار من آيات القرآن الذى أنزله إليكم . فَمَنْ رأى الحق ببصيرته فى ضوئها ، فاهتدى إليه ، وآمن به - فنَفْع ذلك راجع لنفسه ، عائد عليها . إذ أنه - بذلك - ينجو من العقاب ، وينعم فى جنات النعيم . ومَنْ تعامى عن الحق يحاول أن يبصره فى ضوئها - فضلّ وكفر - فضرر ذلك عائد على نفسه ، راجع إليها . إذ أنه سيعاقَب بالخلود فى النار .

(وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) :

أى : يحفظكم من الضلال ، ويمنعكم من الغواية . فلم يكلفنى الله بذلك . وإنما كلفنى بالتبليغ والإنذار . وقد فعلت .

١٠٥ - (وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

ومثل ذلك التبيين والتنويع . نبيّن وننوع الآياتِ القرآنيةَ الكاشفة عن الحق لنلزم المعارضين الحجة .

ولا عليك يامحمد ، أن يفتروا الكذب ، ويقولوا : دَرَسْتَ كُتُبَ أهل الكتاب وأنشأْتَ منها هذا القرآن . ولكى نبينه لقوم يتصفون بالعلم والفهم - نُصَرِّف آياتِهِ فينتفعوا بهداه ، ويؤمنوا برسوله ، دون جدال بالباطل .

وجملة : (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) : جملة طلبية كما بيَّناه فى المفردات.وقد جاءت معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، للمسارعة إلى تسلية النبي . صلى الله عليه وسلم ، عن معارضتهم .

فإن المراد منها : ألَّا يَعْتَدَّ بما يقولون من الأكاذيب . فقد زعموا : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، درس على أهل الكتاب ، وتَعلَّمَ منهم ، وألَّف القرآن ، وفقًا لما أخذه عنهم . مع أن مكة خالية من أهل الكتاب ، ولم يَلْقَ صلى الله عليه وسلم أحدا منهم فيها ، ولا فى غيرها ، كما أنه عليه السلام أُمِّيٌّ . والقرآن فوق طاقة البشر جميعا . ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فبذلك تكون دعواهم ظاهرة البطلان ، ولا تستحق أن يبالى بها النبي صلى الله عليه وسلم .

(وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[(١)] :

والمعنى ولنبيِّن أنه قرآن من عند الله لمن يعلَمون ذلك حق العلم من أهل الكتاب – لنلزمهم الحجة ، ولعلهم يرشدون .

١٠٦ – (اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

اتبع ما يوحى إليك من ربك : اعتقادًا.وقولًا وعملًا . وأعرض عن أقوال المشركين . ولا تبالِ بافترائهم وتكذيبهم . وامضِ فى تبليغهم ما أوحيناه إليك .

١٠٧ – (وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

ولو أراد الله عدم إشراكهم ما أشركوا ، بأن يحملهمْ على الهدى ، ويلجئهم إلى الإيمان ولكنه تركهم لما يدور عليه أمر التكليف وهو الاختيار .

ولمّا تركهم لاختيارهم ، لم يحسنوا الانتفاع بآياته ، فتخلى عن معونتهم .

(وَمَا جَعَلْنَاكَ) : يامحمد (عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) : قَيِّمًا وحارسًا ، يحفظهم من الشرك ، حتى تؤاخذ بشركهم .

---

(١) هذه الجملة معطوفة على مقدر . أى نصرف الآيات لنلزمهم الحجة ، (ولنبينه لقوم يعلمون) وجملة (وليقولوا درست) معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم .

(وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ) :

أى : عنا فى أمر جزائهم فدع أمرهم لنا . فنحن أعلم . بأعمالهم وأقدر على جزائهم . ولا تشغل نفسك بغير تبليغهم . « .. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ .. »[1] .

(وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾) .

المفردات :

(وَلَا تَسُبُّوا) : السب ؛ الشتم .

(عَدْوًا) : اعتداء وتجاوزا للحق .

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى بقدر جهدهم وطاقتهم فى أيمانهم .

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ) : ونحول قلوبهم .

(يَعْمَهُونَ) : يتحيرون .

التفسير

١٠٨ - (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ..) الآية .

(١) الشورى ، من الآية : ٤٨

سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن المسلمين كانوا يَسُبُّون آلهةَ المشركين ، ويذكرون قبائحها . فنهوا عن ذلك ؛ لئلا يستتبع سبهم لها ، أن يفعل المشركون مثله ، فى حق الله تعالى .

وقال ابن عباس : قالت قريش لأبى طالب : إما أن تَنْهَى محمدا وأصحابه عن سَبِّ آلهتنا والغض منها ، وإما أن نسُبَّ إلٰهه ونَهْجُوَهُ . فنزلت الآية .

والخطاب فى قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا) للمؤمنين .

والمعنى : ولا تسبوا الآلهة الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، فيسبَّ المشركون الله تعالى : اعتداءً وتجاوزا للحق ، بغير علم منهم بما يجب له سبحانه ــ من التعظيم والإجلال.

والتعبير عن الأصنام بكلمة : (الَّذِينَ) مع أنها لا تعقل ، مجاراة لأسلوب معتقديها (١) .

وحكم هذه الآية باق .

فمتى كان الكافر فى مَنَعَة ، وخِيفَ أن يسبَّ الإسلام ــ أو النبىَّ صلى الله عليه وسلم أو الله عز وجل ــ فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولاكنائسهم . أو يتعرض إلى مايؤدى إلى ذلك . لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وفى الآية دليل على وجوب سدّ الذرائع . إ هـ من القرطبى .

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) :

ومثلما زينا لهؤلاء عملهم القبيح ، زيَنَّا لكل أُمَّة عملهم من الخير والشر .

قال ابن عباس : زينا لأهل الطاعة الطاعة ، ولأهل الكفر الكفر .

والمراد من تزيين الله الأعمال لكل أُمة : أن يخلق الأسباب التى تجعل أعمالهم محببة إلى نفوسهم . فيتقبل كل منهم ــ باختياره ــ على مايوافق ميله وهواه : من طاعة أو معصية . ولذا نسب العمل إليهم فى قوله سبحانه .

---

(١) ومن المفسرين من قدر مضافا ، مراعاة لأن كلمة (الذين) لا تستعمل ــ غالبا ــ إلا فى العقلاء . أى ولا تسبوا آلهة الذين يدعون . وفيه تكلف . وقال أبو السعود : ولا تشتموا الذين يعبدون آلهة من دون الله ــ من حيث عبادتهم لآلهتهم ــ كأن تقولوا : تبا لكم ولما تعبدون . وما ذكرناه فى الشرح ، هو اختيار القرطبى .

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

ثم إلى مالك أمرهم رجوعهم بالبعث بعد الموت . فيخبرهم ويجزيهم بما كانوا يعملونه باختيارهم : من طاعة أو معصية . وفقا لما تأثرت به نفوسهم ، وكسبته أيديهم من دواعى هذه الأعمال .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الأعمال تظهر لبعض الناس فى الدنيا بغير صورتها الحقيقية : التى تكون لها فى الآخرة .

فالكفر والمعاصى – مع كونها سموما قبيحة قاتلة ، شائهة – تبدو فى الدنيا ، بصورة تستحسنها نفوس الكفرة والعصاة .

والإيمان والطاعات ، تظهر لديهم فيها على العكس من ذلك .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجنَّةُ بالْمَكارِهِ . وُحفَّتِ النارُ بالشَّهَوَاتِ » . فإذا بعثوا يوم القيامة عَرَّفهم الله الأعمال بحقائقها ، وجزاهم على تقصيرهم . وهذا هو قوله سبحانه : (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

١٠٩ – (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا . . .) الآية .

سبب نزولها – على ماذكره القُرَطِىُّ وغيره – أن قريشا قالت : يامحمد ، تخبرنا أن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . وأن عيسى كان يُحْيِى الموتى وأن ثمود كانت لهم ناقة .. فائتنا ببعض هذه الآيات حتى نُصدقك . فقال : « أىُّ شىء تحبون » ؟ قالوا : اجعل لنا الصفا ذهبا . فوالله ، إن فعلت لنتبعنك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو . فجاءه جبريل فقال : « إن شِئْتَ أَصبح ذهبا : ولئن أرسل الله آية ولم يصدقوا عندها ، ليعذبنهم ، فاتركهم حتى يتوبَ تائبهم .. » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل يتوب تائبهم » فنزلت هذه الآية .
وجَهْدُ اليمين : أَشَدُّها ، وغايتها التى بلغها علمهم ، وانتهت إليها طاقتهم وقدرتهم .

وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم . وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ، ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى . كما أخبر الله عنهم بقوله :

« . . . مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »[1] .

وكانوا يحلفون بالأصنام والآباء وغير ذلك .

وكانوا إذا حلفوا بالله سموه جهد اليمين . ذكر ذلك القرطبي .

والمعنى : وأقسموا بالله ـ جاهدين فى أيمانهم ، بالغين فيها غاية الطاقة ـ لئن جاءتهم معجزة كونية من جنس آيات المرسلين السابقين ، ليؤمنن بها . .

ولا ريب أن طلبهم هذه الآيات ، ناشىء عن تماديهم فى العناد ، فإن القرآن : هو الآية العلمية التى تخضع لها شم الجبال ، وتلين لها الصخور .

وكان عليهم ـ لو كانوا طلاب حق ـ أن يؤمنوا بها ، ويقفوا عند حدودها .

فكيف وقد انضم إليها عديد من المعجزات الكونية : كانشقاق القمر ،وحنين الجذع ، وتَبْع الماء من بين أصابعه الشريفة ، ونزول المطر ، ورفعه ؛ بدعائه صلى الله عليه وسلم .

ولهذا ، لم يستجب الله لما طلبوا ، وأمر نبيَّهُ أن يغلق باب اقتراح الآيات . فقال :

(قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المقترحين : إنما الآيات عند الله ، فهو صاحب المشيئة والأمر فى شأنها : يتصرف فيها كما يريد حسب حكمته البالغة . وليس لأحد مشيئة فيها ولا قدرة عليها حتى يمكننى أن أحققها لكم بأى وجه من الوجوه. وقد حقق لكم من الآيات ما ينبغى لتأييد رسالتى . فسؤالكم آيات أخرى ، ما هو إلا مكابرة وعناد .

---

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٣

وصدق الله إذ يقول : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . . . »[1] .

ثم خاطب الله المسلمين : مبينا الحكمة فى عدم تحقيق مطالبهم ، التى أشار إليها هذا الجواب . فقال تعالى :

(وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : وما يعلمكم – أيها المؤمنون – أن الآيات التى طلبها المشركون – إذا جاءت – كما طلبوا – لا يؤمنون بما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وقد بين الله – بهذه الجملة – أن أَيْمَانَهم فاجرةٌ . وأنهم لا يؤمنون إذا حُقِّق لهم ما طلبوه .

وإنما خاطب الله المسلمين بقوله : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ) ؛ لأنهم تَمَنَّوْا تحقيقها ومجيئها ، طمعا فى إيمانهم .

وكأن الله تعالى ، يقول لهم : أنتم لا تعلمون أنهم لا يؤمنون بعد مجيئها . فلذلك تمنيتم تحقيقها ، طمعًا فى إيمانهم . فكأن الله تعالى – إذ يقول – يبسط عذر المسلمين فى تمنيهم .

١١٠ – (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...) الآية .

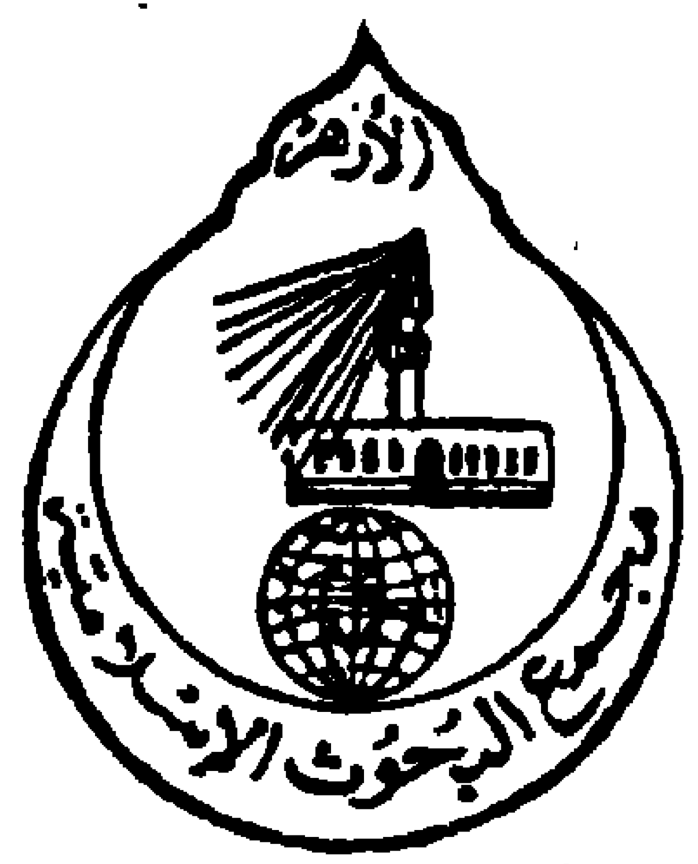
معطوف على قوله : (لَا يُؤْمِنُونَ) داخل معه فى حكم ما يشعركم مقيَّدٌ بما قُيد به

والمعنى : وما يشعركم أيها المؤمنون ، أننا نقلب ونحول قلوبهم عن الحق فلا يعرفونه . ونقلب كذلك أبصارهم عن معالمِهِ فلا يبصرونه ، ولا يؤمنون به . كما لم يؤمنوا به أول مرة حينما جاءهم القرآن ، والآيات السابقة . ونحن نتركهم فى طغيانهم يتحيرون ، فلا يهتدون لفساد طويتهم .

وقدْ دلّ قوله تعالى : (وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) على أن تقليبه تعالى لأفئدتهم وأبصارهم – ليس بطريق الإجبار والقهر – مع توجههم إلى الحق – بل بأن يُخلِّيَهم وما انطوت عليه نفوسهم من الطغيان ، ونعوذ بالله من ذلك .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ٥١



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الخامس عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٧

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾) .

المفـردات :

(حَشَرْنَا) : جمعنا وعرضنا .

(قُبُلًا) : أى مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم ، أو هو جمع قابل بمعنى : مقابل لحواسهم . أو جمع قبيل بمعنى : كفيل – أو جمع قبيلة بمعنى : جماعة .

التفسير

١١١ – (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا . . .) الآية .

بينت الآيتان السابقتان : أن كفار مكة – وهم المشركون – اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم – لإيمانهم به – آياتٍ كونيةً غير ما أَيَّدَهُ الله به ، وأن الله كَذَّبهم فى دعواهم الإيمان . إذا أنزلها .

وجاءت هذه الآية الكريمة ، تؤكد إصرارَهم على الكفر ، مهما نزل لهم من الآيات .

والمعنى :(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ) مؤيدة للنبي صلى الله عليه وسلم ، بحيث يرونهم عِيَانا ، ويسمعون تأْييدهم لرسالته

(وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ):شاهدين بصدق نبوته ،بعد أن أحييناهم كما طلبوا بقولهم: « ائْتُوا بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] وجمعنا كل شيء من الآيات الكونية : مقابلة ومواجهة – لو فعلنا كل ذلك – ما كانوا ليؤْمنوا مستجيبين لهذه الآيات ، إلا أن يشاء الله . وهيهات ذلك ، وهم مُصِرُّونَ على الكفر والعصيان .

---

(١) سورة الجاثية ، من الآية: ٢٥

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) : فيقترحون الآياتِ سَفَهًا ، دون رغبة فى الإيمان .

وصدق الله إذْ يقول : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ »[١] .

وأجاز بعضهم أن يكون المعنى : ولكنَّ أكثرَ المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون . فلذا يقترحون نزول الآية طمعا فى إيمانهم .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾) .

المفردات :

(شَيَاطِينَ) : جمع شيطان ، وهم المتمردون من الجن أو الإنس .

(يُوحِى) : يُوَسْوِسُ .

(زُخْرُفَ الْقَوْلِ) : أى القول المزيَّن ظاهره ، الباطل باطنه .

(وَلِتَصْغَىٰٓ) : ولتميل .

(أَفْئِدَةُ) : قلوب .

(وَلِيَقْتَرِفُوا) : وَلِيَكْتَسِبُوا القبائح .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦

التفسير

١١٢ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... ﴾ الآية .

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى ، حال أولئكَ الذين طُبِعَ على قلوبهم ، بسبب إصرارهم على الكفر والطغيان – سلَّى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ببيان أنَّ ماحدث من تكذيب قومه له ، سبقت أمثاله مع الرسل السابقين .

والمعنى : وكما جعلنا لك – يامحمد – أعداء يخالفونك ويعادونك – جعلنا لكل نبي من قبلك – أيضا – أعداء من شياطين الإنس والجن ذوى الضرار ، يلقى بعضهم إلى بعض القول المزين ظاهره ، الفاسد باطنه .

ومن ذلك ما ألقاه شياطين الجن فى نفوس شياطين مكة . من اقتراح آيات خاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ :

ولو شاء ربك ألَّا يحدث من قومك ما كان منهم ، من اقتراح الآيات – عنادا – بتزيين شياطينهم إليهم – ما كانوا يفعلون ذلك . ولكنه – تعالى – تخلَّى عنهم لانصرافهم عنك . . . . فاتركهم وما يفترونه عليك فى شأن رسالتك ، فإننا سنجزيهم على افترائهم أشد الجزاء ، وسنثيبك على صبرك أحسن الثواب .

التفسير

١١٣ – ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَاهُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ :

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ .... ﴾ .

والمعنى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغُرُّوهم ، ولِتَمِيلَ إليه قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضَوهُ لأنفسهم ، بعد ما مالت إليه أفئدتهم ، وليكتسبوا ماهم مكتسبون من القبائح بمقتضى ارتضائهم لها .

وقد جعل عدم إيمانهم بالآخرة ، سببا لإصغائهم إلى شياطين الإنس والجن ، وما يزخرفونه لهم من الكفر والمعاصى ؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون البعث والحساب والجزاء - لفكروا فيما يلقيه الشياطين ، ولخافوا سوء عاقبته .

(أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾) .

المفردات :

(أَبْتَغِى) : أطلب .

(حَكَمًا) : حاكما يفصل بينى وبينكم .

(مُفَصَّلًا) : مبيَّنا .

(الْمُمْتَرِينَ) : الشاكِّين .

التفسير

١١٤ - (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ...) الآية .

لما بين اللهُ فى الآيتين السابقتين : أنهم يستمعون إلى زخارف الشياطين ، ويصغون إليها فى شأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أَتبعَ ذلك بيان أن الله هو الذى يحكم على ماهم فيه بأنه باطل ، وعلى ما جاءهم به الرسول بأنه حق ، بما أنزله إليهم من كتابه الْمُعْجِز ؛ ليكون آية لهم على ذلك .

والمعنى : قل لهم يامحمد : أيصح أنْ أطلب غير الله حكما يفصل بينى وبينكم ، فَيُظهِرَ بَاطلَكم الذى اعتمدتم فيه على زخارف الشياطين ، ويُبيِّنَ الحق الذى جئتكم به مؤيدا بالبراهين ، وهو – سبحانه – الذى أنزل إليكم القرآن مفصلا ومبينا فيه الحق والباطل . . ولا حَكَمَ خيرٌ منه !!

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ) :

والذين آتيناهم الكتاب – من علماء اليهود والنصارى – يعلمون أن القرآن هو الحق من ربهم ، بما جاء فى كتبهم من التنويه به ، والنصِّ على رسالة محمد الذى جاء به : اسما ونعتا ، وإن كفروا به وكتموه : « ... حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... »(١) .

وَمَنْ هذا شأنه ، فكيف أَعدِلُ عن حكومته – فى كتابه المفصل – إلى حكومة غيره : « ... إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ »(٢) .

وقيل : المراد من الذين أُوتوا الكتاب – مَنْ آمَنَ بالرسول من علمائهم . فلذلك استشهد الله بهم ، لأنهم لا يكتمون مَا عَلِمُوه فى شأنه من كتبهم ، فإنه هو الذى حدا بهم إلى تصديقه ، وترك ما كانوا عليه من دينهم .

(فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) :

الخطاب – هنا – لكل أحد . على معنى أن الأدلة على كون القرآن منزلا بالحق – من الله سبحانه وتعالى – قد بلغت من الوضوح والقوة ، بحيث لا تترك مجالا للافتراء والشك فيها من أحد من العقلاء .

فكأنه يقول : فلا تكونن – أيها العاقل – من المتشككين فى كون القرآن منزلا من ربك بالحق ، وأنه هو الْحَكَمُ بين الرسول وبين الكافرين .

١١٥ – (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

المراد بـ(كَلِمَةَ رَبِّكَ) : القرآن الكريم . والمفرد إذا أضيف : يعم ، فكأنه قيل : (كَلِمَاتُ رَبِّكَ) وبها قرئ .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٠٩ (٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٧

والمعنى : وتمّ كتاب ربك الذى أنزله إليك ، صادقا فى أخباره ووعده ووعيده ، عادلا فى أحكامه ... فقد بلغ الغاية القصوى فى ذلك ؛ لا مبدل لهذا الكتاب . فهو محفوظ بعناية الله تعالى ، من عَبث العابثين ، وتبديل المبدلين . كما قال تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] فهو - بذلك - مخالف لما سبقه من الكُتب السماوية التى لحقها التبديل ، وأضاع أصلها التغيير . فطمست فيها معالم الحقائق الدينية ، التى تبيِّن صدق الرسول فيما جاء به ، وتظهر وحدانية الخالق وتنزهه عن الجسمية ، وسائر صفات البشرية .

وإنما تكفَّل الله بحفظ القرآن دون غيره ؛ لأنه تضمّن شريعة الله الباقية إلى قيام الساعة ، الصالحة لكل زمان ومكان . بخلاف ماتقدمه من الكتب ، فإنه كان لوقت محدود .

ثم ختم الله الآية بقوله :

(وَهُوَ السَّمِيعُ) : أى عظيم السمع لما يقال ، وفى جملته ما افترَوْهُ عَلى القرآن العظيم .

(الْعَلِيمُ) :أى واسع العلم بكل ما كان وما يكون . وفى جملته ما أضمروه من العداوة لكتابه ورسوله : وسعيهم فى إبطال دينه .

وحيث كان سميعا لأقوالهم الفاسدة ، عليما بنياتهم وأحوالهم الخبيثة ، فإنه - قطعا - سيجزيهم بما يستحقون من سوء العقاب .

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾) .

المفردات :

(إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون فى عقائدهم وأحوالهم إلّا التخمين الباطل .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

(وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : وما هم إلا يكذبون على الله سبحانه . وأصل الخرص : الظن والتخمين . ومنه خرص النخل وهو تقدير ما عليها من التمر ظنا .

التفسير

١١٦ - (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...) الآية .

بعد أن بيَّن الله تعالى ، أن كتابه الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الْحَكَمُ الفاصل بين الحق والباطل ، والعدل والظلم - جاءت هذه الآية ، للحض على التمسك بما جاء فيه ، وطرح ما عداه ، مما يُضل عن سبيل الله .

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، والمراد به : كل من يصلح للخطاب ، والمراد : بـ (أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ) : الكفار أو أصحاب الهوى ، وهم يمثلون أكثرية البشرية .

والمعنى : (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ) فى عقائدهم وأهوائهم (يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) الذى شرعه لعباده متسما بالصدق والعدل .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : ما يتبع أكثر الناس إلا الظن المفضى إلى الباطل الذى لا يستند إلى دليل ، وما هم إلا يكذبون على الله ، فى عَزْوِ أحكامهم إليه تعالى ، افتراءً وزورًا .

ومن ذلك زعمهم : أن الله اتّخذ ولدًا ، وأن الأوثان تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفَى ، وأن الله أحلَّ أكْلَ المَيتةِ ، وشَرَع البَحيرةَ والسائِبة .

ويجوز أن يكون المعنى : وما هم - فيما يزعمون من الآراء الفاسدة - إلا يتوهمون أنهم على شَيْء وجانب من الحق ، دون أن يكون لهم على ذلك دليل وبرهان .

وأصل الْخَرْصِ : الحَدْسُ والتَّخْمِين . ومنشؤه الظن : « ... وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »[1] والخارص يقطع بما لا يمكنه القطع به ، إذ لا يقين عنده . وكثيرا ما يتعرض للخطإ والكذب فى التقدير . ولذلك استعمل فى الآية بمعنى الكذب .

(١) سورة النجم ، من الآية : ٢٨

والخَرْص – وإن جاز فى بعض المعاملات[1] ، وفى تقدير الزكاة فى الرطب والعنب بتقديرهما تمرا وزبيبا ، وإخراج الزكاة وفقا لهذا التقدير . إلا أنه – فى العقائد – لا يجوز ؛ لأنها لا تبنى إلا على الدليل القطعى .

١١٧ – (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

إن ربك هو أعلم بمن يبتعد عن سبيله ، وينحرف إلى العقائد الزائفة ، والأهواء الباطلة . وهو أعلم بالمهتدين إلى دينه العاملين بشرعه . فاحذر – أيها المكلف – أن تكون من الضالين ، وكن – دائما – من المهتدين .

(فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾) .

التفسير

١١٨ – (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) :

كان المشركون المكيُّون – وقد ذكروا فى هذه السورة عشرين مرة – يأكلون مما ذكِر اسم أوثانهم عليه عند ذبحه ، ويأكلون الميتة ، ويمتنعون من ذبح البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الإبل ، ويحرمون ذبحها وأكلها . زاعمين أن الله شرع ما أحلوا وما حرموا ، فأنزل الله هذه الآية آمرا المسلمين أن يخالفوهم ، فيأكلوا مما ذكر اسم الله

(١) كالعرايا : وهى أن يشترى تمر النخلات لطعام أهله رطبا بخرصها تمرا للحاجة إليه ، وقد رخص فيها الرسول صلى الله عليه وسلم . أخرج البخارى عن زيد بن ثابت « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فى العرايا أن تباع بخرصها كيلا ، قال موسى بن عقبة : والعرايا : نخلات معلومات تأتيها فتشتريها » .

عليه من الذبائح ، ولو كانت من هذه الأصناف الأربعة ، وأن يقتصروا فى التحريم على ما حرمه الله عليهم ، إلا ما اضطروا إليه اضطرارا .

والمعنى : فكلوا - أيها المؤمنون مما ذُكِرَ اسم الله عليه من الماشية والطير عند ذبحه ، إن كنتم مؤمنين بآياته التى أنزلها فى شأن المطاعم وغيرها ، فإن شأن المؤمن : أن يمتثل ما أمره به مولاه سبحانه وتعالى .

١١٩ - (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ...) الآية .

المعنى : وأى غرض لكم فى تَرْك الأكل مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه ، والتحرج من تناوله ، إذا كان مما حرّمه المشركون زورا وافتراء على الله ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فإنها حلال فى شرع الله ، كسائر ما يذبح من الماشية والطير ، مذكورا عليه اسم الله ، وقد فصل الله لكم ما حرم عليكم فى قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... »[1] .

فكونوا عند حدود الله ، فلا تعتدوها . لكن ما اضطررتم إلى أكله من المحرمات ، فإنه حلال لكم ، بقدر الضرورة التى تحيا بها النفس .

(وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

وإن كثيرا من الكفار ليُضِلُّونَ الناس بتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، بأهوائهم الزائفة ، وشهواتهم الباطلة ، بغير علم مستند إلى وحيِ الله تعالى .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) :

فى هذه الجملة وَعيدٌ لمن يعتدون على شريعة الله ، والعبث بها : بتحريم ما أحل ، وتحليل ما حرم .

والمعنى : إن ربك هو أعلم بما يفترونه عليه من ذلك ، فيجازيهم عليه شَرَّ الجزاء .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ »[2] .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٣

(٢) سورة النحل ، الآية : ١١٦

(وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾) .

المفـردات :

(وَذَرُوا) : واتركوا .

(ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) : أى الذنب الظاهر والخفى .

(يَقْتَرِفُونَ) : الاقتراف ، الاكتساب مطلقا ، ولكنه فى الإساءة أكثر .

التفسير

١٢٠ - (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ...) الآية .

واتركوا الذنب ظاهره وباطنه : جَهْرَهُ وخَفِيَّهُ ، إن الذين يكسبون الإثم - بنوعيه - سيجزيهم الله بما كانوا يكتسبون منه ، على حسب درجته من القبح « ...وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

١٢١ - (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ...) الآية .

ولا تأكلوا - أيها المؤمنون - مما لم يذكر اسم الله عليه من الحيوانات . وإن الأكل منه لخروج عن طاعة الله تعالى وإثم ، إذا ذكر عليه اسمُ غَيْرِ الله أو كان ميتة . فإن

(١) سورة الكهف ، من الآية : ٤٩

الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم بالباطل ، ويزينوا لكم أكله لتطعموهم ، ومن ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره ، فقد أشرك بالله .

وظاهر الآية يقتضي تحريم مالم يذكر اسم الله عليه - عمدا أو نسيانا - ولو من المسلم . وإليه ذهب داود الظاهرى وأحمد بن حنبل .

وقال مالك والشافعى : لو ترك المسلم التسمية - ولو عمدا - جاز أكل الذبيحة ؛ لأنه وإن لم ينطق اسم الله الكريم بلسانه ، فقلبه مؤمن به ذاكرٌ له .

وفرّق أبو حنيفة بين العمد والنسيان ، فحرّم أكْلَ ما تُرِك ذِكْرُاسْمِ اللهِ عليه عمدا ، وأحَلَّ ماتُرِكَ سَهْوًا ونسيانا .

وعلى هذه المذاهب تكون الآية محمولة على ماذكر اسْمُ غير الله عليه والميتة ؛ لأنهما كانا موضع الجدال بين المشركين والمؤمنين . فاتجه النهى إليه . ويعززه قوله تعالى : « قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ ... » الآية[1] .

(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾) .

المفـردات :

(أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) : أَوَ مَنْ كان كافرا فهديناه؟ جعل الكفر موتا ، والهداية إحياءً .

التفسير

١٢٢ - (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) :

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ وسيأتى تفسيرها .

أشارت الآية السابقة - إلى أن طاعة المشركين ، قد تؤدى بالمؤمنين إلى الشرك .

وجاءت هذه الآية لتؤكد التحذير من متابعتهم .

والمعنى : لستم أيها المسلمون مثل المشركين حتى تتبعوهم فى جاهليتهم .... فإن الله أحياكم بالهداية بعد موتكم الروحي بالكفر والشرك ، وأنعم عليكم بأن جعل لكم نورا تمشون به فى الناس ، بما أنزله إليكم من أنوار القرآن والهَدْيِ النبوي . فهل يصح لكم أن تتبعوا من يعيشون فى الظلمات ؟!

أَوَ مَنْ كَان فى غَيِّه وضلاله ميتا ، فأحييناه بالهُدَى ودين الحق ، كمن صِفَتُهُ أنه غارق فى الظلمات ليس بخارج منها ؟!... فإذا كان الفرق بينهما كبيرا ، والبَوْنُ شاسعا ، فلا يليق بكم أن تتركوا نوركم ، وتتبعوهم فى ظلامهم .

(كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : مثل ما زين الله للمؤمنين إيمانهم وأعانهم عليه ، بعد ما أخذوا بأسبابه ، ترك - سبحانه وتعالى - الكافرين لشياطينهم: يزينون لهم ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي ، وتخلى عنهم حين انصرفوا عن هُدَاه . كما قال تعالى : « ... ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »[1] .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾) .

التفسير

١٢٣ - (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا) الآية .

وكما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها كذلك . . .

---

(١) سورة التوبة ، من الآية : ١٢٧

فإن كبار الشريرين ، هم الذين يضعون أسس الشر ، ليمكروا بالناس ويضلوهم عن سواء السبيل . . . وذلك أمر مشاهد ملموس . . فلا ينبغي للعاقل الفطن ، أن يتبع زعماء الشرّ فى غوايتهم . بل يتدبر فيما يعود بالخير على نفسه أو على الناس فيتبعه ، وفيما يعود بالشر - عليه أو عليهم - فيتنكب طريقه . فقد بين الله نَدَامَةَ الذين يتبعون الكبراء يوم القيامة فقال سبحانه : « وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا »[1] .

وإنما جعل الله أكابر المجرمين فى كل قرية ليمكروا فيها ، امتحانا لعباده ، كما امتحنهم بشياطين الجن ، حتى يظهر الصادق فى إيمانه من الكاذب ويجزىَ الله كلاًّ بما هو أهله .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ... »[2] .

(وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) :

وما يعود وَبَالُ مكرهم إلا عليهم ، وما يشعرون بذلك ، لفرط جهلهم وقصر نظرهم .

قال تعالى : « ... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... »[3] .

والآية مسوقة ، لتسلية الرسول عما يلقاه من مكر عتاة المشركين .

(وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾) .

المفـردات :

(أَجْرَمُوا) : اكتسبوا جرما ، والجرم : الذنب .

(صَغَارٌ) : ذل وهوان .

---

(١) سورة الأحزاب ، من آية : ٦٧

(٢) سورة الفرقان ، من الآية : ٢٠

(٣) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

التفسير

١٢٤ - (وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ...) الآية .

فى هذه الآيةِ ، رجوع إلى بيان حال مجرمى أهل مكة ، بعدما بين فى الآية السابقة -بطريق التسلية- أن حال غيرهم أيضا كذلك ، وأن عاقبة مكر المجرمين فى مكة - وغيرها - ما ذكرته تلك الآية .

وسبب نزول هذه الآية : أن الوليد بن المغيرة ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقا ، لكنت أولى بها منك ؛ لأنى أكبر منك سنًّا ، وأكثر منك مالا .

فأنزل الله تعالى الآية .

وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه قال : زاحَمَنَا بنو عبد مناف فى الشرف ، حتى إذا صرنا كفرَسَىْ رهان ، قالوا : منا نَبِىٌّ يُوحَى إليه ... واللهِ ، لا نؤمن به ، ولا نتَّبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه . فأنزل الله سبحانه الآية .

المعنى : وإذا أُنزلت على النبى صلى الله عليه وسلم آية ، تدعو قريشا إلى الإيمان بما جاءهم به ، امتنعوا عن الإيمان به : حسدا واستكبارا . وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتَى من الوحى ، مثل ما أُوتِىَ رسل الله ، وتكونَ لنا بذلك نبوة ، كما لبنى عبد مناف . . . وإلا ، فلن نؤمن بمحمد . . .

وقد جهل هؤلاء ، حيث ظنوا أن الرسالة تأتى بالاشتهاء وَتَتَبّع العصبيات . وما دَرَوْا أنها لا تكون إلا لمن هو أهل لها . . والله - وحده - هو الذى يعلم المستحق لها ، حيث يجعل فيه رسالته ، ويعهد إليه بهداية البشر .

ثم بيّن الله مآل أولئك المستكبرين ، فقال تعالى :

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) :

أى : سيصيب أولئك المستكبرين المجرمين ، ذلة عند الله بدل العزة التى أمَّلوها

بالاشتراك فى النبوة . ويصيبهم - إلى جانب ذلك - عذاب شديد بسبب مكرهم بنبي الهدى ... « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... »[1] .

(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾) .

المفـردات :

(حَرَجًا) الحرج : شدة الضيق . وفعله حَرِجَ حَرَجًا ، من باب تَعِبَ تَعَبًا . وقد وُصِفَ الصَّدرُ بالحَرَجِ الذى هو المصدر ، للمبالغة . والمراد : أنه شديد الضيق.

(الرِّجْسَ) : العذاب ، أو ما لا خير فيه .

(دَارُ السَّلَامِ) : دار المسالمة . والمراد بها : الجنة .

التفسير

١٢٥ - (فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ ...) الآية .

الشرح فى اللغة معناه : الفتح والشق . وشَرْحُ الصَّدْرِ للإسلام : كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مُهَيَّأَةً لحلوله فيها ، مُحَصَّنَةً مما يمنعه وينافيه .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم ، حين سُئِلَ عن هداية الله تعالى حيث قال : «نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فى قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَتِحُ» فقالوا : هل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ فقال : «نَعَمْ . الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالإِعْرَاضُ عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ»[1] .

والمعنى : فمن يرد الله أن يهديه للحق ويعينه عليه ، يشرح صدره ويهيء نفسه لقبول الإسلام ، لما علمه من حسن استعداده له ، وسعيه فى قبوله . ومن يرد أن يضله ويبعده عن الحق ، يجعلْ صدره ضيقا شديد الضيق ؛ لتمسكه بضلاله : لا يبغى به بديلا .

وقد وَصف الله تَبَرُّمَ الضالِّ عن الحق وضيقه به ، أبلغ وصف ، حيث قال تعالى : (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَآءِ) .

ولا شك أن تكلُّفَ الصعود فى المراقى الصعبة ، يثقل على القلب ، ويجهد الصدر أيما إجهاد . فكان شأن الكافر المصرِّ - فى صعوبة تقبله للإسلام - كشأن هذا الذى يتكلف الصعود فى المراقى الصعبة فى ضيق صدره وحرجه[2] .

(كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : كما جعل الله صدر أولئك المشركين ضيقا عن قبول الإسلام حيث تخلى عن معونتهم . وتركهم للشيطان : يضلهم ويقويهم بسبب إصرارهم . . . يفعلُ مثل ذلك فى أمثالهم : الذين لا يؤمنون ، ويصرون على الكفر ، فيترك الشيطان مسلطا عليهم ، ولا يلطف بهم . والعياذ بالله تعالى .

وخلاصة الآية : أن من تقرب إلى الله سبحانه أعانه ، ومن بَعُدَ عنه خذله .

١٢٦ - (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) :

أى : وهٰذا القرآن ، المشتمل على الآيات المفصلة لعقائد الإسلام وشرائعه ، هو طريق ربك الموصل إلى مرضاته : مستقيما لاعوج فيه - قد بينا آياته مفصلة لقوم يتذكرون بمواعظه ، ويزدجرون بزواجره .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود ، ذكره ابن كثير ص ١٧٤ ج ٢ ط عيسى البابى الحلبى .

(٢) من المسلم به علميا : أن الإنسان ، كلما ارتفع فى طبقات الجو ، أحس بضيق شديد . والطيارون يعرفون ذلك . ولاريب أن هذا كان غير معروف وقت نزول القرآن . فحديثه عن ذلك ، يعتبر من آيات إعجازه .

١٢٧ - (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أي : لمن يتذكر بآيات القرآن العظيم ، دار السلامة من كل المكاره - وهي الجنة - فلا يعتريهم فيها خوف ، ولا يصيبهم مكروه : « لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[١] .

وهذه الدار ذخيرة لهم عند ربهم ، لا يعلم كنه عظمتها سواه تعالى . وهو متولى أمورهم فيها بعنايته وتكريمه ، من أجل ما كانوا يعملونه فى دنياهم من الأعمال الصالحة . ابتغاء مرضاته .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[٢] .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾) .

المفردات :

(يَامَعْشَرَ) المعشر : الجماعة المختلطون بالعِشرة .

(مَثْوَاكُمْ) : مقركم ومآلكم .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٨ (٢) سورة السجدة، الآية : ١٧

التفسير

١٢٨ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ . . . ﴾ الآية .

تحدثت الآية السابقة ، عن أن دار السلام مثوى المؤمنين .

وجاءت هذه الآية لتبين أن النار مثوى الكافرين .

والمعنى : وذَكِّر الخلائقَ – يامحمد – يوم يحشر الله الثقلين – جميعا – إلى ساحة القيامة ، فيوبِّخ شياطين الجن قائلا لهم : ياجماعة الجن المفسدين ، قد استكثرتم من إغواءِ الإنس وإضلالهم ، فلم تكتفوا بضلالكم وكفركم ، بل تجاوزتموه إلى إغواءِ الإنس ، حتى وَالَوْكُم وَتَبِعوكم .

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ :

أى وقال أولياؤهم الذين تبعوهم ، وتأثروا بإغوائهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ، فقد سمعنا لإغوائهم ، ومتَّعنا أنفسنا بإشباع شهواتنا ، بما زينوه لنا من الآثام ، واستمتعوا هم بنجاحهم فى إضلالنا عن سبيل الرشاد والصواب : فمِنَّا من كذبُوا رسلك ، وأنكروا الآخرة ومافيها من بعث وحساب وجزاء . . . ومِنَّا من ارتكب – دون ذلك – من الآثام .

وبعد هذا الإقرار الذى لم يجدوا عنه محيصا ، قالوا – فى ندامة وحسرة :

﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ :

أى : وصلنا إلى يوم القيامة ، الذى أَجَّلته لحسابنا وجزائنا ، حيث بُعثنا ، وظهرت لنا قبائح أعمالنا التى نستحق العقاب عليها ؛ لتركنا صراطك المستقيم .

﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ :

قال الله تعالى : يخاطب الجن والإنس ،بعد اعترافهم بقبائحهم : النار مقركم ودار إقامتكم ، خالدين فيها ، لا تخرجون منها ، إلا من شاء الله إخراجه ، من الذين كانت آثامهم دون الكفر . فإنهم يخرجون منها ، عندما يتفضل الله تعالى ، بالإذن بخروجهم .

أما الكافرون فخلودهم فى النار أبدى : « يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ »[1] .

ثم يختم الله الآية بقوله :

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

ليبين أنه تعالى ، لا تخفى عليه خافية من سيئات أعمالهم ، وأنه حكيم فى عقابهم حسب درجات عصيانهم : «... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[2] .

١٢٩ - (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) : ومثلما استمتع الجن بإغواء الإنس ، واستمتع الإنس بتقبل إغوائهم - نترك الظالمين من الإنس والجن فى كل عصر وجيل ، يتولى بعضهم بعضا ، بالإغواء والإفساد - ونتخلى عنهم فلا نخلصهم من آثاره بسبب كسبهم المعاصى ، واختيارهم لها وإصرارهم عليها . ولذا لاتجد راعيا ظالما إلا مع رعية ظالمة .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ »[3] .

ويفهم من ذلك : أن صلاح الرعية ، يستتبع صلاح راعيها .

(يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾) .

(١) سورة المائدة الآية : ٣٧ (٢) سورة الكهف ، من الآية ٤٩ (٣) سورة الزخرف ، الآية : ٣٦

المفردات :

(يَا مَعْشَرَ) المعشر : جماعةٌ أمرهم واحد .

(يَقُصُّونَ) : يتلون .

(وَغَرَّتْهُم) : وخدعتهم .

التفسير

١٣٠ ـ (يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ...) الآية .

جاءتْ هذه الآية ، لتقريع الجن والإنس ـ فى الآخرة ـ على معاصيهم ، إثر بيان أنهم يشتركون فى المظالم والمعاصى فى الدنيا .

وقد أفادت الآية : أن الجن مكلفون بشرائع الله كالإنس ، وأن الله تعالى يوبخهم ويعاقبهم على عصيانهم الرسل ، كما يوبخ الإنس ويعاقبهم .

ولَم يثبت إرسال أحد من الجن إلى أقوامهم .

فالظاهر أن المراد بالرسل فى قوله تعالى : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) هم الرسل الذين يبعثهم الله من الإنس ، فيكون الجن مكلفين بالإيمان بهم ، والعمل بشرائعهم كالإنس .

ومعنى كونهم منهم : أنهم بعثوا من بين الإنس والجن . فهم مرئيون لهم مشاهَدون منهم . وليسوا غرباء عنهم .. فلا شك أن رسل الإنس كذلك بالنسبة إلى الجن .

وقال ابن عباس : رُسُل الجنِّ ، هم الذين بلّغوا قومهم ، ما سمعوه من الوحى ..

ويدل على ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ »[١] .

وقال مقاتل والضحاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس .

وليس لدينا من السنة ما يثبت ذلك أو ينفيه . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٩

والمعنى : يخاطب الله الجن والإنس ـ يوم القيامة ـ موبخا ، فيقول : يا جماعة الجن والإنس ، ألم يأتكم رسلٌ من بينكم : تعرفون صدقهم وأمانتهم ، وتفهمون قولهم ، وليسوا غرباء عنكم ، حتى تنكروا عليهم ما جاءوكم به ... وهؤلاء الرسل كانوا يتلون عليكم آياتى ويُخَوِّفُونَكم لقائى فى يومكم هذا ؟ !

(قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) :

أى : قال كفار الجن والإنس ـ بعد ماسمعوا توبيخ الله لهم ـ شهدنا على أنفسنا بأن رسل الله جاءونا ، فلم نؤمن بهم ، ولم نصدق قولهم .

وقد بيَّن الله سبحانه السرّ ، فيما اندفعوا إليه من الكفر والمعاصى ... والمعنى : وخدعتهم الحياة الدنيا فاطمأنوا إليها ، ورفضوا العمل للآخرة . ذلك الذى دعاهم الرسل إليه ، وشهدوا على أنفسهم فى الآخرة ـ أسفًا وندما ـ أنهم كانوا فى الدنيا كافرين .... فلذا استحقوا توبيخ الله وعقابه .

١٣١ ـ (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) :

الإشارة فى قوله : (ذَٰلِكَ) راجعة إلى ماتقدم ذكره . من بعثة الرسل إليهم ، وإنذارهم سوء العاقبة .

والمعنى : ذلك الذى تقدم من إرسال الرسل: كان لأن سنة الله تعالى : ألا يُهْلِكَ قوما وهم غافلون عن سوء عاقبة ماهم عليه من الكفر .. فلذا ، بعث إليهم الرسل لِيُبَصِّرُوهم وينذروهم ، حتى يقطعوا أعذارهم .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] ، ويقول سبحانه: « وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى »[2] .

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٥

(٢) سورة طه ، الآية : ١٣٤

١٣٢ - (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) :

أى : ولكل من المكلفين ، درجاتٌ متفاوتةٌ من أجل ما عملوه فى دنياهم ؛ من طاعة أو معصية .

فأهل الطاعة ؛ ينعمون بدرجات الجنات ، حسب تفاوتهم فى طاعتهم .

وأهل المعصية ؛ يعاقَبُونَ بالنار ، حسب تفاوتهم فى معصيتهم .. فالكافرون فيها مخلدون. وعصاة المؤمنين يخرجون بعد انتهاء مدة عقابهم . وما ربك بغافل عن أعمالهم : قليلها وكثيرها ... فكلها معلومٌ لديه تعالى ، ومسجل فى كتب أعمالهم ، كما قال الله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا »[1] .

وقد بينت هذه الآية ، عدل الله تعالى ، بين عباده فى جزاء الآخرة ، كما بينت الآية التى قبلها عدله - سبحانه - فى جزاء الدنيا .

(وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾) .

المفردات :

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) : ومَا أنتم بمعجزين طالبكم.. فلا تقدرون على الإفلات من عقابه الذى توعدكم به .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على تمكنكم فيما أنتم فيه ، بقدر ما تستطيعون .

(١) سورة النبأ ، الآية : ٢٩

التفسير

١٣٣ - ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ...﴾ الآية .

بعد أن بين الله تعالى ، عدله بين عباده فى جزاء الآخرة ، عقَّبه بذكر رحمته فى معاملة عباده ، حيث أمهلهم وأنذرهم ، ولم يُعَجِّل بعقوبتهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ولا يَغْتَرُّون بإمهالهم فإنَّ أخذه لشديد أليم .

والمعنى : وربك - يامحمد - هو الغنى عن عباده ، وعن طاعتهم له ، وهو صاحب الرحمة بعباده ، حيث بعث إليهم رسله مبشرين ومنذرين وناصحين ، فإن أحسنوا فلأنفسهم ، وإن أساءوا فعليها . ولايعود على الله تعالى ، من ذلك شيء .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه حديثا قدسيًّا . رواه أبو ذر رضى الله عنه ، جاء فيه : «يَاعِبَادِى ، إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضُرِّى فَتَضُرُّونِى ، وَلَن تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنفَعُونِى ... يَاعِبَادِى ، لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ ، مَّا زَادَ ذَٰلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا ... يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ ، مَانَقَصَ ذَٰلِكَ مِن مُلْكِى شَيْئًا ... » الحديث .

وبعد أن ذكر الله - عزَّ وجلَّ - رحمته بإرسال الرسل ، هدد المشركين بالإهلاك ، إن هم استمروا على كفرهم . فقال تعالى :

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ :

أى : إن يشأ يهلككم بسبب كفركم ، ويأت بخَلَف لكم من بعدكم أطوع منكم . فهو - سبحانه - قادر على ذلك ، مثلما أنشأكم من ذرية قوم آخرين من قبلكم .

١٣٤ - ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ :

بعد أن بين الله فى الآية السابقة : أنه الغنى عن أعمال خلقه ، وأنه رحيم بهم ، وأنه لو شاء أن يذهبهم ويستبدل بهم آخرين لفعل ... ولكنه يؤخرهم إلى أجل لاريب فيه - بين

لهم فى هذه الآية : أنما يدّعونه من البعث والجزاء حق ، وسيأتى لامحالة ، ولن يفلتوا من هذا الجزاء ؛ لأنهم لايعجزون الله تعالى . فهو القادر على الإعادة إن صاروا ترابا وعظاما نخرة . كما قال تعالى : « إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ »[1] .

١٣٥ - (قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

بعد أن بين الله لهم : أن الجزاء آتٍ ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لهم : استمروا على ما أنتم عليه ، فإنى مستمر على ما أنا عليه من دعوتكم إلى الحق ، وأن العاقبة ستكون لى عليكم فى الدنيا والآخرة .

والأمر فى قوله تعالى : (اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) للتهديد والإنذار .

والمعنى : قل يامحمد ، لهؤلاء الجاحدين المعاندين : اعملوا - جهد طاقتكم - على تثبيت وتمكين أمركم فيما أنتم عليه من الضلال والكفر . . . فإنى عامل - جهد طاقتى - على تثبيت دعوتى إلى الله تعالى . فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى فى الدنيا والآخرة ؟ ! قال تعالى : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ »[2] .

وقد مكّن الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه من بعده .. وسوف يثيبهم فى الآخرة أجزل الثواب .

أما الجاحدون الذين حادوا عن الطريق السوى ، فقد خذلهم الله فى الدنيا . ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك لأن سنة الله : أَنَّه لَا يُفْلِح الظَّالِمونَ ، أى لايَظْفَرُ بِمُرادِهِ مَن كَفَرَ بالله تعالى ، وأشرك به سبحانه .

(١) سورة الذاريات ، الآيتان : ٥ ، ٦

(٢) سورة غافر ، الآية : ٥١

(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾) .

المفردات :

(ذَرَأَ) : خلق .

(الْحَرْثِ) : الزرع والثمار .

(نَصِيبًا) : جُزْءًا .

التفسير

١٣٦ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا . . .) الآية .

أى : وجعل المشركون - مما خلق الله من الزروع ونتاج الأنعام - نصيبا لله تعالى : للضيفان والمساكين .

وكما جعلوا لله نصيبا من ذلك ، جعلوا نصيبا منه لآلهتهم : ينفقونه على سدنتها ، ويذبحونه عندها ؛ تقربا إليها .

ولم يذكر هذا النصيب مقابلا لنصيب الله فى الآية الكريمة بأن يقال : وجعلوا لآلهتهم نصيبا كذلك ، لأنه مفهوم استنتاجا من جعلهم نصيبا لله واكتفاء بذكره فى التفريع فى قوله تعالى : (فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا) ، وتعاليًا بالله تعالى ، عن مقام المقابلة

أى : فقالوا هذا لله زاعمين أنه يصرف فى مرضاة الله وهم - كاذبون فيما زعموه - كما يدل عليه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » وسيأتى تفسيره .

أى وقالوا أيضا هذا النصيب الآخر لآلهتنا ، يصرف فى مرضاتها .

(فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ) :

أى : فما خصوه بشركائِهم وأوثانهم ، لايصل منه شئ إلى وجوه الخير ، التى ينبغى أن ينفق فيها النصيب الخاص بالله تعالى . بل هم يقصرونه على أوثانهم ، اهتماما منهم بالتقرب إليها .

وأما ما خصوه بالله عزَّ وجلَّ ، فإنهم يقتطعون منه لأوثانِهم أو يستبدلون به مالها ، ولايصدقون فى تخصيصه بالله والتقرب إليه .

فالآية تقرر : أنهم كانوا يُعيِّنُون نصيبا من الزرع ونتاج الأنعام لله تعالى ، ليصرفوه فى وجوه البر والخير إلى الضيفان والمساكين ، وكانوا يعينون نصيبا آخر من ذلك لآلهتهم ؛ وينفقونه عليها وعلى سدنتها ، ويذبحونه عندها تقربا إليها .

ولكنهم إذا رأوا ما عينوه لله أزكى وأكثر نماءً مما عيّنوه لآلهتهم ، عكسوا ، فجعلوا ما لله لآلهتهم ، وما لآلهتهم لله تعالى .

وإذا رأوا ماعينوه لآلهتهم أزكى مماعينوه لله تعالى ،فإنهم يتركونه لآلهتهم ؛حُبًّا وإيثارًا لها.

وفى قوله تعالى :

(مِمَّا ذَرَأَ) : تنبيه على فرط جهالتهم ، حيث جعلوا للخالق - فيما خلق من الزرع والأنعام شريكا لايقدر على شىء ، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكى النامى له ، سواء أكان معينا له أم لله تعالى .

ولذا ختم الله سبحانه الآية بقوله :

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

أى : قبح حكمهم الذى اقتضى إيثار آلهتهم على الله تعالى ، فيما خلق الله ... وقبح عملهم بما لم يُشْرَعْ لهم .

(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾) .

المفردات :

(شُرَكَآؤُهُمْ) : أى أولياؤهم من الشياطين .

(لِيُرْدُوهُمْ) : ليهلكوهم .

(وَلِيَلْبِسُوا) : وليخلطوا .

التفسير

١٣٧ــ (وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ . . .) الآية .

كان من المشركين من يقتل بناتِهِ ؛ خشية العار .

ومنهم من يقتل أولاده ــ ذكورا كانوا أم إناثا ــ مخافة الفقر .

ومنهم من يذبح آخر أولاده الذكور ، إذا بلغوا عددا معينا .

وكان ذلك كله ، نتيجة لإغواء الشياطين والكهان لهم .. كما فعل عبد المطلب ، حينما نذر أن يذبح آخر أبنائه . إذا بلغ عددهم عشرة بنين .

وقد جاءت هذه الآية تنعى عليهم فعلهم ، وتخوفهم سوء عاقبتهم .

والمعنى : وكما زَيَّنَ الشياطِينُ والسَّدَنةُ للمشركين تقسيم هباتهم بين الله وآلهتهم ، زينوا لكثير منهم قتل أولادهم من بنين وبنات ؛ ليوقعوهم فى الهلاك ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذى ورثوه عن إبراهيم وإسماعيل ــ عليهما السلام ــ فإنه كان يحرّم عليهم القتل ، وبخاصة قتل الأولاد .

والتعبير عن الكهان والشياطين بأنهم شركاء المشركين ، لأنهم جعلوا وَسْوَسَتَهُم وأمرهم ، شرعًا لهم .

وبذلك جعلوهم شركاء لله فى التشريع .

(وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) :

أى : ولو شاء الله عدم فعلهم ذلك لعصمهم منه ، ولكنه خَلَّاهم وما يفعلون ؛ لأنه علم منهم إصرارهم على ضلالهم وكفرهم ، ولهذا قال سبحانه :

(فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) :

أى : فاتركهم ودعهم - يامحمد - فى غَيهم وضلالهم وما يختلقونه من الكذب على الله ، فإنهم مصرون عليه . وسوف نعاقبهم على ما يفترون .

وهذا تهديد لهم ووعيد ، كما قال سبحانه : « . . . إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »[1] .

(وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾) .

المفردات :

(حَرْثٌ) : زرع .

(حِجْرٌ) : محجور محرم .

(بِزَعْمِهِمْ) : أى بادعائهم من غير حجة .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٧٨

التفسير

١٣٨ - (وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّايَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ . . .) الآية .

تحكى هذه الآية ، نوعا آخر من جهالاتهم وكفرهم ، وافترائهم الكذب على الله تعالى .

والمعنى : أن هؤلاء المشركين ، حلَّلوا وحرَّموا من تلقاء أنفسهم ، فجعلوا بعضَ الأنعام وبعض الزروع محجورة محرمة على الناس ، لا يأكلها إلا من شاءوا من الكهان القائمين على الأصنام ، ومن الرجال دون النساء .

(وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا) :

فلا تُركَبُ ولا يُحْمَل عليها . وهى : البحائر ، والسوائب ، والوصائل ، والْحَوَامِى .

(وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا) :

عند الذبح ، بل يذكرون أسماءَ أصنامهم عليها .

وهذه الجملة ليست واقعة فى كلامهم المحكى كنظائرهم السابقة ، بل مسوقة من جهته تعالى ؛ لبيان عادتهمْ عند الذبح .

وقال مجاهد : كانت لهم طائفة من أنعامهم : لايذكرون اسم الله عليها فى أى شأن من شئونها : لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن نُتِجُوا ، ولا إن باعوا ، ولا إن حَمَلُوا .

وقيل : معنى (لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا) : لا يحجون عليها ، لأن الحج لا يخلوا عن ذكر الله تعالى .

(افْتِرَاءً عَلَيْهِ) :

لأنهم كانوا قَسَّموا أنعامهم هذه الأقسام الثلاثة ، زاعمين أن الله أمرهم بها ، اختلاقًا وكذبًا منهم على الله تعالى . فجعلوا منها قسما حِجْرًا ، وقسما لا يُرْكَبُ ، وقسما لا يَذْكُرون اسم الله عليه .

ثم بَيَّن اللهُ جزاءهم على افترائهم ، فقال تعالى :

(سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ):

أى : سيعاقبهم الله بسبب افترائهم الكذب على الله تعالى .

(وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾) .

التفسير

١٣٩ـ (وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا . . .) الآية .

أى : وقال أولئك المشركون : ماقى بطون هذه الأنعام ـ من أجنة البحائر والسوائب ـ خالصة الحِل لذكورنا ، ومحرم أكلها على إناثنا . وذلك إن وُلِدَتَ الأجنة حيَّة . كما يُشْعِر به قوله تعالى حكاية عنهم :

(وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ) :

أى : وإن يكن مافى البطون ميتة حين يولد ، فالذكور والإناث شركاءُ فى أكله . فهو حلال لهم جميعًا .

وكل ماذكر من التحريم والتحليل ، ينسبونه إلى الله تعالى ، زورا وبهتانا .

ولهذا قال سبحانه :

(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

أى :سيعاقبهم الله جزاءً لهم على وصفهم الكذب[1] وحكايتهم إياه على الله سبحانه ، بادعائهم أنه تعالى ، أحلَّ وحرَّم ما أحلوه وحرموه.

إنه عظيم الحكمة والعلم ... ومَن كان كذلك ، فلا يفلت هؤلاء من عقابه الموافق لمقتضى حكمته ، المناسب لما علمه من جرائمهم

(١) كما فى قوله تعالى: « وتصف ألسنتهم الكذب » النحل من الآية : ٦٢

(قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ
مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾) .

المفـردات :

(خَسِرَ) : خاب .

(سَفَهًا) : السفاهة ؛ الخفة والجهالة .

التفسير

١٤٠ ـ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ . . .) الآية .

المعنى : قد خاب هؤلاء المشركون ، الذين قتلوا أولادهم بغير سبب سوى سفاهتهم ـ أى خفة عقولهم ـ وجهلهم أن الله هو الرازق لهم ولأولادهم .

وسبب هذه السفاهة : انتفاءُ علمهم . . . وجهلُهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ، وأن مكارم الأخلاق تحمى من الزلل .

فلو نشأت البنت على الفضيلة ، لما زلت فى كبرها .

قال عكرمة : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر . فقد كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والعار ، وأولادهم خشية الفقر ، جهلا منهم بأن الله هو الرازق لأولادهم وحده .

أما خسرانهم ، فلأن الولد نعمة عظيمة : أنعم الله بها عليهم ، فبه يبقى الذكر ويشتد الظهر . فإذا فقده بجريمة الوأد ، فقد خسر خسرانا مبينا فى الدنيا والآخرة .

أما خسارته فى الدنيا ، فلأنه قطع رحمه ، وقتل ولده ، وأزال نعمة الله عليه .

وأما خسارته فى الآخرة ، فلأنه استوجب عقاب الله الشديد ، وقتل نفسا حرّم الله قتلها .

(وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ) :

من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامى وغيرها .

(افْتِرَاءً عَلَى اللهِ) :

أى : كذبا عليه سبحانه وتعالى ، حيث زعموا أن الله أمرهم بذلك.

(قَدْ ضَلُّوا) :

أى أخطأوا طريق الحق والصواب .

(وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) : من الأصل لسوء سلوكهم ، وفساد قلوبهم .

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾) .

المفردات :

(جَنَّاتٍ) : بساتين .

(مَعْرُوشَاتٍ) : مرفوعات على ما يحملها .

(مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) الاشتباه والتشابه ؛ بمعنى واحد . والمراد به : التقارب فى نحو اللون والطعم .

(حَصَادِهِ) : جَنْيِهِ .

(وَلَا تُسْرِفُوا) : ولا تجاوزوا الحد فى الإنفاق .

التفسير

١٤١ – (وهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ . . .) الآية .

هذه الآية – وما بعدها – رَدٌّ لافتراءات المشركين فيما أَحَلُّوه وحَرَّمُوه بأهوائهم . . وذلك

ببيان أن الله هو الخالق لكل شيء : من النبات والحيوان . وأنه أحلَّ من ذلك ما أحلَّ وحرم منه ماحرم ، على مقتضى حكمته . خلافا لما أحلوه وحرموه بأهوائهم .

والمعنى : هو الله الذى خلق بساتين مختلفة : بعضها مرفوعاتٌ على ما يحملها من العرائش ، كبعض الكروم ، وبعضها متروكاتٌ بدون عرائش .

(وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ) :

أى : وأنشأ النخل والزرع مختلفا ثمره وحَبُّهُ : فى الهيئة ، وفى الطعم .

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) :

أى : وأنشأ – سبحانه وتعالى – الزيتون والرمان : متشابها فى الثمر والشكل والهيئة والطعم ، واللون والحجم . وغير متشابه فى ذلك . إبداعا فى الخلق والإعجاز .

(كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ) :

هذا أمرٌ أباح الله به التناول من ثمر ماذكر مطلقا : قبل تمام نضجه. بشرط عدم الضرر أو بعده وقبل البيع ، لعدم تعلق حق شرعى به .

قال بعض الفقهاء : إنه رخصة للمالك فى الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى فيه . لكن بقدر ودون توسع فى الأكل .

ويلاحظ أن المقصود بأكل الطعام قبل نضجه ، هو تناول نحو الفول الأخضر والباقلاء والفريك ، ونحو ذلك .

(وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) :

الأمر هنا ، للوجوب ، بخلاف الأمر فى قوله تعالى : (كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ) فهو للإباحة كما سبق بيانه . ولا يمتنع فى الشريعة اقتران المباح والواجب ، عندما تقوم الأدلة على توجيه كل منهما الوجهة التى يستحقها .

واختلف العلماء فى المراد من : حق الزرع والثمر يوم حصاده ، فى الآية الكريمة .

فمنهم من حمله على الزكاة المفروضة . . وعلى هذا الرأى كثيرون ، منهم ابن عباس وأنس بن مالك ، والحسن . ونقل عن مالك وأبى حنيفة ، وبعض أصحاب الشافعى رضوان الله عليهم . وقد التزم أصحاب هذا الرأى بالقول : بأن هذه الآية مدنية .

ومن العلماء من قال : إن هذا حق فى المال سوى الزكاة ، أمر الله به ندبا بمكة .

وعلى هذا جَمْع منهم : عطاءُ ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، رضى الله عنهم . فالآية مكية كباقى السورة .

أما الزكاة فى الثمار والحبوب ، فقد فرضت فى المدينة . وقد بين ذلك فى السور المدنية ، وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث ذكرت فيها أصناف الزَّكَوِيَّاتِ ، والنصاب الذى تجب فيه الزكاة ، ومقدار الزكاة .

ولكنا نرجح الرأى الأول ، وهو أن الآية مدنية ، لأن مكة ليس فيها جنات معروشات وغير معروشات ، وليس فيها زرع ، وإنما ذلك فى المدينة .

(وَلَا تُسْرِفُوا) : أى لا تتجاوزوا الحد فتبسطوا أيديَكم فى الإعطاء

وقال زيد بن أسلم : هو خطاب للولاة .

أى : لا تأخذوا فوق حقكم ، وما لا يجب على الناس.

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزتَ به أمر الله ، فهو سرف وإسراف ، يعنى أن هذا هو خطاب للمزكِّى : أنه لا يزيد على ما فرضه الله فى الزكاة . لكن مجاهدا حمل الإسراف فى الآية على الإنْفاقِ فى المعصية . فقال : لو كان أبو قبيس ذهبا فأَنْفَقَهُ فى طاعة الله لم يكن مسرفا . ولو أنفق درهما أو مُدًّا فى معصية - كان مسرفا .

غير أن هذا الرأى ضعيف .

يردُّه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن ثابت بن قيس بن شماس عَمَدَ إلى خمسمائة نخلة فجزَّها ثم قسمها فى يوم واحد ، ولم يترك لأهله شيئا فنزلت (وَلَا تُسْرِفُوا) .

وروى مثله ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج .

والذى ينبغى الاعتماد عليه : أن التوسط فى الإنفاق هو الأفضل ... وهذا متفق مع قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ... »[1] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٢٩

فإذا جاوز المزكى ما فرضه الله عليه ، فليذكر أولاده ... فلا يدعهم فقراء ... فالرسول صلى الله عليه وسلم ـ يقول لأحد أصحابه : « إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ »(١)

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) :

أى : أنه ـ سبحانه ـ لا يرضى عمن يسرف فى ماله بإنفاقه كله ـ أو أكثره ـ فى الصدقة أو المتعة . أو بإنفاقه فى معصية ، أو بالتقصير فى حق الله الواجب فى الزكاة ، بأن يعطِيَ أقلَّ مما يجب عليه ... فكل ذلك إسراف ومجاوزة للحد . والله لا يرضى عن فاعله . بل يعاقبه .

(وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾) .

المفـردات :

(حَمُولَةً) : تحمل الأثقال .

(فَرْشًا) : ما يفرش للذبح .

التفسير

١٤٢ ـ (وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ..) الآية .

هذا شروع فى تفصيل أحكام الأنعام ، وإبطال ما افتروه على الله فى شأنها ، بالتحليل والتحريم .

والمعنى : وهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذى أنشأ لكم من الأنعام ، ما يصلح للحمل عليه ، وما لا يصلح . ولكنه يُفرَش ويُضْجَع للذبح .

(١) من حديث أخرجه البخارى .

ويصح أن يكون المراد من كونه فَرْشًا : أنه يُتَّخَذُ من شعره وصوفه ووبره مايُفْرَش به .

وسيأتى بيان الأنعام فى الآية الآتية .

(كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) :

أى : كلوا من لحوم هذه الأنعام وألبانها ، التى رزقكم الله بها .

والأمر هنا ؛ لإباحة الأكل ، وإظهار المنَّةِ على عباده ، كى يشكروه ، ولا يكفروه .

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) :

أى : لا تسلكوا سبيل الشيطان فى تحريم ما أحل الله لكم ، وتحليل ما حرم عليكم .

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) :

أى : إنه بَيِّنُ العداوة لكم ، حريص على إغرائكم وإغوائكم .

والشيطان جنس ، يشمل كل شياطين الإنس والجن ، ممن يحلُّون الحرام ويحرمون الحلال من الحكام وذوى السلطان . تحقيقا للشهوات والنزوات ونحوها .

(ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾) .

المفـردات :

(أَزْوَاجٌ) : جمع زوج . ويطلق على كل واحد من القرينين : الذكر والأُنثى في الحيوانات المتزاوجة ، ويطلق أيضا على مجموعهما . والمراد الأول .

(نَبِّئُونِى) : أخبرونى .

التفسير

١٤٣ـ (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ . .) الآية .

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام ، فيما كانوا يحرمون من الأنعام ، ويجعلونها أقساما وأنواعا : بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة وغيرها .

فبيّن فى هذه الآية ـ وما بعدها ـ أنواع الأنعام وأصنافها . فقال :

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) :

أى ثمانية أصناف : أربعة ذكور من الإبل والبقر والغنم والمعز ، وأربعة إناث من كل منها . وكل ذَكَرٍ من هذه الأصناف يُزَاوِجُ أُنثاه وبالعكس ، والمزاوجة : المثاناة .

ثم شرع فى تفصيل هذه الأصناف ، على النحو الآتى ، فقال :

(مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ) :

أى من الضأن زوجين : ذكر وأنثى .

(وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) :

أى ومن المعز زوجين : ذكر وأنثى . . والمراد كل ذكر وأنثى من هذين الصنفين الاثنين .

(قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ) :

أى قل يا محمد ، لهؤلاء الذين يحرّمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة أخرى ، وينسبون ذلك إلى الله افتراءً عليه ـ قل لهم : أكان التحريم فى الضأن والمعز وغيرهما من الأنعام بسبب الذكورة ؟ أم كان بسبب الأنوثة ؟ أم هو بسبب الوجود فى الرحم ؟

فإن كان التحريم بسبب الذكورة ، لزمهم تحريمها ، وهم لم يفعلوا ذلك .

وإن كان التحريم بسبب الأنوثة ، لزمهم تحريم جميع الإناث ، ولم يفعلوا ذلك أيضا .

وإن كان التحريم بسبب اشتمال الرحم على الجنين ، لزمهم تحريم جميع الذكور وجميع الإناث ؛ لأن الكل يشتمل عليه الرحم . ولم يفعلوا .

ومثل ذلك . يقال فى الإبل والبقر : الآتيين .

(نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى : أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى ، جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، يدل على أن الله سبحانه ،حرم شيئا مما ذكر ، إن كنتم صادقين فيما زعمتموه من أن التحليل والتحريم هما من عند الله .

١٤٤ - (وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ . . .) الآية .

أى : ومن الإبل اثنين : ذكرٍ وأنثى . ومن البقر اثنين : ذكرٍ وأنثى . قل لهم يا محمد ، أكان التحريم بسبب الذكورة فى هذين الصنفين ؟ أم كان بسبب الأنوثة فيهما ؟ ... إلخ ما بيِّن فى الآية قبلها .

وإنما ذكر فى هذه الآية ، ما ذكر فى الآية السابقة - لزيادة الإلزام والتبكيت والإفحام .

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَٰذَا) :

هذا انتقال من توبيخهم على تحريم ما حرموه بغير علم ، إلى توبيخهم بنفى حضورهم وصية الله بالتحريم .

والمعنى : بل أكنتم حاضرين مشاهدين حين وصاكم الله ، وأمركم بهذا التحريم ؟ !

والمراد نفى الوصية بالتحريم . فلذا لم يشهدوها .

والحاصل : أن العلم بالتحريم ؛ إما أن يكون عن رسول أخبرهم به ، وإما أن يكون عن مشاهدة لله وسماع منه تعالى ... وكلا الأمرين منتف .

وبذلك يبطل تحريمهم ما حرموه عن الله تعالى .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...) :

أى : فلا أحدٌ أشدُّ ظلمًا ممن اختلق الكذب على اللهتعالى ، فنسب إليه تحريم مالم يحرم ؛ ليوقع الناس - بجهله - فى الضلال والبعد عن المنهج القويم ، الذى شرعه الله لعباده .

وإنما وصفوا بعدم العلم - وهم متيقنون بأن الله لم يحرم ذلك - للتنبيه على أنهم خرجوا فى ظلمهم عن الحدود والنهايات . فإن من افترى على الله حكما غير عالم بصدوره عنه - مع احتمال صدوره - كان بعيد الغاية فى الظلم ... فما ظنك بمن افترى عليه تعالى ، وهو يعلم أنه لم يصدر عنه جل وعلا !!

(إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

أى : إن اللهَ لا يرشد إلى طريق الحق كل من اتصف بالظلم . وإذا كان المتصف بالظلم لا تناله هداية الله . فما بالك بمن بلغ فى الظلم نهاية النهاية !!

(قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾) .

المفردات :

(طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) : آكِلٍ يأكله ، من ذكر وأنثى .

(مَسْفُوحًا) : أي سائلا .

(رِجْسٌ) : نجس خبيث . والمراد : حرام .

(فِسْقًا) : خروجا عما أحلّه الله .

(أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) : ذُكِرَ اسمُ غير الله تعالى عليه ، عند ذبحه .

(فَمَنِ اضْطُرَّ) : فَمَنْ حملته الضرورة على تناول شيء من ذلك .

(غَيْرَ بَاغٍ) : أي غير ظالم مضطر مثله .

(وَلَا عَادٍ) : أي ولا متجاوز قدر الضرورة .

(كُلَّ ذِى ظُفُرٍ) : أى كلَّ ماله أصبع من الإبل ، والسباع ، والطيور .

(شُحُومَهُمَا) : جمع شحم . وهو الدهن .

(إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) : أى إلَّا ماوُجِد من الشحم فوق ظهورهما .

(أَوِ الْحَوَايَا) : أى وإلّا الشحومَ التى تغطِّى الأمعاء .

(أَوْ مَااخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) : أى وإلّا ما اختلط من الشحم بعظم ، كالإلية .

(بِبَغْيِهِمْ) أي بسبب ظلمهم .

(بَأْسُهُ) : عقابه .

التفسير

١٤٥ - (قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ...) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم - فيما سبق - خطأَ المشركين فيما يفترونه على الله تعالى ، فى شأن التحريم والتحليل لبعض الأرزاق من الثمار والأنعام ، ووبَّخهم على ذلك - جاءت هذه

الآية ، تأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ببيان أن الوحى هو الطريق الصحيح فيما حرَّمه الله وأحلَّه . فقال :

(قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ) :

أى : قل يا محمد ، لهؤلاءِ المشركين المفترين : لقد تتبعت جميع ما أوحاه الله إلىَّ ، بحثا عن المحرمات ، فلم أجد فيها طعاما محرما على أى آكل من الذكور أو الإناث .

(إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِۦ) :

أى : لا أجد طعامًا محرما ، إلا أن يكون الطعام شيئا من الأشياء الآتية :

١ ـ (مَيْتَةً) وهو الحيوان الذى زهقت روحه بغير ذبح شرعى .

٢ ـ (أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا) : أى دما مصبوبا سائلا من الحيوان ، بخلاف الكبد والطحال ، فإنهما دمَان غير سائلين .

٣ ـ (أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ) : ومثل لحمه ، شحمه ، وغضاريفه . فإن جميع أجزائه قذر نجس ، ولو ذبح .

٤ ـ (أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِۦ) : أو يكون المطعوم لحم حيوان ، ذُكِرَ عليه ـ عند ذبحه ـ اسم غير الله تعالى ، فإنه يكون ـ عند ذلك ـ فسقًا حيث بَعُدَ ، بسبب ذلك ، عما أحلَّه الله تعالى .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : فأى شخص حملته الضرورة على تناول شيء من المحرمات السابقة ، لحفظ الحياة ، بسبب فقده الطعام الحلال ، فإنه رخص له ذلك ، بشرط ألا يبغىَ بأكل نصيب مضطر آخر مثلِهِ . وألا يتجاوز ـ فيما يتناوله ـ مقدار الضرورة التى تحفظ عليه حياته ، حتى يصل إلى مكان يجد به الطعام الحلال .

(فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : فإن الله عظيم المغفرة والرحمة : لا يؤاخِذ المضطَّر على تناول شيء من ذلك ؛ لأنه أباحه له لحفظ حياته .

١٤٦ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ..) الآية .

أى : وعلى اليهود - دون غيرهم ، بسبب ظلمِهم - حرم الله جميع ماله إصبع غير منفرج : كالإبل ، والطيور . ، وخصه ابن زيد بالإبل فقط .

(وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا) :

أى : وحرَّم عليهم دهون البقر والغنم .

(إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) :

أى : إلا الدهون التى توجد فوق ظهور البقر والغنم .

(أَوِ الْحَوَايَا) :

أى : وإلَّا الدهون التى تغطى الأمعاء .

(أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) :

أى : وإلَّا الدهون التى تكون متصلة بعظم ، كشحم الإلية ، فإنها متصلة بالسلسلة الفقرية .

(ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ) :

أى : كان ذلك التحريم ، عقابا لهم بسبب عُتُوِّهم وعصيانهم ، وتعديهم حدود الله ، حيث قتلوا الأنبياء بغير حق ، وأكلوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل . كما قال تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... »(١) .

وكانوا كلما أتوا معصية ، عوقبوا بتحريم شىء مما أُحِلَّ لهم . وهم ينكرون ويدعون أنها كانت محرمة على الأُمم قبلهم .

(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

هذا إخبار من الله عزَّ وجل ، بأنه صادق فى كل مَا بيَّنه ، ومنه بيان صدقه فيما أَحلَّ وحرَّم ، بالنسبة لليهود .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ١٦٠

١٤٧ - ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ... ﴾ الآية .

أى : فإن كذبك يامحمد ، المخالفون لك من اليهود والمشركين ، فيما جئتهم به من الحق والهدى - ومنه ما بينته لهم من أحكام الحلال والحرام من المطعومات - فقل لهم ؛ ترغيبا لهم فى الطاعة ، وإنذارا لهم على استمرارهم على الشرك والضلال .

(رَّبُّكُمْ) : الذى خلقكم وتعهدكم ؛ بالتربية ، والإرشاد ، وبيان الحق .

(ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ) :

أى صاحب رحمة واسعة ، حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، مع قدرته على إنزالها بكم .

(وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : ولا يقدر أحد على دفع عقابه إن أراد وقوعه بالمجرمين . فكيف لا تخشون عقابه وأنتم أشد الناس إجراما ؟!

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا
وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ
بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ
فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

المفـردات :

(تَخْرُصُونَ) : تقدِّرون تقديرا خاطئا .

(الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) : أى التامة ؛ بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، مع تسليم العقل .
(هَلُمَّ) : أحضِروا .
(وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) : أى وهم يُسوُّون به غيره .

التفسير

١٤٨ - (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا ...) الآية .

هذا إخبارٌ من الله تعالى ، بما سيقولونه ، بعد أن أُفحموا وبطل ما كانوا عليه من الشرك ، وتحريم ما أحل الله لهم ، وتحليل ما حرم عليهم ، ولزمتهم الحجة .

(لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ) :

أى لو شاء الله ألَّا نشرك به - نحن ولا آباؤنا القريبون منهم والبعيدون - ما أشركنا وما أشرك آباؤنا ... ولو شاء ألاَّ نُحَرِّم شيئا مما حرمناه ، لما حدث منا هذا التحريم . مما وقع منا ، فهو بمشيئته ورضاه ..

أرادوا بذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضى عند الله تعالى ، وإلاَّ لَمَا وقع منهم ، لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء .

وقد كذبوا فى هذا الاحتجاج ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعاصى . قال تعالى « . . . وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ . . . »[1] .

(كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا) :

أى : مثل تكذيب هؤلاء لك ، فى أن الله نهى عن الشرك والتحليل والتحريم بالرأى والهوى ، وإلباس الحق بالباطل - كذب الذين من قبلهم رسلَهم ، واستمروا على التكذيب ، إلى أن نزل بهم عقابنا ، وأحاط بهم الهلاك .

(قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) :

أى : قل لهم يا محمد هل يوجد لديكم أمرٌ معلوم بَيِّنٌ واضح ، يصح الاعتماد عليه ، فيما زعمتم ، فتظهروه لنا كما أظهرنا لكم خطأكم فيما ذهبتم إليه ؟ !

---

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٧

(إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) :

أى : ما تتبعون ـ فيما ذهبتم إليه من باطل ـ إلا الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا . . . وماأنتم إلا تُقدِّرون تقديرا خاطئا ، وتكذبون ؛ إظهارا للباطل ، وإخفاء للحق الواضح ، وهو أنه ليس لديكم ما يصح الاعتماد عليه ، والتمسك به .

١٤٩ ـ (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : قل لهم يا محمد ، إن فقدتم كل حجة ، ودليل على ما زعمتم ، حيث لا حجة لكم .... فلله ـ وحده ـ الحجة البينة الواضحة ، التى بلغت نهاية القوة ، وقد لزمتكم بإرسال الرسل إليكم ، وإنزال الكتب عليكم ، وقد بلَّغوكم .

(فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فلو شاء الله هدايتكم إلى الحق لوفَّقكم جميعا إلى اتباعه ، لكنه ـ سبحانه ـ شاء الهداية للبعض فآمن ، دون البعض .

١٥٠ ـ (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا ...) الآية .

أى : قل لهم يامحمد ، أحضِروا من يشهد لكم ويعاونكم ، فى إثبات أن الله حرم عليكم ما حرمتموه على أنفسكم ، وعلى أزواجكم !!.

ولن يوجد لهم شاهد يشهد بحق وصدق على ذلك .

(فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) :

أى : فإن أحضروا شهداءهم المبطلين معهم ، وشهدوا لهم ، فلا تشهد معهم ، ولا تقبل شهادتهم ، لأنها نتيجة اتباع الهوى .

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) :

أى : ولا تتبع يا محمد ، أهواء الذين اتصفوا بتكذيب آياتنا ، وعدم الإيمان بالبعث والجزاء .

(وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) :

أي : وهم يشركون بربهم . وقد أدّى بهم ذلك إلى تسويته بغيره ، والعدول عن عبادته وحده .

(قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ
وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ
وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ
أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾) .

المفردات :

(تَعَالَوْا) : أقبلوا وأحضروا .

(أَتْلُ) : أقرأ .

(إِمْلَاقٍ) : فقرٍ وفاقةٍ .

(الْفَوَاحِشَ) : ماعظم قبحه من المعاصي .

(وَصَّاكُم بِهِ) : أمركم وألزمكم به .

(أَشُدَّهُ) : أي يبلغ قوته البدنية والعقلية ويحسن التصرف .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل وعدم الجور .

(فَاعْدِلُوا) : فاصدُقوا فى القول .

(وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا) : وبما طلب الله منكم من العدل وتأدية أحكام الشرع ، أوفوا وأتِمُّوا .

(لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : لكى تتعظوا .

التفسير

١٥١ - (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...) الآية .

بعد أن أبطل الله تعالى - فى الآيات السابقة - دعاوى المشركين فى استنادهم إلى مشيئة الله تبريرا لإشراكهم ، وإشراك آبائهم من قبل ، وتحريم ماحرموا ، وظهر فساد مسلكهم فى الاعتقاد والعمل ، والتحليل والتحريم- طلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يستدعيهم إلى حضرته ؛ ليبين لهم ماحرَّمه عليهم ، وما أوجب فقال سبحانه :

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ....) الآية .

أى : قل لهم يا محمد ، أقبلوا واحضرُوا إلىَّ ؛ لأقرأ ما حرَّمه ربكم عليكم وما أوجبه .

وبدأ بالنهى عن أكبر المحرمات ، فقال تعالى :

(أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) :

أى : ألاَّ تشركُوا به - سبحانه - شيئا من الشرك : كالرياء ، وعدم صدق النية فى العمل ، أو شيئا من الشركاء ، حقيرا كان أو عظيما . والنهى عن الإشراك يقتضى الأمر بالإخلاص لله وتوحيده ، فإن النهى عن الشىء ، هو أمرٌ بضده .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) :

هذا من الأُمور التى طلبها الشارع ، وحث عليها ، بعد الأمر بالتوحيد والإخلاص لله وحدَه . وقَرن الأمر بالإحسان إلى الوالدين- فى هذه الآية وغيرها - بالتوحيد والعبودية

لله ؛ لأن الله هو الموجد الحقيقى لكل إنسان . وإنما الوالدان سبب عادى فى وجوده . فلهما – على الولد – حق الإكرام والطاعة فى الخير والبر ، ولو كانا كافرين .

(وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) :

بعد أن قرر الله تعالى حق الوالدين على الولد ، عقبه بتقرير الأولاد على والديهم ، فنهى عن قتلهم بسبب الفقر ، كما كان يحدث فى الجاهلية ؛ لأن الله هو الرزاق للوالد والولد ، ولكل الكائنات الحية .

قال تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا . . . »[1] .

(وَلَاتَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ) :

هذا نهى عن الاقتراب من المحرمات كلها على وجه العموم . فضلا عن الوقوع فيها . وخاصة : جريمة الزنى التى يترتب عليها اختلاط الأنساب ، وضياع الأموال .

(مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) :

أى : ما يفعل منها علانية ، وما يفعل منها سرًّا .

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

هذا نهى عن قتل النفس التى عصمها الله من القتل : بالإسلام ، أو بالعهد – لأى سبب من الأسباب – إلا بالحق .

وقد ورد فى السنة النبوية ، بيان الأسباب التى تجعل قتل الإنسان لغيره حقا . كالذى جاء فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : الثَّيِّبِ الزَّانِي ، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، والتَّارِكِ لِدِينِهِ المفارقِ لِلْجَمَاعَةِ »[2]

فالذى يزنى – بعد أن سبق له الزواج – يقتل شرعا ، والقاتل لغيره – عمدا – يقتل ، والتارك لدينه – الذى ارتد بعد أن دخل فى الإسلام – يُقْتَل . . .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٦

(٢) رواه الشيخان .

كل هؤلاء ، قتلهم يكون بالحق المشروع .

(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) :

أى : ذلك الذى تقدم ذكره من التكاليف الخمسة - أمركم الله بها أمرا مؤكدا ؛ لعلكم تستعملون عقولكم فى فهم الحِكَمِ التى من أجلها طلبها الله منكم ، وألزمكم بها .

وبمراعاة هذه التكاليف - كما أمر الله تعالى - تصان الأسرة والمجتمع ، من الفساد ، والتفكك ، والانهيار .

١٥٢ - (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . . .) الآية .

فى هذه الآية ، نهىٌ عن القربِ من مال اليتيم - فى جميع الأحوال - إلا فى حال التصرف فيه على أحسن الوجوه ، التى تؤدى إلى حفظه ونمائه .

ويستمر ذلك حتى يبلغ اليتيم رشده : فى دينه ودنياه . وعند ذلك ، يُدفَع إليه ماله ؛ ليقوم هو على تنميته بنفسه ، مع الإشهاد عليه عند الدفع . قال تعالى : « فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا »[(١)] .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) :

هذا أمرٌ من الله تعالى : بالعدل والتسوية ، فى الكيل والميزان ، عند التعامل بالبيع والشراء .

فلا تطفيف عند الاستيفاء من الغير .. ولا نقص عند الكيل والوزن له :

(لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) :

أى : لا يطلب الله من عباده ما لا يستطيعون فعله .

وقد جىء بهذا النص الكريم - بعد الأمر بالعدل فى الكيل والميزان - للإشارة إلى أن مراعاة الدقة التامة ، فيما يكال ويوزن ، قد يعسر تحققه .

وعلى ذلك ، فالمطلوب من المكلف : مراعاة العدل - فى ذلك - قدر طاقته . وما وراء ذلك ، يشمله عفو الله تعالى .

---

(١) سورة النساء : من الآية : ٦

(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) :

أى : إذا صدر منكم قول ـ فى قضاء أو شهادة أو غيرذلك ـ فالتزموا العدل فيما تقولون ، بدون محاباة لأحد ، ولو كان أقربَ الناس إليكم .

(وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا) :

أى : التزموا بما طُلِبَ إليكم الوفاء به ، من أوامر الله ونواهيه .

(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : ما ذكر من التكاليف المتقدمة ، أمَرَكم الله به أمرًا مؤكدًا ؛ لتتعظوا بما احتوته من مصالح دنيوية وأُخروية ، فتعملوا بها ، وتحرصوا على أدائها ؛ لأن هذه الأحكام لا تختلف باختلاف الأُمم والأَزمان .. وهى مقررة فى جميع الشرائع .

(وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾) .

التفسير

١٥٣ ـ (وَأَنَّ[1] هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) :

أى : ولأن هذا الذى تقدم ـ فى الآيتين السابقتين ، من الأوامر والنواهى ـ هوصراط الله وطريقه المستقيم ، الذى رضيه لعباده . فاتبعوه ولاتنحرفوا عنه ، إذ لاعوج فيه ولا انحراف .

(وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) :

أى : ولاتخرجوا عن الطريق المستقيم ، إلى اتباع الطرق المعوجة ، فتفرقَكم وتبعدكم عن دينه الحق .

(١) فتحت همزة أن على تقدير لام العلة ، وارتباطها باتبعوه ، أى فاتبعوه لأنه مستقيم .

(ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) :

أى : هذا الذى تقدم ـ وهو اتباع دين الله والابتعاد عن غيره من الأديان الباطلة ـ هو الذى أمركم الله بالحرص عليه ، والسير على منهاجه ؛ رجاء أن تكونوا من الناجين من عذابه بصيانة أنفسكم عن السير فى الطرق المعوجة .

روى الدارقطنى عن ابن مسعود رضى الله عنهما . قال : « خَطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خطًّا ، ثم قال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطا عن يمينه ، وخطوطا عن شماله ، ثم قال : هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليه . ثم قرأ هذه الآية » .

وأخرجه ابن ماجة أيضا .

(ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾) .

المفـردات :

(تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ) أى : إتماما للنعمة على كل من أحسن القيام به . أو على موسى الذى أحسن تبليغه .

التفسير

١٥٤ ـ (ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ ...) الآية .

أى : ثم أعطينا موسى التوراة ؛ لإتمام النعمة والكرامة ، على كل من أحسن القيام بما اشتملت عليه من تكاليف .

أو إتماما للنعمة على موسى الذى أحسن تبليغ التوراة .

أو تماما على الذى أحسنه موسى وأجاده ، من العلم والتشريع ، أى زيادة عليه .

(وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً) :

أى : جاءت التوراة بيانًا وتفصيلا لكل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا ، وإرشادًا إلى طريق الخير ، ورحمة واسعة من الله لعباده .

(لَعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) :

أى : لعل من نزلت لهم التوراة – وهم : بنو إسرائيل – بلقاء ربهم – بعد البعث – يصدِّقون .

وفى هذه الآية ، إخبارٌ من الله تعالى ، بأن الوصايا التى تقدم ذكرها ، ثابتةٌ فى الكتب المتقدمة ، ومنها التوراة .

(وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾) .

المفردات :

(دِرَاسَتِهِمْ) : قراءةِ كتبهم .

(وَصَدَفَ عَنْهَا) : أعرض عنها . أو صرف الناس عنها .

التفسير

١٥٥ - (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ . . .) الآية .

أى : وهذا القرآن ، كتاب الله العظيم ، أوحيناه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . كثير المنافع والخير : دنيا وأخرى .

(فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

أى فاسلكوا - أيها المكلفون - سبيله المستقيم ، بالعمل بما فيه من التكاليف ، حيث كان منزلا من عند الله تعالى . وذلك موجب لاتباعه ، واحذروا مخالفته ، رجاء أن تعمكم رحمة الله . وبذلك تنجون من عذابه الأليم .

١٥٦ - (أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ...) الآية .

أى : قد أنزلنا هذا الكتاب المبارك ؛ كراهة أن تقولوا معتذرين يوم القيامة إنما أنزل ذلك الكتاب - التوراة والإنجيل - على طائفتين من قبلنا ، وهما : اليهود والنصارى .

وتخصيص الإنزال بكتابيهما؛ لأنهما اللذان اشتهرا من بين سائر الكتب السماوية السابقة ، قبل نزول القرآن .

(وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ) :

أى : وإننا معشر العرب كُنَّا - عن مطالعة تلك الكتب وقراءتها - لمنصرفين عن دراستهما

وفى هذه الآية قطع الأعذار ، وإثبات الحجة عليهم، حيث نزل القرآن بلغة سهلة ميسرة ، هى العربية

١٥٧ - (أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ...) الآية .

أى : أو لئلا تقولوا معتذرين بأمر آخر غير ماسبق - لو أنا أنزل علينا الكتاب - كما أنزل على اليهود والنصارى - لصرنا أكثر هداية إلى الحق منهم ، وذلك لجودة إدراكنا ، وفهمنا لما اشتمل عليه الكتاب من الأحكام والتشريعات .

وبهذا انتفى ما يمكن أن يعتذروا به ، بعد الاعتذار السابق .

(فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) :

أى : فلا مكان لما يمكن أن تعتذروا به ، حيث جاءكم -على لسان نبى منكم- كتابٌ من ربكم : فيه حجة واضحة على ما شرعه الله من الأحكام ، وإرشادٌ مبين إلى طريق الحق ، ورحمةٌ بكم ، حيث نزل بلغتكم .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا) :

أى : فلا أحد أكثر ظلما ممن كذَّب بآيات الله تعالى ، المشتملة على البيان والهداية والرحمة ، وأعرض عن اتباع الأحكام التى جاءت بها ، وصرف الناس عنها . فكان بذلك ضالًّا مضِلًّا .

(سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوٓءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ) :

أى : سنعاقب الذين يُعرِضون عن اتباع آياتنا ، ويصرفون الناس عنها ، بالعذاب السيِّء ، بسبب إعراضهم ، ومنعهم غيرهم عن اتباع أحكامها .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾) .

المفـردات :

(يَنظُرُونَ) : ينتظرون .

التفسير

١٥٨ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ...) الآية .

أى : لا ينتظر هؤلاء الكافرون - بعد البيان السابق - إلا مجىء الملائكة لهدايتهم ودعوتهم إلى الإيمان .

أو أن تأتيهم ملائكة العذاب ، وهم لم يكونوا منتظرين لذلك . ولكن لما كان العذاب يلحقهم لحوق المنتظِر ، شُبِّهوا بالمنتظرين .

(أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) :

أو أن يأتى ربك إليهم ، داعيا إياهم إلى الهدى ، كما اقترحوا ذلك ، فى قوله تعالى : « ... لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا... »[١]

أو المراد : إتيان أمره بالعذاب

(أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) :

أى : أو تأتيهم بعض الآيات التى اقترحوها على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم كما ورد فى قوله تعالى : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . »[٢] الآيات .

والخلاصة : أنهم علقوا إيمانهم - بالله ورسوله - على حصول إحدى هذه العظائم .

وشبهت حالهم بحال المنتظرين لها .

ومن المفسرين من فسر (بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) : بأشراط الساعة ، بدليل قوله عقبه :

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ) :

أى : يوم يحدث شرط من أشراط الساعة ، لا يُقْبَل من نفس إيمانٌ ولا عملٌ صالح . حصلا بعد ظهور الشرط وحدوثه ، إذ لا ينفع النفس إلا ما قدمته قبل ظهور أىٍّ من أشراط الساعة ، لأن وقت التكليف الاختيارى ، قد فات .

---

(١) سورة الفرقان ، من الآية : ٢١ (٢) سورة الإسراء ، الآية : ٩٠ وما بعدها

(قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ) :

هذا أمر موجه من الله تعالى ، لرسوله صلى الله عليه وسلم ، بأن يأمرهم - أمر تهديد ووعيد - بقوله لهم : انتظروا ما يأتيكم من الآيات التى علقتم إيمانكم عليها ، والتى لاتنفعكم إن وقعت . . . إنا منتظرون وقوع ذلك لكم ، حتى نرى ما يحل بكم من سوء العاقبة ، وما يحل بنا من حسن المآل .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾) .

المفردات :

(شِيَعًا) : فرقا متعددة .

(يُنَبِّئُهُمْ) : يخبرهم ويعلمهم .

التفسير

١٥٩ - (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ...) الآية .

المعنى : إن الذين فرقوا دينهم ، باختلافهم فيه ، فعبدَ بعضهم الأصنام ، وقالوا عنها : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . وعبد بعضهم الملائكة ، وقالوا : إنها بنات الله . وبعض ثالث : عبد الكواكب . . . .

ومنهم من قال : عزير ابن الله . ومنهم من قال : المسيح ابن الله .

وهذا كله شرك بالله تعالى ، وخروج عن التوحيد الذى ارتضاه الله لعباده ؛ لأنه الحقيقة المؤكدة : نقلا وعقلا . فكانوا - بهذا الاختلاف والتفرق - شيعا وأحزابا . كل فريق منهم يتبع طريقا يخالف طريق الآخر .

(لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) :

أى : لست يا محمد من عقاب هؤلاء المتفرقين فى أمر دينهم فى شيء ... فلست مسئولا عن تفرقهم .. وحسبك أنك أديت الرسالة وبلغت الأمانة ، وخرجت من عهدة التبليغ .

وقيل : هو نهى عن التعرض لهم ، حتى نزل الأمر بجهادهم .

(إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى : ما أمرهم ومآل حالهم ، إلا إلى الله وحده . فيجازيهم على أعمالهم وعقائدهم الباطلة - بما يستحقون .

قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »[1] .

(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾) .

التفسير

١٦٠ - (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . .) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم ، حال الناس من المؤمنين وغيرهم ، من حيث تمسكهم بالدين والعمل ، واختلافهم فيه - شرع فى بيان جزاء كل عامل : محسنا كان أو مسيئا . فقال :

(مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) :

أى : من عمل عملا صالحا - وهو مؤمن - فله جزاءٌ عند الله مقدر بعشر أمثال ما عمل تفضلا عليه من الله تعالى . والعَشْر أقل مراتب التضعيف . ولا يقف تضاعف الجزاء

(١) سورة الحج ، الآية : ١٧

عند هذا . فقد يصل إلى سبعين وإلى سبعمائة ، وإلى أضعاف كثيرة ، وبغير حساب . حسب إخلاص العبد ، وصدقه فى العمل .

(وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا) :

أى : ومَن عمل عملا سيئا ، من شرك وغيره ، فعقابُه مماثلٌ لما عمل ، عدلا .

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : بنقص شىء من ثوابهم أو الزيادة فى عقابهم .

(قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ
حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ
وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠
أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ
لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾) .

المفردات :

(دِينًا قِيَمًا) : دينا مستقيما : لا عوج فيه .

(حَنِيفًا) : مائلا عن الأديان الباطلة .

(وَنُسُكِى) : عبادتى .

(أَبْغِى رَبًّا) : أطلب .

(وَلَاتَزِرُ) : ولاتحمل .

(وَازِرَةٌ) : نفس آثمة .

(خَلَآئِفَ) : خلفاء يخلف بعضكم بعضا .

(لِيَبْلُوَكُمْ) : ليمتحنكم ويختبركم .

التفسير

١٦١ - (قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...) الآية .

بعد أن بين الله تعالى . فساد ما عليه المشركون بالحجج والبراهين ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبين الدين الحق الذى هو عليه وهداه الله إليه ، وهم يدعون - زورا - أنهم عليه مع أنهم قد فارقوه كلية .

والمعنى : قل يامحمد ، لأولئك المبطلين : إننى قد أرشدنى ربى إلى طريق مستقيم ، موصل إلى الحق ، بما أنزله علىَّ فى القرآن ، وبما نصبه من الآيات التكوينية : فى الأنفس ، وفى الآفاق .

(دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

هذا هو بيان الطريق المستقيم ، الذى اختاره الله لرسوله ، بأنه : الدين القيم الذى هدى الله إليه إبراهيم عليه السلام ، فسلكه مبتعدا عن كل دين باطل ، حيث كان مخلصا فى عقيدته وعمله ، ولم يك من المشركين .

١٦٢ ، ١٦٣ - (قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَاشَرِيكَ لَهُ ...) الآيتان .

هذا أمر آخر ، من الله تعالى ، لرسوله صلى الله عليه وسلم ، بأن يبيّن : أن صلاته - وسائر عباداته وحياته وموته - خالصةٌ لله رب العالمين - وحده - دون إشراك أحد معه فى تلك الأمور المذكورة وغيرها .

(وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ) :

أي : وبالإخلاص لله ـ وحده ـ في كل عباداتي ، أمرني الله سبحانه وتعالى .

(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) :

أي : وأنا أول المنقادين المسارعين إلى إطاعة أوامر الله تعالى .

وفي هذه الجملة ، بيان لموقف النبي صلى الله عليه وسلم ، من الأوامر التي أمر بها ، وأنه قدوة للأمة من حيث المبادرة إلى امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي .

١٦٤ ـ (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ...) الآية

أي : قل يامحمد ، لهؤلاء المشركين بالله ، معلنا لهم ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله والتوكل عليه :

(أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) :

أي : أطلب إلٰها آخر سوى الله ربا ومعبودا .

(وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) :

أي : وهو المالك والمربي لكل شيء ، فيحفظني ويرعاني ويكلؤني ، ويدبّر أمري ، كما يقوم بتربية جميع الأشياء ، فيرعاها ويحفظها ؟ فلا ـ ولن ـ أتوكل إلا عليه ، ولن ألجأ إلا إليه ، لأنه رب كل شيء ، وله الخلق والأمر .

وفي هذه الآية : الأمر بإخلاص التوكل عليه سبحانه ، كما تضمنت الآية التي قبلها ، الأمر بإخلاص العبادة له عز وجل .

وهذا المعنى يقترن بالآخر كثيرا ، كما قال تعالى مرشدا لعباده ، أن يقولوا :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » [1] . ومثله : « ... فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ... » [2] .

(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) :

هذا إخبار عما يكون عليه الحال يوم القيامة ، من أنّ ما يعمله العاملون ـ من خير وشر ـ لايعود إلا عليهم : ثوابا أو عقابا .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية : ٥ (٢) سورة هود ، من الآية الخاتمة : ١٢٣

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) :

أى : ولاتحمل نفس آثمة إثمَ نفسٍ أخرى بل كل نفس بما كسبت رهينة . فالنفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

أى : اعملوا فى الدنيا ، فأعمالكم مسطورة عليكم . ثم يكون مردُّكم ورجوعكم إلى ربكم ، مالك أمركم فى الآخرة ، فيعلمكم بأعمالكم ، ليتبين لكم ما كنتم فيه من غرور وباطل مخالف للحق ، ويجازيكم عليها .

١٦٥ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . .) الآية .

أى : وهو الله الذى جعلكم تعمرون الأرض ، أمة تخلف أمة ، وقرنا بعد قرن ، وخلفا بعد خلف .

والخطاب - على هذا - عام لجميع البشر . أو هو الذى جعلكم خلفاء الأمم السابقة ... والخطاب على هذا ، للمؤمنين .

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) :

أى : فضَّل بعضكم على بعض فى الرزق ، وفاوت بينكم فى الأخلاق ، والمحاسن والمساوىء .

(لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءَاتَاكُمْ) :

أى : ليعاملكم معاملة المختبر - وهو أعلم بكم - فيما أنعم به عليكم من المال والجاه . هل يقوم الغنىُّ بحق المال ؟ وهل يصبر الفقير على الحرمان ؟ .

وكما كان التفاوت فى الدنيا ، فسوف يكون التفاوت فى الآخرة ؛ نتيجة التفاوت فى الأعمال الصالحة .

(إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

فى هذا ، تخويف وترغيب . فعقابه تعالى سريع - إذا جاء وقته - لمن عصاه وخالف أمره ، ولم يتبع رسله . وهو غفور رحيم ، لمن أطاعه ووالاه ، واتبع رسله فيما جاءوا به .

والقرآن الكريم ، كثيرا ما يجمع بين الترغيب والترهيب ؛ كي يحمل الله تعالى عباده على طاعته ، ويبعدهم عن معصيته .

نسأل الله التوفيق .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب السادس عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٩

سورة الأعراف

مقدمة :

هذه هى السورة السابعة فى ترتيب المصحف، وهى مكية ، ومن السبع الطِوال ، وعدد آياتها ست ومائتان . وسميت سورة الأعراف ؛ لورود هذا اللفظ فيها ، قال الله تعالى :

« وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . » الآية .

ونزلت كلها بمكة - كما قال ابن عباس وابن الزبير . واستثنى غيرُهما ثمانى آيات تبتدئ من قوله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ... » إلى أوّل قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ . . . » ومنهم من ضم إليها قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ . . . » الآية فتصير بها المدنيات تسعاً .

ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن سورة الأنعام ، ختمت بقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ الْأَرْضِ . . . » الآية [1] . وجاءت سورة الأعراف كالتفصيل لذلك . فسردت قصة آدم ، وهو أول خليفة استخلف فى الأرض . ثم تلتها قصة قوم نوح ، ثم عاد مع هود ، ثم ثمود مع صالح ، إلى آخر ما اشتملت عليه من القَصَص . .

كما أنهما تشتركان فى كونهما مكيتين ، أُنزلتا لحمل المشركين على ترك شركهم وعاداتهم الجاهلية .

من مقاصد السورة :

جمعت هذه السورة مقاصد شريفة ، منها ما يلى :

١ - الدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٦٥

٢ ـ لا اجتهاد مع النص لقوله تعالى : « اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » .

٣ ـ حوت قَصَص عدد من الأنبياء مع أُممهم ، وما انتهت إليه أَحوالهم ، لنعتبرَ بما حل بالكافرين ، ونتبعَ طريق المؤمنين .

٤ ـ بيان عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ إباحة الطَّيبات من الرزق ، وأخذ الزينة عند الذهاب إلى أماكن العبادة . ومثلها أماكن الاجتماعات العامة .

٦ ـ الامتنان على العباد باللباس والرياش ، وأن خير لباس يرتديه الإنسان هو التقوى ، التى بها يتفاضل الناس عند الله تعالى .

٧ ـ بيان أَنَّ أَوامر الله لعباده كلها خير ، لأَن الله لا يأْمر بالفحشاء والمنكر .

٨ ـ بيان أن نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، منصوص عليها فى الكتب السماوية السابقة .

٩ ـ بيان أن العلماء مطالبون بالتذكير والموعظة الحسنة ، لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق .

١٠ ـ ذكر العهد المأْخوذ من الله على بنى آدم ، بأَن يذعنوا ويسلموا بالربوبية لله ـ وحده ـ دون سواه . وأنهم أقروا واعترفوا وسيأْتى تفصيل ذلك .

١١ ـ الأَمر بالإنصات والاستماع عند تلاوة القرآن ، لما اشتمل عليه من الفوائد التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة : ولما تتنزل عند تلاوته من الرحمات والعطايا الإلهية :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾) .

المفردات :

(كِتَابٌ) : المراد به هنا، القرآن . أو سورة الأعراف .

(حَرَجٌ) :الحرج ؛ الضيق . وقد يطلق على الشك مجازا ، لأنه يضيق به صدر صاحبه .

(لِتُنْذِرَ بِهِ) : الإنذار ؛ التخويف .

(وَذِكْرَى) : الذكرى ؛ التذكير والوعظ .

التفسير

١ - (الٓمٓصٓ)[1] :

افتتح الله تعالى تسعا وعشرين سورة بأسماء بعض الحروف الهجائية . وسورة الأعراف واحدة منها .

ويرى بعض العلماء : أن هذه الحروف ، من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه .

ولما سئل الشعبىّ عنها قال : إن لكل كتاب سرًّا ، وإن سرَّ هذا القرآن فواتح السور . ا هـ

ويرى آخرون أنها فواصل بين السور ، كما تأتى كلمة (هذا) فاصلة بين الآيات . كما فى قوله تعالى : « هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . . . »[2] إلخ .

---

(١) راجع ماكتبناه على الفواتح أول سورة البقرة.

(٢) سورة ص ، الآيات : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي أسماءٌ للسور . . ويستدل بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة الٓمٓ : السجدة . وَهَلْ أَتَى عَلَى ٱلإِنسَانِ » .

وقيل : هي أسماءٌ لله تعالى .

وقيل : هي فواتح لتنبيه السامعين إلى ما في القرآن من الآيات والعِبر .

وقيل : هي رمز إلى أن القرآن مؤَلَّف من كلمات عربية ، ذات حروف من جنس ما ينظمون منه كلامهم . فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فمحمّد مثلهم . وذلك دليل على أنه من عند الله تعالى . .

واختاره الزمخشرى .

٢ ـ (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) :

هذا القرآن كتاب أُنزل إليك ـ يا محمّد ـ من ربك ؛ لتخوِّف به المشركين والكفار من عاقبة شركهم وكفرهم ، حتى يقلعوا عمَّا هم فيه ، ولتذكِّر به المؤمنين وتعظَهم ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم . فلا يكن في صدرك ـ يامحمّد ـ ضيقٌ مِن تبليغه ، بسبب تكذيب المشركين إيّاك ؛ وتَجَمُّعِهم عليك . أو بسبب خوفِك من التقصير في القيام بحقّه .

وكن منشرحَ الصدر ، مطمئنَ النفس . . فالله ناصرك ومعينك .

والتعبير بقوله تعالى : (كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ) بدلا من « أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ » جاء على سنن الكبرياء ، وإيذانًا بالاستغناء عن التصريح بِمَنْ أنزله ، سبحانه وتعالى .

وإنما فسرنا الحرج بالضيق ، لأنه أصل معناه ، ولقوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ... »(١) الآية . وقوله : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »(٢) .

(١) سورة هود ، الآية : ١٢

(٢) سورة الحِجْر ، الآية : ٩٧

وكما كان يضيق صدرُه الشريف لما يقولون ، كان يضيق خوفا من إيذائهم إيّاه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَثْلَغُوا رَأْسِى (١) فَيَدَعُوهَا خُبْزَةً (٢) » أخرجه مسلم .

ولهذا ، نهاه الله تعالى ، عن أن يضيقَ صدرُه بذلك . فقد وَفَّر له جميل الرعاية والحماية والتأييد .

والغرض الأساسى من نهيه عن وقوع الحرج فى صدره ، أَلَّا يبالِىَ بمعارضة قومه ، وأن يُشعره الله بنصره ومعونته .

وتخصيص الذكرى بالمؤمنين ، لأنهم المنتفعون بها .

(ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾) .

المفـردات :

(مِن دُونِهِ) : « دون » له عدة معان ، منها أنه بمعنى غير ، وهو المناسب هنا .

(أَوْلِيَآءَ) : قادة يوجهونكم ، أو يلون أمركم فى دينكم .

(تَذَكَّرُونَ) : أصله تتذكرون ، مخفف بحذف التاء . أى تتعظون .

التفسير

٣ـ (اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . . .) الآية .

المعنى : اتبعوا ـ أيُّها المكلفون وخاصّة أهل مكة ـ ما أُنزل إليكم من ربكم من القرآن وسنة الرسول ، فإنها من الوحى . ولاتتبعوا من غير ربكم أولياء من الإنس والجن : يزيّنون لكم الأباطيلَ ويصرفونكم عن الحقِّ إلى الأهواء والبدع ، لأنكم تتعظون قليلا من الاتعاظ .

(١) أى يشدخوها ويكسروها ، من ثلغ رأسه ـ كمنع ـ أى شدخها .

(٢) الخبزة واحدة الخبز ، أى يتركوها مثل الخبزة التى تضرب باليد قبل وضعها فى التنور ، أو مثل الخبزة إذا دقت وضربت بعد خبزها ، فإنها تصير محطمة .

ولهذا لاتنفعكم المواعظ .

وإنما قلنا : إن السّنة من الوحى ، لقوله تعالى : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ »[1] وقوله عزّ وجل : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[2] وقوله عزّ مِن قائل : « وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا »[3] .

وقد استفيد من الآية الكريمة : أنه لايُعْدَلُ عن النص إلى الاجتهاد ؛ فإن اتِّبَاعَ الاجتهاد - مع وجود النص - اتباع لغير ما أُنزل إلينا من ربّنا .

والتعبير بقوله تعالى: (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) يحتمل أن يراد به أنهم يتعظون قليلا جدا . ولذا أكد هذه القلّة بحرف (ما) ولا يلبث هذا الاتعاظ القليل أن ينتهى ، فلا يكون له أثر جذرى فى أعماق النفس .

ويحتمل أن يراد بالقلّة العدم كما يقال : فلان قلّما يعقل ، أى لايعقل أصلا..

(وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾) .

المفردات :

(كَمْ) : خبرية بمعنى كثير .

(قَرْيَةٍ) : المراد من القرية أهلها .

(بَأْسُنَا) : عذابنا .

(بَيَاتًا) : ليلا .

(١) سورة النجم، الآيات: ٣، ٤، ٥ (٢) سورة النحل، من الآية: ٤٤ (٣) سورة الحشر، من الآية: ٧

(قَائِلُونَ) : نائمون أو مستريحون نهارًا وقت القيلولة . وهى النوم أو الراحة نصف النهار .

(دَعْوَاهُمْ) : دعاؤهم . ومنه قوله تعالى : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] .

التفسير

٤ - (وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) :

لما أمرهم الله تعالى باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع أئمة الكفر والضلال - أتبع ذلك إنذارهم بإنزال العذاب بهم ، كما أنزله بمن قبلهم بسبب إعراضهم عن دين الله ، وإصرارهم على أباطيل أوليائهم .

والمراد من إهلاك القرى ، إرادة إهلاكها ، لا إهلاكها فعلا. لقوله تعالى بعده : (فَجَآءَهَا بَأْسُنَا) إذ البأس لايجىء بعد الإهلاك ، بل بعد إرادته . وذلك كما فى قوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ . . . »[2] الآية . إذ معناه : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا . . . إلخ .

والمعنى : وكثير من القرى أراد الله إهلاك أهلها ، فجاءهم عذابه ليلا - وهم نائمون - كقوم لوط ، أو نهارًا - وهم مستريحون وقت القيلولة غافلون عن مجىء العذاب - كقوم شعيب . وذلك لكفرهم وإعراضهم عن دين الله .

٥ - (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

فما كان دعاؤهم - حينما نزل بهم عذاب الله - إلا أن قالوا تندُّمًا وتحسُّرًا واعترافا بالذنب وطمعا فى النجاة : ياويلنا ، إنا كنا ظالمين لأنفسنا بتركنا حقَّ الله إلى باطل الطاغوت ، ولاتَ ساعة مندم . ولات حين نجاة .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ١٠ (٢) سورة المائدة ، من الآية : ٦

(فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩) .

المفـردات :

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ) . وتقدير أعمال العباد فى هذا اليوم هو الحق والعدل .

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : فمن رجحت أعماله التى توزن وتقدر .

التفسير

٦- (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) :

يؤكد الله تعالى فى هذه الآية الكريمة : أنه سوف يسأل - يوم القيامة - الأمم الذين أرسلَ إليهم رسلَه ، قائلا لهم : « مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ »[1] كما يؤكد أنه - تعالى - سوف يسأل المرسلين ، قائلا لهم : « مَاذَآ أُجِبْتُمْ »[2]

٧- (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) :

كما يؤكد الله تعالى - فى هذه الآية - أنه سوف لايكتفى بشهادة الرسل على أممهم ، ولا بإقرار الأمم على أنفسهم بأعمالهم . بل يقصّ الله على الجميع ماكان منهم - بعلم تام - بجميع أحوالهم . ويقرر الله سبحانه : أنه لم يكن غائبا حين كان الرسل يبلّغون أممهم فى صدق وإخلاص ، ولا كان غائبا - سبحانه - عن الأمم حين كانوا يُبَلَّغون : من آمن منهم برسله ومن كفر.فإنه - عزَّ وجلّ - لايخفى عليه شىءٌ حدث فى الأرض أو فى السماء .

وقد يقال : إذا كان الله تعالى عالما بما كان منهم ، وأنه سيقصّه عليهم ، فما فائدة سؤالهم الذى دلّت عليه الآية السابقة ؟

(١) سورة القصص ، من الآية : ٦٥ (٢) سورة المائدة ، من الآية : ١٠٩

فالجواب : أن سؤال المكلفين من الأمم – هو سؤال تقرير وتوبيخ ، وسؤال المرسلين هو سؤال استشهاد وتشريف لرسله . مع تمام علمه بما يسألهم عنه ، كما أنه تعالى لايريد أن ينزل بهم عقابه ، لمجرد ما علمه عنهم ، حتى يقروا به هم على أنفسهم .

فإن قيل : كيف نوفق بين ما هنا ، وبين قوله تعالى : « فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ » ؟ [1] .

فالجواب أن السؤال المثبت هنا ، يكون فى موقف الحساب ، والمنفى فى سورة الرحمن – يكون فى موقف العقاب .

ولعل الظاهر من الآية أن سؤال كلٌّ من الرسل وَمَنْ أُرسِلوا إليهم ، هو سؤال خاص بتبليغ المرسلين إياهم ، وما نتج عنه من كفر أممهم أو إيمانهم بهم .

وهذا لايمنع أن الناس يُسألون – أيضا – عن جميع أعمالهم ، كما دلَّ عليه قوله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » [2] وقوله صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ... [3] » الحديث.. إلى غير ذلك من الأدلة .

والسؤال عن ذلك كله سؤال تقرير وإقامة حجة ، لا سؤال استعلام . . .

ويبدو أن إخبار الله تعالى الأمم عن أعمالها ، يكون – بتسليمهم – فرادى – كتب أعمالهم التى تنطق عليهم أو لهم . أو بإخبار الملائكة لهم ، والله تعالى أعلم .

٨ – (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

المراد من الموازين ، الأعمال . والموازين جمع موزون ، أى مقدّر ، والمراد من الوزن الحق ، التقدير والقضاء العادل – كما قاله مجاهد ، والأعمش ، والضحاك . واختاره كثير من المتأخرين .

واستعمال الوزن بمعنى القضاء والحكم والتقدير ، شائع – لغة وعرفا – بطريق الكناية . . ومّمن ذهب إلى ذلك المعتزلة .

وحُجَّة أصحاب هذا الرأى : أن الأعمال أعراض تفنى . وعلى فرض بقائها ، لاتقبل الوزن بالميزان المعروف ، الذى لاتوزن به إلا الجواهر والأعيان .

وهذا هو رأى المحققين .

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٣٩ (٢) سورة التكاثر ، الآية : ٨ (٣) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

والجمهور، على أن الوزن حقيقى. ويكون لصحف الأعمال بميزان له لسانٌ وكفتان: ينظر إليه الخلائق، تأكيدًا للحجة، وإظهارًا للنصفة، وقطعا للمعذرة ... كما يسألهم الله عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد بها أيديهم وأرجلهم وجلودهم - ويشهد عليهم كذلك: الأنبياءُ والملائكة وسائر الأشهاد.

ومما يدل على صحة الرأى الأول، ما أخرجه مسلم فى صحيحه بسنده قال:

قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى[1]؟ قال سمعته يقول: «يُدْنَى المؤمنُ مِنْ ربِّه يَوْمَ القِيَامة، حتى يضَعَ عليه كنَفَه فيُقَرِّرُه بذنوبه»، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أى ربِّ أعرف. قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم، فيُعْطَى صحيفةَ حسناتِهِ... وأما الكفار والمنافقون، فيناديهم على رءوس الخلائق: هؤلاء الذين كَذَبُوا على الله. «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» كما أن الكتب ليست هى الأعمال، فكيف يبين وزنها حقيقة هذه الأعمال من حسنات وسيئات؟

والاحتياط يقتضى التسليم بالوزن. أما حقيقة هذا الوزن، فيُترك علمها إلى الله تعالى.

فالمعنى: وقضاءُ الله بين عباده فى يوم القيامة وتقديرُه لأعمالهم هو القضاءُ والتقديرُ الحقُّ، فَمَنْ رجحت أعمالُه، وكان لها وزنٌ وقيمةٌ لصلاحها، فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العقاب، والحصول على جزيل الثواب.

والآية الكريمة قد حصرت الفلاح فى الذين رجحت حسناتهم على سيئاتهم، بقولها: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

٩- (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ):

أى وَمَن خفّت أعماله، بأن كانت لا وزن لها ولا قيمة - لكونها فاسدة - فأولئك الذين خسروا أنفسهم؛ إذ غيَّروا فطرة الله التى فطرهم عليها كما فطر الناس. وهى فطرة حبِّ الحق، وجلب النفع، ودفع الضر. وقد أبوا ذلك لأنفسهم، فكفروا، فاستحقوا العذاب، بسبب كونهم مستمرين على تكذيبهم بآيات الله، وظلمهم بجحدهم لها.

وصدق الله إذ يقول: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا»[2].

(١) أى مناجاة الله للعبد يوم القيامة، والمناجاة المسارة كالنَّجوى. وناجاه: سارّه.
(٢) سورة الكهف، من الآية: ٤٩

(وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾) .

المفـردات :

(مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ) : جعلنا لكم فيها مكانا تستقرون فيه . أو أقدرناكم على التصرف فيها .

(مَعَايِش) : أسبابا للعيش .

التفسير

١٠ - (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّاتَشْكُرُونَ):

لما أمر الله المكلفين عامّة - وأهل مكة خاصّة - باتباع ما أنزله إليهم ، ونهاهم عن اتباع أولياء الضلال ، وبيَّن لهم أنهم - جميعا - مسئولون عن ذلك ، ومجزيّون عليه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، عقَّب ذلك بتذكيرهم - جميعا - بنعمه الموجبة لشكرهم إيَّاه سبحانه وتعالى : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه . فقال عزَّ من قائل :

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ) :

أى : ولقد جعلنا لكم - فى هذه الأرض - مكانا تستقرون فيه. وذلك نعمة كبرى يعرف قدرها من سُلِبُوها فَدَأَبُوا على الارتحال .

أو المعنى : أقدرناكم على التصرف فيها واستنباط خيراتها . بما أودعنا فيكم من طاقات .

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ) :

المعايش : جمع المعيشة . وهى مايُعَاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . أوهى. مايُتَوَصَّلُ به إلى ذلك . والله سبحانه وتعالى يَمُنُّ على عباده ، بأنه هيأ لهم معايشهم ،

على أى وجه مما تقدم . . وتلك مِنَّةٌ توجب أن يشكرها العبد لربِّه ، بامتثال أمره واجتناب نهيه . ومن سلبه الله هذه النعمة فهو من الهالكين .

(قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ) :

يخاطب الله المشركين – وأمثالهم من الجاحدين لِنِعَمِه – بهذه الجملة ، ناعيا عليهم سوء معاملتهم ، حيث شكروه عليها شكرا قليلا ، هو بالنسبة إليها بمنزلة العدم فإن الشكر عليها ، لا يكون إلا بدوام توحيده – سبحانه – بالعبادة ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . فإذا كان شكرهم – إن وقع – فهو دون ذلك – كما هو دأبهم – فلا كفاء فيه . وجدير أن يكون بمنزلة العدم .

وخلاصة معنى الآية :

ولقد جعل الله لكم – فى الأرض – مكانا تستقرون فيه ، وأبدع – لمصالحكم ومنافعكم – أسبابا تعيشون بها ، فكان شكركم لها فى غاية القلَّة ، فاحذروا عقاب التقصير فى شكره . ويجوز أن يكون المقصود من قلَّة شكرهم لله انعدامه وانتفاؤه، لأنهم كانوا يتجهون بشكرهم إلى أوثانهم ، فهم ينسبون إليها النفع والضرّ . وإن كانوا يؤمنون بأن الله خالقهم .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾) .

المفـردات :

(مِنَ الصَّاغِرِينَ) : من أهل الصَّغار والهوان .

(أَنظِرْنِى) : أمهلنى ولا تُمتْنى .

التفسير

١١ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ . . .) الآية.

الربط :

لما ذكَّرالله قريشا بنعمة التمكين لهم فى الأرض ، وتيسير المعاش ، ذكَّرهم عقبه بنعمةٍ تَعُمُّهم وغيرهم ، تَقْتضى أجل الشكر ، وهى خلقهم وتصويرهم ، ضمن خلق أبيهم آدم وتصويره ، وأتبع هذا بذكر عداوة إبليس للبشر- جميعا - بما كان من وسوسته لأبيهم آدم ، وتسلسل هذه الوسوسة فيهم ، ليحذروه . فقال :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) :

أى ولقد خلقنا أباكم آدم طينا غير مصَّور ، ثم صورناه، فانتقل إليكم خلقه وتصويره .

وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين من المشركين ، لأن لهم نصيبا منه فى ضمن خلق أبيهم آدم عليه السَّلام .

وقيل : إن المعنى ؛ خلقناكم نطَفا ، ثم صورناكم فى أرحام النساء .

وإليه ذهب عكرمة وجماعة من النحويين ، كعلى بن عيسى والسيرافى .

ولكن يرد على هذا أن الله سبحانه وتعالى . قال عقب ذلك :

(ثُمَّ قُلْنَا للمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) ؟

وقد أُجيب عنه بأن المراد : ثم إنَّا نُخْبركُم : أنَّنَا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... وفيه تكلف . .

(ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) :

ظاهره أن الملائكة أُمِروا بالسجود لآدم بعد تصويره . ولكن ظاهر قوله تعالى :

« إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »[1] أنهم أُمروا به قبل خلقه ؟ .

(١) سورة الحجر، آية : ٢٨ ، ٢٩

وتوفيقا بين هاتين الآيتين ، نقول : إنهم أُمروا بالسجود له مرتين .

الأُولى منهما : قبل خلقه ، وكان الأَمر فيها معلقا على تسويته ونفخ الروح فيه . والثانية منهما ، بعد تمام خلقه ، وكان الأَمر فيها منجزا . والله أَعلم .

والملائكة - عند جمهور المتكلمين - أَجسام لطيفة ، قادرة على التشكل بأَشكال مختلفة ، بدليل رؤْية الرسل إياهم كذلك .

واختلف فيمن أُمِر منهم بالسجود لآدم ، فقيل : ملائكة الأَرض . وقيل : جميع الملائكة . وهو رأْى أَكثر الصحابة والتابعين .

والسجود فى اللغة : الخضوع والتطامن . وفى الشرع : وضع الجبهة على الأَرض بقصد العبادة .

وليس فى الآية ما يدل على أَن السجود مِن النوع الثانى . . فلهذا يحمل على النوع الأَول ، لخصوص السجود الشرعى بالله تعالى .

وقد أُمِروا بهذا السجود ، أَى بالخضوع لآدم على الوجه المناسب ، تحيَّة له وتعظيما واعترافا بفضله . فقد أَنبأَهم بأَسماء كل المسميات وخواصها ، بعد أَن علَّمه الله إيَّاها ، حين عجزوا عن إنباء الله بها ، وقالوا : « لَاَ عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ »(١) .

وقيل : المعنى ؛ اسجدوا لله ، لأَجل آدم وخلقه البديع ، الذى التقى فيه العالم الرُّوحي والعالم الجسدى ، وتكون اللام - على هذا - فى قوله (لِآدَمَ) للتعليل .

كقوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ...)(٢) أَى لأَجل زوالها عن وسط السماء .

(فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ) :

قيل فى استثناء إبليس من الملائكة؛ إنه استثناءٌ متصل ، فإنه - وإن كان من الجن - لقوله تعالى : «كَانَ مِنَ الْجِنِّ » إلَّا أَنه لما كان مندمجاً مع الملائكة ؛ يعبد عبادتهم ، عُدَّ منهم . كالرجلِ يقيمُ فى قبيلة أُخرى غير قبيلته ، فيعدُّ منها .

وقيل : هو استثناءٌ منقطع . .

---

(١) سورة البقرة، من الآية : ٣٢ (٢) سورة الإسراء، من الآية : ٧٨

ولعله – على هذا الرأى – مأمور بالسجود لآدم بأمر آخر ، غير أمر الملائكة . . .
وإلا لما صح اعتباره مذنبا حين ترك السجود لآدم ، لو كان الأمر بالسجود خاصا بالملائكة ، فإنه ليس منهم . . .

وكأن أصل الكلام : وإذ قلنا للملائكة ولإبليس : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس . . فاختصرت العبارة إلى ما فى النص الكريم لوضوح المراد .

والرأى الأول أوضح وأقل تكلفا .

(لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) : تصريح بما فهم من الاستثناء السابق ، لتأكيده ؛ ولمزيد التشهير بإبليس والتوبيخ له على جريمة عصيانه ربه ، سبحانه وتعالى .

وخلاصة معنى الآية : ولقد خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ، ثم صورناه ، فانتقل إليكم خلقه وتصويره ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لله لأجل خَلْقِهِ آدمَ على هذه الصورة الجليلة . . أو اخضعوا لآدم وعظموه ، اعترافا بفضله ، فسجدوا عقب أمرنا لهم ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

١٢ – (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَن لَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ...) الآية .

قال الراغب : المنع فى الآية الكريمة ، بمعنى الحماية .

والمعنى – على هذا – ماحماك من عدم السجود .

وقال السكاكى : المنع هنا . مجاز عن الحمل .

والمعنى ماحملك على أن لا تسجد . .

وكلا المعنيين يدور على أنه من المَنَعَةِ وهى العزة ، فكأنه تعالى قال له : أى شىء جعلك عزيزا وحملك على ترك السجود لآدم ؟ ! .

وقيل : إن (لا) صلة لتوكيد المنع . وكأنه قيل : ما منعك من أن تسجد .

ومعنى الآية : – على هذا – قال الله لإبليس – لعنه الله – أى شىء منعك من أن تسجد لآدم حين أمرتك ؟ ! .

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) :

قال إبليس : أنا خير من آدم ، لأنك خلقتنى من نار وخلقته من طين . والنار أشرف عنصرا من الطين . والمخلوق من العنصر الأعلى ، لايسجد لمن خُلِق منْ عنصر هو دونه ..

وقد وُبِّخ إبليس هنا على مخالفة الأمر . وَوُبِّخَ فى سورة [الحِجْرِ] على مخالفة الجماعة ، بقوله تعالى : « مَالَكَ أَن لَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »(١) ووُبِّخ فى سورة [ص] على الاستكبار على من خلقه الله بيديه بقوله : « ... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ »(٢) وكل منها ذنب يستحق أشد التوبيخ عليه .

وإبليس بقوله : (خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) يُجِيبُ ربَّه بجواب يرجع إلى المعنى .. ذكره استبعادًا لأن يؤمر بالسجود لآدم ، وهو - فى رأيه الفاسد - أفضل منه . .

فكأنه قال : منعنى من السجود أننى أفضل منه . فقد خلقتنى من نار ، وخلقته من طين . والفاضل لايسجد للمفضول .. وهو بهذا يرد أمر ربه له ، بسبب القياس الفاسد الذى ذكره .

ومن المعلوم شرعا أن النص لايصح ردّه بالقياس الصحيح ، فكيف بالقياس الفاسد ، كالذى قاله إبليس ! ! .

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاس : إبليس ؛ فأخطأ القياس . فَمَنْ قاس الدين برأيه : قرنه الله مع إبليس . .

وقال ابن سيرين : ماعُبِدَتِ الشمسُ والقمر إلا بالمقاييس . .

وفساد قياس إبليس ناشىء من أن كلاًّ من التراب والنَّارِ يختص بفوائد ليست لغيره . وكل منهما ضرورى لهذه النشأة . فترجيح أحدهما على الآخر . حاصل بدون مرجح . كما أنه لا يَعْلَمُ أسرار الترجيح - إن وُجدت - سوى الخالق جلّ وعلا .

على أنه لايصحُّ رجوع الفضل إلى المادة دون النظر إلى غيرها .

فآدم خير منه خَلْقًا ، فقد خلقه الله بيديه . أى بلا واسطة ، قال تعالى : «مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

(١) سورة الحجر آية : ٣٢ (٢) سورة ص آية : ٧٥

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ...»[1] أى بغير واسطة، وذلك اعتناء بنشأته، ولا يعتنى المولى سبحانه إلا بمن هو أهل لهذه العناية . .

كذلك هو خير منه روحًا ، لقوله تعالى : «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى»[2] بإضافة روحه إلى الله تعالى ، تشريفًا لا تبعيضًا.

وهو خير منه غايةً ، حيث عهد الله إليه بخلافة الأرض ، وأَهَّلَهُ لها بالعلم . وذلك هو ملاك الأمر .

ولهذا أمر الله الملائكة بالسجود له ، فسجدوا ، بعد ماظهر لهم أنه أعلم منهم ، بما يدور عليه أمر الخلافة فى الأرض .

١٣ - (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) :

المعنى :

قال الله لإبليس : انزِلْ مقهورًا من منزلة الكرامة التى أنت بها ، فما يصح لك أن تتكبر فيها ، فإنها للخاشعين المطيعين ، فاهبط منها إنك من أهل الصَّغار والهوان ، جزاء كبريائك . .

وللعلماء فى معنى (فَاهْبِطْ مِنْهَا) : آراء غير ماتقدم نجملها فيما يلى :

قال بعضهم إن الضمير فى (منها) يرجع إلى الجنة ؛ لشهرة أنه كان من سكانها ، وهى الجنة التى وعدت للمتقين . والمعنى : فانزِل من الجنة .

وقيل : إنه يرجع إلى السماء . أى فانزِل من السماء .

ورُدَّ القولان ، بأن وسوسةَ الشيطان لآدم ، كانت بعد هذا الطرد . فإذا كان آدم فى جنة السماء ، فكيف يوسوس له فيها بعد أن طرد منها أو من السماء ؟ .

وأُجيب عن ذلك ، بأنه مُنِعَ من دخولها تكريمًا ، ولم يمنع ابتلاءً لآدم .

ويرى كثير من العلماء : أن الجنة التى أهبط منها - وكان فيها آدم - هى جنة فى الأرض . إذ أنه خُلِق من تراب الأرض . ولم يَرِد نصٌّ أنه رُفع إلى الجنة أو إلى السماء .

(١) سورة ص ، الآية : ٧٥
(٢) سورة الحجر ، من الآية : ٢٩

وممن قال بذلك : ابن عباس رضى الله عنهما . فقد رُوِىَ عنه أنه قال : أُمِرَ بالهبوط من روضة بَعَدَن . وفيها خُلِق آدمُ عليه السّلام. وهذا رأى مقبول ولا يمنع من وسوسة إبليس لآدم ، لأنه معه فى الأرض ، فيستطيع أن يقترب من جنته ويوسوس له .

١٤ - (قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

قال إبليس لربه : أمهلنى واتركنى حيًّا إلَى يوم القيامة ، الذى يُبْعَثُ فيه آدمُ وذريتهُ .

وقد طلب ذلك لغرضين :

أحدهما : أن يَثْأَر من آدم ، بالإغواء لذريته حتى نهايتهم .

وثانيهما : أن ينجوَ من الموت ، إذ لاموت بعد البعث .

١٥ - (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ) :

الإنظار : الإمهال . وقد أُطلِقَ هنا ، وقيد فى سورة [الحِجْر] وسورة [ص] بأنه إلى يوم الوقت المعلوم ، فيحمل ما هنا عليه .

والمراد من الوقت المعلوم ، يوم النفخة الأُولى التى يموت عندها جميع الخلائق .

قال ابن عباس وغيره : أنظره الله إلى النفخة الأُولى ، حين تموت الخلائق . وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية ، حتى يقوم الناسُ لربِّ العالمين ، فأبى اللهُ عليه ذلك .

فإن قيل : ما فائدة إجابة إبليس إلى طلبه الإنظار ؟ وماحكمة الغواية مع أن فيها إضرارا بالعباد ؟ .

فالجواب : أن فى إنظاره ابتلاء لهم ، ليُخْتَبَرَ أهلُ الحق ، فيثابوا على مجاهدتهم لوساوسه ، وأهلُ الضلال والغواية ، فيعاقبوا على استجابتهم إليها .

والحكمة فى خلْق الله الغواية فى الزخارف والملاهى والملاذ ، وفيما فطر فى الأنفس من حبِّ الشهوات : أن يمتحن اللهُ بها عبادَه ، كما أن منها ما هو مرض نفسانى ، يعصم منه الله

أهلَ المناعة الروحية وهم الحريصون على الحق والفضيلة وهو يعادل الأمراض الجسدية التى يعصم الله منها أهل المناعة الجسدية .

وفى ذلك – أى فى المناعة من غواية الشيطان لمن رضى الله عنهم– يقول الله تعالى ، لإبليس عليه لعنة الله : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »[1] .

(قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾) .

المفردات :

(فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى) : الإغواء ؛ خلق الغَىّ فى القلب . والغىُّ : الضلال . (صِرَاطَكَ) : الصراط ؛ الطريق .

(مَذْءُومًا) : أى مذمومًا . من : ذأمه ، إذا ذمَّه .

(مَدْحُوراً) : مطرودًا مبعدًا . وفعله : دَحَرَ كجَعَلَ .

التفسير

١٦ – (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) :

بعد أن عرف إبليس ، أن الله تعالى أملى له ، وأبقاه إلى قيام الساعة ؛ للحِكَم التى شرحناها فى الآية السابقة – قال لربه : فبسبب إغوائك لى ، وجعلى من أهل الضلال ،

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢

لأقعدنَّ لآدم وذريته ، راصداً لهم فى طريقك المستقيم ، الموصل إلى جنتك ، الذى دعت إليه رسلك .

وقعود الشيطان لبنى آدم فى الصراط المستقيم - وفى تلك الجهات - كناية عن رصده لهم ، ومراقبتهم عندما يتجهون إليه ، ليبعدهم عنه .

وتفسير الإغواء بالإضلال ، هو رأى ابن عباس ؛ ونسبة الإغواء بمعنى الإضلال إلى الله تعالى ، لا يمنعها أهل السنة .

والمحققون منهم : يرون أن المراد من إضلال الله للعبد : التخلى عن توفيقه إياه ، بعد أن اختار العبدُ سبيل الضلال .

والمعتزلة : يمنعون نسبة الإغواء بمعنى الإضلال إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا كلام الشيطان فلايحتج به . كما قالوا أيضا : يمكن أن يكون المعنى فبما خيبتنى من رحمتك أو فبما أهلكتنى بطردك إياى ولعنك لى . . الخ فكما يطلق الإغواء لغة على الإضلال ، يطلق على التخييب والإهلاك .

١٧ - (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ...)الآية .

اقتصار إبليس على تلك الجهات الأربع ، دون أن يذكر - فَوْقَهُمْ وتحتهم - لأنها هى الجهات التى اعتاد العدو الهجوم منها .

ومعنى (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ) : من أمامهم .

والمقصود من ذكر الشيطان هذه الجهات ، هو المبالغة فى متابعة إغوائه لهم . دون حقيقة تلك الجهات . فإن وسوسته لهم قلبية ونفسية . وهو يجرى من ابن آدم مجرى الدم . فلا حاجة له إلى تلك الجهات .

ويجوز أن يكون غرضه من تلك الجهات : أنه سيضلهم عن الحق أينما اتجهوا إليه . إقبالًا أو إدبارًا ، وميامنة أو مياسرة . بحيث لا يترك لهم فرصة للإفلات منه . لعنه الله .

ولقد حمى الله سبحانه وتعالى ، المؤمنين من هذا الوعيد بقوله تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ »(١) .

فَعلى المؤمنين أن ينتبهوا إلى تلك الحقيقة ، ويحتموا بإيمانهم من سلطان إغوائه ، فلا يستمعوا لوسوسته ، ولا يأبهوا بتزيينه ، فإنه السمُّ الزعاف : متى استطاع استدراج العبد ، جعله فى ظلام لا يتبين فيه الحقيقة ، ووجد صعوبة فى العودة إلى الجادة المستقيمة ، فقد أبعده اللعين عنها .

فعلى كل مسلم أن يصده ويعرض عنه ، حتى لاتتأثر نفسُه بالاستماع الدائم إلى وساوسه ، وأن يتذكر عداوته لآدم وذريته ، لينجو من شرِّه . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُون »(٢) أى تذكروا عداوته ، فاستعاذوا بالله تعالى : يطلبون حمايتهم من شرِّه ، قال تعالى : « وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(٣) حمى الله عباده المؤمنين من شرِّه ، وهداهم إلى سواء السبيل .

ومعنى الآية : ثم لآتينهم من كل وجه يتجهون إليه بعد رصدهم ومراقبتهم ، ولا تجد أكثرهم - بسبب إضلالى إياهم - مطيعين لك .

تلك هى عداوة إبليس للجنس البشرى . وهذا هو وعيده لهم .

فعلى الإنسان أن يكون حذرا من وساوسه ، لينجو من عواقبها .

١٨ - (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُوراً لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى قال الله لإبليس - مؤكدا طرده السابق - اخرج من منزلة الكرامة أو من الجنة ، مذموما مِنِّى ومن أهل طاعتى ، مطرودا مبعدا من رحمتى أُقسِم : لَمَنْ تبعَك منهم - فى وسوستك له واستمر عليها - لأملأنّ جهنم منكم أجمعين : تابعين ومتبوعين .

---

(١) سورة النحل ، الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٦

وظاهر النص أن مخاطبات الله لابليس ، كانت بلاواسطة لغرض مزيد التعنيف والتوبيخ والوعيد .

واستظهر الجبائى من المعتزلة : أنها كانت بواسطة ، لأن الله لايكلم الكافر .

(وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾) .

المفردات :

(وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا) : أخفى عن عيونهما من عوراتهما .

(وَقَاسَمَهُمَا) : وأقسم لهما ، مبالغا فى الإقسام .

التفسير

١٩ ـ (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) :

هذا نداءٌ من الله تعالى لآدم عليه السلام يأمره فيه بسكنى الجنة والتنعم بثمارها . وتنبيه له إلى الاهتمام بتلقى الأمر والعمل به .

ولم يشرك معه زوجته فى الخطاب ؛ للإيذان بأصالته فى تلقّى الوحى ، ومباشرة المأمور به .

والمعنى :

وقلنا : ياآدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة ، واستقرا فيها ، وتنعما بخيراتها ، وكلا من ثمارها – ما أحببتما – فى سعة ورفاهية ، من أى مكان فيها أردتما. ولكن لاتقربا ثمار هذه الشجرة ، فتكونا بذلك من الظالمين لأنفسهم ، إذ تعديتما حدود الله تعالى .

والجنة التى أمرا بسكناها والأكل منها ، اختلف فى المراد منها . فقيل : هى دار الثواب والعقاب ؛ لأنها المعهودة شرعا .

وقيل : هى بستان فى الأرض ، فالجنة – فى اللغة – بمعنى البستان .

واختلف فى موقعها ، فقيل : بفلسطين . . وقيل : بين فارس وكرمان . وقيل : بعدن .

والإهباط منها : النقل إلى أرض سواها يكدحان فيها ويعملان لتحصيل رزقهما .

ويرجح أصحاب هذا الرأى ماذهبوا إليه ، بأن آدم خلق فى الأرض بلاخلاف ، ولم يذكر فى قصته أنه رفع إلى السماء . . ولو رفع ، لكان رفعه أولى بالذكر .

ولا يعارض هذا قوله تعالى ، فيما بعد : (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)(١) فإن استعمال الهبوط بمعنى الانتقال ، وارد فى القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى : « اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّاسَأَلْتُمْ »(٢) .

وقيل : كلا الأمرين ممكن . والأدلة متعارضة . فوجب التوقف ، وترك القطع . وقد جاءت هذه الآية فى سورة البقرة هكذا « اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا » فصرح فيها بكلمة (رغدا) أى أكلا واسعا – رافها .

والمعنى هنا ، على ذلك ، وإن لم يصرح به ، أخذاً من إطلاق الأكل.

واختلف فى الشجرة التى نهيا عن القرب منها . فقيل : هى الحنطة . وقيل : هى شجرة العنب . وقيل : هى التينة .

---

(١) سورة الأعراف، من الآية : ٢٤

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٦١

والأولى عدم تعيينها ؛ لفقدان الدليل عليه .

وتوجيه الخطاب إليهما ، فى قوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ) لتشريفهما ؛ والإيذان بتساويهما فى حقِّ الأكل ، ولكى يوجه النهى إليهما صراحة فى قوله تعالى : (وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ) .

وخوطب آدم - وحده - فى السكن ؛ لأن حواء تابعة له فيه . . . . .

والمقصود من النهى عن قربهما تلك الشجرة ، ألَّا يأكلا منها . وعبّر عن ذلك بالنهى عن القرب منها ، مبالغةً فى تحريم الأكل منها .

٢٠ - (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا) الآية .

الوسوسة - فى الأصل - الصوت الخفى المكرر . ومنه قيل لصوت الحلى ؛ وسوسة . وتطلق أيضا ، على حديث النفس .

وقد غلبت فى حديث إبليس لبنى آدم ؛ لإغوائهم . فإنه خفى . وقد كانت وسوسته - لآدم وحوّاء - بطريق الاسترسال ، حتى وصل بهما إلى مايريد من المعصية وإخراجهما من الجنة .

فقد قال لآدم : « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »[1] ؟ .

وستأتى بقية كلامه لهما فى خفاءٍ وهمس . كما يفعله الناصح الحريص على المصلحة .

فإن قيل : إذا كان آدم فى جنة الجزاء وقت وسوسته له ، تكون عودته إليهما متعارضة مع طرده منها ، ومنعه من دخولها ؟

فالجواب : أنه منع من دخولها على وجه التكريم ، ولم يمنع من دخولها ابتلاء لآدم وحواء .

أما إذا كان آدم فى جنة الأرض ، فلا إشكال . . فإن إبليس طرد من جنة الأرض التى كان فيها آدم خلقا وإقامة . . فلا تعارض . إذ يستطيع أن يحادث آدم على مقربة منه .

وأما على رأى من يقول : إنّه أهبط من منزلة الكرامة عند الله إلى اللعن ، بسبب عصيانه لربه ، فلا إشكال فى وسوسته لآدم على أى وجه كانت سكناه .

(١) سورة طه ، من الآية : ١٢٠

وخلاصة معنى الآية الكريمة :

فأغراهما الشيطان بوساوسه وتزيينه ، وقال لهما : (مَا نَهَا كُمَا رَبُّكُمَا) عَنْ أَكْل ثمار هذه الشجرة ، إلا كراهة أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين فى الجنة إن أكلتما منها .

والخلد : المكث الطويل ، أو بلا نهاية .

واستدل بعض العلماء ، على أن الملائكة أفضل من البشر بأدلة . . منها هذه الآية ـ ومنها قوله تعالى : «وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ »[1] وقوله تعالى : (وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »[2] .

ووجه الاستدلال بهذه الآية : أن إبليس اعتبرهم فيها أفضل من البشر : وأغوى آدم وحواء على الأكل منها ليرتقيا إلى درجة الملائكة ، ولم يُنْكَرْ عليه اعتبارُهم أفضل من البشر ، بل أُنْكِرَ عليه تحريضهما على الأكل المنهى عنه ، ليكونا مثلهم ، كما سيأتى ، وأن آدم لو لم يعلم بفضلهم على البشر ، لما سعى إلى درجتهم بارتكابه مانُهِىَ عنه .

وقد أُجيب عن ذلك : بأن ذلك لايثبت فضل الملائكة على البشر من كل وجه . فقد يكون ما ذكر لكمالاتهم الفطرية ، واستغنائهم عن الأطعمة والأشربة ، وفضلهم فى ذلك لا يمارى فيه .

والراجح عند العلماء : أن المطيعين من بنى آدم ، أفضل من الملائكة ؛ لأنهم غالبوا ما رُكِّب فيهم من الشهوة ، وما سُلِّط عليهم من وسوسة إبليس ، حتى استقاموا .

والملائكة ليسوا كذلك ، إذا لاتوجد لديهم دواعى المعصية .

وفرق بين من أطاع وهو مجبول على الطاعة ، ومن أطاع مغالبا دواعى المعصية .

وعلى هذا الرأى ابن عباس وكثير من العلماء ، ومنهم الزَّجَّاج .

فإن قيل : كيف صدق آدم إبليس فى دعوى الخلود ، فاعتقده وسعى إليه . وذلك كفر ، لأنه يعلم أنه لا خلود للبشر ، فسوف يصعقون عند النفخة الأولى .

فالجواب : أن الخلود الذى اعتقده آدم ، وسعى إليه ، هو المكث الطويل ، ولا كفر فى طلبه وتصديق من يقول به . . .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٣١ (٢) سورة النساء ، من الآية : ١٧٢

وعلى فرض أنه الخلود الأبدى .. يُجاب : بأن آدم لم يكن يعلم ـ وقتئذ ـ أنه مقصور على الله تعالى .

٢١ ـ (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) :

أى وأقسم لهما ـ مبالغا فى حلفه ـ إنى لكما لمن الناصحين ، فكُلَا من الشجرة ، واستَمِعَا كلامى .

(فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾) .

المفردات :

(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) : فأنزلهما إلى عصيان الله بخديعة .

(فَبدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا) : فظهرت لهما عوراتهما .

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ) : وشرعا يجمعان .

(مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ) : استقرار وتمتيع .

التفسير

٢٢ - (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا) :

التدلية والإدلاء : إنزال الشيء من أعلى إلى أسفل .

وإبليس قد فعل ذلك بآدم وحواء ، إذ أنزلهما - بوسوسته - من رفعة الطاعة ، إلى ضعَةِ المعصية . .

وقيل : معنى (دلَّاهما) : جرأهما على العصيان : من الدالَّة بمعنى الجُرأة ، فَأُبْدِلَ حرفُ التضعيف ياءً .

والغرور : هو الخديعة . وسبب خديعتهما هو ظنهما : أن أحدا لا يقسم بالله كذبا ، فلهذا صدَّقَاه فيما زعمه من أن الأكل من الشجرة ، يجعلهما مَلَكين أو من الخالدين .

وقال بعض المحققين : إنهما لم يصدقاه . بل أقدما على المنهى عنه بغلبة الشهوة والرغبة فى الإنسان ، كما نُقْدِمُ نحن على الفعل الذى نشتهيه ، إذا زينه لنا أحد من البارعين فى الخديعة ، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال . ولعل كلام إبليس من قبيل المقدمات المثيرة للشهوة . فلهذا نَسِيَا به النهى الإلهى ، فأقدما على المنهى عنه بلا روّية .... انتهى باختصار .

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) :

أصل الخصف : خرز طاقات النعل ونحوها ، بعد إلصاق بعضها على بعض . والمراد من خصفهما ورق الجنة ، هو جمعه وإلصاق بعضه على بعض ، بطريقة تستر العورة قيل : كان من ورق التين . وقيل : من ورق الموز . والله أعلم بالحقيقة .

وفى الآية دليل على قبح كشف العورة على كلا الزوجين بلا حاجة ، فما ظنك بكشفها على غيرهما ؟!

(وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ) . . . الآية .

ودعاهما ربُّهما ، لتشديد العتاب لهما على مخالفة النهى ، قائلا لهما : ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة التى أكلتما منها ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ بَيِّنُ العداوة ؟ وذلك القول حكته سورة طه كما يلى :

« إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ »[1] .

وخلاصة معنى الآية – مجتمعة – ما يلى :

فأنزلهما الشيطان عن طاعة الله إلى عصيانه ، إذْ أكلا من الشجرة المحرّمةِ عليهما بسبب ماخدعهما به من فوائدها ، وإقسامه لهما إنه لمن الناصحين .

فلما ذاقا ثمرة هذه الشجرة ، ظهرت عوراتهما ، بتنحية الله الثياب عنهما ؛ عقُوبةً لهما . وشرعا يجمعان عليهما من ورق أشجار الجنة ، لاصقين بعضه على بعض ، ليسترا به عورتيهما .

وناداهما ربُّهما قائلا لهما – على سبيل العتاب – ألم أنهكما عن قربان هذه الشجرة وأقل لكما – محذرا – إن الشيطان لكما عدوٌّ ظاهر العداوة ؟ فكيف خُدِعتما بإغوائه ؟.

٢٣ – (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

قال آدم وزوجه . ضارعَينِ إلى الله ، معترفينِ بخطيئتهما ، مستغفريْنِ منها :

ربنا ظلمنا أنفسنا بمخالفة نهيك وتصديق إبليس ، وتعريضها – بسبب ذلك – لسخطك وعقوبتك . وإن لم تتجاوز عمَّا فرط منا ، وترحمنا بالرضا والفضل – لنكونن من الخاسرين .

واستدل بالآية بعضُ العلماء ، على أن الصغائر يعاقَبُ عليها مع اجتناب الكبائر . فإن آدم لم يرتكب كبائر ، فلمَّا فعل صغيرة الأكل من الشجرة المحرَّمة – احتاج إلى استغفار ربه ليغفرها له ، فلو كان اجتناب الكبائر يكفى فى غفران الصغائر ، لما كان هناك داع لاستغفار آدم من زلَّة صغيرة .

---

(١) سورة طه ، من الآية : ١١٧

ورُدَّ هذا الاستدلال ، بأن آدم إنما طلب الغفران والرحمة مع صغير زلته استعظاما لها فى حقِّ الله تعالى – كما هى عادة الصالحين – وإن كانت مكفرة باجتناب الكبائر وإن لم يتب عنها .

وإلى هذا ذهب أهل السنة والمعتزلة .

وحمل الإمام الرازى زَلَّة آدم الصغيرة على أنها وقعت قبل نبوته إذ لا تجوز الصغائر والكبائر بعدها على الأنبياء .

وكثير من أهل السنة ، جعلوا طلبه الغفران لما وقع منه ، من باب هضم النفس فإن ما وقع منه عن نسيان ، فلا صغيرة فيه ولا كبيرة .

وقد يقال لهم : إن كانت زلتهُ عن نسيان ؛ فكيف يعاتبه الله عليها ؟ وكيف يعاقبه بكشف العورة والإهباط من الجنة ولا عتاب ولا عقاب على النسيان ، لأنه قهرى لا كسبى ؟

فالظاهر : أن النسيان فى قوله تعالى : « فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »[1] بمعنى الإهمال وترك العزم فى تنفيذ ما كلفه الله به .

٢٤ – (قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) : اختار الفرّاء : أن الخطاب فى الآية لآدم وحواء وذريتهما . . . .

ولا مانع من خطاب الذرية وهى لم توجد بعد ، لأن خطاب الأبناء تابع لخطاب الآباء ولأن المنتظر ، هو فى حكم الموجود ، كما فى قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »[2] .

وقيل : الخطاب لآدم وحواء ، لقوله تعالى فى سورة طه : « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ »[3] . والقصة واحدة .

والمراد بالجمع فى قوله : (اهبطوا) ما فوق الواحد ، أو لأنهما أصل البشر ، فكأنهما جميع الآدميين .

---

(١) طه ، من الآية : ١١٥ (٢) يس ، من الآية : ٤١ (٣) طه ، من الآية : ١٢٣

والمراد بالعداوة فى قوله تعالى : (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) : الظلم .

كما اختاره بعضُهم - والظلم ناشيء من حبّ الذات ووسوسة إبليس .

وخلاصة معنى الآية : قال الله تعالى لهما : اهبطوا من الجنة أنتما وذريتكما - تبعا لكما - بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض استقرار وتمتع بنعمائه تعالى ، إلى حينٍ تنتهى فيه أعماركم .

٢٥ - (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) :

قال الله أيضا لآدم وحواء وذريتهما : فى الأرض تَحْيَوْنَ الحياة المقررة لكل منكم وفيها تموتون عند انقضاء آجالكم ، ومنها تُخْرَجون إلى المحشر عند بعثكم .

(يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾) .

المفردات :

« أَنزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا » أى خلقناه لكم بأسباب أنزلناها من السماء كالمطر وحرارة الشمس وأشعتها ، أو ألهمناكم طريقة صنعه ، وسيأتى مزيد بيان بذلك: «يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ» يستر عوراتكم « وريشا » المراد به هنا اللباس الفاخر « وقبيله » وجماعته .

التفسير

٢٦ - (يَابَنِيٓ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ....) الآية .

هذا خطاب من الله تعالى إلى الناس كافة . واللباس مخلوق فى الأرض ، وعبّر عن الإنعام به بإنزاله ، لصدوره عن الله العلىّ الشأن إلى خلقه .

ونظيره قولك : رفعت حاجتى إلى الأمير ، ولا رفع فى الحقيقة . وإنما المقصود به التعظيم .

قال أبو مسلم : كل ما أعطاه الله إلى عبده ، فقد أنزله عليه ، من غير نظر إلى نقله حقيقة من علو إلى أسفل . والمقصود منه التعظيم : أ هـ

ومثله قوله تعالى فى سورة الحديد : « وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ[1] » .

وقيل : معنى (أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا) : خلقناه لكم بأسباب سماوية ، كالمطر الذى ينبت مايصنع منه الثياب كالقطن .

وقيل : المراد قضيناه لكم . والقضاء يَنزل من السماء فهو مكتوب فى اللوح المحفوظ .

ومعنى (يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ) : يستر عوراتكم التى تسبّب إبليس فى كشفها عن أبويكم ، حتى اضطرا إلى سترها بأوراق الشجر ، وقد أغنيناكم عن ذلك ...

فالآية واردة على سبيل المنة على أبناء آدم ، بعد ما فعله إبليس بأبيهم . ولذا ختمت بوجوب اتعاظهم وتَذَكُّرِهم .

وقد هدى الله آدم وذريته ، إلى المواد التى تصنع منها الملابس ، وطريقة الحصول على تلك المواد ، وكيفية صنع الملابس منها ، على اختلافها ، بما ألقاه فى خواطرهم من أسباب المعرفة . فله الحمد على تلك النعمة الساترة للعورات ، الحافظة للأجسام ، المُضْفِيَةِ للجمال .

(وَرِيشًا) : أى وأنزلنا عليكم ريشا . والريش اللباس الفاخر .

(وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ) :

التقوى : الخشية من الله ، المستتبعة للأعمال الصالحة . وإضافة اللباس إليها ؛ لأنها تقى صاحبها من النار ، كما يقى اللباس صاحبه من الحر والبرد .

فإذا اتقى العبد ربه ، ستره من المعايب فى الدنيا ، ومن العقوبة فى الآخرة .

(١) الحديد ، من الآية : ٢٥

وخلاصة معنى الآية ، ما يلى :

يا بنى آدم ، قد أنزلنا عليكم ، مِن علياء فضلنا ، لباسا يستر عوراتكم ، وآخر فاخرا تتجملون به فيما بينكم . ولباس الخشية من الله . خير لكم مما عداه ، لأنه يقيكم من عذاب الله .

ذلك الذى منحناه بنى آدم – من أى نوع كان – هو من آيات الله الشاهدة بقدرته ، وفضله ورحمته ، لعلهم يتعظون فيتورعون عن معاصيه .

٢٧ – (يَا بَنِيٓ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا . . .) الآية .

كرر النداء لبنى آدم ، لأهمية الوصية والموصى لهم .

والمعنى : يا بنى آدم لا يوقعنكم الشيطان فى الفتنة والمحنة بوسوسته بتزيين القبيح وتقبيح الحسن ، فَتُحْرَمُوا الجنة وتدخلوا النار – فاحذروا أن تفتتنوا بوسوسته فتعاقبوا .. كمافتن أبويكم آدم وحواء ، فأخرجهما من الجنة بسبب اتباعهما إياه ، بعدما تسبب فى نزع لباسهما عنهما ليريهما عوراتهما . وكشف العورات إهدار للآدمية ، وإخلال بمستوى البشرية .

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) :

القبيل : الجماعة . والمراد بقبيل إبليس : جنوده من الجن . وهذه الجملة تعليل للنهى ، عن الافتتان بالشيطان ، وتأكيد للتحذير منه . فإن العدو إذا كان يستطيع الوصول إليك من حيث لا تراه ، كان جديرًا بك أن تحذره أشد الحذر . فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . فاحذروا خفىّ مكره ومكر قبيله ، حتى لا تقعوا فى حبائلهم .

(إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) :

إنا جعلنا الشياطين قادة للذين لا يصدقون بالله ورسوله ، يتولون إغواءهم بسبب إصرارهم على إهدار عقولهم ، وإفسادهم فطرة ربهم .

[هل نرى الجن]

استدل بعض العلماء ، بهذه الآية على أن الإنس لا يَرَوْن الجن .

وانقسم القائلون بذلك ، إلى عدّة فرق :

إحداها : تقرر عدم رؤيتهم على حقيقتهم ، أو متمثلين فى أية صورة .

وبذلك يقول المعتزلة .

ومن أدلتهم : أن القول بقدرتهم على التمثل أمام بنى آدم ، يرفع الثقة بحقائق الأشياء فمن رأى ولده مثلا ، يحتمل أنْ يتخيَّل أنه رأى جنيًّا ، كما أن رؤيتهم – على حقيقتهم – متعذرة لشفافيتهم .

وثانيتها : تقول : باستحالة رؤيتهم على حقيقتهم فقط .

وأولئك هم الأشاعرة .

وحجتهم : أن الله لم يخلق فى عيون البشر قدرة على رؤيتهم بحقيقتهم .

أما رؤيتهم متمثلين ، فجائزة – عند الأشاعرة – مطلقا .

وقال النحاس : لا يراهم أحد على حقيقتهم ، وإنما يُرَوْن إذا نُقِلوا عن صورهم .

ورؤيتهم متمثلين مقصورة على عصر النبوة فحسب ؛ لأنها من المعجزات للأنبياء . فلا تكون إلا فى عصرهم ، كما حدث لسيدنا سليمان عليه السلام .

وقال القشيرى : « أجرى الله العادة ، بأَنَّ بنى آدم لا يرون الشياطين اليوم . وفى الصحيحينِ وغيرهما : « إنَّ الشَّيْطانَ يَجْرى مِن ابنِ آدم مَجْرَى الدَّم » . وقال تعالى : « الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ »[1] . وقال صلّى الله عليه وسلّم : « إنَّ للمَلَكِ لَمَّةً ، وللشَّيطانِ لَمَّةً . . فأمّا لَمَّة الملَك فإيعاد بالخير ، وأمّا لَمَّة الشيطان فإيعادٌ بالشَّرِّ وتكذِيبٌ بالحقِّ » أ . هـ » .

والقشيرى بإنكاره رؤيتهم المطلقة ، يذهب مذهب المعتزلة .

ويرى كثيرٌ من أهل السنة أن رؤيتهم ممكنة وحاصلة فعلًا .

ويشهد لذلك أن عِفريتًا تَفلَّتَ على النبى صلّى الله عليه وسلّم ليشغلَه عن صلاته . فأمكنه الله تعالى منه ، وأراد أن يربطه فى سارية المسجد ، ثم عدل عن ذلك .

---

(١) سورة الناس ، الآية : ٥

فقد أخرج الإمام مسلم - بسنده - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « واللهِ لَوْلَا دعوة أخي سليمان لأصبحَ موثقًا يَلعبُ بهِ وِلدانُ أهلِ المدينةِ » ودعوة سليمان هي قوله :

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ »(١) .

وخرّج البخارى عن أبى هريرة قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحفظ زكاة رمضان » وحكى قصة طويلة ذكر فيها أنه أخذ الجنىَّ الَّذى كان يأْخذ التمر ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « ما صنع أسيرُك البارحةَ »(٢) ؟

أمّا ماورد عن الإمام الشافعى من أنه قال : مَنْ زَعم أنَّه رآهم رُدَّت شهادتُه وعُزِّرَ ؛ لمخالفة القرآن ؛فمحمول علىمَنْ زعم رؤيتهم علىصورتهم الحقيقية ، إذ رؤيتهم -وهم متشكلون- يقول بها أهل السّنة ، والشافعى من خيارهم .

وأما القول بأن رؤيتهم متشكلين ، يرفع الثقة بحقائق الأشياء ، فيجاب عنه : بأن الله تعالى ، كَفَل - لهذهِ الأُمة - أن يرفع عنها مثل ذلك ، لاستلزامه الرِّيبة فى الدين ، ورفع الثقة بالعلماء ، لاحتمال أن يكونوا متشكلين من الجن . فاستحال - شرعا - الاستلزام المذكور .

وأما استحالة رؤيتهم لِلَطافَتهم ، وأن الله لم يقدر العيون على رؤيتهم بهذه اللطافة إذا ظهروا على حقيقتهم - فيجاب عنه : بأن ذلك مُسَلَّم ، فيما عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا مانع أن يخلق الله فى بصره - عليه السلام - قوَّة يقدر بها على رؤيتهم على حقيقتهم ، كما أقدره على رؤية جبريل على صورته الحقيقية .

وقد عمّ الناسَ - قديما وحديثا - القول برؤيتهم متشكلين ، وأصبح هذا حقيقة واقعة معترفا بها فى جميع أنحاء العالم .

والآية الكريمة مؤولة بأنها لتمثيل دقيق مكرهم وخَفِيِّ حيلهم . وليس المقصود بها نفى رؤيتهم حقيقة .

(١) سورة ص ، من الآية : ٣٥

(٢) راجع جـ ٧ من القرطبي ص : ١٨٧

(إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) :

إنا خلَّينا بين الشياطين وبين الذين لا يؤمنون ، فكانوا لهم أولياء وقادة ، بسبب غفلتهم وسوء نياتهم وعماهم عن الهدى . قال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[1] .

(وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾) .

المفردات :

(فَاحِشَةً) هى الفَعلة الشديدة القبح . ومثلها الفحشاء .

(بالْقِسْطِ) القِسط - بكسر القاف - العدل . وهو التوسط فى الأمور . وضدّه القَسط - بفتح القاف - فهو الظلم .

(وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) : المراد بالوجوه : الأنفس . وبإقامتها : التوجه إلى الله تعالى وبالمسجد : مكان العبادة ، أو زمانها .

(الدِّينَ) : المراد منه هنا : الطاعة .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٩

التفسير

٢٨ - (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . . .) الآية

وإذا فعل العصاة - الذين لا يؤمنون - سيئة شديدة القبح كعبادة الأوثان ، وكشف العورة فى الطواف - قالوا محتجين لمن نهاهم عنها : وجدنا آباءنا مواظبين عليها . . . . والله أمرنا بها .

وجوابهم هذا ، يدلّ على أنهم جعلوا تقليد الآباء ، شريعةً متّبعة لهم ، وتقديمهم ذلك على أمر الله تعالى فى الاحتجاج ، يؤذن بأنه - فى نظرهم - أهم منه .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) :

قل لهم - أيها الرسول - إنّ الله لا يأمر بالفحشاء والقبائح . وإنما يأمر بمحاسن العقائد والأعمال . فهو الحكيم . فكيف تنسبون إليه تعالى مالا يصحُّ ولا يليق من العقائد والأعمال ؟ أتقولون على اللهِ ما تجهلون ، فتهلكون بنسبة الزور والبهتان إليه سبحانه ؟

وهذا ردٌّ لحجتهم الثانية .

وقد أغفل الله الرد على حجتهم الأولى ، وهى : تقليد الآباء فيما اعتقدوه وما فعلوه ؛ لظهور فساد الاحتجاج بها .

وقيل: يجوز أن يكون قوله تعالى : (أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، ردًّا على الحُجّتين جميعًا ، فإنّه إذا كان اللهُ لا يأمر بالفحشاء ، بل يأمر بالمحاسن ، فكيف يتركون اتباع أمره ، إلى اتباع آبائهم ، فيما يقبح عقلا ؟ !

٢٩ - (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) :

قل لهم - أيها الرسول - أَمَرَ رَبى بالعدل . وهو التوسط فى الطاعات بين التفريط والإفراط . فاستقيموا على ذلك ، واتجهوا بأنفسكم نحو الله تعالى عند كلّ مسجد تتعبدون فيه، ولا تنصرفوا عنه إلى سواه . واعبدوه مخلصين له الطاعة .

ومن العلماء من فسّر قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) : تَوَجَّهُوا إلى الجهة التى أمركم الله تعالى بالتوجه إليها فى صلاتكم .وهى الكعبة ، فى أى مكان كنتم . . .

والظاهر أن الوجه الأول هو المقصود من الآية . وخلاصته : توجهوا بنفوسكم وقلوبكم إلى الله تعالى - وحده - للعبادة ، فإنهم كانوا يتجهون بها إلى الأصنام .

ولذا عقبه الله بقوله : (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

أمّا الأمر بالاتجاه إلى الكعبة ، فلا يساعد عليه المقام .

(كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) :

أى : كما أنشأكم ابتداء - من غير مثال سبق - تعودون إليه انتهاء .

٣٠ - (فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ) :

أى : فَرِيقين ؛ فريقا هداهم الله إلى الحق ، واستحقوا بذلك المثوبة بالجنة .وفريقا ثبتت عليهم الضلالة ، واستحقوا العقوبة بالنار .

ومعنى هداية الله للعبد ، توفيقه إياه ، عندما أخذ بأسباب الحق مخلصا .

والهداية المذكورة ، قد تكون من البداية إلى النهاية ، وقد تكون فى النهاية بعد بداية غير صالحة . نسأله - تعالى - حسن الختام .

ثم علّل ثبوت الضلالة . وآثارها عليهم بقوله :

(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) :

أى : وفريقا ثبتت عليهم الضلالة وآثارها ، لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء وقادة لهم فى أمور دينهم ، فأطاعوهم من دون الله ، وهم يظنون أنهم - بذلك - مهتدون .

وفى الآية تحذير شديد من الوقوع فى المعاصى ، بأنهم - أى العصاة - عائدون إلى الله تعالى ، لحسابهم على أعمالهم .

(يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾) .

المفردات :

(عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) : عند بمعنى : فى . ومسجد مصدر ميمى بمعنى السجود . مراد منه الصلاة . أو هو اسم مكان سماعى للسجود بمعنى الصلاة – أى عند كل مُصَلّى – وهو فى كل ذلك مجاز – من اطلاق الجزء على الكل .

(وَلَا تُسْرِفُوا) : أى لا تتجاوزوا الحد الوسط .

(والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) المراد بالطيبات : المستلذات . أو ما أحلَّه الله تعالى .

(الْفَوَاحِشَ) : قبائح الذنوب .

(سُلْطَانًا) : حُجَّة وبرهانًا .

التفسير

٣١ – (يَا بَنِيٓ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . .) الآية .

بعد أن بيَّن الله تعالى – فى الآيات السابقة : أنه لا يَشرع الفواحش ، وأنه يأمر بالعدل ، وهو التوسط فى الأمور ، ويأمرنا بالاتجاه إليه – وحده – فى العبادة ، وبيَّن أن

الناس فريقان يوم القيامة : مهديون طائعون ، وضالُّون عاصون . . . وكل بسبب نيته وعمله - بعد أن بيَّن هذا - عقَّبه ، ببيان بعض ما شرعه الله وحرَّمه . . . ومن ذلك أن يقولوا على الله مالا يعلمون .

ومعنى هذه الجملة ما يأتى :

يابنى آدم ، تجمَّلوا بزينتكم للصَّلاة فى كل مصلّى ، إجلالًا لربكم الذى تقفون بين يديه فى صلاتكم . فهو - سبحانه - أحق بذلك من الملوك والرؤساء ، الذين يتجمل الناس للوقوف بين أيديهم . . . .

وبهذا المعنى ، أخذ جماعة ، منهم الحسن بن على رضى الله عنهما ، إذ كان يلبَس أجود ثيابه إذا قام إلى الصَّلاة ، ويقول : « إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »[1] فأنا أتجمل لربى وهو يقول : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

والأمر بذلك للندب ، إذ الواجب ستر العورة بأى ساتر .

والزينة شاملة للثياب الجميلة ، والتمشط والتطييب ، وغير ذلك ، ممَّا ورد فى السُّنة المطهرة أو شمله عموم اللفظ ، ممَّا لا إسراف فيه .

وقيل : إن معنى (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) : إلبسوا ثيابكم لستر عوراتكم عند كلِّ صلاة أو طواف . فالمسجد - بمعنى السجود - مجاز عن الصلاة والطواف ، فإن السجود لغة ؛ الخضوع ، وهو شامل للصَّلاة والطواف .

وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وغيره ، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان هناك أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراةً حتى النساء ، فنزلت الآية ليستتروا .

والأمر على هذا ، للوجوب .

ولكن هذا الرأى لا يتفق مع ظاهر الآية .

---

(١) هذا جزء من حديث رواه مسلم وغيره .

ولو كان الأمر كذلك ، لقيل : خذوا ثيابكم ، أو استروا سوءاتكم عند كل مسجد .

وبما أنه طلب فى الآية أَخْذَ الزينة ، فذلك أمر تَجاوَزَ طلبَ السترِ ، إلى ماهو أكمل منه ، وهو التجمُّل . . . فمن تجمّل بالثياب فقد ستر عورته وزاد التجمل . . .

(وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) :

هنا ، أكثر علم الصحة والاقتصاد ، ملخصا موجزا فى بضع كلمات . . . .

والمعنى : وكلوا واشربوا ماطاب لكم ، ولا تسرفوا بالتعدى إلى الحرام ، أو بتحريم الحلال . أو الإفراط فيه . إن الله لا يحب المسرفين .

قيل : كان أهل الجاهلية : يحرمون الدسم وما زاد على القوت الضرورى ، أيام حجِّهم تعظيما له ـ فنزلت هذه الآية ؛ لإباحة ذلك ، والنهى عن الإسراف .

والظاهر : أن الآية قاعدة عامة ، تتناول الحجَّ وغيره . . نزلت ناهية عن الإفراط والشرَه ، فى الطعام والشراب ؛ فإن فى ذلك أضرارا كثيرة .

أخرج أبو نعيم ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال : « إيَّاكم والبطنة من الطعام والشراب ، فإنها مَفْسَدةٌ للجسد ، مورثة للسَّقَم ،مكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما ، فإنه أصلح للجسد وأَبْعَدُ عَن السرف ، وإن الله ليبغض الحبر السمين . وإن الرجل لن يهلك ، حتى يؤْثر شهوته على دينه » .

وإنما يكره الله الحبر السمين ، لأن المطلوب من أهل العلم ، التقلل فى الطعام والشراب وإيثار الآخرة على الدنيا ، وطلب السلامة للجسد .

أما العالِم المسرف فى طعامه وشرابه ، المستكثر من الدسم ، فهو مؤْثر لشهوة بطنه ، مهتم بدنياه عن آخرته . فلذا يكرهه الله تعالى ، لأنه بذلك أسوأ قدوة لغيره .

ولعل الغرض : أن الله يكره له ذلك ، لا أنه يبغضه فعلا ، فإن الله لا يبغض سوى أهل المعاصى .

وقد أجمع الأطباء ـ قديما وحديثا ـ على أن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ، وأن الدواء قلَّما ينفع مع عدم الحمِّية . وكثيرا ما اعتمد حكماء الهند على حمية المريض أياما ، فَيَصِحُّ جسمه بدون علاج آخر .

واختلف فى تناول القَدْر الزائد عن الحاجة ... فقيل : حرام . وقيل : مكروه .

قال ابن العربى : وهو الصَّحيح .

وقدر الشبع يختلف باختلاف البِلدان ، والزمان ، والسنّ ، والأشخاص .

والأفضل : التقليل من الطَّعام ، فإن فيه السلامة .

قال صلّى الله عليه وسلّم : « ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنه ... بحسْب ابن آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يقمن صلبه .. فإن كان لا محالة ، فثلثٌ لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه »[1] .

قال بعض العلماء : لو سمع أبقراط هذه القسمة ، لعجب من هذه الحكمة !!

ونحن نقول : ما أعظمَ حكمةَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذا الدستور ، الذى وضعه لحماية الجسم البشرى من شَرَهِ جَهَازِهِ الهضمىّ فإنَّ الأكل الكثير يورث التخمة ، ونتن الفم ، والجَشاء ؛ لتخمُّر الطعام وفساده ، وذلك يستتبع شتَّى العلِل . وقد يموت المرءُ بسكتة قلبيّة بسبب امتلاء بطنه ، وضغطه على القلب .

فلذا ينبغى اتباع هذا الطب النبوى الذى اشتمل عليه الحديث السابق ، لتجتنب المعاطب.

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) :

أى لا يرضى الله تعالى عن إسرافهم ، ويكرههم من أجله .

والجملة تعليل للنهى عن الإسراف . .

وقد جمعت هذه الآية وجوه البلاغة وأصول الأحكام ، باشتمالها على الأمر والنهى والإباحة والخَبَر ، كما جمعت – فى نصفها – الحكمة .

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث المقدام بن معدى كرب .

تنبيه :

ذهب بعض العلماء إلى أن النهى عن الإسراف ، يشمل : اللباس أيضا ، وهو رأى عكرمة وابن عباس أيضا .

فقد أخرج ابن أبي شيبة ، وكذا البُخارى تعليقا قال : قال صلى الله عليه وسلم : « كُلْ ماشئت ، والبَسْ ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ » والمَخِيلة : الكِبر .

٣٢ - (قُلْ مَنْ حَرَّمَ . زِينَةَ اللهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) :

قل يا أيها الرسول لقومك : مَن حرّم زينة الله التى خلقها لنفع عباده وتجملهم ؟ ومَن حرَّم الطيبات من الرزق ؟

والطيبات من الرزق : ما طاب طعما وكسبا .

واستُدِلَّ بهذه الآية : على أن الأصل فى المطاعم وأنواع التجملات : الإباحة ، لأن الاستفهام فى (مَنْ) لإنكار تحريمها على أبلغ وجه . كما استدل بها من قال بحل لبس الحرير والخزّ للرجال ، نظرا لعمومها .

رُوِى عن على زين العابدين رضى الله عنه ، أنه كان يلبَس كِسَاء خزٍّ بخمسين دينارا . . يلبسه فى الشتاء - فإذا كان الصيف تصدق به ، أو باعه وتصدقٍ بثمنه . . وكان يلبس فى الصيف ثوبين من متاع مصر ، مُمَشَّقَيْن (أى مصبوغين بالمَشْق . وهو صبغ أحمر) ويقول : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) .

كما روى أن الإمام الحسين رضى الله عنه ، أُصيب وعليه جُبةُ خَزٍّ ، والخزُّ : نوع من الحرير .

والذى ينبغى التعويل عليه : أن إطلاق الإباحة هنا ، مقيَّد بأدلة التحريم لبعض ما دخل فيه ، كلبس الذهب والحرير للرجال ، فقد حُرِّما بالسُّنة النبوية .

والتجمُّل بالحلال مستحب .

ففى صحيح مسلم ، عن ابن مسعود : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن فى قلبه مثقال ذرَّة من كِبْر » فقال رجل : إنَّ الرجلَ يُحبُّ أن يكون

ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُه حَسَناً : قال : « إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ . الكِبْرُ : بَطَرُ الحَقِّ ، وغَمْطُ النَّاسِ » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُعْنَى بزينته فى حدود التقشف .

روى مكحول ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان نفر من أصحاب رسول الله ينتظرونه بالباب ، فخرج يريدهم وفى الدار ركوة فيها ماء . فجعل ينظر فى الماء ويسوّى لحيته وشعره . . فقلتُ : يارسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : « نعم ، إذا خرج الرّجل إلى إخوانِه فليهيِء من نفسه . . . فإنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ » .

وكذلك كان يفعل الصحابة والتابعون .

فهذا ابن عباس عليه رضوان الله تعالى لمَّا بعثه علىّ بن أبى طالب -كرم الله وجهه ، إلى الخوارج ، لبس أفضل ثيابه ، وتطيَّب بأطيب طيبه ، وركب أحسن مراكبه ، فلما رأوه قالوا : يا ابن عباس : بَيْنَا أنت خير الناس ، جئتنا فى لباس الجبابرة ومراكبهم ؟ فتلا هذه الآية .

وهذا أبو حنيفة رضى الله عنه ، كان يرتدى بردا قيمته أربعمائة دينار ! !

وكان الحسن-رضى الله عنه - يقول : « ليس البِرُّ فى هذا الكساء - يعنى الكساء الخشن - إنما البِرُّ ماوَقَرَ فى القلب ، وصدقه العمل » .

قال أبو الفرج الجوزى : « كان السلف يتخيرون أجود الثياب : للجمعة ، والعيد ، ولقاء الإخوان . وقال : إن اللباس الذى يزرى بلابسه ، ويقصد منه إظهار الزهد والفقر ، لهو لباس الشكوى منه تعالى ... وهو موجب للاحتقار . . . وهذا مكروه . وقال : إن السلف لم يكونوا يلبسون المرقعات إلا للضرورة » .

آراء العلماء فى طيبات الرزق

قد علمتَ أن طيبات الرزق، ماطاب طعما وكسبا ، وأن الله تعالى لم يحرمها ، بل أباحها تَنَاوُلاً وتركا . ولكنَّ العلماء اختلفوا فى درجة الإباحة .

فمنهم من قال بتساوى التناول والإعراض .

ومنهم من قال : الإعراض عنها أفضل ، فهو قربة من حيث إنه يؤدى إلى الزهد فى الدنيا ، ليتفرغ للعمل للآخرة ، وما يؤدى إلى ذلك يكون مندوبا ، والإقبال عليه يكون مكروها ، لأنه يشغل عن الآخرة ، ولقوله تعالى : (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا) (١) .

ومنهم من قال : إن حَضَرتْ بلا كُلْفَةٍ فلا كراهة ، وإلا كرهت . . . وصححه أبو الحسن المقدسى .

وعلَّل تصحيحه بأنه لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، امتناع عن الطعام لأجل طيبه . بل كان يأكل العسل ، والحلوى ، والبطيخ ، والرطب ، وإنما يكره التكلف ، لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة .

(قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) :

هذا تصريح بِحِلِّ الزينة وطيِّبات الرزق ... بعد ما فهم – استلزاما وإشارة – من إنكار تحريمهما السابق . . . جىء به لتأكيد الحِلِّ . .

قل أيها الرسول : زينةُ اللهِ التى أخرج لعباده والطيبات من الرزِق ، مباحة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا : فى الحج وغيره . خالصة من العقوبة يوم القيامة فلا وجه لتحريمهما كما فعل أهل الجاهلية .

وتخصيص تحليلها بالمؤمنين ، مع أن لغيرهم حق الانتفاع بها ؛ لأنَّ هذا تشريع . والتشريع يوجَّه إلى المؤمنين ليعملوا به . ولا يتحرجوا متأثرين بعادات الجاهلية ، ولأنه أكَّدَ حِلَّها مرة ثانية ، فوصفها بالخلوص من العقوبة يوم القيامة .. وذلك خاص بالمؤمنين . . إذ الكافرون يعاقبون على التقصير فى شكرها بترك الإيمان ...

وبعضهم فسَّر الآية بقوله : قل هى – بالأصالة – للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ؛ لمزيد كرامتهم ، والكافرون تبع لهم ، خالصة للمؤمنين يوم القيامة : لا يشاركهم فيها غيرهم .

وما قلناه – أوَّلًا – أولى . فإن الآية مسوقة للردِّ على الكافرين فى تحريمهم لها فى الحجِّ ، وتأثيم من يتعاطاها .

---

(١) سورة الأحقاف ، من الآية : ٢٠

وذلك التفسير يبعدها عن هذا الاتجاه ويخالف ظاهرها .

(كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

مثل ذلك التفصيل البيِّن ، نفصِّل الآيات لقوم يفهمون فيعملون بما فهموا ..

٣٣ـ (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) :

قل لهم ـ أيها الرسول ـ ما حرّم ربى سوى ما اشتدَّ قبحُه من المعاصى ، وما يوجب الإثم من مطلق الذنب[1] ، وحرّم البغى[2] على الناس بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما يستحيل أن يكون له حجة أو برهان ، فإن الشرك بالله ظلم عظيم .

كما حرَّم أن تقولوا على الله ـ فى الأحكام والصفات[3] ـ ما تجهلون .

أمّا التجمُّل بالثياب ، وتعاطى لذائذ الطعام والشراب ، فليس مما حرَّمه ربِّى .

وتقييد البغى بغير الحق ؛ إخراج البغى بالحق ، وهو ما كان عقوبة لمن بغى أولا .. وإطلاق البغى عليه للمشاكلة[4] .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾) .

المفـردات :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) الأُمة : الجيل من الناس . والأَجلُ : مدّة الشىء . وقد يطلق على غاية الوَقْتِ فى الموت وغيره . والمراد به هنا ، وقت يموتون فيه وتنتهى به حياتُهم .

(لَايَسْتَأْخِرُون) : لايتأخرون .

(وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) : ولا يتقدمون .

(١) هذا تعميم بعد تخصيص .

(٢) وإفراده بالذكر مع دخوله فى الفواحش أو فى الإثم للمبالغة فى الزجر عنه .

(٣) كقولهم بتحريم ستر العورة فى الطواف ، وبوجوب عبادة الأوثان وإسناد شرع ذلك إلى الله .

(٤) والمشاكلة هى التعبير عن الشىء بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته ، وهى لون من ألوان البديع .

التفسير

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) :

فى الآيات السابقة ، حثّنا الله تعالى ، على اتخاذ الزينة عند الصلاة ، اعتناءً بشأنها ، كما حضّنا على عدم الإسراف فى الأكل والشرب ، وفى الأمر كلّه . وبيّن لنا - سبحانه - أنه لم يحرّم الزينة والطيبات من الرزق فى حدود الاعتدال . وذكر أنه ما حرّم إلّا الإثم والبغى والإشراك بالله تعالى ، وأن يقول أحد عنه - عزَّ وجلَّ - ما لا يَعْلَمُ - .

وجاءت هذه الآية ، لتبيّن أن مصير الناس إلى الموت ، لكى يحذروا حساب الآخرة فيما أحلّ الله لهم وما حرّم .

والمعنى : ولكلّ جيل من الناس ، وقت ينتهى إليه عمر كلّ واحد منهم ، بخيره وشرّه .

فإذا جاء هذا الوقت ، فلايتقدم عنه أحد منهم زمنا ، ولو كان قليلا ، ولايتأخر عنه زمنا كذلك .

فآجال العباد موقوتة . وموافاتها فى حينها محتومة .

والله غالب على أمره . . فلتنظر كل نفس ما قدمت لغد .

(يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾) .

المفردات :

(يَقُصُّونَ) : يتلون .

(وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا) : وتعالَوْا عليها ، فلم يقبلوها .

التفسير

٣٥ - (يَابَنِيٓ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ...) الآية .

بعد أن بيَّن الله أن الموت نهاية كل حيّ - عقبه بمخاطبة بنى آدم - تنبيها لهم أن رُسُلَهُ إذا جاءتهم وأنذرتهم حساب هذا اليوم ، فعليهم أن يتَّقوا اللهَ ويصلحوا ، لينجوا من عقابه ، وينعموا بثوابه .

والمعنى :

يابنى آدم - إن يأْتكم رسل من جنسكم : يعرِّفونكم آياتى ، ويعرضون عليكم شرائعى ، فاستجيبوا إلى مايدعونكم إليه ، فإن من اتّقى الله تعالى فآمن بهم ، وأصلح عمله- وفْقَ ماجاءُوا به عن الله تعالى - فلاخوف عليهم من مكروهٍ ينالهم فى الدنيا والآخرة ، ولاهم يحزنون على فوت ثوابٍ لصالح أعمالهم .

واعلم أن الآية خطاب لكافة الناس . يؤذن بالاهتمام بما يليه .

والمحققون على أنه حكاية إجمالية لما وقع من خطاب الله لكل أُمَّة من أُمم الرسل . وليس خاصا بأُمة محمدصلى الله عليه وسلم . و(ما) فى قوله: (إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ) للتأْكيد،وليست نافية .

٣٦ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

المعنى : والذين جحدوا آياتنا ، وتعالَوْا عليها - مع وضوحها - فكذّبوا الرسلَ الذين جاءُوهم بها - أُولئك الجاحدون المكذِّبون - هم أصحاب النار ، الملازمون لها ، وهم فيها خالدون .. لايبرحونها .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾) .

المفردات :

« افْتَرَىٰ » : اختلق وادعى ، « نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ » : حظُّهم ممَّا كتبه الله لهم فى الدنيا من النِعَم فلا يحرمون منها مع كفرهم ، « ضَلُّوا عَنَّا » غابوا عنا ولم ينفعونا .

التفسير

٣٧ - (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ) :

افتراءُ الكذب : اختلاقه . والاستفهام فى قوله تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ) للإنكار . والغَرَضُ منه : النفى .

والمعنى : لايوجد أظلم ممن افترى على الله تعالى الكذب ، أو كذَّب بآياته . وكما أنه لايوجد أظلم منه ، لايوجد مَنْ يساويه .

فالمراد : أنه أظلم من كل ظالم . . والتكذيب بالآيات يتناول : إنكار الآيات المنزلة على الرسل ، ونفى نزولها من عند الله ، كما يتناول عدم الاعتراف بدلالة الآيات الكونية على وحدانية الله تعالى ، وسائر صفاته .

(أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ) :

المقصودُ من نصيبهم من الكتاب : حظّهم مما كُتِبَ لهم من الأرزاق والأعمار .

والمعنى : أولئك المفترون المكذِّبون . ينالهم - فى الدنيا - حظهم ممَّا كتبه الله وقدَّره ، من الأرزاق والأعمار لعباده . فلايحرمون منه مع كفرهم .

ثم يُعَقِّب الله تعالى ، ذلك . ببيان أن أمرهم - فى الآخرة - مخالف لذلك فيقول :

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ) .

أى هم يظلون متمتعين بنصيبهم مما كُتب لهم من الأرزاق ، غير ناظرين إلى عاقبتهم . حتى إذا جاءتهم رسلُنا من الملائكة : يقبضون أرواحهم ، قال هؤلاء الملائكة لهم يوبّخونهم : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ؛ لتحميكم ممّا ينتظركم من العذاب ؟

ثم يحكى الله ردَّهم على هذا التوبيخ فيقول :

(قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

أى: قال الكافرون ، ردًّا على هذا التوبيخ : غاب آلهتُنا عنا فى ساعة المحنة ، فلم نعد نراهم .. وأيقنوا – من هذا – أنهم خدعوا فيهم ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا فى دنياهم كافرين بربِّهم ، حين عبدوا من دونه أولئك الضَّالين .

ثم يحكى الله تعالى ما سيقوله لهم بعد اعترافهم بكفرهم ، فيقول سبحانه :

(قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾) .

المفـردات :

(خَلَت) : مضت .

(لَعَنَتْ أُخْتَها) : ذمَّتها ، واتهمتها بإضلالها .

(ادَّارَكُوا) : تلاحقوا .

(ضِعْفًا) الضِّعف هو المِثْلُ إلى ما زاد .

التفسير

٣٨ – (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) :

قال الله لهؤلاء الكافرين – بعد اعترافهم بكفرهم – ادْخُلُوا النَّارَ بين أُمم كافرة قد مضت من قبلكم – أيها الكافرون – من الجن والإنس .

ثم يبيّن الله حالهم حينما يدخلون النّار فيقول :

(كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا) :

اللعن هنا ، بمعنى الذم والدعاء بالطرد عن رحمة الله تعالى .

والمعنى : كلّما دخلت فى النار جماعة كافرة ، ذمّت أُختها ، أَو دعت عليها . بزيادة الطرد عن رحمة الله وزيادة العذاب فى جهنم فتلعَن التابعةُ المتبوعةَ ، لإضلالها إيّاها ، وتلعن المتبوعةُ التابعةَ ، لتسبّبها فى زيادة ضلالها . وهكذا تتبادلان اللعنات .

ثم يبيّن الله حال المتبوعين والتابعين بعد هذا التلاعن والاجتماع فى النار فيقول :

(حَتَّىٰٓ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ) :

أى يدخلون فوجا فوجا : يكفر بعضُهم ببعض.ويلعن بعضُهم بعضًا . حتى إذا تلاحقوا فى النار واجتمعوا فيها ، قالت أُخراهم فى المنزلة – وهم الأَتباع – فى حقِّ أُولاهم مقاما – وهم القادة[1] – ربنا هؤُلاء أَضلونا عن الهدى ، فآتهم عذابا مضاعفا من النار – لضلالهم وإضلالهم .

ثم حكى الله تعالى ردَّه عليهم قائلا :

(قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ) :

قال الله للأَتباع : لكل منكم ومن المتبوعين عذاب مضاعف . . فالأَتباع : لضلالهم وتقليدهم لرؤْسائهم ، دون تدبّر للعواقب . والقادة :لضلالهم وإضلالهم تابعيهم . . ولكن لاتعلمون ذلك . فلهذا طلبتم المضاعفة لرؤْسائكم ، مع تساويكم فى فظاعة الإثم .

ثم يحكى الله ردّ رؤْسائهم عليهم فيقول :

---

(١) وقيل : المعنى : قالت أخراهم دخولا لأولاهم كذلك .

(وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾) .

التفسير

٣٩ - (وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

وقالت أولاهم - وهم الرؤساء المتبوعون - لأُخراهم - وهم المرءوسون التابعون لهم - بعد ما سمعوا جواب الله لهم - فما كان لكم علينا من رجحانٍ يقتضى تخفيف عذابكم عنا .. فنحن وأنتم متساوون فى مقدار الذنب ، واستحقاق مضاعفة العذاب . فذوقوا - مثلنا - العذاب المضاعف ، بسبب ما كنتم تفعلونه من الكفر والانقياد لنا . .

ومن هنا ، يتبيّن أن التقليد فى عقائد الناس وآرائهم - بدون رويّة - عظيم الخطورة .. فلابدّ - لكلِّ عاقل - من التدبر قبل الاعتقاد ، ضمانا للسلامة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾) .

المفردات :

(يَلِجَ الجَمَلُ) : يدخل البعيرُ ، ويطلق الجمل أيضا على الحبل الغليظ .

(فِى سَمِّ الْخِيَاطِ) : فى ثقب الإبرة .

(مِهَادٌ) : فراش وأصله ما يمهد للطِّفل لينام عليه .

(غَوَاشٍ) : أغطية تغشاهم . أى تغطيهم : جمع غاشية .

التفسير

٤٠ - (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ ..) الآية .

بعد أن بين الله - فى الآيات السابقة - أن مصير الكافرين النار - تابعيهم ومتبوعيهم - جاءت هذه الآية الكريمة ، لإقناطهم من دخول الجنة .

والمعنى :

إن الذين كذَّبوا بـآياتنا ، المثبتة لوجود الله ووحدانيته ، وسائر صفاته العليَّة ، والدَّالة على صدق الرسل وصحة المعاد والجزاء ، وبالغوا فى الاستكبار عن الإيمان بها والالتفات إليها - أولئك المكذِّبون المستكبرون - لاتفتح - لأدعيتهم وأعمالهم - أبوابُ القبول فى السماء . . أو لاتفتح لأرواحهم-بعد قبضها- أبواب السماء لتتصل بالملائكة ، وتنعم بالراحة وتقابَل بالترحيب ، كما هو شأن المؤمنين .. بل يُقال لها عند اتجاهها إليها - كما ورد فى الحديث الشريف - : « لَامَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ ، كَانَتْ فِى الْجَسَدِ الْخَبِيثِ . ارْجِعِى ذَمِيمَةً .. لَاتُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّماءِ . فَتُرْسَلُ مِنَ السَّماءِ . ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ » .

أخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه ، والنسائى وغيرُهم عن أبى هريرة برفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك بعكس أرواح المؤمنين التى يقال لها إذا عُرِجَ بها إلى السماء : « مَرْحَبًا بالنَّفْسِ الطَّيِّبةِ كَانَتْ فِى الْجَسَدِ الطَّيِّبِ .. ادْخُلِى حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِى بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ .. فلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلك ، حَتَّى تَنْتَهِىَ إِلَى السَّماءِ السَّابعة » أخرجه من ذكرناهم سابقا .

(وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ) :

أى : وكما أُوصدت أبواب السماء دون أقوالهم وأعمالهم وأرواحهم . فكذلك أبواب الجنة موصدة فى وجوههم لا يدخلونها بأى حال . كما لا يدخل البعير ، أو الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة .

والمراد : استحالة دخولهم الجنة : والجملة تأكيد للجملة السابقة .

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ) :

ومثل ذلك الجزاء الفظيع ، نجزى كلَّ المجرمين من أهل التكذيب بآيات الله ، فلايختص به بعضُهم دون بعض .

٤١ - (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ) .

المقصود بهذه الآية : أن النار محيطة بأهل النار من جميع الجوانب . والتعبير بالمهاد والغواشى ، للتهكم بهم . . .

والمعنى :

لهم من نارجهنم مجلس ومهاد من تحتهم ، وأغطية ودثارمن فوقهم.. فالنَّارمحيطة بهم. ومثل هذا الجزاء الشديد ، نجزى الظالمين لأنفسهم : بكفرهم بآيات الله وتعاليهم عليها ، وانصرافهم عن الحق بعد ظهوره .

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾) .

المفردات :

(وُسْعَهَا) : ما تتسع له وتطيقه .

(مِنْ غِلٍّ) : من حقد .

التفسير

٤٢ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. . .) الآية .

بيّن الله تعالى ، فى الآيات السابقة : أن الكافرين - وهم فى النار - يعادى بعضهم بعضا ، ويتزايد الحقد بينهم، ويلقى بعضهم اللوم على بعض فى كفرهم. . . وأنّ عذابهم فى جهنم دائم لا نهاية له .

وجاءت هذه الآية - وما بعدها - فى إثر ذلك ، لبيان أن مصير المؤمنين الجنة: خالدين فيها أبدا ، وأن نفوسهم خالية من الغِلّ ، وأنهم أورثوا الجنة بأعمالهم . . . وبضدّها تتميز الأشياء .

ومعنى الآية :

والذين آمنوا بالله وشرائعه المنزلة على رسله، وعملوا الصالحات - حسبما جاءت فى شرائعهم سهلة الأداء - لأن الله لا يكلف نفسا إلا ما تتسع له طاقتها - أولئك المؤمنون الصالحون أصحاب الجنة الملازمون لها ، هم فيها خالدون : لا يبرحونها ولا يُخْرَجُون منها .

٤٣ - (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) :

أى وأخرجنا ما فى صدورهم من حقدٍ وعداوة ، بسبب أمورٍ جرت بينهم فى مطالب الدنيا ، حتى تصفوَ المودّة بينهم فى نعيم الجنة ، الذى هو صفوٌ كلّه . . .

ويجوز أن يكون المعنى : طهّرنا قلوبهم وحفظناها من التحاسد على درجات الجنّة ، فلا يحسد أحدهم أخاه على منزلة أعلى من منزلته ، بسبب ما قدّمه فى الدنيا من عملٍ أحسنَ من عمله . وهذا فى مقابل ما ذكر عن أهل النار من تخاصمهم . . .

والتعبير عن نزع الغلّ . بصيغة الماضى - مع أنه سيحدث يوم القيامة - للإيذان بتحققه . . . .

ويحتمل أن المراد إزالته ، بتوفيق الله تعالى قبل الموت ، بعد ما حدث بمقتضى الطبائع البشرية ، والمطامع الدنيوية .

ويمكن أن يخرَّج على أحد هذين الوجهين ، ما روى عن علىٍّ رضى الله عنه : أنه قال : « إِنِّى لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ ، أَنَا وعُثْمان وطَلْحة والزُّبَيْر » .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) :

وقال أهل الجنة : الحمد لله الذي هدانا لهذا النعيم المقيم ، بما وفقنا إليه من الإيمان والعمل الصالح ، وما كنا لنهتدىَ إليه لولا أن هدانا الله بتحبيب الإيمان إلينا ، وتزيين الطاعة فى قلوبنا .

(لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) :

فاهتدينا بهديهم ، ونعمنا بالجنة مصداقا لوعدهم

(وَنُودُوٓا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

ونودوا من قِبَل الله تعالى ، بأن نادتهم الملائكة . أو ناداهم الله تعالى تشريفا لهم ، ورفعا لشأنهم قائلا : تلكم الجنة الرفيعة القدر ، العظيمة الشأن البعيدة المدى ، أُعطيتُمُوها بما كنتم تعملون ، من الإيمان والعمل الصالح .

وعبَّر عن الإعطاء بالتوريث : للإيذان بكمال الاستحقاق ، كما هو شأن الميراث . بموجب ربط الله الجزاء بالعمل . وإن كانت الجنة فى ذاتها أعلى شأنا من العمل ، بل هو فى جانبها لا يعتبر شيئا مذكورا ، ولكن الله – بفضله – جعله سببا لاستحقاقها .

ويجوز أن يكون التعبير عن إعطاء الجنة بتوريثها ، للإيذان بأنهم نالوا الجنة دون كسب منهم موجب لها ، كما ينال الوارث مايرثه دون كسب ، فإن كسبهم – مع أنه لايذكر بجانب الجنة – إنما كان بتوفيق الله ومعونته ، ولولا ذلك ماحدث . والباء فى قوله تعالى : (بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : تحمل – فى هذا الوجه – على أنها للسبب الْجَعْلِى من الله تعالى ، لا للسبب الذاتى ، لقوله صلّى الله عليه وسلّم : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنكُمْ الْجَنَّةَ بعَمَلِهِ » أخرجه الصحيحان .

أى لن يدخلها أحد بسبب عمله – وحده – دون فضل الله وهدايته ، فإنه – تعالى – خالق النفس ومانحها القوّة على العبادة ، وموفّقها إليها . فإذا كافأنا على العبادة بالجنة ، فذلك منه تعالى . هو الفضل والمنّة .

(وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾) .

المفردات :

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) : فنادى منادٍ .

(يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : يمنعون الناس عنها .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : يطلبونها معوجة ومائلة عن الحق .

(الْأَعْرَافِ) : سور بين الجنة والنار .

(بِسِيمَاهُمْ) : بعلامتهم المميّزة لهم .

التفسير

٤٤ - (وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ) :

بعد أن بيَّن الله تعالى سعادة أهل الجنة بنعيمها ، ذكر فى هذه الآية ، مايحدث منهم من الشماتة فيمن كانوا يستعلون عليهم فى الدنيا من الكافرين . وذكر - كذلك - لعن الله للظالمين .

والمعنى : ونادى أصحاب الجنة من المؤمنين - بعد استقرارهم فيها وفرحهم بها - أصحاب النار من الكافرين - وهم يصطلون بحرِّها - يقولون لهم فى ندائهم : قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا من النعيم المقيم حقا . . . . فهل وجدتم ما توعدكم الله به من العذاب حقا ؟! قالوا متحسرين يائسين : نعم . . . . وجدناه حقا .

(فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :

فنادى منادٍ - بين أهل الجنة وأهل النار - قائلا : لعنة الله تعالى ، واقعة على الظالمين لأنفسهم بكفرهم ، وطَرْدُهُ - سبحانه وتعالى - إيَّاهم من رحمته ، بسبب تفريطهم وجنايتهم على فطرتهم .

واختلف فى هذا المنادِى فقيل : هو مالك خازن النار . . . . وقيل : هو صاحب الصور . وقيل : هو ملَك غيرهما .

وأيًّا ما كان ، فنداؤه بأمر الله تعالى .

والغرض من ندائه ، إدخال السرور على أصحاب الجنة بتعذيب أعدائهم أعداءِ الله تعالى . ومضاعفة حسراتهم ، بما ظلموا .

٤٥ - (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ) :

أى لعنة الله على الظالمين ، الذين يصرفون الناس عن سبيل دينه القويم ، ويصرفونهم عن الإيمان به ، بإلقاء الشبه فى أدلته ، ويطلبون لها العوج ، بأن تكون على هواهم : تقرّ الشرك ، وتدعو إلى ماهم عليه من باطل. وهم بالآخرة كافرون ، فلا يُقِرُّون ببعثٍ ولا جزاء .

٤٦ - (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ) :

المراد بالحجاب : السور الذى يفصل بين الجنة والنار ، ويمنع أثر كلتيهما عن الأُخرى . . . .

وشئون الآخرة لا تقاس بشئون الدنيا .. والأعراف : أعالى الحجاب الذى ضرب بين الجنة والنار وهى جمع عُرْف . وهو المكان المرتفع من الشىء . أى أعلى موضع منه . فهو أعرف ممّا انخفض منه . ومنه عُرف الديك . وعرف الفرس .

والمعنى : وبين الجنة والنار ، سور يحجب أثر كلتيهما عن الأُخرى . وعلى أعالى هذا السور ، رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار فى المحشر بسياهم - أى بعلاماتهم المميَّزة لهم .

واختلف فى هؤُلاء الرجال الذين يعتلون الأَعراف .

فقيل : هم من الموحدين : « قصرت بهم سيئاتُهم عن الجنة ، ومنعتهم حسناتُهم من النار : فجعلوا هناك ، حتى يقضى بين الناس . فبينما هم كذلك ، إذ اطلع عليهم ربُّهم ، فقال لهم : قُومُوا فادْخُلُوا الجنة فَإِنِّى غَفَرْتُ لَكُمْ » أخرجه أبو الشَّيْخ والبَيْهَقِىّ عن حُذَيْفة .

وإلى هذا . ذهب جمع من الصحابة والتابعين .

وقيل : هم الأَنبياءُ ، عليهم السَّلام : أجلسهم اللهُ على أعالى ذلك السور ، تمييزًا لهم عن سائر أهل القيامة ، وإظهارًا لشرفهم وعُلُوّ مرتبتهم .

وقيل : هم عدول الناس من كلِّ أمة . جعلهم الله شهداء على أعمال أقوامهم .

حكاه الزُّهْرِىُّ . وقيل : هم ملائكة ، يُرَوْنَ فى صورة رجال وقيل غير ذلك . . .

والظاهر أنهم قوم علت درجاتُهم؛ لأن المقالاتِ الآتيةَ لا تليق بغيرهم . سواءٌ أكانوا أنبياء أم سواهم .

والسيما التى يَعرفون بها كلا الفريقين من أهل الجنة والنار : هى العلامة التى جعلها الله مميِّزة لكل منهم .

والقول بأَنها بياض الوجوه لأَهل الجنة ، وسوادها لأَهل النار – تضييق للواسع . فينبغى عدم تحديد العلامة ، وتفويض ذلك إلى الله .

ومعرفتهم كلا الفريقين بسيماهم ، تكون قبل دخول أهل الجنةِ الجنةَ وأهل النارِ النارَ . إذ لا حاجة بعد دخول كليهما – كلٌّ إلى مصيره المحتوم للعلامة .

(وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) :

أى ونادى أَصحاب الأَعراف أَصحاب الجنة – بعد أن عرفوهم بسيماهم فى المحشر ، داعين ومُحَيِّين لهم بقولهم : سلام عليكم . أَو مخبرين لهم بسلامتهم ونجاتهم من المكاره ، لم يدخلوا الجنة حين تحيتهم لهم لأَنهم لا يزالون فى المحشر ، وهم يطمعون فى دخولهم إيَّاها . فلذا أخبروهم بالسَّلامة والنجاة .

وقال صاحب الكشاف : جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) : استئناف كأَن سائلًا سأَل عن أَصحاب الأَعراف ، فقيل : لم يدخلوها ، وهم يطمعون.

ولكن هذا الرأْى ، مبنى على أَن أَصحاب الأَعراف قوم موحّدون : قصرت بهم حسناتُهم عن دخول الجنة . ولكنَّها منعتهم من دخول النَّار .

والرأْى الراجح : هو أَنهم قوم ممتازون : إمَّا من الأَنبياءِ ، أَو من الملائكة أَوهم – كما سبق ذكره – عدول الأُمم .

وعلى هذا، ينبغى أن تكون جملة: (لَمْ يَدْخُلُوهَا وهُمْ يَطْمَعُونَ): فى حق المؤمنين الذى سلّموا عليهم وهم فى المحشر، بعدأن عرفوهم بسياهم، كما سبق ذكرنا، قبل رأى صاحب الكشاف.

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾).

المفردات:

(صُرِفَتْ): حُوِّلت.

(تِلْقَاء): جهة.

التفسير

٤٧ - (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النَّارِ ..) الآية.

لا يزال الكلام موصولا فى قصة أصحاب الأعراف، وإنما قيل:

(وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النَّارِ) ولم يقل: وإذا رأوْهم للإيذان بأنهم لم يكونوا راغبين فى رؤية أهل النار لسوء حالهم.

والمعنى: وإذا حُوِّلت أبصار أهل الأعراف، جهة أصحاب النار، فرأوا سوء حالهم قالوا - متعوذين منه - ربنا لا تجعلنا فى النار صحبة هؤلاء القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والطغيان.

(وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾).

التفسير

٤٨ - (وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ ...) الآية .

ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار ، كانوا رؤساء الكفر : يعرفونهم بعلامتهم المميّزة لهم ، قائلين لهم : ما أغنى عنكم جمعكم الأتباع والأموال ؟ ولا استكباركم المستمر على الخَلْقِ وعن قبول الحق ؟! فكلّ ذلك ،لم يدفع النار الَّتى تستحقونها ، بكفركم واستكباركم .

ويصحّ أن يكون قوله تعالى : (مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) من باب الاستفهام التوبيخى ، بمعنى أىُّ شىء أفادكم جمعُكم[1] واستكباركم ؟ !

٤٩ - (أَهَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) :

الإشارة فى (هَٰؤُلَاءِ) راجعة إلى ضعفاء المؤمنين فى كل ملَّة سماوية . وهذه الآية حكاية لتوبيخ آخر ، صادر من أصحاب الأعراف لرؤساء الكفر ، بعدما وبَّخوهم على كفرهم واستكبارهم ، واعتزازهم بجمعهم وكثرتهم ، ونَعَوا عليهم : أن ذلك كلَّه لم يغنِ عنهم من الله شيئا . .

والمعنى :

وقال أصحاب الأعراف أيضا - موبّخين لرؤساء الكفر - أهؤُلاء الضعفاءُ المؤمنون ، هم الذين أقسمتم أن الله لا ينعم عليهم برحمته ، احتقارا منكم لهم ؟!

ثم أشاحُوا معرضين عنهم - متجهين إلى هؤُلاء المؤمنين محتفين بهم ، قائلين لهم : ادخلوا الجنة ... لا خوف عليكم من مكروه ، ولا أنتم تحزنون على فوت مطلوب . فأنتم فى كرامة ومسرَّة .

ويظهر أن أصحاب الأعراف قالوا للمؤمنين : (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

(١) يجوز أن يراد من « جمعكم » : كثرتكم أى ماذا أفادتكم كثرتكم وقوتكم فى دنيا كم ؟!

وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) حين رأوهم يشرعون فى دخول الجنة ، بعد أن أذن الله لهم بدخولها . . .

قالوه فرحا بدخولهم ، وكيدا لأعدائهم.

وهذا على القول بأن أصحاب الأعراف من البشر .

أما على القول بأنهم ملائكة ، فلعلّهم يبلّغونهم – عن الله تعالى – الإذن بدخولهم الجنة .

وقد دلّت الآية على أن دخول الجنة تابع للعمل ، ربطًا للمسببات بالأسباب .

وفى ذلك حثٌّ للناس على العمل الصالح ، لكى يكونوا أهلا لدخول الجنة ، ونيل الدرجات العلية فيها .

كما دلّت على أن كلًّا من أهل الشرّ والخير : يُعْرَف فى المحشر بسيماه .

نسأل الله أن يوفقنا – جميعا – لما نستحق به ثوابه ، وننجو به من عقابه .

(وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾) .

المفـردات :

(أفيضوا) : أكثروا .

(يجحدون) : يكفرون .

التفسير

٥٠ - ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾:

المعنى: ونادى أهلُ النار أهلَ الجنة - بعد استقرار كليهما فى دار جزائه - فقالوا لهم: أنزلوا علينا كثيرا من الماء، أو مما رزقكم الله من النعم؛ لما يحسُّونه من حرِّ العطش، وشدَّة الجوع، ووقع العذاب.

﴿قَالُوٓا﴾ لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ لكفرهم، فلا نستطع أن نعطيكم، ونخالف ما حكم به الله عليكم..

والتعبير بقولهم: ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا ﴾ يؤْذن بعلو الجنة فوق النار.

والمراد من تحريم الماء والرزق عليهم، حرمانهم منهما.

٥١ - ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ :

معظم المفسرين على أن هذا من جملة كلام أهل الجنة لأهل النار. فهو وصف مِنْهُمْ للكافرين...

وبعضُهم يرى أنه ابتداءُ كلام من الله تعالى تعليقا على هذا الحوار. فكأنه قيل: هم الذين اتخذوا دينهم...

والمعنى: الذين جعلوا دينهم الذى أوجبه الله عليهم - مجال عبادة وصلاح وإصلاح - جعلوه وسيلة لهو ولعب وأهواء.. فجحدوا منه ماجحدوا وبدَّلوا منه - وفْق هواهم - ما أرادوا أن يبدلوا. كشأْن اللاهين العابثين. وخدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها، فنسوا الآخرة..

وممَّا وقع من اتخاذهم الدِّين لهوا ولعبا - تحريم بعض العرب، البَحيرة والسائبة ونحوهما، ومنه التَّصْدية والمُكاءُ حول البيت، والطواف به - عرايا.

أما البَحيرة: فهى الناقة التى تلد خمسا آخرها ذكر. كانوا يبحرون أُذنها أى يشقونها ويحرِّمون ركوبها وحلبها.. والسائبة: هى الناقة المنذورة: كان الواحد منهم يقول:

إذا شفيتُ من مرضى ، فناقتى سائبة . فيحرُم الانتفاع بها كالبَحيرة . وينسبون تحريم ذلك إلى الله تعالى ؛ كذبا وزورًا .

وأمَّا الْمُكاءُ فهو الصفيرُ ، وأمَّا التصدية فهى التصفيق ، وكانوا يفعلون ذلك عند الكعبة ، ويزعمون أنهما من العبادة .

والطواف بلاساتر كانوا يعتبرونه نُسُكًا حتى نهى عنه الرسولُ فى حَجَّة الوداع بقوله : « وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ »

(فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) :

من معانى النسيان فى اللغة : الترك والإهمال .

وهذا هو المعنى المناسب للآية .

والمعنى : فاليوم نتركهم فى النَّار ، ونهمل أمرهم . فلا نخرجهم منها ، كما أهملوا لقاء يومهم هذا ، فلم يفكروا فيه . بل جحدوه . وكما استمرّوا على إنكار آيات الله ، وعدم الاعتراف بدلالتها على ما يجب له – سبحانه وتعالى – من التوحيد ، وما يجب لرسوله من السمع ، والطاعة ، والإذعان . .

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾) .

المفردات :

(فَصَّلْنَاهُ) : أنزلناه مفصلَ الأحكام مبيِّنها .

(هُدًى وَرَحْمَةً) : دلالة واضحة على الحقِّ ورحمة للناس .

(هَلْ يَنظُرُونَ) : ما ينتظرون.

(تَأْوِيلَهُ) : أى ما يؤول إليه أمره .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) : وغاب عنهم .

التفسير

٥٢ـ (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

الضمير فى قوله : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ) عائد على كل أُمة من أُمم الرسل. فإن الكلام السابق ، كان عن أَحوالهم يوم القيامة : ما بين محسن ومسىء ، حسبما يرشد إليه قولُه تعالى : « ... لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ... »[1] وقد مضى شرحُها وكما يرشد إليه قوله تعالى : « قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . . . »[2] وسيأْتى شرحها .

والمعنى : ولقد جئنا كلَّ أُمة من الأُمم ـ على لسان رسولها ـ بكتاب بيِّنًا فيه العقائد والأَحكام والمواعظ ، مفصَّلة على علمٍ تامٍ منَّا ، بما يناسب حالَ كلِّ أُمَّة فى الأَحكام الفرعية ـ جئناهم بهذه النعم ـ هدى ورحمة لقوم شأْنهم أَن يذعنوا للحق ، فهم المهتدون ، بهداه المنتفعون بجدواه ، دون المعاندين المكابرين .

٥٣ـ (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) :

المعنى : ما ينتظر هؤلاء الكفار ـ بعدم إيمانهم بالكتاب المفصَّل ، الذى أَنزلناه ـ إلَّا ما يؤول إليه أمره يوم القيامَة : بظهور صدق وعده ووعيده .

والمراد أَنهم فى حكم المنتظرين لهذا المآل . وفى بالهم عدم توقع صدق ما جاء فيه .

والكلام ـ فى الحقيقة ـ جارٍ مجرى التهديد ، والإنذار بأَن ما جاء فيه ـ من عقابهم ـ واقع لا مفرَّ منه ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك :

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ٤٣

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٣

(يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ ...) الآية .

وقيل : إنَّ فيهم قومًا يشكّون فى مآله . ولذلك انتظروه .

(يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ) :

المعنى : يوم يأتى مآل هذا الكتاب المفصَّل وعاقبته ، يقول الذين أعرضوا عنه وجعلوه مهملا - كالمنسى - يقولون - معترفين نادمين - قد جاءت رسلُ ربِّنا بالحقِّ ، فكذبناهم فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، ليرفع عنا ما نحن فيه من العذاب ؟ أو هل نردُّ إلى الدنيا - فنعمل غير الذى كنا نعمل من الشرك والمعاصى ؟

(قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

هذا تقرير لعاقبة ما اعتراهم من غرورٍ دنيوى .

أى قد أضاعوا أنفسهم بانصرافهم عن الهدى ، واستحقاقهم بذلك عذاب النار . وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء وشفاعتهم عنده ، حيث اتضح لهم بطلانه وظهر لهم فساده . وأنه كان سرابا خادعا !! .

(إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾) .

المفردات :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) : يغطى الليلَ بالنهار ، والمقصود ، أنه - تعالى - يزيل ضوء النهارِ بظلام الليل .

(اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) : استولى على الملك والسلطان .

(يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) : يتبعه سريعا . كأنما يطلبه بلا فتور .

(تَبَارَكَ اللهُ) : تعالى وتنزّه .

التفسير

٥٤ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) :

لمَّا ذكر الله حال الكفار ، مشيرا إلى عِبَادتِهم غيره ، احتجَّ عليهم فى هذه الآية بمقدوراته التى قدّرها ، وكائناته التى أظهرها . ودلَّهم بها - وبنظمها - على أنه الإله الواحد ، ولا معبود سواه .

والربُّ : الخالقُ والمالك والمربّى والمنعم .

والمراد من خلق السموات والأرض : هو خَلْقُهُمَا وما فيهما .

والمقصود من الأيام الستة :هو أزمان بهذا العدد.. لايَعْلَمُ مقدار كلٍّ منها سواه سبحانه وتعالى .

فأيَّام الله ، آمادٌ متفاوتة كألف سنة ، أو خمسين ألف سنة ، ممَّا نحسبه للدنيا - كما صرَّح به القرآنُ الكريم . وقد تكون أطولَ من ذلك أو أقلَّ ، حسب سُنَّةِ الله تعالى فى مراحل تطوير الكائنات من الدخان ، إلى المادة التى انتهت إليها النجوم والكواكب والأرض . حسبما نطق به قولُه تعالى :

«ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ » (١) .

وقد أيَّد العلماءُ المعاصرون ، ما جاء فى القرآن ، إذ قالوا : إن أصل العالَم ، غاز شديد الحرارة ، تحوَّل - مع الأزمان الطويلة - إلى هذه السموات والأرض .

ولا يصحُّ أن يراد من اليوم فى هذه الآية ، الزمنُ الناشىءُ عن حركة الأرض حول ذاتها - فى مدارها حول الشمس، لأنه - بهذا المعنى - لم يكن موجودا وقت هذا التكوين .

---

(١) سورة فصلت ، آية : ١١

والعرش لغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العزّ والسلطان والملك ، فيقال : الملِك (فلان) ثُلَّ عرشه ، أى ذهب عزّه وملكه . وأنشدوا لهذا قول الشاعر :

إذا ما بَنُوا مروان ثُلَّتْ عروشُهم وأَوْدَت كما أودت إياد وحِمْيَرٌ

أى : زال ملكهم . .

ومعنى الاستواء : الاستيلاء ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاق

أى ثُمَّ - بعد تمام الخلق - استولى على الملك والسلطان بلا شريك .

والتعبير (بثم) لإفادة رفعة منزلة الاستيلاءِ على سلطان هذا الكون . وليست للترتيب الزمانى مع التراخى ، فإنه لا مهلة بين خلق الكون واستيلائه تعالى على سلطانه فيه . فهو الذى خلقه . وسلطانه عليه منذ البداية إلى أن تمَّ خلقه .

والجديد الذى أفادته هذه الجملة : أنها بيَّنت أنَّ أمر الكون - بعد تمامه - إليه تعالى كأمره عند بدايته : لا يشركه فى ذلك أحد . وأن تدبيره ، إليه - وحده - .

ولذا ، قال - تعالى - عقب ذلك :

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) :

إلى آخر ما ذكر فى الآية من شئون تدبيره .

فكأنه قيل : واستولى - سبحانه وتعالى - على سلطان الكون وحده ، ليدير شئونه التى منها : أنه يغشى الليل النهار .. الخ .

ومن العلماء من قال : إن العرش جسم محيط بسائر الأجسام سمّى به ، لارتفاعه ، أو للتشبيه بسرير الملك .. ومنه تتنزل أوامرُ اللهِ فى شئون الكون ، دون أن يكون الله فيه لاستحالة ذلك عقلا .

والاستواء - على هذا أيضا - بمعنى الاستيلاء . وأضاف الاستيلاء إلى العرش وحده - مع أنه تعالى مستولٍ على جميع المخلوقات - لأن من استولى عليه - وهو أعظمُها - فهو مستولٍ على سواها من باب أولى .

فكأنه قال : ثم استولى على الكون كلّه . .

وذلك مثل قولك : استولى عمر بن الخطاب على عرش الفرس . . فذلك كناية عن استيلائه على جميع بلاد الفرس .

ومنهم من فسَّر العرش بهذا المعنى ، وتوقف فى معنى الاستواء . وأحال العلم - بحقيقته - إلى الله تعالى .

وعلى هذا الرأى : جعفر الصادق ، والحسن ، وأبو حنيفة ، ومالك - رضى الله عنهم - .

روى عنهم : الاستواء معلوم . والكيف مجهول . والإيمان به واجب . والجحود كفر . والسؤال عنه بدعة . .

أمَّا تفسير العرش بالسرير ، والاستواء بالاستقرار - كما يقول المشبِّهة - فهو باطل وكفر . لأنه - تعالى - كان قبل العرش ولا مكان . وهو الآن كما كان ، « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(1) .

(يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) :

أصل معنى يغشى الليل النهار : يغطِّى اللهُ النهارَ بالليل .

وبما أنَّ التغطية تقتضى اجتماع الغطاء والمغطى وجودًا - وذلك لا يتصوّر هنا - لأنّ النهار أزيل - تماما - عن السطح الَّذى حلّ فيه الليل ، فضلا عن أن التغطية إنما تكون للأجسام . والليل والنهار ليسا منها - فلذا تكون التغطية مستعارة للإزالة ، لما فى كل من الإخفاء .

فالمعنى المراد لقوله تعالى : (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ) يزيل الله ضياء النهار بظلام الليل .

(يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) : أى يطلب الليل النهار سريعا ، فالحثيث السريع ، ومنه ولَّى حثيثا - أى مسرعًا - والمراد أنه يأتى عقبه ويحل محلّه ، بسرعة وبغير مهلة .

وإنما وصف طلبه له بالسرعة ، لأنه ناشئ من دوران الأرض بسرعة حول نفسها فى دورانها حول الشمس . وهى كروية . ففى كل ثانية يختفى الضوء عن جزء منها ، ليحلَّ فيه الليلُ بدل النهار فورا ، ولم يذكر العكس للعلم به ، أو لأنّ اللفظ يحتملهما .

---

(1) سورة الشورى ، من الآية : 11

ولذا قرئ بنصب الليل ورفع النهار .

(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ) :

أى وخلق الله الشمس والقمر والنجوم : خاضعات لإرادته وقضائه وتصريفه .

وتخصيص الشمس والقمر بالذكر – مع دخولهما فى النجوم (بالمعنى اللغوى) – لمزيد فوائدهما ، بالنسبة لكوكبنا الأرضى .

ثم عقّب الله ذلك بقوله تعالى :

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) :

لتأكيد ما سبق وتعميم قدرته على ما وراء السموات والأرض .

والمعنى :

ألا له الخلق والأمر : فى كل شىء كان أو يكون . لا يشاركه فى ذلك أحد .. فيدخل فيه ما ذكر من خلق السموات والأرض وتسخيرهما – دخولا أوليًّا .

ثم وصف الله نفسه بالتعالى عن العالمين ، وربوبيته لهم فقال :

(تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

أى تعالى الله مالك العالمين ومربيهم ، ومدبر أمورهم – عن أن يكون له شريك أو نظير .

وخلاصة معنى الآية : أنه تعالى ، بيّن فيها للكفار الذين اتخذوا من دونه أربابا : أن المستحق للربوبية إلٓه واحد ، هو الله – تعالى – ، لأنه هو الذى خلق العالَم ودبّره أحسن تدبير .

أمّا آلهتهم ، فهى مخلوقة له – تعالى – ، وعاجزة عن الخلق والتدبير ، فلا تصلح للربوبية .

(ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾) .

المفردات :

(تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) : تذلُّلًا وسرًّا .

(المُعْتَدِينَ) المتجاوزين الحدّ فى كل شىء .

التفسير

٥٥ ـ (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ...) الآية

لمّا ذكر الله ـ سبحانه ـ دلائل عظمته فيما سبق ، طلب هنا ، من عباده أن يدعوه فى تذلُّلٍ مُسِرِّين ، فإن ذلك هو اللائق بجلال الخالق .

والمعنى : ادعوا ربكم الذى عرّفكم عظمته فيما سبق . . وليكن دعاؤكم إيّاه فى تذللٍ وإسرار يليقان بالأدب مع الله تعالى ، فإن الصياح فى الدعاء تجاوزٌ للأدب ، واعتداءٌ والله ـ تعالى ـ لا يحبُّ المعتدين .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى موسى قال : « كنا مع النبى صلّى الله عليه وسلم فى سفرٍ[1] فجعل الناسُ يجهرون بالتكبير[2] فقال : أَيُّهَا النَّاسُ : ارْبَعُوا عَلَى أنفُسِكُمْ ... إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَدْعُونَ أَصَمَّ ولا غائبًا . . إنَّكم تَدْعُون سَمِيعًا قريبًا . وهو مَعَكُمْ . . » الحديث .

والاعتداءُ فى الدعاءِ أنواع :

منها ما كان بالجهر والصياح .

ومنها أن يطلب منزلة نبى أو يطلب المحال ، أو يُسْهِبَ فى الدعاء ، أو يدعو بمعصية .

روى ابن مَاجَه : أن عبد الله بن مُغفل رضى الله عنه ، سمع ابنه يقول : اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال له : أىْ بُنَىَّ ، سَلِ اللهَ الجنَّة ، وعُذْ بِهِ من النَّار . فإنِّى سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم يقول : « سَيَكُونُ قومٌ يَعْتَدُونَ فِى الدُّعَاء » .

واختُلِف فى رفع اليدين فى الدعاء .

فقال قوم بكراهته ، ومنهم جبير بن مطعم ، وابن المسيب وابن جُبَيْر ومجاهد .

واختاروا أن يشير بالسبابة إيذانا بالإخلاص .

رأى شريح رجلا رافعا يديه بالدعاء . فقال مَنْ تَتَنَاوَلُ بهمَا ؟ لَا أُمَّ لك . .

---

(١) وفى رواية أخرى (فى غزاة) . (٢) وفى رواية « فجعل رجل كلما علا ثنية قال : لا إله إلا الله » .

وسندهم فى ذلك ما أخرجه مسلم عن عمارة بن رُوَيْبَة ،وأنَّه رأى بِشْرَ بْنَ مَرْوانَ عَلَى المنبر رافعا يديه فقال : قبَّح اللهُ هاتين اليدين . لقد رأيتُ رسولَ الله صلىّ الله عليه وسلم ما يزيد عن أن يقول بيده هكذا . وأشار بإصبعه المُسَبِّحة .

ورُوى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين - ورواه البخارى عن النبى صلىَّ الله عليه وسلم بسنده إلى أبى موسى الأشعرى قال : « دعا النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم ، ثم رَفَعَ يَدَيْه ، ثم رأيْتُ بياضَ إبْطَيْهِ » وعلى هذا يُحمل إنكارُ من ينكر سُنيَّة رفع اليدين ، على أنه لم يعلم رواية أبى موسى الأشعرى .

ويؤيد سنيَّة الرفع ، ما أخرجه الترمذى عن عمر بن الخطاب قال : « كان رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم ، إذا رفع يديه لم يَحُطَّهُمَا حتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وجْهَهُ » .

قال : هذا حديث حسن غريب .

قال القرطبى :قلتُ :والدعاءُ حسن.. كيفما تيسر ، لإظهار الحاجة والخضوع له -تعالى- فإن شاء الداعى ، استقبل القبلة ورفع يديه . وهو حسن. وإن شاء فلا .

فقد فعل ذلك النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم . . انتهى بتصرف .

٥٦ - (وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) :

أى ولا تفسدوا فيها بالكفر والمعاصى ، بعد إصلاحها ببعثة الأنبياء .

وقد طلب اللهُ من عباده أن يكون أمرهم دائرًا بين الخوفِ والرجاء . فقال : (وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا) :

أى وادعو اللهَ خائفين من عقابه ، طامعين فى ثوابه . فهما كجناحى الطائر : يحملانه فى طريق استقامته. فإن انفرد أحدهما هلك الإنسان . قال تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ »[1] .

(١) سورة الحجر ، الآيتان : ٤٩ ، ٥٠

وقد بشرنا - سبحانه - بالرحمة لمن أحسنوا . فقال :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى إن رحمة الله قريب ممن أحسنوا بالطاعة ، ودار أمرُهم بين الخوف والرجاء .

وعبّر عن الرحمة المؤنثة لفظا بقريب وهو مذكر ، إمّا لأن المؤنث غير حقيقى فيجوز تذكير خبره ، كما قاله الجوهرى وإمّا لأن الرحمة والرُّحْم معناهما واحد وهو العفو والغفران كما قاله الزجّاج واستحسنه النحاس .

على أن « فعيلا » يستوى فيه المذكر والمؤنث . . غالبا ومنه ما هنا .

(وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾) .

المفردات :

(بُشْرًا) : أصله بُشُرًا بضمتين . فخفِّف بالإسكان . وهو جمع بشير . أى : مبشرات بالمطر .

(بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى قبل المطر الذى هو من رحمة الله .

(أَقَلَّتْ) : أى حملت .

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ) : المراد به الأرض الكريمة التربة .

(وَالَّذِى خَبُثَ) المراد بالبلد الخبيث : الأرض السبخة التى لا يجود نباتُها .

(لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) أى : لا يخرج نباته إلا قليلا عسيرا ، عديم النفع .

التفسير

٥٧ - (وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ...) :

لايزال الكلام موصولا فى آيات الله ونعمه . فقد بيَّن الله سبحانه - قبل ذلك - أنه خلق السموات والأرض فى ستَّة أيام ، وأنه يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، وأن الشمس والقمر والنجوم مسخراتٌ بأمره ، وأن له - وحده - الخلق والأمر .

ثم جاءت هذه الآية ؛ لبيان آية الله فى إرسال الرياح ، وآثارها .

والتعبير بالمضارع فى قوله : (وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ) الخ ..للإيذان بتجدُّد هذه النعمة . فإن المضارع يفيد الاستمرار التجددى .

والمعنى : والله هو الذى يثير الرياح بعد سكونها ، ويرسلها - مبشرات - لعباده بالمطر الذى هو من رحمته تعالى .. حيث يجعلها بين يديه - أى سابقة له ، فَتَبْعَثُ الراحة والطمأنينة فى نفوس الظماء ، وتجعلهم منتظرين رحمة الله التى عوَّدهم إيَّاها بعد هبوب الرياح التى اعتادوا أن يروها سابقة للأمطار . فإنها مؤذنة بمثيلات لها تحمل السحب الحوامل بالأمطار - وذلك قوله تعالى :

(حَتَّىٰٓ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ) :

أى حتى إذا حملت الرياحُ سحائب ثقالا ، بما اشتملت عليه من الأمطار - ساق اللهُ ذلك السحاب نحو بلد يابس ، يشبه الميِّت فى بطلان نفعه ، لأجل إحيائه بالسقى والرىِّ .

(فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى فأنزلنا - بالبلد الميت - الماء من السحاب بقدرتنا ، فأخرجنا بذلك الماء من كلّ الثمرات .

أو فأخرجنا فى هذا البلد اليابس ، جميع أنواع الثمرات التى يصلح لها . فتبارك اللهُ القادر : « يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ » (١) .

(كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

الإشارة راجعة إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميِّت .

وفيما يلى بيان المعنى على الوجه الأخير ، لشموله للأول .

المعنى : كما أحيينا البلدَ الميِّت بالماء ، بإحداث القوة النامية فيه ، حتى جاد بأنواع النبات والثمرات ـ كما فعلنا ذلك ـ نُخرج الموتى من القبور ، ونحييها : بردِّ النفوس والأرواح إلى أبدانها ، بعد جمعها ، وإفاضة أسباب الحياة على عناصرها ؛ لعلَّكم تذكرون وتتعظون بما تَرَوْن من شئون الأرض الميتة وإحيائها ، فتعلمون أن من قدر على إحيائها وإنبات النبات فيها ، بعد يبسها الشبيه بالموت ، فهو ـ كذلك ـ قادر على بعث الموتى من القبور وإحيائهم .

٥٨ ـ (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) :

المقصود بالبلد الطيِّب : الأرض الكريمة ذات التربة الطيبة ، التى تجود بخير النبات وكثيره .

والمقصود بالبلد الذى خَبُثَ : الأرض الَّتى لاتصلح للإنبات الجيِّد . كالأرض السبخة .

وقد ضرب اللهُ البلدَ الطيِّب للذى ينتفع بالمطر ، فيخرج النبات الكثير والثمر الوفير ـ ضربَهُ مثلًا لمن تدبَّر الآياتِ ، وانتفع بها .

وضرب البلد الخبيث الذى لاينتفع بالمطر ـ ضربه مثلا لمن لم ينتفع بالآيات ، ولم يرفع لها رأسا .

والمعنى : والأرض الطيبة الكريمة التربة ، تنتفع بالمطر فَيَخْرُجُ نباتُها زاكيًا ، حسنًا ، كثيرَ الحَبِّ والثمر ، غزير النفع ، بتيسير اللهِ ومشيئتهِ . . والأرض الَّتى خَبُثَتْ تُرْبَتُهَا لاتنتفع بالمطر كثيرا . فلهذا لايخرجُ نباتُها إلا نكدا ـ أى قليلا عديم النفع .

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٤

(كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ):

مثل ذلك التبيين الواضح ، الوارد فى هذه الآية - نبيِّن جميع الآيات ، لقومٍ يشكرون نعمة الله ، فيتفكرون فيها ؛ ويعتبرون بها .

قال الشيخ أبوالسعود - عليه رحمة الله - فى هذه الآية :

إنما مَثَلٌ لإرسال الرسل بالشرائع : التى هى ماءُ حياةِ القلوب، إلى المكلَّفين المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها ، والمحرومين من مغانم آثارها : ا هـ .

وفى ذلك يقول النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم :

« مَثَلُ مَابَعَثَنِى اللهُ به مِنَ العِلْمِ والهُدَى ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرضًا ، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلتِ الماء فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ . وكانت منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ ، فنفع اللهُ بِهَا الناسَ ، فَشَربوا وسَقَوْا وزَرَعُوا .. وأَصَابَ منها طائفةً أُخْرَى ، إنما هِى قِيعانٌ لاتُمْسِكُ ماءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً . فَذَٰلِك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِى اللهُ بهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّم . ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَٰلِكَ رأساً ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ » أخرجه الشيخان .

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾) .

المفـردات :

(الملأُ من قومه) الأشراف منهم - أى رؤساؤهم الذين يملئون المجالس بمهابتهم وعلو منزلتهم (ضلال مبين) بُعْدٍ بَيِّنٍ عن الحق - كما يزعمون .

التفسير

٥٩ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ . . . .) الآية .

بعد أن ضرب الله الأرض الطيِّبة ، مثلا لمن انتفع بآياته ، والأرض الخبيثة ، مثلا لمن لم ينتفع بها - عقَّب ذلك بقصَّة قوم نوح ، وهم ممَّن لم ينتفعوا بآياته .

وكان قوم نوح يعبدون الأوثان . وكان أشهرها لديهم : وَدًّا ، وسُواعًا ، ويغوثَ ، ويعوقَ ، ونَسرًا .

وسيأتى بيان ذلك فى سورة نوح ، بمشيئة الله تعالى .

وقد أرسل الله تعالى إليهم نوحًا - عليه السلام - ، فدعاهم إلى توحيد الله ، والتوبة من عبادة الأوثان .

والمعنى : وتالله ، لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه ، فقال لهم :ياقوم اعبدوا الله وحده ، ليس لكم من إله يستحق العبادة سواه . أمَّا آلهتكم التى صنعتموها بأيديكم ، فإنها لا تستحق أن تُعبد ، لأنَّها مخلوقة وليست بخالقةٍ ، ومصنوعةٌ وليست بصانعةٍ . . إنِّى أخاف عليكم - إن بقيتم على شرككم - عذابَ يوم عظيم .

وهذا اليوم العظيم : إمَّا يوم القيامة ، وإمَّا يوم الطوفان ، الذى يصلهم بعذاب يوم القيامة .

وقد مكث نوح -عليه السَّلام- يدعو قومه إلى الله- تعالى - ألف سنة إلا خمسين عاما. وقد أمضي فيهم هذه المدَّة فى حِجَاجٍ ولَجاجٍ معهم ، أجملته هذه الآية - والتى تليها - على النحو الآتى :

٦٠ - (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

الملأُ : الأشراف ، وأطلق عليهم ذلك لأنهم يملئون العيون والقلوب بوجاهتهم وجاههم .

والمعنى : قال الأشراف من قومه : إنا لنراك فى بعدٍ عن الحقِّ واضح . يقصدون بذلك : أنهم - وقومهم - على الحق ، وأن نوحًا يحيط به الضلال والباطل .

٦١ - (قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

المعنى : قال نوح للأشراف الذين اتهموه بإحاطة الضلال به : ليس بى أى شىء من الضلالة التى زعمتم إحاطتها بى ، ولكنى رسول من رب العالمين .

ومَن كان كذلك ، فهو فى تمام الهدى إلى الحق . . فكيف تتركون عبادة مالك العالمين إلى عبادة مالا حول له ولا قوة ؟ .

وعقب ذلك ، بأنه أبْرَأَ ذِمَّتَهُ بتبليغهم رسالة ربه ونصحهم . فقال :

٦٢ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) :

المعنى : أبلغكُم - من آن لآخر - رسالة ربى ، المشتملة على توحيده وعبادته ، وعلى قواعد السلوك المرتضى ، والأخلاق الفاضلة ، وعلى شئون الآخرة ، التى ينتهى إليها الناس . . وأنصح لكم باتباعها ؛ لتحصلوا على ثوابه ، وتنجوا من عقابه ، وأعلم من شئون الله مالا تعلمون من عظيم القدرة ، وشدة البطش بمن يظلون - على كفرهم - بعد تبليغ رسالاته - أى أوامره ونواهيه - إليهم .

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾) .

المفردات :

(ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : تذكير ووعظ من خالقكم ، (الفلك) : السفينة ، (قوما عمين) : قوما عُمْى القلوب .

التفسير

٦٣ - (أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ . . .) الآية .

أنكروا على نوح - عليه السلام - أن يكون رسولاً من ربّ العالمين - وهو رجل منهم - وكذّبوه . فقال لهم : هل استبعدتم وعجبتم من أن جاء وحىٌ مذكّر لكم من ربكم ، على لسان رجل - من جملتكم أو من جنسكم - وقلتم من أجل ذلك ما قلتم : «...وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ.إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ »[١] إلى غير ذلك مما لا خير فيه ، مع أنه جاء : لينذركم ويخوفكم عاقبة شرككم ومعاصيكم ، ولتتقوا الله فى عقائدكم وأعمالكم ، ولعلكم ترحمون ، إذا امتثلتم ، ولم يأتكم لأغراض دنيوية تعود عليه منكم . فكيف تتهمونه بالكذب ، وتردّون قوله ، وهو رجل منكم تعلمون حاله من الصدق ، ولا مصلحة له سوى هدايتكم ؟ .

٦٤ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَآ) :

أى فأصروا على تكذيبه فى رسالته ، واستمروا على ذلك ألف سنة إلا خمسين عاما ، وكانوا - طيلة هذه المدة - كلما جدّدوا تكذيبا ، جدّد لهم دعوةً دون كَلَلٍ أو مَلَلٍ ، فلم يزدهم دعاؤه إيّاهم ، إلاّ فِرَارًا من الحقّ ، كما قال تعالى حكاية عنه فى سورة نوح : « ... رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِىٓ إِلَّا فِرَارًا . »[٢] . وبعد أن يئس من إيمانهم ، دعا عليهم قائلا : « ... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا »[٣] .

وقد استجاب الله دعاءه ، وأمره ببناء سفينة ليركبها مع من آمن معه ، حتى ينجو معهم من الغرق بالطوفان الذى قدّر الله إهلاك قومه به ، استجابة لدعوته - عليه السلام - فلما أتمَّ بناءها ، أمره اللهُ أن يركبها ومَن آمن معه . ثم فجّر اللهُ عيون الأرض ،

---

(١) سورة المؤمنون ؛ من الآيتين : ٢٤ ، ٢٥

(٢) سورة نوح ، الآيتان : ٥ ، ٦

(٣) سورة نوح ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

وفتح أبواب السماء بماء منهمر . وعمَّ الطوفانُ أرض قومه فغرقوا ، لتكذيبهم بآيات الله .. وأنجاهُ اللهُ ومَنْ آمن معه ، وهم رُكّاب الفُلك - أى السَّفينة التى صنعها - ثم يعلّل اللهُ إهلاكَ قوم نوح بقوله :

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ) :

أى كانوا عُمْى القلوب غيرَ مستبصرين .

قال ابن عباس : عميت قلوبُهم عن معرفةِ التوحيد ، والنبوةِ ، والمعادِ .

وقد كان عدد ركاب سفينته من المؤمنين قليلا، فيهم من أولاده : سام وحام ويافث وزوجاتُهم . وعلى أى عدد كان ركاب السفينة ، فإن الله لم يبق من ذريتهم أحدا ، سوى ذرية نوح - عليه السلام - ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ »[1] .

ولهذا يعتبر نوح - عليه السَّلام - ، هو الأَبُ الثَّانِى للبَشر ، بعد آدم - عليه السَّلام - ... وجميع البشر من أولاده الثلاثة المذكورين .

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾) .

المفردات :

(فِى سفاهةٍ) : السفاهة : الخفَّة والحماقة .

(١) سورة الصافات ، الآية : ٧٧

التفسير

٦٥-(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) : أى وأرسلنا إلى عاد، أخاهم هودا . وكانوا يعبدون الأوثان، بعدما غيَّروا وبدَّلوا شريعة نوح - عليه السَّلام - .

قال لهم هود - بعد ما أُرسل إليهم - ياقوم اعبدوا الله وحده . واتركوا أوثانكم . فما لكم من إلٰهٍ غيره ، أتغفلون عمَّا حدث لقوم نوح ، فلا تتقون الله تعالى ؟

وكانت مساكن عاد هذه ،بين الشَّحْرِ[1] ،وعُمَان ،وحضرموت،بالأحقاف...وكانوا جبَّارين : طوال القامة . وفيهم يقول الله تعالى : (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً ...)[2] وهى التى سمَّاها الله (عادًا الأولى) فأرسل الله إليهم هودا. وكان منهم . ولذا ذكره الله بقوله : (أخاهم) فدعاهم إلى توحيد الله ، وترك ماهم عليه من طغيانٍ وظلم . فكان ردُّهم عليه ما حكاهُ اللهُ بقوله :

٦٦ - (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

قال الأشراف الذين كفروا من قوم هود - ردًّا على دعوته إيَّاهم إلى عبادة الله -وحده- وترك ماهم عليه من طغيانٍ وجبروتٍ - إنا لنراك مستغرقا فى خفَّة العقل، والطيش ، والحماقة . حيث فارقتَ دينَ قومِك إلى ماتدعو إليه. وإنَّا لنعتقد أنَّك من الكاذبين فيما تزعمُ من النبوة والرسالة .

ووصفُ الملإِ فى قوم «هود» بالذين كفروا ، يؤذن بأن من أشرافهم من سارع إلى الإيمان به ولم يكذبه ، ولكنه كان يكتم إيمانه ، بخلاف الملإِ من قوم « نوح » فإنهم جميعاً كانوا كافرين . فلذا لم يقيِّدهم اللهُ بوصف الكفر ، كما قيِّدوا به فى قوم هودٍ . . . وقيل : وصفوا به لمجرد الذم .

(١) سهل من سهول اليمن الشرقية .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٦٩ ، وسيأتى تفسيره .

٦٧ - (قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

قال هود لقومه متلطفا ، ردًّا على اتهامهم إياه بالسفاهة وخفّة العقل : ياقوم ليس بى أى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين : دعوتكم - بمنتهى الوعى والرشاد وحبّ الخير لكُم - لكى تعبدوا ربَّ العالمين الذى أرسلنى ، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والطغيان .

٦٨ - (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ) :

أبلغكم ما أرسلنى به ربى إليكم من العقيدة الرشيدة ، والأخلاق المجيدة ، وأنا ناصح أمين . حيث نصحتُكم بترك ما أنتم عليه ، لأنى أعلم من الله مالا تعلمون .

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾) .

المفردات :

(لِيُنْذِرَكُمْ) : ليُحَذِّركُم عاقبة كفركُم .

(خُلَفَاء) : تخلفونهم فى مساكنهم أو أرضهم .

(بَسْطَةً) : سعة فى القامة والقوّة .

(آلَاءَ اللهِ) : نِعَمه .

(تُفْلِحُونَ) : تفوزون .

التفسير

٦٩ - (أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ . . .) :

أغفلتم عن الهدى ، وعجبتم من مجيء تذكير من خالقكم ومربيكم ، على لسان رجل منكم ، لكي ينذِركم ويخوِّفكم من عاقبة ما أنتم عليه من شرك وطغيان ! ! فِي حين أن ذلك لا يدعو إلى العجب ، لأن الرسول - إذا كان منكم - كان معروفا لكم فى صدقه وأخلاقه . وذلك أدعى إلى اطمئنانكم لما جاء به . فإن الرائد الصادق لايكذب أهله .

ولو كان الرسول غريباً عنكُم ، لكان ذلك أدعى إلى اتهامه ، بأنه تصنَّع النبوة ، ليخضعكم إلى قبيلته . ولو كان مَلَكاً لهلكتم إن كان بصورته المَلَكِيّة ، ولاشتبه عليكم أمرَه إن تشكل بصورة أحدٍ من البشر .

وبعد أن خوَّفهم اللهُ من عقابه ، ذكَّرهم نعمَه ، فقال :

(وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً ..) الآية .

المعنى :

وتذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ، إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . حيث ملكتم مساكنهم وبلادهم .

أو أن المعنى : جعلكم خلفاء من بعدهم فِى السيطرة على الأرض وملكها .

وكما جعلكم خلفاء الأرض ، زادكم فى الخلق سِعةً ، فأنتم طوالُ القامة أشدّاءُ الأجسام ، فاذكروا نعم الله التى تتقلبون فيها ، لكى يفضى بكم ذكرها إلى شكرها المؤدى إلى الفلاح .

٧٠ - (قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا . . . . . .) الآية .

استبعد قومُ هودٍ إفرادَ اللهِ بالعبادة ، وترك آلهتهم التى عبدها آباؤهم من قبلهم . وقديمًا كان التقليدُ سببًا للنكَبات .

والمعنى : قال عاد لهود : أجئتنا بدعواك لكى نعبد الله وحده ، ونترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة الأوثان ؟ فأتنا بما تعدنا به من العذاب ، إن كنت من الصادقين فى رسالتك ، وفيما أنذرتنا به ، إن نحن لم نؤمن بها .

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾) .

المفردات :

(قَدْ وَقَعَ) : أى وجب واستحق .

(رِجْسٌ) : عذاب ـ مأخوذ من الارتجاس وهو الاضطراب .

(سُلْطَانٍ) : حجة لها سلطان على القلوب .

(وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا) . وأهلكناهم حتى آخرهم ، والدابر الآخر .

التفسير

٧١ـ (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ....) :

الرجس العذاب ، ولم يكن العذاب قد وقع على عادٍ حين قال لهم هود : (قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ رِجْسٌ ...) الخ . فلذا يفسر الوقوع : إما بمعنى الاستحقاق والوجوب ، أو ينزل المتوقع منزلة الواقع . كما فى قوله تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)[1] .

---
(١) أول سورة النحل .

والمعنى: قال هود لعادٍ ــ حين أصرُّوا على الكفر وطلبوا إتيان العذابِ الذى توعَّدهم به ــ قال : قد وجب واستحق عليكم عذاب وغضب من ربكم ، حتَّى كأنَّه نزل بكم ووقع فعلا .

(أَتُجَادِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) :

كثيرا ما يطلق الاسم على المسمَّى . ومنه قوله تعالى : « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »(1) : أى تبارك ربك وتعالى عن الشبيه والنظير .

ومن اطلاق الاسم على المسمَّى ما جاء فى هذه الآية الكريمة .

والمعنى : أتخاصموننى وتنازعوننى ــ بقوّة ــ فى أنصاب وأوثان سمَّيتموها آلهةً ، وليس فيها من مصداق هذه التسمية أى دلالة ؟ إذ المستحق لهذه التسمية هو الموجد لهذا الكون ، الخالق له ، المدبر لأمره !

أما هذه الأنصاب ، فهى مخلوقة وليست بخالقة ، عاجزة وليست بقادرة .. فكيف زعمتم ألوهيتها ، وجادلتمونى فيها ، مع أن الله تعالى هو المستحق للألوهية وحده ، ولم ينزل سلطانا أوحجة بعبادتها والتقرب بها إليه ؟ !

(فَانتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) :

وحيث كنتم مصرِّين على عبادتها ــ بدون سلطان ولا برهان ــ فقد وجب عليكم عقاب كفركم بالله وعصيانكم لرسوله . فانتظروا هذا العقاب ، إنى معكم من المنتظرين وقوعه .

٧٢ ــ (فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ) :

بعدأن أنذرهم هود بأن عقاب اللهِ آتٍ لا محالة ، وأنَّ عليهم أن ينتظروه ــ نزَل العذاب بهم ، فأنجاه الله والذين آمنوا معه ــ برحمة منه ، واستأْصَل جميع الكافِرينَ بآياتِ الله ، فلم يُبْقِ منهم أحدا . فإن قطع الدابر كناية عن إهلاك الجميع .

(1) آخر سورة الرحمن .

وفائدة ذكر قوله تعالى: (وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ) بعد قوله : (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) الإيذان بأنهم لو كانوا مؤمنين، لما أهلكهم اللهُ . بل كان ينجيهم كما نجّى المؤمنين . ويجوز أن يكون المراد وما كان ينتظر منهم الإيمان .

وخلاصة ما ذكره المفسرون والمؤرخون من قصة عاد : أنهم كانوا يسكنون بأحقاف اليمن ، وأنهم تبسّطوا فى البلاد ما بين عُمَان وحضرموت . وكانت لهم أصنام يعبدونها. فبعث اللهُ إليهم هودا ، وكان من أفضلهم حسبًا ، فكذّبوه وازدادوا عتوًّا ، وتجبّرًا ، وأمسك اللهُ المطرَ عنهم ثلاث سنواتٍ، حتّى جهدوا – وكان أهلُ هذه الأقاليم إذا نزل بهم بلاءٌ لجأوا إلى البيت الحرام ، وطلبوا من اللهِ أن يُفرجه عنهمْ .. وكان أهل مكة – وقتئذ – هم العماليق ، من أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام. وسيّدهم معاوية بن بكر ، وكان يسكن بظاهر مكة خارج الحرم . فنزل به وفدُ عادٍ . وكانوا سبعين من أشرافهم ، وقد جاءُوا يطلبون من اللهِ الغيثَ ورفعَ القحطِ عنهم . فأنزلهم معاويةُ بن بكر عنده وأكرمهم . وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، ويسمعون غناءَ القِيان ، وشغلوا عمّا جاءُوا من أجله .

وكان معاوية يستحيي أن يكلمهم، خشية أن يظنُّوا به ثقل مُقامِهم عليه، فأوعز إلى إحدى القينات فغنّتهم بما ذكّرهم ما جاءُوا من أجله . فقال بعضُهم لبعضٍ : إن قومكم بعثوا بكم لِتَتَغَوَّثُوا لهم من البلاءِ ، فأبطأتم عليهم !!!

فدخلوا الحرم . وقال رئيسُهم : اللّهم اسقِ عادًا ما كنتَ تسقيهم . ولكنّهم حقّت عليهم كلمةُ اللهِ بما عصَوا رسولَهم هودًا واستعجلوا العذاب . فأنشأ اللهُ لهم سحائب ظنوها مطرا ، خرجت على عاد من وادٍ .. يقال له : المغيث . . فقالت عادٌ : (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) بينما كان هو العذاب الذى استعجلوا به، فهو ريحٌ عقيم . فيها عذاب أليم : تدمّر كلَّ شىءٍ بأمر ربها . . سخّرها اللهُ عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما . فأهلكتهم جميعا . فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنُهم .

وأنجى اللهُ هُودا ومَنْ آمن معه. فجاءُوا مكة . وعبدوا اللهَ حتّى أدركتهم مناياهم .

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ
ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾) .

المفـردات :

(بَيِّنَةٌ) : معجزةٌ ظاهرةُ الدلالة .

(وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ) : وأنزلكم فيها مباءات ومنازل .

(وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ) : النحت نَحْرُ الشيء الصلب. ونحتهم الجبال : اتخاذهم الأحجار منها .

(آلاَءَ اللهِ) أى : نعمه . جمع أَلْي وهو النعمة .

(وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ) : ولا تَسعوْا فيها بالإفساد .

التفسير

٧٣ ـ (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :
أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، ليتركوا الشرك بالله ، ويعبدوا اللهَ وحده .
فقال : يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم مِن إلَٰهٍ غيرُه .

وقوم ثمود : من ولد ثمود بن جَاثِر بن أرم بن سام . وكانت مساكنُهم بالحِجْر ، بين الحجاز والشام . وكانوا عربا بعد عاد. وقد كثُروا وعَتَوْا وعبدوا غير الله . فبعث اللهُ إليهم صالحا ليهديهم سواءَ السَّبيل . وكان واحدا من أشرافهم . ولذا قال : (أَخَاهُمْ صَالِحًا) فقالوا له : يا صالحُ قد كنتَ فينا مرجوًّا قبل هذا ... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤُنا ؟ وكان في القوم بنَّاءُون مهرة ، فكانوا ينحتون من الجبال أحجارا ، ويتخذون منها بيوتا ، وكانوا في سعة من معايشهم .

فلم يزل صالح يدعوهم.. فلم يؤْمن به إلا قليلٌ منهم من المستضعفين. فلما ألحَّ عليهم بالتخويف والإنذار ، طلبوا منه آيةً تشهد له بأنه مرسل من عند الله تعالى . فقال لهم : أيّة آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا ، في يوم معلوم لهم من السنة ، فتدعو إلهك وندعوا آلهتَنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا . فوافقهم صالح . فلما خرجوا في عيدهم ، دَعَوْا أوثانهم فلم تستجب لهم . فأشار رئيسُهم إلى صخرة وقال لصالح : أخرج لنا ناقةً - وذَكَرَ أَوْصَافَها - فإن فعلتَ صدقناك . فأخذ عليهم العهود بذلك. ثم صلّى ودعا اللهَ ، فتمخضتِ الصخرةُ عن ناقة حسب الأوصاف التي أرادوها ، فقال لهم صالح :

(قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً) وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ، ولأنها جاءتهم من عنده - سبحانه - بلا وسائط وأسباب معهودة . ولذا كانت آية .

وكان من عظم جسمها وعجيب أمرها ، أنها إذا وضعت فمَها في الماء شربته كله . فلذا جُعِلَ لها يومٌ تختص فيه بشرب الماء ، ولهم يوم آخر لا تشاركهم في شربه .

وفي ذلك يقول الله تعالى : (لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)[1] وكانت تعطيهم لبنا بدل الماء في اليوم الذي تختص فيه بالماء ، فيشربون ويدخرون .

فآمن بـ « صالح » جماعةٌ ، بعد ظهور هذه الآية ، وكفر به آخرون .

---

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ١٥٥

وكانت أنعامهم تهرب منها إذا أبصرتها ترعى . فشقّ ذلك عليهم . ولذا قال لهم صالح - عليه السلام - ، محذّرا من مسّها بسوء .

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى فاتركوها تأكل العشب فى أرض الله ، فإن الناقة ناقة الله ، والأرض أرضه - سبحانه - . فليس لكم أن تحولوا بينها وبين رزقها فى أرض الله ، ولا أن تتعرضوا لها بشىء يسوءها ، كمنعها الماء والمرعى ، وغير ذلك من أنواع الإيذاء ، اتقاء أن يأخذكم عذاب شديد الإيلام ، بسبب إهانتكم لآية الله .

٧٤ - (وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ...) الآية .

أى وتذكروا فضل ربكم عليكم ، حين جعلكم خلفاء له فى الأرض من بعد عاد ، أو خلفاء لهم من بعدهم فى أرضهم ، وجعل لكم فى أرض الحِجْر - بين الحجاز والشام - منازل أنزلكم فيها ، وبوّأكم فى مباءاتها ومنازلها .

(تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) :

هذا استئناف ، لبيان كيف بوّأهم اللهُ فى الأرض ؟ .

والمعنى : ومَكَّنَكُم اللهُ من الأرض ، بحيث تبنون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا .

أمّا بناؤهم من سهولها قصورا ، فمعناه : أن يُحوِّلُوا السهول إلى مدائن ذات قصور رفيعة البنيان ، ممّا يجلبون إليها من مواد البناء ، أو أن يجعلوا نفس السهول موادًّا للبناء ، كالآجر وطين اللصق ، وغير ذلك .

وأمّا نحتُهم الجبالَ بيوتا ، فالمراد منه : اتخاذهم من حجارتها المنحوتة - أى المنجورة المسوّاة - بيوتا ، بوضع بعضها فوق بعض ، بطريقة هندسية ، يستمسك بها البناء ولا يتصدع .

وهذه النعمة التى يمنّ الله بها عليهم ، تدل على أنهم بلغوا فى فن العمارة والحضارة شأوا بعيدا ، فى هذا العهد الضارب فى القدم ، المتوغل فى أوائل البشرية ، حيث كانت البشرية تغطُّ فى نوم عميق .

وتلك نعمة تُوجِبُ على « ثمود » أن تذكرها لله فتشكره عليها .

ولذا قال تعالى ، حكاية عن وعظ صالح - عليه السلام - لهم .

(فَاذْكُرُوٓا آلَآءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

ولكنّهم كفروا بها ، وجعلوها وسيلة للفساد والإفساد ، والاستعلاء على الناس .

(قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾) .

التفسير

٧٥ - (قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّنْ رَّبِّهِ . . . .) الآية .

بعد أن نصح صالح - عليه السلام - قومه ألَّا يتعرضوا لآيةِ اللهِ - وهى الناقة - بسوءٍ ، وذكَّرهم نعمة الله عليهم ، ونصحهم أن يشكروها ولا يكفروها ، ولا يعثَوا فى الأرض مفسدين - قال أشرافُ قومه المستكبرون ، للذين استضعفوهم ، وهم المؤمنون منهم ، سائلين - بطريق الاستهزاء - هل تعلمون أن صالحا مرسل من ربه ، حتى سارعتم إلى الإيمان به ؟ فأجابهم أولئك المؤمنون - فى ثقةٍ واطمئنانٍ وجرأةٍ - إنَّا بما أُرسل به من ربّه مؤمنون ، لأننا نعلم أنه مرسل من ربه بالحق .

٧٦ - (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِالَّذِىٓ آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) :

قال الأشراف المستكبرون للمستضعفين المؤمنين - بعد أن سمعوا منهم جوابهم - إنا بـ « صالح » الذى آمنتم به كافرون . ولم يقولوا : إنا بما أُرسل به كافرون ، إظهارا لمخالفتهم إيَّاهم وردًّا لمقالتهم .

(فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾) .

المفـردات :

(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ) : العقر : الجرح . ويطلق على النحر .

(وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) : استكبروا عن امتثاله .

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) : فأهلكتهم الزلزلةُ .

(جَاثِمِينَ) : خامدين : ميِّتين .

التفسير

٧٧ - (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ . . .) الآية .

كان للناقة شرب يوم ، ولهم شرب يوم من الماء . ويقال : إنها كانت تعوِّضهم عن يومها ماءً باللَّبن . كما يُقال : إنها كانت حين ترعى صيفا أو شتاءً ، تهرب منها أنعامُهم لضخامتها - فعقروها ، واقتسموا لحمها ، وخالفوا بذلك أمر رسولهم صالح -عليه السلام- . فقال لهم : « تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ »[1] .

وفى اليوم الرابع ، أتتهم صيحةٌ من السماء ورجفة من الأرض : أسكتت قلوبَهم فهلكوا ، فأصبحوا - فى ديارهم وأرضهم - جاثمين ، خامدين ، لاحراك بهم .

(١) سورة هود ، من الآية : ٦٥

وأصل الجثوم : القعود . ويقال للناس : هم جثوم - أى قعود لاحراك بهم ولا ينبسون .

قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير ، والبروك للإبل .

والمراد ؛ كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم - فلمّا فوجئوا - وهم كذلك - بالعذاب ، هلكوا وهم على حالهم ، من غير اضطراب ولا تحرك .

ولا يخفى ما فيه من شدّة الأخذ وسرعة البطش . .

٧٩- (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) :

أى فانصرف بعد ماشاهد من حالهم ، وقال - متحسرا على مافاتهم من الإيمان - لقد أبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم بالترغيب والترهيب ، وبذلت فيكم وسعى . ولكنكم لاتحبُّون الناصحين ، فبقيتم على غيِّكم ، حتى أصابكم اللهُ بالهلاك .

وظاهر الآية أنه تولّى بعد أن رأى حالهم من الهلاك ، وأنه خاطبهم وهم موتى بقوله : (لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى) الخ .

ومثل ذلك مافعله النبى صلى الله عليه وسلم بصرعى بدر ، حين وقف بهم وخاطبهمْ وهم فى القليب قائلا : « إِنَّا وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » ؟.

وقيل : إنما تولَّى عنهم قبل نزول العذاب بهم حين شاهد علاماته ، وانصرف منكرا مافعلوا ، متوجها إلى فلسطين بمن معه من المؤمنين ، ثم رجعوا - بعد هلاك الكافرين - فسكنوا ديارهم . والله تعالى أعلم .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾) .

(١) انظر سيرة ابن هشام وغيرها .

المفردات :

(الْفَاحِشَةَ) : الفعلة الشديدة القبح – والمراد بها هنا اللواط .

(مُسْرِفُونَ) : مجاوزون الحد فى المعصية .

التفسير

٨٠ – (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) :

المعنى : وأرسلنا لوطا إلى قومه حين قال لهم – موبخا منكرا زاجرا – أتأتون الفعلة المتناهية فى القبح ، المتمادية فى الشرّ والسوء ؟ ماسبقكم بفعلها أحد من العالمين ، بل اخترعتموها أنتم .

وقد أنكر اللهُ عليهم أولا : إتيان هذه الفاحشة . ثم وبّخهم ثانيًا : على أنهم أوّل من ارتكبها ، فإنه ليس المراد من قوله تعالى : (مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) نفى سبق غيرهم لهم فحسب ، بل المراد أيضًا : أنهم أسبق العالمين إليها . فهم أول من أحدثها . وذلك على حدّ ما قيل فى قوله تعالى : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا »[1] ، فليس المراد منها أنه لايوجد أظلم منهم فقط ، بل المراد أنهم أظلم من كل ظالم .

ثم بيّن اللهُ هذه الفاحشةَ المهينة الشائنة فقال :

٨١ – (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) :

إنكم لتباشرون الذكور لمجرد الاشتهاء الفاجر ، تاركين النساء اللائى جعلهن الله مواضع الاشتهاء ، عن طريق الزواج !! بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى .

وكان لوط عليه السّلام يقيمُ بقريةِ « سدوم » فأرسله اللهُ إلى أهلها ، وكانوا أهل كفر بالله وعصيانٍ له . وكان من أخطره : إتيان الذكران فى أدبارهم ، وقطع السبيل على الغرباء لممارسة الفاحشة معهم . وكان من أمر لوط معهم ماسبق بيانه متجملا فى الآيتين الماضيتين .

وفيما يلى بيانُ ما أجاب به قومه وعقاب اللهِ لهم ، على إصرارهم ومضيهم فى الكفر والفاحشة .

---

(١) سورة الكهف ، من الآية : ١٥

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ
مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾) .

المفـردات :

(يَتَطَهَّرُونَ) : يتنظفون من الفواحش .

(مِنَ الْغَابِرِينَ) : من الباقين . وفى المصباح : غَبَرَ . تُسْتَعْمَلُ للماضى وللباق . فهى من الأضداد .

التفسير

٨٢ - (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ . . .) الآية .

المعنى : وما كان جواب قوم لوط على زجرهم عن الفاحشة ، إلا أن قال بعضُهم لبعضٍ : أخرجوا لوطا ومن آمن معه من قريتكم « سدوم » فإنهم أُناس يتطهرون .

وغرضهم من وصفهم بالتطهر الاستهزاءُ والسخرية بتطهرهم من الفواحش ، والافتخار بما هم فيه من القذارة الخلقية . كما هو شأْن أَهل الدعارة .

٨٣ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) :

المعنى : فأَنزلنا بهم العذاب : فأَنجينا لوطا وأَهله ، إلا امرأَته كانت من الباقين بالقرية ، حتى نزل بأَهلها الكافرين العذاب ، فهلكت معهم ، لأَنها كانت تُبْطِن الكفر وتظهر الإيمان . والنفاق أخطر أنواع الكفران .

والمراد بأَهله الذين أنجاهم الله معه : المؤمنون من أهل القرية . سواء أكانوا من أقاربه أم لا . وكانت نجاتُهم بتدبير اللهِ - تعالى - . فقد أرسل الله جبريل وبعضَ الملائكة معه ، لإهلاك قوم لوط ، فأخبروه بمقصدهم ، وأمروه أن يخرج ومن آمن معه إلى الشَّام ، ويدع امرأته فإنها من الهالكين .

وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ »[1] .

٨٤ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) :

المعنى : وأرسلنا عليهم مطرا عجيبا .. بيَّنه اللهُ بقوله : «... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ »[2] . فهلكوا جميعا .

فانظر ، أيها العاقل ، متعجبا : كيف كانت عاقبة المجرمين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

وكانت قراهم خمسًا ، تسمَّى « المؤتفكة » بين الشام والمدينة المنورة .

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾) .

(١) سورة الحجر ، من الآية : ٦٥ (٢) سورة الحجر ، من الآية : ٧٤

المفـردات :

(مَدْيَنَ) :اسم قبيلة شعيب ، وهم أولاد مدين بن إبراهيم . وتطلق على المدينة التى كانوا يقيمون فيها ، وهى واقعة قرب « معان » ، بطريق الحجاز .

(بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : حجة واضحة .

(تَبْخَسُوا) البخس : النقص مطلقا . ويدخل فيه نقص الكيل والميزان .

(وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : تمنعون الناسَ عن دين اللهِ .

(وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا) : وتطلبون أن تكون معوجة .

(فَكَثَّرَكُمْ) : زاد فى عددكم وأموالكم .

(يَحْكُمَ) : يَفْصل .

التفسير

٨٥ـ (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . .) الآية .

ذُكِرَتْ هذه القصة فى القرآن الكريم عدّةَ مرّات . فقد وردت فى الأعراف ، وهود ، والشعراء . وتختلف فى عدد آياتها إيجازا وإطنابا .وأطولها ماذكر فى سورة هود .

المعنى : وأرسلنا إلى أهل مدين واحدا منهم ، هو أخوهم فى النسب « شعيب » ـ عَليه السّلام ـ . وهو من سلالة ابراهيم ـ عليه السلام ـ من فرع إسحق .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذُكر « شعيب » قال : « ذاك خطيب الأنبياء » ، لحسن مراجعته قومه .

وقد بعثه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ رسولا إلى أهل مدين ، فدعاهم إلى عبادته تعالى ، ونهاهم عن أكل أموال الناس بالباطل . فكذَّبوه وعاندوا . فأخذهم اللهُ بالصيحة . وبعثَهُ اللهُ إلى أصحاب الأيكة ولم يكن شعيب منهم نسبا ، فكذَّبوه فأخذهم اللهُ بعذاب يوم الظُّلَّةِ .

وفيما يلي قصته مع أهل مدين .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) :

هذه دعوة إلى توحيد اللهِ -عزَّ وجلَّ- وهى دعوة الرسل جميعا .. فما من نبىٍّ إلَّا دعا قومه إلى توحيد الله تعالى ، ونبذ عبادة غيره ، وإفراده بالعبادة . قال تعالى :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدُونِ »[1] .

(قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) :

أى وقال لهم : قد جاءتكم حجة واضحة ومعجزة ظاهرة ، شاهدة على صدق نبوتى من ربِّكم ، ومالِك أُموركم .

ولم تُذْكَرْ معجزتُه فى القرآن ، كمالم تُذْكَرْ معجزاتُ بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ويكفى أن الله أخبر بمجيئه بالبينة الواضحة لهم .

أمّا تعيينُها بشخصها ، فلا ضرورة تدعو إليه .

(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) : بعد أن أمرهم شُعيب بتوحيد الله ، وعظهم بالحفاظ على حقوق الناس ، بإيفاء الكيل والميزان . ثم قال لهم :

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ) : أى ولاتنقصوا الناس أشياءهم ، بأخذها على وجه البَخْسِ . وهو النقص فيها خفيةً وتدليسًا .

ويدخل فى البخس ، وصفُ الأشياءِ بما ينقص قيمتَها ، ويصرفُ الناسَ عنها . ويدخل فيه أيضا نقصُ الكيل والميزان عند البيع ، والمبالغة فى استيفائه عند الشراء ، وغير ذلك ممَّا يسلب الحقوق.

(وَلَاتُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) : أى ولاتفسدوا فى الأرض بالجور والكفر بعد إصلاح شأن أهلها بالشرائع التى جاء بها الأنبياءُ - عليهم الصلاة والسلام - .

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ) :

أى ذلكم المذكور من العمل بما أمركم به الله تعالى ، من توحيد الله ، وإيفاء الكيل والميزان ، وترك ما نهاكم عنه من البخس والإفساد فى الأرض - خير وزيادة لكم فى كل شىء ، لأن الناس إذا عرفوكم بالأمانة والصدق والوفاء ، رغبوا فى معاملتكم لثقتهم فيكم .

(إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) : أى إن كنتم مصدِّقين لى فيما دعوتكم إليه ، من توحيد الله تعالى ، والعمل بسائر ما شرعه الله لكم من الأحكام .

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٢٥

٨٦ - (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ) :

أى ولاتقعدوا بكل طريقٍ من الطرق المسلوكة : تخوّفون من آمن بشعيب ودينه بالقتل. أو تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .

(وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ) :

أى : وتمنعون من آمن بدين الله الذى جاء به « شُعَيب » من الاستمرار عليه، وتحملونه - بشَتَّى الأَساليب - على الرجوع عنه ، كالطعن فى « شُعَيب » بأنه كذَّاب ، جاء ليفتن الناس عمَّا هم عليه من تَدَيُّن .

(وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى وتطلبون لسبيل الله الاعوجاج بوصفها للناس بما يعيبُها وينقصُها. وهى أبعد ماتكون عن العوج والنقص .

(وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ) :

أى وتذكروا نعمة الله عليكم ، حيث كنتم قليلى العدد والمال ، فوفَّر عددَكم بكثرة النسل . وزاد أموالكم فأَغناكم .

(وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وتفكَّروا فى عاقبة من أفسدوا قبلكم من الأُمم المجاورة لكم ، مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود . واعتبروا بما حلّ بهم بعد عصيانهم .

٨٧ - (وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا) :

يقول شُعَيب عليه السلام : وإن وُجِدَ منكم جماعةٌ صدَّقوا بالذى أُرسلت به من الشرائع والأَحكام ، وجماعة أُخرى استمروا على التكذيب ، فلم يصدقوا بذلك .

(فَاصْبِرُوا) :

الخطاب للمؤمنين بشُعيب - عليه السلام - ، حثًّا لهم على الصبر ، واحتمال ما ينزل بهم من إيذاء الكفار لهم .

(حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا) :

أى واصبروا إلى أن يقضى الله بيننا وبينهم ، وهو - ولاشك - ناصر المؤمنين ، ومنتقم من الكافرين . . فهذا وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) أى : وهو - عزَّ وجلَّ - خير من يفصل بين الناس بالحق ، ويميز المحقَّ من المبطل . فهو الحكم العدل : لامُعَقِّب لحكمه ولا جَور فيه .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب السابع عشر

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٧٩

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

المفـردات :

(المَلأُ) : الرؤساءُ وَالوُجَهاءُ .

(قَرْيَتِنَا) :هى مدين (مِلَّتِنَا) :دِيننا (افْتَرَيْنَا) :الافتراء: أَقْبح الْكَذب .

(وَمَا يَكُونُ لَنَا) :أىْ وَمَا ينبغىْ وَمَا يَصِحُّ لَنَا (افْتَحْ) :احكم (الفَاتِحِين) :الحاكمين.

التفسير

٨٨ـ ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ :

بعد أن سمع قوم شعيب مواعظه ودعوته إياهم إلىالتوحيد واتباع الحق قال الرؤساء من قومه غير مكتفين بتكذيبه وعصيانه ـ قالوا ـ استعلاء عليه واستكبارًا وتطاولًا : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا » .

أَى والله لنخرجنك يَا شُعَيْبُ وَالَّذينَ آمنوا معك من قريتنا ـ مدين ـ قهرا ، استصغارًا لشأْنكم واستهانة بدينكم كى نستريح من مواظبتك على دعوتنا لاتباعك ، وعقابا لكم على ترك ملتنا ، إلا أن تعودوا إليها فنصفح عنكم ونبقيكم فى وطنكم .

« قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ » .

أى قال شعيب جوابًا لقولهم – أو لتعودن – أنعود فى ملتكم حتى فى حال كرهنا لها لن يكون منا ذلك مطلقا فى أى حال بعد أن نجَّانا الله من ظلمة الكفر والضلال ومنّ علينا بنعمة الإيمان .

وتوسيطهم النداء بقولهم (يا شعيبُ) بين تهديدهم له ولمن آمن معه بالإخراج . لزيادة تهديدهم الناشىء عن غاية طغيانهم واستكبارهم .

٨٩ – (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا) :

أى نكون قد اختلقنا على الله كذبًا عظيما بلغ غاية القبح والشناعة إن رجعنا إلى الشرك الذى أنتم عليه بعد أن خلصنا الله منه وهدانا إلى الإيمان إذ يكون الرجوع حينئذ اعترافًا منَّا بظهور أن ماكنا عليه من الإيمان والتوحيد باطل وكذب . وما أنتم عليه من الكفر والضلال حق وصدق – وهذا منتهى التناقض – ولا كذب أقبح وأشنع من هذا .

(وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا) : أى وما يصح وما يتصور منَّا الرجوع إلى الشرك فى حال من الأحوال إلَّا فى حال مشيئة الله – تعالى– خالقنا ومربينا ، وحاشا أن يشاء الله ذلك بعد إنقاذه – سبحانه – لنا من الوثنية والضلال وعنايته بإرشادنا وإبلاغنا إلى الكمال اللائق بنا فهو ربنا الرحيم بنا . الذى أبلغنا بتربيته لنا إلى ما نحن فيه من الكمال الدينى .

(وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا) : أى أحاط علم خالقنا الذى ربَّانا وأبلغنا إلى الكمال اللائق بنا . – أحاط علمه –بكل ما كان وما سيكون من الأشياء ، ومن جملة ذلك أحوال عباده ونياتهم فلا يعيدنا إلى الكفر بعد أن أنقذنا منه ما دمنا معتصمين بحبله المتين ودينه القويم (عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا) :أى على الله وحده توكلنا وفوضنا إليه أمر تخليصنا من الأشرار وتثبيتنا على الإيمان .

وبعد أن ظهر لشعيب ما عليه قومه من العتو والطغيان ، وأنه لا أمل فى إيمانهم ، أعرض عنهم ونادى ربه طالبا أن يفصل بينه وبينهم بالحق. فقال :

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ) : أى يا ربنا اقض بيننا وبينهم بالقضاء الحق حتى يتميز الخبيث من الطيب وأنت خير الحاكمين – والتعبير بقوله « افتح » : لأن القضاء بالحق يفتح الأمر المغلق .

(وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾) .

المفردات :

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة .

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب أذلاء .

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) : أى كأن لم يقيموا فى مدينتهم. والمراد : أنهم استئصلوا بالمرة يقال غَنِيَ بالمكان يَغْنَى أقام به – والمَغْنَى – المنزل .

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ) : أعرض عنهم وبعُدَ .

(آسَىٰ) : أحزن .

التفسير

بعد أن بيَّن القرآن الكريم إصرار شعيب ومن آمن معه على دين الله وعدم عودتهم إلى ملة قومهم انتقل إلى بيان ما قالوه تخويفًا لأتباعهم من اتِّباع رسالة شعيب . فقال تعالى :

٩٠ - (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُم شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ) : أى وقال الرؤساءُ المستكبرون الذين أصروا على الكفر من قوم شعيب - عليه السلام - بعدما أيقنوا بصلابته ومن آمن معه فى الإيمان وإصرارهم عليه ، وخافوا إقبال الناس على دعوته . اتجهوا إلى تخويف عامة الناس من قبول دعوته بقولهم : (لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ) : أى لئن أطعتم شعيبا فدخلتم فى دينه وتركتم ملة آبائكم إنكم حينئذ لخاسرون دينكم الذى أنتم عليه ، وخاسرون دنياكم بفقدان مزاياكم التى تتمتعون بها بيننا من المسالمة والتبادل التجارى ، والرضا عنكم ، والإخلاص لكم ، وفقدان المكاسب التى تحصلون عليها بالبخس وتطفيف الكيل والميزان وغير ذلك .

وبعد أن حكى القرآن الكريم تكذيب أهل مدين أخاهم شعيبا وأنهم رفضوا دعوته عتوًّا واستكبارًا وحث رؤساؤهم أتباعَهم على عدم اتباعه . شرع يبين كيفية إهلاك هؤلاء الطغاة المتجبرين فقال تعالى :

٩١ - (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى فأهلكتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا باركين على ركبهم هالكين هلاك الذلة والصغار فى أماكنهم لا ينتقلون منها .

وقد جاء فى سورة هود أن قوم شعيب أُهلكوا بالصيحة كما قال - تعالى - : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ » وفى الشعراء أنهم أُهلكوا بعذاب يوم الظلة « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ » ويوجَّه هذا الاختلاف فيما أهلكوا به بأن شعيبا أُرسل إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة ، فأما أصحاب الأيكة فقد أُهلكوا بعذاب يوم الظلة . كما سيأتى بيانه فى سورة الشعراء . وأما أهل مدين فقد أُهلكوا بعذابين ، أحدهما سبب والآخر مسبب ، فأما السبب فهو الصيحة ، والمراد بها صيحة جبريل عليه السلام بهم ، وأما المسبب فهو الزلزلة فقد أصابتهم من صيحته رجفة وزلزلة قضت عليهم فنسب هلاكهم تارة إلى السبب الأول وهو الصيحة ، وتارة إلى السبب الثانى وهو الرجفة التى ترتبت على الصيحة - فلا تعارض بين الآيات .

وزيادة فى إيضاح ما حل بهم من أهوال قال تعالى :

٩٢ - (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) :

أى : هؤلاء الذين كذبوا دعوة شعيب إلى توحيد الله والإصلاح وترك الفساد فى الأرض . (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) أى : كأنهم بعد إهلاكهم بالزلزلة الشديدة لم يقيموا أبدًا بديارهم حيث استؤصلوا بالرجفة . وكانوا وحدهم الخاسرين فى الدنيا بالهلاك الشديد وفى الآخرة بعذاب النار – خسروا وحدهم دون شعيب ومن آمن معه كما كانوا يظنون . اقرأ قولهم فيما سبق : (لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ) .

وبمقابلة هذه الآية بما قبلها يتبين أمران :

١ – أن استئصالهم بارتجاف الأرض حتى كأنهم لم يقيموا فيها كان فى مقابلة تهديدهم لشعيب بقولهم : « لنخرجنك يا شعيب » .

٢ – أن ما جاء فى هذه الآية من خسران الكافرين من قوم شعيب وحدهم ، جاء فى مقابلة قول رؤسائهم لأتباعهم تحذيرًا من اتّباع شعيب : « لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذًا لخاسرون »

وبهذا ظهر أن جزاءهم كان من جنس ما كانوا يقولون . ولكنه يفوقه فى الشدة .

٩٣ – (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ) :

أى فأعرض شعيب وابتعد عن قومه حين رأى الهلاك الذى نزل بهم وقال معتذرًا عن عدم حزنه عليهم وأسفه على ما حل بهم ، ومتبرئًا من ظلمهم يا قوم والله : لقد اجتهدت فى إبلاغكم رسالات الله الذى خلقنى وربانى وبينت لكم ما فيها من سعادة دنياكم وأخراكم ، وبذلت وسعى فى توضيح طريقى الخير والشر فلم تستجيبوا لى – وكان الواجب أن تسمعوا قولى وتقبلوا نصحى . فحقت عليكم كلمة العذاب – بما قدمتم – فكيف أحزن على هلاك قوم بالغوا فى الكفر ، وأصروا عليه ، واستكبروا استكبارًا ، لن يكون ذلك منى .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾) .

المفردات :

(بالبَأْسَآءِ) : بالبؤس وشدة الفقر .

(والضَّرَّاء) : الضراءُ المرض .

(السَّيِّئَة) : هى كل ما يسوء .

(الحَسَنَة) : كل ما يستحسنه العقل والطبع .

(عَفَوْا) : أى كثروا عددًا ومالًا . يقال عفا النبات إذا كثر .

(مَسَّ آباءَنَا) : أى : أصاب آباءنا .

(بَغْتَةً) : فجأة .

التفسير

٩٤ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إلَّا أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بالبَأْسَاء وَالضَّرَّاء ..) الآية : بعد أن بين القرآن الكريم - فيما سبق - أحوال الأمم مع أنبيائهم وذكر ما حل بهم من الهلاك والدمار جزاء تكذيبهم . انتقل فى هذه الآية إلى بيان سنة الله - تعالى - فى إنذار المكذبين من الأمم قبل إهلاكهم :

والمعنى : وما أرسلنا فى قرية من القرى المهلكة أىَّ نبى من أنبيائنا يدعو أهلها إلى عبادة الله - تعالى - فكذبوه وآذوه . إلا أصبناهم قبل إهلاكهم بالشدة والضرر ،

كإصابتهم بالمرض ونقص الأموال والأنفس والثمرات - إنذارًا لهم- (لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) : أى ابتلاهم الله بذلك رجاء أن يلجأوا إليه - سبحانه - طالبين كشف البلاء ويتذللوا له ، ويخلعوا عن أنفسهم أردية العتو والاستكبار فيؤمنوا بالله ربهم ولا يشركوا به أحدا .

ويجب أن نلاحظ أمرين :

١ - أن إصابتهم بنحو الفقر والمرض لم تترتب على مجرد الإرسال. بل على تكذيب المرسلين ، بعد أن بذلوا غاية الجهد فى إبلاغ ما أرسلوا به.

٢ - أن تكذيب الأمم للرسل مستتبع لنزول البلاء بهم بسبب عتوهم واستكبارهم .

وكما أنذرالله المكذبين بالفقر والمرض تارة . كذلك ابتلاهم وامتحنهم بالسعة والصحة مكانهما تارة أخرى . يدل لذلك قوله تعالى :

٩٥ - (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا) :

أى : ثم أعطينا أولئك المكذبين المُصِرِّين على الكفر . مكان ماساءهم من البأساء والضراء ، أعطيناهم مكان ذلك السلامة والرخاء . كما قال تعالى : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعونَ» واستمر عطاؤنا لهم حتى كثرمالهم وزاد عددهم فأبطرتهم النعمة وأطغتهم الكثرة ولم يشكروها .

(وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ) : أى وقالوا جحودا للنعمة وكفرانا بالإحسان بعد البأساء والضراء ، وإعراضا عن العظة بنزول البلاء ورفعه بالنعماء : قد أصاب آباءنا من قبلنا البأساءُ والنعماءُ ولسنا بدعا منهم فما أصابنا على نمط ما أصابهم . وهذا شأن الدهرِ يداول السراء والضراء بين الناس فليس ذلك إنذارًا لنا .

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى : فأهلكناهم إثر ذلك أشد الإهلاك وأقطعه فجأة ، والحال أنهم لا يحسون أدنى إحساس بما سيلحقهم ، ودون أن يفكروا فى أن شيئاً من المكاره سيحيق بهم ، ليكون ذلك حسرة فى قلوبهم وعبرة لغيرهم ، كما قال تعالى : « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً

فإذا هُمْ مُبْلِسُونَ » فينبغى لكل عاقل أن لا يغتر بالنعماء ، وهو مقيم على معصية الله « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾) .

المفردات :

(لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ) : أى ليسرنا لهم الخير من كل جانب.

(بَيَاتًا) : أى وقت بياتهم .

(ضُحًى) : أى ضحوة النهار وهى أوله .

(مَكْرَ اللهِ) : المراد بمكره تعالى إهلاكه لهم من حيث لا يحتسبون .

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ) : أفلم يصنع الهداية لهم .

(يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا) : يخلفون من مضى قبلهم من الأمم المهلكة .

التفسير

٩٦-(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..) الآية :

بعد أنْ بيَّنَ القُرآنُ الكريمُ ، عاقبة المُكَذِّبين ، جَاءتْ هَذِه الآية وَمَا تَلاهَا لتنْعَى على المكذبين من أهل مكة ومن كان قبلهم وتوبخهم على إصرارهم على الكفر إذ كان سبباً فى إهلاكهم وحرمانهم من الخير .

أى : ولو أن كفار مكة والذين أهلكوا قبلهم بسبب تكذيبهم آمنوا بالله وبما أنزله من الشرائع على أنبيائهم ، واعتبروا بما أصابهم من الضراء والسراء قبل إهلاكهم ، وجعلوا بينهم وبين الكفر والمعاصى وقاية بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، ولم يصروا على ما فعلوا من القبائح (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : أى ليسَّرْنا لهم سبل الخيرات الكثيرة والأرزاق الوفيرة ووسعناها عليهم من كل باب فأنزلنا عليهم من السماء ماء مباركًا فأنبت الزرع وأدرَّ الضرع وأخرجنا لهم الكثير من كنوز الأرض وذللنا لهم ما على ظهرها من الدواب والأنعام « فَمِنْهَا رَكُوبُهم ومِنْهَا يَأْكُلُونَ » .

(وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) : أى ولكن كذبوا الرسل واستمروا على الكفر والقبائح ، ولم يؤمنوا ولم يعتبروا بما أصابهم فعاقبناهم جزاء ما قدمت أيديهم وَعِبْرَة لغَيْرهمْ ، وَمِن ذلكَ مَا أصَابَ قُرَيْشًا مِنَ الجَدب وَالْقَحْط بَعْدَ هِجْرَة النَّبِى -صَلى الله عليه وسلم- عنهم ، لإصرارهم على الكفر فلما آمنوا فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض وقد عبر الله تعالى عن إفاضة النعم والبركات على من يؤمن بالأنبياء بقوله :(فتحنا) للإيذان بأنها ميسرة وكثيرة كأنها تتدفق عليهم من أبواب مفتحة .

وفى سياق الحديث عن تقريع المكذبين من أهل القرى يقول الله تعالى :

٩٧-(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ) :أى أغفل أهل القُرَى عمَّا فى الإنْذَار بالبَأْسَاء والضرَّاء مِنَ العِبْرة وما يليه مِنَ الأَخْذ وَالإهْلاَك ، فأَمِنُوا أنْ ينزلَ عليهم عذابُنا وقت بياتهم فى منازلهم وهم غارقون فى النوم ؟

وأهل القرى كما تقدم - يعم كفار مكة ومن حولها ، والمكذبين للرسل من الأمم قبلهم ،فتكون غفلة كفار مكة عدم اعتبارهم بإنذار من قبلهم ثم إهلاكهم إنْ أصرُّوا ، وغفلة المكذبين من قبلهم عدم اعتبار كل أمة بإنذار من قبلها ثم إهلاكهم ، أو عدم اعتبار الأمة الواحدة بإنذار الله لها بالبأساء والضراء قبل إهلاكها كما جرت سنة الله فى إهلاك المكذبين .

ويقول الله تعالى فى سياق توبيخهم :

٩٨- (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) : أى أغفل أهل القرى عما فى إنذار المكذبين ثم إهلاكهم من عظة وعبرة وأمنوا أن ينزل عليهم عذابنا فى صدر النهار وقت الضحى عند انتشار ضوء الشمس إذا ارتفعت « وَهُمْ يَلْعَبُونَ » : أى وحالهم أنهم يلهون ويشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون لشدة غفلتهم.

وجاءت الآية بأسلوب التوبيخ كسابقتها للمبالغة فى التقريع والتشديد .

والمراد استنكار أن يأمن أهل القرى نزول العذاب عليهم ليلا أو فى أول النهار ، وتقريرًا للاستنكار السابق قال تعالى :

٩٩ - (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) : أى أجهلوا سنة الله فى خَلْقِهِ فأَمِنُوا استدْرَاجه إيَّاهُمْ بإغدَاق نِعَمِه عَلَيْهِمْ ، وأخْذه لَهُم فَجأَةً من حيث لايحتسبون ؟ إن هذا لمنكر وعجيب . لأنه لايأمن نزول الهلاك إلا الذين خسروا أنفسهم بالكفر . وأضاعوا فطرة اللهِ التى فطر الناس عليها بترك النظر والاعتبار .

وإشباعاً لاستنكار كفر المكذبين يعقب الله ماتقدم بقوله :

١٠٠ - (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَنْ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ) :

أى أولم يجلب الهداية للكافرين الذين يرثون الأرض من بعد إهلاك أهلها ، أن الشأن لدينا لو نشاء لأصبناهم بالعذاب بسبب ذنوبهم ، كما أصبنا مِنْ قبلهم الذين ورثوهم الأرض بعد هلاكهم بسبب ذنوبهم ، فشأننا فى الوارثين هو شأننا فى الموروثين إذا كانوا على سنتهم ، والمراد بالوارثين كل من كفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم - .

وكذّب دعوته (وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) : أى ونحن نحكم إغلاق قلوبهم دون الخير بسبب إساءتهم لأنفسهم باختيار الكفر والضلال فهم لا يسمعون إنذارا ولا يتدبرون إرشادًا ولا يعتبرون بهلاك السابقين .

(تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾) .

المفردات :

(بالبَيِّنَاتِ) : أى بالمعجزات الواضحة الدلالة .

(وَمَا وَجَدْنَا) : أى وما علمنا .

(مِن عَهْدٍ) : أى من وفاء بعهد . والمراد ماعهد الله إليهم من الإيمان والتقوى .

(وَإِن وَجَدْنَا) : إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، والتقدير : وإنه وجدنا أى وإن الشأن وجدنا .

(لَفَاسِقِينَ) : أى لخارجين عن الإيمان والطاعة .

التفسير

١٠١ - (تلْكَ الْقرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ منْ أَنبَآئهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) : أى تلك القرى المهلكة بسبب بلوغ أهلها غاية العتو والاستكبار . نذكر لك يا محمد من أخبارها وأخبار أهلها ما فيه تسلية وعبرة لمن أرسلك الله إليهم . وحسبكم فى الدلالة على صدقها ، مانقل

إليكم أباؤكم من أنبائها ، وما ترونه من آثار تدميرها ، وما تسمعونه من أهل الكتاب عنها « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

على حين أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أولى بالتصديق من أهل الذكر ، فهو المؤيد بالمعجزات الباهرات ، وهو الصادق الأمين .

(وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) : أى وتالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم التى خلت ، رسولُها الذى بعثه الله إليها بالمعجزة الخاصة به الواضحة الدلالة على صدق رسالته الموجبة للإيمان على ما قضت به حكمته ـ تعالى :

(فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ) : أى فما حدث لأمة من تلك الأمم الضالة الرجوع عمَّا هم عليه من كفر وضلال إلى هداية الرسل وإرشادهم ، بل استمرُّوا على التكذيب وعدم الإيمان طول حياتهم ولم تغنهم الآيات والنذر ، لكمال عتوهم وشدة طغيانهم ، فاستحقوا بذلك مانزل بهم من العذاب .

(كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) : أى مثل هذا الختم الذى أغلقَ الله به قلوب هؤلاء السابقين بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان يختم الله على قلوب جميع الكافرين ، ويجعل عليها سداً يغلقها . فلا يسمعون نصحاً ولا يبصرون حقاً ، ولا تلين قلوبهم . إذ تركوا الحق واتبعوا الباطل واختاروا طريق الفساد .

ثم أضاف القرآن إلى ماتقدم شيئاً من سوء سلوكهم فقال تعالى :

١٠٢ ـ (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) : أى وما علمنا لأكثر الأمم التى مضت من عهد[1] ـ أى رعاية لحرمة ـ وإن الشأن معهم أنا وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن القيم الخلقية والدينية ، وما آمن وأصلح منهم إلا قليل .

(١) من جملة معانى العهد رعاية الحرمة ، وهذا المعنى هو المناسب لقوله تعالى فى ختام الآية : (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) راجع المادة فى القاموس .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾).

المفردات :

(مَلَئِهِ) : الملأ رؤساء القوم .

التفسير

١٠٣ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا ...) الآية :

أى : ثم أرسلنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب الذين تقدمت أخبارهم أرسلنا بعدهم - موسى - بآياتنا . أى : بمعجزاتنا التسع الدالة على صدق رسالته ، وهى العصا تنقلب حية واليد تخرج من جيبه بيضاء ، والسنون المجدبة ونقص الأنفس والثمرات ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وطمس الأموال[1] .

(إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) : أى إلى ملك مصر ورؤساء قومه ووجهائهم .

وخصوا بالذكر مع أن رسالته لفرعون وقومه أجمعين . لأنهم يقومون بتدبير الأمور ، وغيرهم تبع لهم .

(فَظَلَمُوا بِهَا) : أى فكفروا بهذه الآيات وكانوا بهذا الكفر ظالمين ، لأنها واضحة الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام ، ولم يؤمنوا بها .

أو المعنى : فظلموا أنفسهم إذ عرضوها للهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بسبب تكذيبهم بهذه الآيات ، وظلموا غيرهم بمنعهم من الدخول فى دين الله .

---

(١) هذه الآيات ستذكر فى هذه السورة ، عدا طمس الأموال ، فهو مذكور فى سورة يونس فى قوله تعالى : « ربنا اطمس على أموالهم » .

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) : أى فتأمل بفكرك مآل هؤلاء الذين أفسدوا فى الأرض بالشرك وقتل الأنفس البريئة وتعذيب الضعفاء وسلب الأموال ، لاشك فى أن مآلهم لاتحيط العقول بأهواله وشدته . فقد أغرقهم الله جميعًا بمرأى من موسى ومن معه وتلك عاقبة الظالمين .

(وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾) .

المفردات :

(جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ) : جئتكم بآيات واضحة الدلالة على نبوتى .

التفسير

١٠٤ ـ (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما أجمل القرآن آيات موسى عليه السلام فى قوله سابقاً :(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَآ) شرع يفصل تلك الآيات فى هذه الآية .

والمعنى : قال موسى مخاطباً فرعون : ـيافرعونـ إنى رسول من عند رب العالمين خالق كل شىء ومربيه ومتعهده ، أرسلنى لأبلغك الحق الذى جئت به .

١٠٥ ـ (حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ) : أى إنى رسول من رب العالمين محقق الرسالة ثابتها ، ورسالتى قائمة على أن لا أقول على الله إلا الحق ، أوحقيق بمعنى حريص أى : حريص على أن لا أقول على الله غير الحق والصدق، فلا إهمال ولا تفريط .

أو المعنى : جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق فتكون (على) فى قوله تعالى : (عَلَىٰٓ أَن لَّا أَقُولَ) ... إلخ . بمعنى الباء إذ أن كلا منهما يأتى مكان الآخر .

(قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) : أى قد جئتكم بآيات بينة واضحة الدلالة على صدق رسالتى من عند خالقكم ومربيكم الرحيم بكم فكانت صادقة لذلك .

(فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) : أى فخل يافرعون أمر بنى إسرائيل وأطلق سراحهم ولا تعترض طريقهم وأخرجهم من دائرة قهرك واتركهم أحرارًا يعبدون الله وحده ولا تعذبهم .

(قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾) .

المفردات :

(ثُعْبَانٌ) : هو الذكر من الحيات .

(مُّبِينٌ) : بَيِّنٌ ظاهر لا يشك أحد فى أنه ثعبان .

(وَنَزَعَ يَدَهُ) : أى وأخرج يده من جيبه .

(بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) أى : بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة يجتمع الناس عليه لينظروه تعجباً من شدته .

التفسير

١٠٦ - (قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) : أى قال فرعون لموسى حين قال له ما قال : إن كنت ياموسى جئت بمعجزة واضحة الدلالة من عند إلٰهك الذى أرسلك كما تدعى (فَأْتِ بِهَا) : أى فأحضرها وأظهرها لنا ، إن كنت فى دعواك الرسالة من جملة الصادقين وفى عدادهم .

١٠٧ - (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) : أى فألقى موسى عصاه على الأرض فور طلب فرعون ففاجأتهم بكونها ثعباناً عظيم الجثة مفزعاً لايشك أحد فى أنه ثعبان يسعى ويتحرك حقيقة لامتخيلا كما فى سحرهم ، وذلك لظهور أمره ووضوح شأنه . وتلك هى الآية الأولى المؤيدة لصدقه ، ثم بيّن القرآن الكريم الآية الثانية بقوله :

١٠٨ - (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) : أى وأخرج موسى يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه أمامهم على لونها الأصلى فإذا هى بعد إخراجها منه قد تغيرت على الفور من لونها الأسمر إلى لون أبيض خارج عن العادة ، جعل الناس ينظرون إليها وتتعجبون من أمرها .

(قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾) .

المفردات :

(لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) : لساحر ماهر عظيم العلم فى سحره يأتى بأفعال عجيبة .

(أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) : أى أرجئهما وأخرهما لننظر فى أمرهما .

(الْمَدَائِنِ) : أى المدن حيث يوجد السحرة .

(حَاشِرِينَ) : جامعين .

التفسير

١٠٩ - (قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) : أى قال الرؤساء أصحاب الرأى من قوم فرعون حينما جاءهم موسى بالآية التى طلبها فرعون - قالوا - فزعًا وخوفًا ومجاراة لفرعون : إن هذا الذى يدعى أنه رسول رب العالمين لساحر ماهر فى سحره بلغ الغاية فى إتقانه .

١١٠ ـ (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ): صَدْرُ هذه الآية من جملة حديث الملأ لفرعون ، أى وقالوا له أيضًا : يريد موسى الساحر الماهر أن يخرجكم من أرضكم – مصر – بسحره العظيم ، لينتزع ملكها من أيديكم ، ويرثها من بعدكم (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ):أى قال فرعون بعد أن سمع مقالة أصحاب الرأى من قومه فبأى أمر تأمرون وبأى رأى تشيرون فى شأن موسى ؟

١١١ ـ (قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) :أى قال أصحاب الرأى ـ إبداء للمشورة التى طلبها فرعون منهم أخر القضاء فى أمرهما حتى يتضح للناس أنهما ساحران حين نظهر عليه بسحرنا ، وأشاروا عليه بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

(وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ) :أى وابعث فى مدائن مصر وقراها رجالا يجمعون السحرة من حيث يوجدون ويحضرونهم إليك كما قال تعالى :

١١٢ ـ (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) :

أى : يجيئوك بكل ساحر ماهر بلغ الغاية فى إتقانه علم السحر .

(وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾) .

التفسير

١١٣ ـ (وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) : تحكى هذه الآية أن فرعون عمل بمشورة ملئه ، فاستدعى السحرة من المدائن ، فجاءوه وقالوا له : (إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) : أى هل يكون لنا أجرٌ مؤكد ، إن تحققت لنا الغلبة بسحرنا على موسى يريدون بسؤالهم هذا أن يتحققوا من أن لهم أجرًا على سحرهم إن غلبوا ، حتى يبذلوا الجهد الموصل إلى تلك الغاية بزعمهم ، والاستفهام فى الآية ملاحظ ، وقرىء

(أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا) : بإظهار همزة الاستفهام ، وقد أجابهم فرعون على استفهامهم هذا بما يطمئنهم على أن لهم أجرًا مؤكدًا ، وذلك فيما حكاه الله بقوله :

١١٤ ـ (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) : أى قال فرعون استجابة لهم : نعم لكم ماطلبتموه من الأجر ، وإن لكم عندى زيادة على ذلك المكان القريب والمنزلة الرفيعة ، فلا أقف فى تكريمكم عند إعظام أجركم وإغداق المال عليكم .

وإنما أعلمهم بالأجر والزلفى عنده قبل أن يباشروا سحرهم ، تحريضًا لهم على بذل الوسع فى عمل السحر عند التقائهم بموسى ـ عليه السلام ـ

(قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾) .

المفردات :

(واسْتَرْهَبُوهُمْ) : بالغوا فى إرهابهم وتخويفهم .

التفسير

١١٥ ـ (قَالُوا يَامُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) : أى قال السحرة عند مواجهتهم لموسى فى ساحة التحدى : ياموسى إما أن تلقى عصاك التى تنقلب حية قبلنا ، وإما أن نكون نحن الذين نلقى حبالنا التى تنقلب أفاعى قبل إلقائك ، وكان هذا التخيير فى البدء، ناشئًا عن ثقتهم بالغلبة ، سواء أتأخروا عنه أم تقدموا عليه فكأنهم قالوا : إن أمرك لا يهمنا فالغلبة لنا عليك سواء أبدأت أم كنا نحن البادئين .

١١٦ ـ (قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) : أى : قال لهم موسى عليه السلام ـ استهانة بشأنهم ووثوقًا بتأييد الله ـ تعالى ـ له

(أَلْقُوا) : أى ابدأوا بإلقاء ما تريدون إلقاءه فسترون ما يحل بكم من افتضاح أمركم وظهور كذبكم وتمويهكم .

(فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) : أى فلما ألقى السحرة ماعندهم من حبال وعصى صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة هذه الأشياء لكثرة ما أتوا من أمور عجيبة وتمويهات كثيرة أثرت على الناس تأثيرًا نفسيا بالغًا فخفيت عليهم الحقائق حتى خيل لهم مالا حقيقة له كأنه حقيقة ، وأرهبوهم بذلك إرهابًا شديدًا وملأوا قلوبهم رعباً وخوفًا. (وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ) أى : وأتوا فى باب السحر بأنواع كثيرة وأعمال عجيبة خيل للناظرين أنها حقائق ثابتة ، وليست كذلك فكان سحرهم عظيماً عندهم لا فى واقع الأمر.

(* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾) .

المفردات :

(تَلْقَفُ) : أى تأخذ وتبتلع بسرعة .

(مَايَأْفِكُونَ) :مايكذبون ويموهون الحقائق بقلبها ـ والإفك فى الأصل قلب الشىء عن وجهه ومنه قيل للكذاب أفاك لأنه يقلب الكلام عن وجهه الحق إلى الباطل.

(فَوَقَعَ الْحَقُّ) : ثبت وظهر .

(وَبَطَلَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : ظهر بطلان السحر الذى كانوا يعملونه .

(وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ) : وعادوا من مبارزة موسى مستسلمين وصاروا أذلاء .

التفسير

١١٧ - (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) :

أى : وبعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وجاءُوا بأنواع كثيرة من السحر البارع الذى سحروا به أعين الناس ، وخيل ، لهم ما خيل ، وأرهبوهم إرهاباً شديدا.

بعد ذلك أمر الله - تعالى - موسى - عليه السلام - بطريق الوحى تقوية لعزمه ، وتسكينًا لروحه وإذهابا للخوف عنه - أمره - أن يلقى عصاه فألقاها.

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) : أى فإذا هى حية عظيمة . تلتقم وتبتلع فى سرعة فائقة عجيبة ومخيفة ماقلبوه واختلقوه من السحر .

١١٨ - (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى فثبت وظهربهذا أن آيات الله لا تقف دونها الأباطيل . وأن موسى رسول رب العالمين ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، بعثه الله إلى فرعون بالحق المبين ، وبطل بهذا التأييد من الله ما كان يعمله الساحرون .

١١٩ - (فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ) : أى فانهزم هؤلاء السحرة أمام صدق موسى - عليه السلام - ومعجزته الواضحة التى جاء بها فى المكان الذى وقع فيه سحرهم بحضرة تلك الحشود الكثيرة التى جمعها فرعون لشهود ما يجرى بين موسى - عليه السلام - وعلماء السحر يوم الزينة وقت الضحى ، ورجع أولئك السحرة صاغرين أذلاء لهزيمتهم ، بعد ما كانوا يزعمون أنهم هم الغالبون .

١٢٠ - (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) : أى فخر السحرة وقوعاً على وجوههم بقوة - كأنما ألقوا من علو ساجدين لله رهبة وخشوعًا ، مؤمنين برب موسى مصدقين برسالته حينما وضح الحق لهم ، كما قال تعالى - حكاية عنهم .

١٢١ ، ١٢٢ - (قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) :

: أى وبعد أن تيقنوا أن ماشاهدوه من أن أمر عصا موسى لا يمكن أن يجىء من السحر. قالوا آمنا وصدقنا برب جميع المخلوقات ومبدع الكائنات وهو رب موسى وهارون الذى بعثهما إلى فرعون وملئه بالقول اللين والحجة الواضحة وجاء تصديقهم غير مقتصر على ذكر وصفه تعالى بأنه رب العالمين ـ بل ذكروا أيضًا فيه ـ رب موسى وهارون دفعًا لتوهم أنهم أرادوا ـ فرعون ـ إذ حكى القرآن عنه قوله لقومه : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ »[1]

كما لم يكتفوا بذكر (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) خَشية أن يتوهم معاند : أن لموسى وهارون ربًّا سوى رب العالمين .

(قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾) .

التفسير

١٢٣ ـ (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) :

أى : قال فرعون حينما آمن السحرة بموسى وصدقوا برسالته ـ قال ـ موبخا لهم ومهددًا ، أقدمتم أيها السحرة على التصديق بموسى والإيمان بالإله الذى دعاكم إلى عبادته وتوحيده ـ أقدمتم على ذلك بغير إباحة منى وبدون رضاى فلسوف ترون ما أنزله بكم من العقاب الذى لاطاقة لكم به .

وكلام فرعون للسحرة يحتمل الإخبار ويحتمل الاستفهام التوبيخى على جرأتهم على الإيمان به قبل أن يأذن لهم ، تمهيدًا لوعيده الآتى لهم ، وعلى الاستفهام تقدر الهمزة قبل آمنتم ، وحذف حرف الاستفهام معهود فى لغة العرب.

(١) سورة النازعات من الآية : ٢٤

(إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا) :

أى إن إيمانكم بموسى لم يقع منكم لوضوح حجته وصدق معجزته بل هو حيلة احتلتم بها وخديعة اتخذتموها بالاتفاق مع موسى فى مدينة مصر لتخرجوا منها سكانها الأصليين - القبط - فيزول ملكهم وتدول دولهم ويستقر لكم الأمر من بعدهم.

وقد قصد الطاغية بهذا الأسلوب : أن يلقى فى أسماع عامة القبط بشبهتين :

الأولى : أن إيمان السحرة كان بناءً على اتفاق سابق وتواطؤ مع موسى .

الثانية : أن ذلك كان لإخراج أهل مصر من ديارهم ، وقصده تثبيت أهل مصر على ما هم عليه من عبادته والخضوع له وإذكاء نار عداوتهم لموسى وحقدهم عليه إذ ليس أشق على النفوس من مفارقة الأديان ، وترك الأوطان .

وبعد أن ألقى بهاتين الشبهتين توعد السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام فقال :

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى فسوف تعلمون الأهوال التى سأنزلها بكم جزاء إيمانكم بموسى وتواطئكم معه .

وقد عقَّب وعيده المجمل بتفصيله كما حكاه الله تعالى بقوله :

١٢٤ - (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ): أى لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس .

(ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) : أى ثم بعد تقطيع أيديكم وأرجلكم على الوجه المتقدم لأربطنكم بالحبال على جذوع النخل ، كما قال تعالى : « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وأَبْقَى »(١) .

وغرض هذا الأثيم من صلب السحرة بعد تقطيع أطرافهم زيادة التنكيل بهم ، وأن يكونوا عبرة لغيرهم .

---

(١) سورة طه الآية : ٧١

(قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾) .

المفـردات :

(مُنقَلِبُونَ) : راجعون .

(أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) : أَفِضْهُ علينا وعُمَّنا به .

التفسير

١٢٥ - (قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) :

أى : إننا إلى نعيم ربنا الدائم وثوابه الجزيل ورحمته الواسعة لصائرون إذا نفذت فينا وعيدك . فعجل كى تتحقق أحب الأَمانى إلى قلوبنا ألا وهى الفوز بلقاء ربنا . وهذا أسمى ما ترقى إليه درجات الإيمان والثبات على الحق .

أو المعنى : إننا جميعًا إلى جزاء ربنا لراجعون بالموت لا محالة بأَى سبب سواء أكان بطريقتك أم بغيرها ، فلن يزيدنا هذا التهديد إلا إيمانًا .

أو المراد : إننا جميعًا نحن وأَنت إلى حساب ربنا لراجعون بالموت فمصيرنا ومصيرك إليه تعالى . فيحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين .

١٢٦ - (وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِـآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا) : أى وما تنكر منا وما تعيب علينا أمرا من الأُمور وفعلا من الأَفعال سوى إيماننا بربنا - وهو الحق - وتصديقنا بآياته البينات حينما جاءتنا واضحة هادية إلى الخير على يد موسى - عليه السلام - فصدقنا بها وآمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

والإيمان بالله خير الأَعمال وأَساس كل سعادة ، وأَصل المفاخر ، فلا نَعدِلُ عنه أبدًا ، طلبًا لمرضاتك يافرعونِ ورغبة فى رحمتك ، أو خوفًا من عقابك .

وتقريرًا لما فى قلوبهم من قوة الثبات على ما قالوه رغبوا عن خطاب فرعون ولجأوا إلى الله يطلبون منه صبرًا جميلًا ، وثباتًا على الإسلام إذ قالوا :

(رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) :

أى : يا ربنا أفِض علينا صبرًا عظيمًا صادقًا يغمرنا كما يغمر الماء الذى يصب بغزارة ما ينزل عليه - صبرًا - يكون عونًا لنا على تحمل الشدائد عند تنفيذ وعيد فرعون كى لا نعود بعد الإيمان كفارًا ، وأمِتْنا ثابتين على الإسلام غير مفتونين بوعيد فرعون .

(وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾) .

المفردات :

(أَتَذَرُ مُوسَىٰ) : أى أتترك موسى .

(وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ) : ونستبقى نساءهم أحياء .

التفسير

١٢٧ - (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) :

أى وقال أصحاب الرأى من قوم فرعون حين شاهدوا صدق موسى وغلبته وإيمان السحرة به وظهور أمره . قالوا يحرضون فرعون على إيذاء موسى ويشيرون عليه بمطاردته . والتخلص منه ومن أتباعه : أتترك موسى وقومه أحرارًا آمنين يعيشون فى أرض مصر فسادًا يصرفون الناس عن اتباعك ويحولونهم عن عبادتك . ويترك هو تعظيمك وتعظيم آلهتك التى شرعت لهم عبادتها ، وجعلت نفسك الإله الأكبر لهم . كما حكاه القرآن عنه فى قوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ »[1] إن هذا لاينبغى أن يكون كما زعموا .

(١) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

وأضيفت الآلهة إلى فرعون لأنه الآمر بعبادتها لتقربهم إليه .

ويجوز أن تكون له آلهة كان يعبدها مثل الشمس والكواكب ، فأضيفت إليه آلهته ، إضافة المعبود للعابد ، وأما قوله تعالى حكاية عنه : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »وقوله : «مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي» فيحملان على أنه كان يؤله نفسه زاعمًا أنه يمثل الآلهة السماوية ، وأنه بذلك يكون إلههم الأعلى من البشر ، وأنه لا يعلم لهم إلٰها يستحق أن يعبد سواه ، لأنه يمثل الآلهة ، ومثل هذا الاعتقاد موجود فى اليابان ، حيث يزعم الإمبراطور أنه يمثل الآلهة ، ولذلك يعبده قومه الذين هم على مذهبه ، وبعد أن استعدى الملأُ فرعون على موسى وقومه بنى إسرائيل أجابهم بقوله :

(سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ) :

أى : قال فرعون للملأ من قومه تهديدًا لقوم موسى سنعيد سيرتنا الأُولى معهم فنفعل بهم ماكنا نفعله من قبل فنقتل الذكور عند ولادتهم ونستبقى النساء أحياء ليزدادوا بهن ضعفا ، وليعلم موسى ومن معه أننا مازلنا الأقوياء الغالبين . وأنهم مازالوا الأذلاء المقهورين كما قال تعالى : (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) : أى وإننا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان لم يتغير لنا حال ولم يتبدل لنا نظام .

(قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾) .

التفسير

١٢٨ - (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا) :

لما سمع أتباع موسى عليه السلام ، وعيد فرعون وتهديده الذى مر بيانه . ملأ الخوف والفزع قلوبهم فدعاهم إلى الاستعانة بالله وأمرهم بالصبر ووعدهم النصر كما حكاه القرآن الكريم فى هذه الآية .

والمعنى : قال موسى - عليه السلام - للمؤمنين به تثبيتًا لقلوبهم وتسلية لهم اطلبوا العون من الله فإنه وحده القادر على إهلاك أعدائكم الطغاة الظالمين ، واثبتوا على الإيمان والطاعة واصبروا على أذى فرعون وقومه ولا تجزعوا .

(إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِن عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

أى : اصبروا ولا تجزعوا لأن الأرض ملك خالص لله وحده وفى قبضته . يمنح الحكم فيها من يشاء من عباده . فلا تجزعوا لوعيده . فسوف ينجيكم الله بنزع الملك منه . وتوريث الأرض لمن يشاء توريثه إياها من عباده . والعاقبة الحميدة لمن يتقى الله . وستكون لكم هذه العاقبة بالنجاة . وسيأتى الحديث عن عاقبتهم .

وفى حزن عميق ومسكنة شديدة رد بنو إسرائيل على موسى فيما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى :

١٢٩ - (قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) :

أى قال بنو إسرائيل لموسى - عليه السلام - أوذينا من فرعون وقومه من قبل أن تأتينا برسالتك - أوذينا - بقتل أبنائنا وبسائر أنواع العذاب والاضطهاد ، وأوذينا من بعد ما جئتنا رسولا بكل ألوان الظلم والجور والاستعباد مع توعده لنا بمزيد من قتل الأبناء واستبقاء النساء أحياء مبالغة فى إذلالنا ، ونكاية فيك يا موسى .

(قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ) :

أى قال موسى -عليه السلام- لبنى اسرائيل تسلية لهم وتطييبًا لقلوبهم . وبعثًا للأمل فى نفوسهم : عسى ربكم أن يدمر عدوكم الذى أذاقكم العذاب ألوانا بالقتل والعسف

والجور ، ويجعلكم خلفاء فى أرض مصر ولعل هذا الوعد الكريم يشير إلى حكمهم لمصر فى عهد يوسف عليه السلام [١] .

(فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

أى فيرى ربكم كيف تعملون فى عبادته ومعاملة خلقه حين تحكمون مصر ، أتتبعون سبيل الرشاد فتنجوا وتسعدوا ؟ أم تسلكون سبيل الغى والفساد فتؤاخذوا .

ثم بدأ الله تعالى يحدثنا عن النذر التى سبقت عقابه لفرعون وآله بالإغراق فى اليم وهو مُليم فقال :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾) .

المفردات :

(بِالسِّنِينَ) : السنون جمع سنة والمراد بها هنا القحط والجدب . يقال أصابتهم سنة أى جَدْبٌ .

(الْحَسَنَةُ) : كل خير والأقرب هنا السعة والخصب .

(سَيِّئَةٌ) : السيئة كل ما يسوء والأقرب هنا الجدب والقحط

(يَطَّيَّرُوا) : يتشاءموا .

(طَائِرُكُمْ) : يطلق الطائر على الحظ والنصيب والعمل والرزق .

---

(١) أو لعله يشير إلى حكمهم سابقا فى أرض فلسطين ، فقد كانوا فيها خلفاء لمن قبلهم ، فيكونون قد وعدوا بإهلاك عدوهم ، وبإبدالهم من بعد العبودية فى مصر ، ولاية الحكم فى فلسطين ، وصدق هذا الوعد أو ذاك يتحقق ولو بمرة ، وقد أزال الله دولتهم لبغيهم ، وقطعهم فى الأرض أمما ، فخسروا استحقاقهم الوعد بميراثهم الأرض .
واحتمال ميراثهم حكم فلسطين – مؤقتا – هو الأقرب إلى قوله تعالى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وسيأتى قريبا الكلام عليها .

التفسير

١٣٠ - (وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) : أى والله لقد أصبنا فرعون وقومه بالقحط الشديد والجدوب المتراكمة. وأنقصنا من ثمرات زروعهم وبساتينهم بتسليط الآفات والأمراض التى فتكت بأكثرها لعلهم يتعظون ويتدبرون فى أمرهم . فيعلموا أن ما نزل بهم إنما هو بسبب كفرهم وطغيانهم فيرجعوا عما هم عليه من العتو والفساد ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار ، فإن الشدة ترقق القلوب ، وترغّب فيما عند الله - تعالى - وتفتح أبواب الضراعة إليه . كما قال تعالى : « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ »(١) ولكنهم لم يتعظوا وظلوا فى طغيانهم يعمهون .

١٣١ - (فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ) :

أى : فإذا جاءت هؤلاء المكذبين بموسى السعة وأثمرت أراضيهم وتوالت عليهم الخيرات قالوا هذا حق لنا قد جاء لأجلنا ، أصابنا عن استحقاق له وجدارة به . ينكرون بذلك إنعام الله عليهم وإحسانه إليهم .

(وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ) :

أى : وإن تنزل بهم الخطوب والأمراض . ويحل بهم الجدب والقحط يتشاءموا بموسى ومن معه . وينسبوا ذلك إليهم . ويقولوا ما حلت بنا الكوارث . وما أصابتنا النوازل إلا بشؤم موسى ومن معه . وذلك لقسوة قلوبهم وتركهم التدبر فى الآيات والنذر .

(أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ) : أى ألا إن ما قدر لهم من الخير والسعة . وما أصابهم من السوء والبلاء ، إنما هو من عند الله وبتقديره . وليس شرهم بسبب موسى وقومه . ولا خيرهم باستحقاقهم . وكل من الشر والخير ابتلاء من الله تعالى لعباده . « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

(ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :أى ولكن أكثر هؤلاء الطغاة الجبارين جهلاء لا يعلمون أن ماحل بهم من الشدائد والنوازل ما هو إلا بلاء من عند الله وحده بسبب ذنوبهم واستعلائهم فى الأرض بغير الحق ليزدجروا ، لا بسبب موسى ومن معه . وما أصابهم من الخير ما هو إلا فتنة لعلهم يتذكرون ربهم فيشكرون .

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٥١

وقد صدرت جملة - ألا إنما طائرهم - بألا التى للتنبيه لإظهار كمال عناية القرآن الكريم بردّ قولهم الباطل وزعمهم الفاسد .

وأصل التطيُّر من الطِّيَرَة ، وقد كانوا إذا أرادوا سفرًا أو فعل أى شىء أثاروا الطير . فإن اتجه يمينًا تفاءلوا وأقدموا على ما أرادوا سفرًا كان أم غيره . وإن اتجه شمالًا تشاءموا وقعدوا . ثم كثر استعماله فى معنى التشاؤم .

وقد كانت العرب تتيامن بالسانح - وهو الذى يأْتى من جهة اليمين - وتتشاءم بالبارح - وهو الذى يأْتى من جهة الشمال - وكانوا يتطيرون ويتفاءلون بغير ذلك فسموا توقع الشر مّما يزعمون تطيرًا ، وسموا توقع الخير مما يزعمون تفاؤلًا . مع أن كلًا من عند الله . وليس للطير وغيره دخل فى قدر الله تعالى .

(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾) .

التفسير

١٣٢ (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِين) :

أى وقال فرعون وآله بعدما رأوا من أمر العصا والسنين ونقص الثمرات وعاينوا ما عاينوا ولم يعتبروا - قالوا بعد ذلك - أىُّ آية تأْتينا بها يا موسى وإن عظمت وكثرت لتسحر أعيننَا بها وتموه علينا وتصرفنا عن ديننا فلسنا لك بمصدقين ولا برسالتك مؤمنين .

(وَمَهْمَا) : اسم شرط ، (تَأْتِنَا) : فعل الشرط ، و(مِنْ آيَةٍ) : بيان وتفسير للضمير فى(بِهِ) وجواب الشرط (فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) - وسموا ما يأْتى به موسى آية - مجاراة لتسمية موسى مع قصد السخرية والاستهزاء .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾) .

التفسير

١٣٣ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ . .) الآية :

أى : فعاقبنا فرعون وقومه بأنواع أخرى من العقوبات لما أصروا على الكفر ولم يعتبروا بما رأوا من الآيات .

وتلك العقوبات - هى :

١ - إفاضة الماء الكثير وتسليطه عليهم حتى أحاط بهم وملأ بيوتهم وغطَّى أرضهم وزرعهم ، فأتلف الزروع ومنع الناس من حرث الأرض والسير فى الطرق لقضاء حوائجهم وتدبير شئون حياتهم . وسلط عليهم :

٢ - الجراد الذى أكل الزرع والغرس والثمار ، وألحق بأبواب بيوتهم وسقوفها التلف والدمار ؛ وأرسل عليهم :

٣ - الْقُمَّلَ أيضًا فملأ ثيابهم وأجسامهم وشعورهم وعيونهم - وهو الْقَمْل المعروف - وكذلك أرسل عليهم :

٤ - الضفادع فملأت المنازل والمضاجع والأطعمة والأشربة حتى أقلقتهم وصاروا لايطيقون الحياة معها ، وأيضًا أصابهم :

٥ - الدم الذى اختلط بالماء فصاروا لا يستسيغون شربه ، أو ابتلاهم بالرعاف ،وكانت هذه الآيات مفصلات ، أى بيِّنات واضحات الدلالة على أنها عقوبات لهم على كفرهم وبغيهم لا يشتبه فى ذلك عاقل ، وقيل : إن تفصيلها هو تفريقها فى أزمان مختلفة ، لامتحان أحوالهم .

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) :

أى : فاستكبر هؤلاء الطغاة عن الإيمان بموجب آيات الله وصاروا باستكبارهم قوماً مبالغين فى الكفر والعدوان ومصرِّين عليهما .

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات :

(الرِّجْز) : العذاب .

(يَنْكُثُونَ) : ينقضون العهد بعد توكيده وأصل النكث فك الغزل ثم استعير لنقض العهد كما هنا .

التفسير

١٣٤ـ (ولَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا ربَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُوْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىَ إِسْرَائِيلَ) :

أى ولما نزل بفرعون وقومه العذاب الشديد لجأُوا إلى موسيٍ يطلبون منه أن يدعو لهم ، ويتوسلون إليه بالنبوة التى هىعهد الله عنده ، أو يطلبون منه الدعاء المستجاب الذى هو عهد الله عنده ، ووعدوه إن دعا لهم أن يؤمنوا به ، ويرسلوا معه بنى إسرائيل ، ليذهبوا معه حيث شاء .

ثم بيّن القرآن الكريم أنهم لم يوفُوا بعهدهم ولم يَبَرُّوا بقسمهم بعد أن كشف الله عنهم مانزل بهم من ضر ، كما قال تعالى :

١٣٥ ـ (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) :

أى فلما كشفنا عنهم مانزل بهم من العذاب ورفعنا عنهم الضرَّ ورحمناهم بذلك إجابة لدعاء موسى ـ عليه السلام ـ ونجيناهم إلى وقت محدودٍ هم واصلون إليه يعذبون بعده

بأنواع المصائب، ثم يهلكون إن لم يؤمنوا وفاء بعهدهم لموسى فلما كشفنا عنهم العذاب المذكور ، إذا هم يسارعون إلى نقض العهد الذى وثقوه على أنفسهم بالقسم حين قالوا لموسى :(لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ) - إذا هم ينقضون العهد - ويعودون إلى اللجاج فيما كانوا فيه من التكذيب والطغيان من غير تدبر ولا تفكير .

١٣٦ -(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) : أى فعاقبناهم بسبب نقض العهد وعودهم إلى تكذيب الآيات وارتكاب المعاصى والآثام ، وكان هذا الانتقام هو إغراقهم فى البحر بإطباقه عليهم حين أرادوا اللحاق بموسى وهو يعبره بقومه إلى سيناء بعد أن انشق له بضربة من عصاه ، ثم صرح القرآن بسبب إغراقهم فى قوله تعالى :

(بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) :

أى كان إغراق الله لهم فى البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله التى ساقها إليهم مفصلة ، آية بعد أخرى لعلهم يعقلون ، ولكنهم كانوا عنها غافلين ، فلم يتدبروا فيها ، ونقضوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم بالإيمان إن كشف الله العذاب عنهم ، وقد مرّ بيانه وهو عذاب الطوفان والجدب والجراد والقمّل والضفادع والدم ، وفى هذه القصة زجر للمكذبين بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - الجاحدين لآياته .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾) .

المفردات :

(وَتَمَّتْ) : تحققت ومضت .

(كَلِمَةُ رَبِّكَ) : وعد ربك بالنصر .

(الْحُسْنَى) : تأنيث الأحسن صفة للكلمة .

التفسير

١٣٧ - (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) :

أى وبعد أن أغرق الله فرعون وقومه فى البحر أورث بنى إسرائيل الذين ظل فرعون زمناً طويلا يطاردهم ويستذلهم ويستعبدهم ويذبح أبناءهم ، أورثهم الأرض التى عبروا البحر إليها مع موسى ومكّن لهم بالتصرف فى جوانبها الشرقية والغربية التى بارك الله فيها بالخصب وسعة الأرزاق - مكّن لهم ووسع عليهم - بعد أن أذاقهم فرعون الهوان ألوانًا ، وهذا لطف عظيم من الله بهم وإحسان جميل إليهم .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) : أى وتحقق وعد الله - تعالى - الخالق الرزاق لبنى إسرائيل بالنصر والتمكين فى الأرض . وهو ما جاء فى قوله تعالى : « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ »[1] . وذلك بسبب صبرهم على إيذاء فرعون لهم وتعذيبه إياهم تنفيذًا لما أوصاهم به موسى بقوله : « اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا » .

(وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) :

أى وأهلكنا ما كان يشيده فرعون وقومه من القصور والصروح والعمارات ، وما كانوا يهتمون بغرسه من البساتين والجنّات .

وتلك نهاية عادلة لطغيان فرعون واستعلائه فى الأرض بغير الحق وفيها إنذار لكل من يسير على دربه .

وفى الآية دعوة قوية إلى الصبر على البلاء . إذ كان صبرهم على الخطوب طريقًا إلى تفريج الكروب .

---

(١) سورة القصص الآية : ٥

(وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾) .

المفردات :

(وَجَاوَزْنَا) : وعبرنا وقطعنا بهم البحر .

(فَأَتَوا) : مَرُّوا ، (يَعْكُفُونَ) : يقيمون ويلازمون .

(متَبَّرٌ) : هالك (وَبَاطِلٌ) : ومضمحل زائل .

التفسير

١٣٨ ـ (وَجَاوَزْنَا بِبَنِيَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ..) الآية .

بعد أن بيّن القرآن هلاك فرعون بطغيانه ، وتحدث عن إنجاء الله بنى إسرائيل من ظلمه ، وإنعامه عليهم بنعم لم يعطها أمة قبلهم ـ كانت تستوجب الشكر والطاعة ـ شرع يبيّن ما أحدثوه من الأمور الشنيعة كعبادة البقر وطلبهم رؤية الله جهرة وغير ذلك .

وذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمَّا رآه من الكفار ويهود المدينة وإيقاظًا للمؤمنين حتى لاينسوا محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم .

والمعنى : وعبرنا ببنى إسرائيل البحر إلى شاطئه الشرقى ، وسلكناه بهم بعد أن انفلق وانشق بضربة من عصا موسى ـ عليه السلام ـ والمراد بالبحر هنا البحر الأحمر . والمراد به جزؤه المسمى الآن بخليج السويس . إذ العبور كان من الشاطىء الغربى . حيث تقع مصر إلى الشاطىء الشرقى حيث توجد سيناء .

(فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ) :

أى : فمر بنو إسرائيل على جماعة من الناس يقيمون ويواظبون على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم ويلتزمون بتعظيمها وتقديسها .

(قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) :

أى : قال بنو إسرائيل لموسى حين شاهدوا هؤلاء الذين مروا عليهم يواظبون على عبادة أصنام سموها آلهة : اصنع لنا إلها نختص به وننفرد بعبادته يكون مماثلا لتلك الآلهة التى اختص بها هؤلاء وانفردوا بعبادتها من دون الله .

(قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : أى قال موسى - عليه السلام - يرد عليهم متعجباً مماطلبوه بعد ما عاينوا الآية الكبرى والنعمة العظمى . نعمة نجاتهم وإغراق عدوهم، وكيف حدث ذلك بانشقاق البحر لهم وانطباقه على فرعون وقومه . قال موسى يرد عليهم : إنكم قوم تتصفون بالجهل التام بما يتعلق بالله الواحد القهار ، وتتسمون بالغباء الكامل إذ لم تدركوا عظم نعمة الله عليكم .

ولم يكتف القرآن بوصفهم بالجهل والسفه بل أكد ذلك ببيان مآل الباطل الذى عكف عليه هؤلاء فى قوله :

١٣٩ - (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : إن هؤلاء الذين عكفوا على عبادة الأصنام واستمروا على الغلو فى الضلال ، مدمر وهالك ما انغمسوا فيه من الشرك والفساد ، وذاهب كل باطل استمروا على عمله وحرصوا على فعله .

(قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾) .

المفـردات :

(أَبْغِيكُمْ) : أطلب لكم .

(الْعَالَمِينَ) : جمع عالَم وهو ما سِوَى الله . والمراد هنا عالمو زمانهم وعصرهم .

(يَسُومُونَكُمْ) : يلزمونكم إياه . يقال : سامه الأمرَ يسومه .

كلفه إياه وألزمه به ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب

(بَلَاءٌ) : اختبار .

التفسير

وبعد أن وصف القرآن الكريم بنى إسرائيل بالجهل فى طلبهم إلَهًا خاصاً بهم كما كان لغيرهم آلهة ، وبيّن لهم بطلان جميع أعمالهم ، أنكر عليهم طلبهم ووبخهم على مسلكهم بقوله :

١٤٠ - (قَال أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) :

أى قال لهم موسى - عليه السلام - إنكارًا عليهم ، وتوبيخاً لهم : أغير الله المستحق للعبادة وحده أطلب لكم معبودًا آخر من صنع البشر ، أو من مخلوقات الله فى السموات والأرض ، وقد خصكم بنعم عظيمة لم يعطها غيركم من أهل عصركم .

ثم زاد فى توبيخهم بتذكيرهم بإنقاذ الله لهم من عذاب فرعون حيث لم يشكروا نعمته فقال تعالى :

١٤١ - (وإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ العَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسآءكُمْ) :

أى واذكروا وقت أن أنقذناكم وخلصناكم من شر فرعون وقومه الذين أذاقوكم أشد ألوان العذاب وسخروكم فى أشق الأعمال ، وأنزلوا بكم من الذل والهوان صنوفا ، وذبحوا أبناءكم واستبقوا نساءكم أحياء لتزدادوا ضعفاً وذلا وهواناً .

(وَفِى ذَٰلِكُمْ بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) : وفيما أصابكم من سوء العذاب وقتل الذكور واستبقاء النساء لخدمة أعدائكم ، مصاب عظيم وغم جسيم ، فاذكروا نعمة الله عليكم ، إذ نجَّاكم من هذا كله ، واشكروه على ذلك ليزيدكم من نعمه « لَئِن شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » .

* (وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾) .

المفـردات :

(مِيقَاتُ رَبِّهِ) : أى الوقت الذى وقته ربه وحدده لمناجاته وتلقى ألواح التوراة .

(تَجَلَّى) : انكشف وظهر ، (دكًّا) : أى مدكوكاً مُنْهارًا مهدوماً (خَرَّ) : سقط .

(صَعِقًا) : مغشياً عليه .

التفسير

١٤٢ ـ ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الآية :

أى ووعد الله موسى بعد أن نجاه وقومه من فرعون بعبور البحر ـ وعده ـ بإنزال كتاب يهتدى به بنو إسرائيل إلى مايصلح شئون دينهم ودنياهم ويبيّن لهم الحلال والحرام ويكون ذلك بعد مضى ثلاثين لَيْلَةً يقضيها فى التوجه إلى الله بالصيام والعبادة . وقد أكملها ـ سبحانه وتعالى ـ بعشر ليالٍ يخلص فيها موسى العبادة لله والمناجاة لخالقه، فتم الزمن الذى وقّته ربه وحدده لحصول هذه النعمة له أربعين ليلة ، أنزل الله التوراة بعدها عليه وكلمه عند انتهائها .

وتعبير القرآن الكريم عن الميقات بقوله : (ثلاثين ليلة) لأن التوقيت كان بالحساب القمرى ، وهو يعرف بالأهلة . والهلال يرى بالليل ، وقد استفيد من هذا التوقيت : أن ضرب الأجل للمواعدة ، سُنَّةٌ ثابتة مضت ، ومبدأ قديم أسس الله عليه قضايا العباد وحكم به فى شئون الأمم وأحوالها ، كما استفيد منه أيضاً أن التأنى فى الأعمال هو الطريق إلى إجادتها وإتقانها . ولهذا أقّت الله تلك المدة الطويلة لموسى قبل مناجاته لربه ، ليحسن الاستعداد لها ،

(وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وحين أراد موسى التوجه لمناجاة ربه تنفيذًا لأمره قال لأخيه هارون : كن خليفة عنى فى قومى ، ترعى شئونهم وتدبر أمورهم وتراقب أحوالهم فيما يأتون ويذرون ، واعمل على إصلاح عيشهم وحياتهم وعقيدتهم حتى أرجع إليهم ، ولاتسلك طريق الذين انغمسوا فى الغواية والفساد ولا تطعهم فى ذلك بل ردّهم إلى الحقّ والصواب وبيّن لهم طريق الهدى والرشاد .

١٤٣ ـ (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) : أى ولماجاء موسى إلى الجبل ، لأجل ميقات ربه وموعد كلامه معه : قال : يارب أسألك أن تمكننى من النظر لكى أراك .

(قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) :

أى قال الله لموسى ، جواباً له : لن ترانى فى دنياك ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن رأيته سكن وثبت فى مكانه فسوف ترانى.

وقد جاء هذا الاستدراك ، لبيان أنه لايطيق رؤيته ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يتحمل ذلك لعدم إعداده بعد لتلك الحالة .

(فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا) :

أى فلما ظهر كبرياء ربه وبدت عظمته وقدرته جعل الجبل مفككا مهدماً وسقط موسى مغشياً عليه من هول مارأى وشدة ماعانى .

(فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى فلما عاد إلى موسى وعيه وفهمه وذهبت عنه تلك الشدّة قال تعظيما لله وإجلالا لمقامه : أُنزهك يارب عن مشابهتك لشيء من خلقك وأُجلُّك عن أن أسألك شيئاً بغير إذن منك ، وأنا أول من أسلم وجهه لك فى هذه الأُمة وآمن بكبريائك وعظمتك فيها .

والجبل قيل : إنه جبل زبير أو جبل أُردن .

وقد دلت الآية على أن الله تعالى كلم موسى ، وكلامه تعالى له ، مخالف لكلام الحوادث ، فليس بحرف ولاصوت ولايعلمه إلا الله تعالى وقد دلت الآية أيضاً على أن الله تعالى لم يمكِّن موسى من رؤيته ، وليس هذا دليلا على استحالة رؤيته ، بل على عدم وقوعها لموسى فى الدنيا ، لأنه لم يهيأ لهذه الرؤية بالتكوين المناسب لها . فإن رؤية الحادث للقديم تحتاج إلى تكوين مناسب لها ، كما حدث للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وكما سوف يحدث للمؤمنين فى الجنة ، ولهذا قال سبحانه لموسى فى رده عليه : « لَنْ تَرَانِي » ولم يقل لن يرانى أحد ، أو لن أُرى من أحد من خلقى .

(قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾) .

المفردات :

(اصْطَفَيْتُكَ) : اخترتك .

التفسير

١٤٤ - (قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي . . .) الآية :

أى قال الله تعالى يخاطب موسى - عليه السلام - بأسلوب النداء إعظاماً لقدره وإعلاء لمكانته : إنى فضلتك على جميع الناس المعاصرين لك ، باختيارك رسولا دون أحد سواك وآثرتك عليهم بإنزال التوراة تبيانا لطريق الخير وإرشادا إلى مايأتون وما يذرون كما آثرتك بكلامى إياك من غير واسطة .

(فَخُذْ مَآ آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ) :

فتقبل ما أنعمت به عليك من شرف الرسالة ، وارض بنعمة المناجاة وطب نفساً بجعلك من المصطفين الأخيار الذين يبلغون رسالات ربهم ، واندمج فى عداد الشاكرين ، بأداء الشكر على تلك النعم بدوام الطاعة والخشوع والإخلاص لله .

وهارون وإن أرسله الله مع موسى ردءاً يشد به عضده ويصدقه إلا أنه كان مأموراً باتباعه ، فلم يكن صاحب شريعة خاصة به ، ولم يكن كليما لله

وفى الآية تسلية عظيمة لموسى - عليه السلام - عن عدم إجابته إلى الرؤية التى طلبها . فكأنه - سبحانه - قال له : إن مَنَعْتُكَ الرؤيةَ التى طلبتها فقد أعطيتك نعماً عظيمة لم يعط مثلها أحد من أهل زمانك فاحرص عليها ، وثابر على شكرها بدوام العبادة وبذل الجهد فى دعوة الناس إلى شريعة الله .

(وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾) .

المفردات :

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ) : أى وخلقنا له الكتابة فيها ، والألواح الصحف التى كتبت فيها التوراة .

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ) : أى فتناولها وتقبلها بجد وعزيمة .

التفسير

١٤٥ – (وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ) :

أى وبينا لموسى فى التوراة التى أنزلناها عليه مكتوبة فى الألواح والصحف من كل شىء يحتاج إليه بنو إسرائيل لإصلاح شئونهم فى الدين والدنيا من المواعظ وتفصيل الأحكام وبيان الحلال والحرام والحسن والقبيح وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد.

(فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) :

أى وبينا لموسى – عليه السلام – كل شىء فى الألواح وقلنا له : فتقبلها ياموسى بصدق وتناولها بحرص وعزيمة كما يفعل أولو العزم من الرسل وأمر بنى إسرائيل أن يمتثلوا مواعظها ، ويتبعوا أحكامها وشرائعها البالغة غاية الحسن والكمال بالنسبة لهم : إذ فتحت أمامهم أبواب سعادة الدنيا والآخرة .

ويلاحظ أن التوراة الأصلية فقدت فى الغزو البابلى ، أما توراة اليهود التى بأيديهم فهى من صنعهم وتأليفهم (سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) :

أى : سأرى قومك – بنى إسرائيل – ديار الهالكين ، من عاد وثمود وأمثالهم من الذين خرجوا عن طاعة الله وعصوا أمر ربهم .

والحكمة فى ذلك بعثهم على الجد والاجتهاد فى امتثال ما أمروا به ، وتحذيرهم من الكفر والعصيان حتى لا يحل بهم ما حل بأولئك الذين مردوا على الفسوق والطغيان ، لأن رؤية الديار خالية من أهلها ، خاوية على عروشها تدعو إلى مزيد من الحذر والاعتبار ، وقيل معنى : (سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) :سأورثكم حكم الوثنيين فى تلك الديار التى هاجرتم إليها ، بدليل قراءة : «سَأُورِثُكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ » . وقيل : المراد بدار الفاسقين جهنم فإنها دارهم فى الآخرة . وإراءتهم إياها كناية عن إدخالهم فيها ، إن عصوا التوراة .

وخوطب قوم موسى – عليه السلام – بقوله : – سأريكم – دون قوله – سأريهم – التفاتًا إليهم بعد الغيبة ، ليكون أبلغ فى حملهم على الطاعة والامتثال وتخويفهم من اتباع طريق الظالمين .

(سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾) .

المفردات :

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ) : سأبعد عن التدبر فى آياتى ، والمراد سأطبع على قلوبهم وأغلقها بسبب كبريائهم .

(سَبِيلَ الرُّشْدِ) : طريق الحق ، (سَبِيلَ الْغَيِّ) : طريق الضلال .

(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) : بطلت أعمالهم فلم ينتفعوا بها .

التفسير

١٤٦ ـ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ . .) الآية :

بعد تحذير قوم موسى من مخالفة التوراة ، جاءت هذه الآيات لتأكيد هذا التحذير .

والمعنى : سأبعد عن الانتفاع بآياتى المرشدة إلى مصالح الدين والدنيا ، أولئك الذين يتطاولون فى الأرض على الناس ، ويرون لأنفسهم مكانة فوق مكانتهم ، ويأنفون من اتباع الحق إصرارًا منهم على التمسك بباطلهم (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا) :

أى ومع تعاليهم على الناس فى الأرض إن يسمعوا كل آية من الآيات التنزيلية ، أو يبصروا أى معجزة من المعجزات المشاهدة المرئية لا يصدقوا بواحدة منها ، بل يكفرون

بجميع ما رأوا ، إمعانًا منهم فى التكذيب والإعراض ، لانغلاق قلوبهم دون الهدى ، إذ أساءوا اختيار الطريق .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) :

أى وإن يبصروا ويعرفوا طريق الهدى والخير لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه . لاختيارهم الشياطين أولياء لهم من دون الله .

(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) :

أى وإن يتضح لهم طريق الغواية والفساد والانحراف ، بتحذيرهم منه ، يختاروه لأنفسهم مسلكًا مستمرًا لا يعدلون عنه ، مع وضوح التحذير منه ، كى يصلوا إلى تحقيق شهواتهم ومآربهم وإشباع أطماعهم .

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) :

أى ذلك التكبر وعدم الإيمان واتباع طريق الغى والإعراض عن طريق الهدى -ذلك فعلوه- بسبب كفرهم بآياتنا الدالة على صدق ما أرشدنا إليه ودعونا إلى التمسك به ، وفساد ما أقاموا على فعله من القبائح والمنكرات ، وبسبب غفلتهم عن التأمل فى الحق الذى أنزلناه ، ولو أنهم تدبروا ما جئنا به وعقلوه لما فعلوا الأباطيل ، ولما سلكوا طريق الشيطان وتأكيدًا للتحذير قال تعالى :

١٤٧ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى الذين لم يصدقوا بآيات الله الداعية إلى الإيمان المحذرة من الكفر والعصيان ، وضموا إلى ذلك إنكارهم لمجىء الدار الآخرة ووقوع الجزاء فيها على الخير والشر - هؤلاء- بطل ما عملوه فى الدنيا من برٍّ وصلة رحم وإغاثة ملهوف وغير ذلك ، ولا يجزون إلا على ما عملوه من الكفر والمعاصى ، إذ الشرط فى قبول أعمال الخير والإثابة عليها فى الآخرة تحقيق الإيمان بالله وشرائعه قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا »(١)

---

(١) سورة النور : الآية ٣٩

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾)

المفردات :

(جَسَدًا) : جسد عجل مصنوعًا من الذهب لا روح فيه .

(خُوَارٌ) : صوت البقر .

(سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ) : ندموا ندمًا شديدًا لأن النادم يعض يده ويسقط ذقنه فيها غما فتصير يده مسقوطًا فيها .

التفسير

١٤٨ - (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّه خُوَارٌ . .) الآية :

لما توجه موسى عليه السلام لمناجاة ربه وترك أخاه هارون خليفة عنه فى قومه بنى إسرائيل يرعى شئونهم ويصلح أحوالهم ، ويدعوهم إلى الثبات على الحق والهدى .

صنع لهم السامرى تمثالًا مجوفًا من الذهب على شكل عجل من البقر ، وكان دقيق الصنع ، ووضعه فى مهاب الريح ، فإذا هبت أحدثت صوتًا كخوار البقر ، ثم قال لبنى إسرائيل : هذا إلٰهكم وإلٰه موسى ، ودعاهم إلى عبادته فعبدوه وتقربوا إليه ، وكان هارون يدعوهم إلى عبادة الرحمن واتباع أمره ، فلم يستجيبوا له . وظلوا عاكفين على هذا حتى رجع إليهم موسى ، وقد حكى القرآن الكريم تلك الحالة فى هذه الآية التى سنشرحها فيما يلى :

المعنى : واتخذ قوم موسى من بعد ذهابه - عليه السلام - لمناجاة ربه ، اتخذوا من حليهم المصنوع من الذهب الخالص تمثالًا على صورة العجل ، يحدث خوارا كخوار البقر وصوتا

كصوته إذا وضع فى مهاب الرياح ،بسبب ما وضعه فى حلقه من أداة تحدث هذا الصوت إذا دخلت الرياح جوفه ، وكان السامرى خبيرًا بهذا الفن ، وهوالذى صنعه لهم ، ودعاهم إلى عبادته .

والمراد من اتخاذهم العجل إما صنعه - وقد نسب إليهم لرضاهم به - وإما جعلهم إياه إلٰهًا بعد أن صنعه لهم السامرى .

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا) : أى ألم يدركوا حين أقدموا على هذا المنكر أن هذا العجل لايتصف بصفة من صفات الألوهية ولا بحكم من أحكامها إذ كان لايقدر على كلام ولا يرشد إلى طريق ، فضلا عن أنه لم يصل إلى أحط درجات الحيوان ، فكيف يكون إلٰهًا شأنه أن يخلق ويبدع ويحيى ويميت ؟ ويتكلم ويهدى إلى سبيل الرشاد .

(اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) · أى فعلوا ذلك المنكر الشنيع وكان شأنهم الظلم ، والاستمرار عليه دائما - ووضع الأشياء فى غير موضعها الصحيح ، فلم يكن اتخاذهم العجل إلٰها بدعا وما كان أول منكر فعلوه .

وكان هذا الاستفهام لتقريعهم على فرط جهالتهم وحماقتهم وسفاهة أحلامهم وقد كرر القرآن ذمَّهم بذكر « اتخذوه » أى العجل مرة ثانية للتنبيه على عظم جرمهم والتمهيد لوصفهم بالظلم .

١٤٩ - (وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) :

أى : ولما ندموا أشد الندم على ما فعلوا من عبادة العجل ومخالفتهم تعاليم موسى وإرشاد خليفته هارون ، واستضعافهم إياه وهمهم بقتله ، وعلموا أنهم بفعل هذه المنكرات قد تنكبوا الصواب وجاوزوا طريق الهدى (قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) : أى قالوا مقسمين والله لئن لم يغمرنا إحسان ربنا ويتقبل توبتنا رحمة بنا ، فيكفر عنا سيآتنا ويتجاوز عن خطيآتنا لنكونن من جملة الذين خسروا حسن العمل فى دنياهم ، وخير الجزاء فى أخراهم فكانوا فى جهنم خالدين .

وفسر - سُقِطَ فِى أَيدِيهِم - بما تقدم على طريق الكناية ، لأن النادم المتحسر يعض يده غمًّا وحزنًا فتصير يده مسقوطًا فيها . كما تقدم فى المفردات .

والمراد بقوله تعالى: (رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا) علموا وتيقنوا ضلالهم . وإنما عبر العلم بالرؤية للإشارة إلى أنهم تبينوا خطأهم بوضوح كامل حتى كأنهم رأوه بأعينهم .

وما حكاه القرآن عنهم من الندم والرؤية ، وما قالوه وإن كان بعد رجوع موسى -عليه السلام- إليهم من الميقات كما دلت عليه آيات سورة طه .لكن أريد بتقديمه هنا على رجوع موسى أن يكون ما صدر عنهم من اتخاذ العجل والندم عليه فى موضع واحد ، مسارعة إلى تذكير أهل مكة ، بندم بنى إسرائيل على اتخاذهم العجل الذهبى الذى يخور خوار البقر ، فهم أحق منهم بالندم على عبادة ما هو دون ذلك من الأحجار ، أمّا ما جاء فى سورة طه فهو تفصيل كامل للقصة يقتضى وضع كل حادث فى موضعه .

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾) .

المفردات :

(أَسِفًا) : شديد الغضب أو حزينا .

(بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ) : أى بئس ما فعلتموه من بعد غيبتى .

(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) : أى أسبقتم ما أمركم به ربكم من التوحيد فعبدتم العجل قبل أن يعود موسى من ميقات ربه ، ليكون أمام الأمر الواقع ، يقال : عجل الأمر سبقه

(وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ) : طرحها على الأرض .

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ) : أى وأمسك بشعر رأس أخيه يجره به إليه .

(فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ) : أى فلا تفعل ما يكون سببًا لشماتتهم بى .

التفسير

١٥٠ – (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا . . .) الآية :

أى : ولما رجع موسى – عليه السلام إلى قومه من الميقات الذى ناجى فيه ربه –رجع – وهو شديد الغضب والحزن على ما أحدثه قومه فى غيبته من الردة وإهمال وصاياه ، وكان الله – تعالى – قد أخبره وهو فى مكان المناجاة بما أحدثوه .

(قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِىَ) :

أى : قال موسى – عليه السلام – بعد رجوعه من الميقات يذم قومه جميعًا المؤمنين منهم والمرتدين : بئس ما أحدثتموه أيها المؤمنون وأيها المرتدون. أما ذمّه المؤمنين فلأنهم لم يكفوا عبدة العجل عما فعلوه وأما ذم المرتدين فلعودتهم إلى الشرك بعد أن رأوا حرص موسى–عليه السلام – على دعوتهم إلى توحيد الله ، وترك الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده –وواجب الخلفاء أن يسيروا على نهج المستخلف – فالخطاب للجميع ويجوز أن يكون الخطاب لعبدة العجل فذمهم على ما أحدثوه من تغيير شريعة الله ، كما يجوز أن يكون الخطاب لهارون والمؤمنين معه، فاللَّوْمُ لهم إذ لم يمنعوا عبدة العجل مما فعلوا . أى بئس قيامكم مقامى إذ لم تراعوا عهدى .

(أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) :

أى أسبقتم ما أُمرتم به من البقاء على ما أوصيتكم به من التوحيد حتى أعود إليكم من الميقات بكتاب من عند ربكم ،حين سارعتم إلى مخالفة أمرى فغيرتم دينكم وعبدتم العجل . وتراخى المؤمنون فى نصحكم .

(وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ) :

أى وطرح موسى – عليه السلام– ألواح التوراة جانبًا ،ليتمكن من إمساك أخيه وتعنيفه حين رأى قومه وقد فتنوا بالعجل فعكفوا على عبادته .

(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) :

أى : وأمسك موسى بشعر رأس أخيه هارون يجذبه إليه منه ، لظنه أنه أهمل فى توعية قومه وإرشادهم وإصلاح حالهم ، ونهيهم عن الإشراك بالله .

(قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي) :

أى قال هارون يدفع تهمة التقصير فى نصحهم عن نفسه يا ابن أمى : إننى بذلت قصارى جهدى فى ترشيدهم وتوضيح سوء العاقبة لما فعلوا ، حتى قهرونى ، واستضعفونى وهموا بقتلى واقتربوا منه .

(فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ) :

أى : فلا تفعل بى أمام هؤلاء الأعداء ما يكون سببا لشماتتهم بى وفرحهم فيما يصيبنى من إيذاء وتعنيف .

والشماتة فرح العدو فيما يصيب عدوه من مكروه .

(وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

أى ولا تنظمنى بغضبك علىَّ فى سلك الذين ارتكبوا أقبح الظلم بعبادة العجل ، ونقض العهد والفساد فى الأرض ، ولا تجعلنى فى عدادهم مع براءتى من جرائمهم ، وفيما بما استخلفتنى فيه .

وكان هارون لين الجانب كثير التحمل ، ولذا نراه يخاطب موسى بما يرقق قلبه ، وهو قوله له (يا ابن أمَّ) إلخ إذ الأم عنوان الحنان وموطن العطف والرحمة ، كما يشعر بلين عريكته ما فى باقى أسلوبه من توسل ورجاء .

وبعد أن سمع موسى عليه السلام مقالة هارون ـ عليه السلام ـ قال ما حكاه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

١٥١ ـ (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي) :

أى قال موسى مناديًا ربه يطلب منه غفران فعله بأخيه من غير جريرة ارتكبها ، وغفران ما عساه أن يكون قد وقع مع أخيه من تقصير فى نصحهم وتحذيرهم .

ولا يخفى أن كل إنسان فى حاجة إلى استغفار ربه ، طاعة له وطلبًا لرفع الدرجات ، مع ما فى استغفار موسى لنفسه من الترضية لهارون وإعلان الشامتين بتمام رضاه عما فعله حتى ترد شماتتهم إليهم كمدًا وحسرة .

(وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

أى : ومُنَّ علينا بمزيد من الإنعام بعد غفران ما سلف منا ، وشأنك يا ألله أن رحمتك بجميع مخلوقاتك أعظم من رحمة الخلائق بعضهم ببعض ،ومن رحمتهم بأنفسهم ،فلا تحرمنا من واسع رحمتك فى الدنيا والآخرة فهى كما قلت سبحانك : «وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ[1] »

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾) .

المفردات :

(غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ) : المراد بغضب ربهم عذاب الآخرة .

(وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : أى وتشريد فى الأرض وإخراج من الديار ، بحيث لاتكون لهم عزة كعزّة أصحاب الوطن

(الْمُفْتَرِينَ) أى : المختلقين أشنع الكذب على الله تعالى .

التفسير

١٥٢ ـ (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاة الدُّنْيَا) :

أى إن الذين اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون الله واستمروا على عبادته .كالسامرى وأتباعه من بنى إسرائيل ، وأشربوا فى قلوبهم حبه ، سيصيبهم فى الآخرة عذاب شديد

(١) سورة الزخرف : من الآية ٣٢

من خالقهم ومربيهم الذى تفضل عليهم بأجزل النعم فجحدوها ولم يشكروها ،وسينزل بهم فى الحياة الدنيا الذل الشديد والهوان المميت بتشريدهم من ديارهم وإجلائهم عن أوطانهم .

(وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ) :

أى : ومثل هذا العقاب الشديد الذى حل ببنى إسرائيل نعاقب كل مفتر كذاب ، وليست هناك فرية أقبح مما افتراه هؤلاء الذين صنعوا العجل بأيديهم ثم عبدوه وقالوا : هذا إلٰهكم وإله موسى ، بل لم يعرف أن أحدًا افترى مثل فريتهم . ولذا استوجبوا بالأصالة هذا العقاب الأليم .

وبعد أن بين القرآن عقاب المصرين على الجرائم ، وافتراء الكذب على الله ، رغَّب فى التوبة من السيئات وإن كثرت وعظمت ، ببيان أن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن أخلص فى التوبة وصدق فى الإيمان بالله فقال تعالى :

١٥٣ - (وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى والذين اقترفوا الكفر وسائر أنواع المعاصى من الكبائر والصغائر ثم تابوا من بعدها وآمنوا بالله ، إيمانًا صادقًا يستتبع ما يقتضيه من أعمال البر والطاعات ، وإقلاع عن المعاصى ، يغفر الله لهم ما وقع من ذنوبهم مهما عظمت ، لأن ربك المنعم عليك بالخلق والتربية من بعد حصول تلك التوبة الخالصة لَعَظِيمُ المغفرة لذنوب التائبين واسعُ الرحمة بالخلق أجمعين قال تعالى : « وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ » فتتسع من صدق فى إيمانه بعد الكفر ، وأخلص فى الإقلاع عن سائر المعاصى والآثام .

ولما بين القرآن الكريم طرفًا من قصة موسى مع قومه ، شرع يكملها فقال :

١٥٤ - (وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) :

أى ولما ذهب عن موسى الغضب وسكن وهدأ روعه بعد اعتذار أخيه وتوبة من تاب ، وبيان أنه قام بموجبات الخلافة عنه ، ولكن القوم كانوا لنصحه كارهين ، لما حدث هذا أخذ ألواح التوراة التى ألقاها .

وفيما نسخ فى هذه الصحائف وكتب فيها ، هدايةٌ وإرشادٌ إلى خير الدنيا وصلاح الآخرة ، ورحمة عظيمة واسعة للذين هم لعظمة مربيهم وحافظهم يخضعون ويخافون سوء العذاب .

وفى أسلوب الآية الكريمة من البلاغة ووضوح المعنى وتأكيده مايبهر العقول ويأخذ بالألباب ، إذ أبان أن الغضب بلغ بموسى- عليه السلام - حدا من الشدة والتسلط جعله كالآمر له بما قال وبما فعل ، حتى إذا سكت هذا الغضب عن إثارة موسى سكن وأخذ الألواح التى ألقاها ، ومضى فى شأن رسالته .

(وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾) .

المفردات :

(لِمِيقَاتِنَا) : الميقات المكان الذى حدده الله ليذهب موسى وقومه إليه.

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة .

التفسير

١٥٥ - (وَاختَارَ مُوسىٰ قومَه سَبعِينَ رجُلاً لِّمِيقاتِنَا . . .) الآية :

أى واختار موسى سبعين رجلا من فضلاء قومه الذين لم يبدلوا دينهم وذهب بهم إلى المكان والزمان اللذين حددهما الله لهم ، ليعتذروا عمن عبدوا العجل وعمن قصروا فى نهيهم .

(فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) :

أى : فلما فاجأتهم الزلزلة الشديدة ورجفوا وارتعدوا حتى كادت تنخلع مفاصلهم وتتمزق أبدانهم وأشرفوا على الهلاك وكان ذلك تأديبالهم على تقصيرهم فى زجر قومهم عن عبادة العجل وسائر المنكرات ، لما حدث ذلك خشى موسى هلاكهم فتوسل إلى الله تعالى فيما حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :

(قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاىَ) :

أى قال موسى راجياً عفو ربه عنهم فى هذا اليوم : يارب إنك لوشئت إهلاكهم من قبل هذا اليوم ، حين قصروا فى النهى عن عبادة العجل ، وعدم مفارقتهم لعبدته حين أيقنوا فيهم الإصرار على الكفر والمعاصى ، وكذلك لوشئت يارب إهلاكى من قبل ذلك حين طلبت رؤيتك ، لفعلت يا إلهى ذلك فقد استوجبنا الهلاك جميعاً بذنوبنا ، ولكنك لم تفعل رحمة بنا ، وتجاوزاً عما فرط من سيآتنا ، فلا عجب يارب إذا أطمعنا لطفك السابق فى طلب المزيد من عفوك وإحسانك فى هذا الموقف ، ثم أكد موسى - عليه السلام - عظم ثقته فى عفو الله فيما حكاه القرآن .

(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) :

أى قال موسى - عليه السلام - إيماناً بسعة رحمة الله تعالى - وإيقانا بشمول إحسانه : لا يكون منك ياعظيم العفو إهلاكٌ لنا بسبب مافعله الذين يجهلون قدرتك وما يليق بمقام ألوهيتك ، ولا يثبتون على الحق الذى أظهرت معالمه وأوضحت مسالكه فقد وسعت رحمتك كل شىء .

(إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ) :

أى ما كانت عبادتهم للعجل إلا ابتلاء منك تهلك بسببه من تشاء إضلاله بتجاوزه حدود أوامرك ونواهيك ، وترشد به إلى الحق من تشاء هداه فيقوى إيمانه .

(أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) : أى أنت وحدك يا الله القائم بتدبير أمور دنيانا وأخرانا ؛ ونا صرنا وحافظنا دون سواك ، فاغفر لنا ما اقترفناه من الذنوب والآثام وتجاوز عنه إذ من شأن الولى الإحسان إلى المقصرين ، والتجاوز عن ذنوب الآثمين (وَارْحَمْنَا) : أى وأفض علينا من آثار رحمتك التى وسعت كل شىء

ما نسعد به فى الدين والدنيا ، وأنت وحدك الذى تغفر السيئآت وتمن بالحسنات ، ولايملك ذلك سواك ، وعفو غيرك بتوفيق منك .

وخصت المغفرة بالذكر فى قوله : (وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) حيث لم يذكر معها الرحمة لأن المقام مقام اعتذار عن الذنوب فيقتضيها .

(وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ۖ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾).

المفردات :

(وَاكْتُبْ لَنَا فى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) : المراد بحسنة الدنيا ما يعم العيشة الراضية ، والعمل

الصالح والمراد بكتابتها تقديرها وإبرازها ،عبر عنها بالكتابة مجازًا ،أو الكتابة على حقيقتها فإن مايقدر الله تنفيذه يكتب فى اللوح المحفوظ ، أوعند الملائكة المدبرات أمرا .

(هُدْنَآ إِلَيْكَ) : تبنا إليك ورجعنا .

(إِصْرَهُمْ) : الإصر فى اللغة الأمر الثقيل، والمراد به هنا التكاليف الشاقة على اليهود بسبب ظلمهم ، كتحريم بعض الطيبات عليهم .

(الأَغْلَالَ) : المواثيق الشديدة المشبهة للأغلال فى الأعناق .

(وعَزَّروه) : عظموه ووقروه ، أو أعانوه .

التفسير

١٥٦ ـ (وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ . . .)الآية .

بين القرآن الكريم فيما سبق ، كيف بدأ موسى توسله إلى ربه ودعاءه إياه حين رأى الرجفة تأخذ الصفوة من قومه فى الميقات ، وجاءت هذه الآية لإكمال توسله .

والمعنى : وحقق لنا بفضلك فى هذه الحياة الدنيا عيشة طيبة راضية وعافية وافرة ، وتوفيقاً فى الطاعة ، ومُنَّ علينا بنعمك السابغة واجعل لنا فى الآخرة المثوبة الحسنى والنعيم المقيم فى جناتك الواسعة .

(إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ) :

أى : أعطنا ذلك لأننا تبنا إليك من ذنوبنا توبة صادقة ، وأتيناك مخلصين فى الاعتذار عن آثامنا فاقبل دعاءنا ـ وجاءت هذه الجملة « إنا هدنا إليك » لتعليل ما سبقها من الدعاء ، رجاء قبوله وتحقيقه ، وتصديرها بإن التى هى للتأكيد ، للإيذان بكمال صدقهم فى توبتهم ، طمعاً فى أن يقبلها الله الكريم منهم :

(قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ) :

أى : قال الله تعالى جواباًعما طلبه موسى لجميع قومه : شأن عذابى أن أصيب به من أشاءُ تعذيبه ممن لايتقون الله (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) : أى : وإحسانى شمل كل شىء من المكلفين وغيرهم ممن شئت له ذلك .

(فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) :

أى : فسأجعل رحمتى فى الآخرة ، للذين يحفظون أنفسهم من المعاصى ، بحيث لو أصابوها تابوا إلى ربهم ، وأجعلها للذين يؤدون الزكاة لمستحقها .

وخصت الزكاة بالذكر مع شمول التقوى لها لثقل إخراجها على النفوس ، إذ المال عِدْل الروح وسأجعل رحمتى الواسعة للذين يستمرون على الإيمان بآياتنا كلها.

وفى الآية تعريض ببنى إسرائيل إذ كانوا لايتقون الكفر والمعاصى ولا يخرجون الزكاة لشدة حرصهم على المال ، كما كانوا يكفرون بآيات الله العظام التى جاء بها موسى عليه السلام .

ثم أكمل القرآن الكريم أوصاف المتقين الذين وعدهم الله بالحياة الرغيدة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة بقوله تعالى :

١٥٧ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) :

أى : هؤلاء المتقون الذين وعدهم برحمته وفضله هم الذين يتبعون محمدا - صلى الله عليه وسلم - - النبيَّ - الذى جاء بأكمل الاعتقادات والأعمال والأخلاق - الأُمِّىَّ - الذى لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ولم يخط بقلم ومع ذلك فقد جمع الكتاب الذى جاءهم به علوم الأولين والآخرين ، قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ... »

والأُمى نسبة إلى الأُم كأنه باق على حاله التى ولد عليها .

(الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ) :

أى أن الله تعالى يكتب رحمته للذين يؤمنون بالنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - من اليهود والنصارى : يؤمنون بهذا النبى الذى يجدونه مكتوباً باسمه ونعوته عندهم فى التوراة والإنجيل التى كتمها الكافرون منهم ، أو أساءوا تأويلها .

ثم شرع القرآن الكريم يفصل بعض آيات محمد وعلاماته فى التوراة والإنجيل فقال :

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) :

أى يأمرهم النبى الأُمى عن الله تعالى ويكلفهم بفعل كل ماعرفته الفطرالسليمة وأقرته واستحسنته ، فإن فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة ، وينهاهم عن فعل كل ما أنكرته الفطر السليمة ونفرت منه ، فإن فيه خسران الدنيا والآخرة .

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ) :

أى : ويبيح لهم ما حرم عليهم بسبب ظلمهم ومعاصيهم كالشحوم .

(وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) :

أى : ويحرم عليهم كل ما هو خبيث وضار مما كانوا يتناولونه كالدم والميتة ولحم الخنزير ، أو يفعلونه كالرباوالرشوة (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ):أى ويخفف عنهم ما ثقل عليهم من التكاليف الشاقة كتعيين القصاص فى القتل العمد والخطأ من غير شرع الدية ، وكقطع الأعضاء الخاطئة وإحراق الغنائم ،

(وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) :

أى ويخفف عنهم كذلك الشروط المحرمة والمواثيق الشديدة التى كانت فى شريعة موسى - عليه السلام - لتناسب ظلم بنى إسرائيل وطغيانهم وغلوهم فى الفساد والضلال .

والأغلال جمع غُل وهو فى الأصل ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد يستعار للمواثيق الشديدة والتكاليف الشاقة .

ثم أرشد الله تعالى إلى كيفية اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - وبيّن علوّ منزلة أتباعه فقال : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ) : أى فالذين آمنوا بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصدقوا برسالته وأطاعوه فيما أمر ونهى من اليهود وغيرهم وعظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه ونصروه على أعدائه فى الدين واهتدوا بهدى القرآن الذى أنزله الله مع نبوته ليضىء الطريق أمام السالكين : وسُمّى القرآن نوراً لكونه ظاهرا واضحا فى آياته ، مظهرا للحقائق كاشفا لها ، يهدى متبعه إلى العقيدة السليمة والعمل الصالح ، كما يهدى النور الحسى من يتبعه إلى سواء السبيل.

ولايقال : القرآن نزل مع جبريل فما معنى أنزل معه ؟ لأن المعنى أنزل مع نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - كما تقدمت الإشارة إليه ، لأنها كانت مصحوبة مشفوعة به .

(أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى : أولئك المتقون الذين علت درجاتهم وسمت منزلتهم ، الموصوفون بتلك الصفات الجليلة هم وحدهم دون غيرهم الذين بلغوا غاية الفوز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾) .

المفردات :

(الأُمِّىّ) : المنسوب إلى الأم ، لأنه لايقرأ ولا يكتب ، فهو على فطرته التى ولدته أمه عليها ، من حيث عدم القراءة والكتابة .

التفسير

١٥٨ – (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الذِى لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ) :

لما حكى الله ما فى الكتابين من نعوت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشرف من يتبعه من أهلهما ونيلهم سعادة الدارين – أمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بأهل الكتابين إن آمنوا به بل هى شاملة لكل من يتبعه من جميع الناس ، سواء أكانوا فى عصره أم فيما تلاه من عصور إلى يوم القيامة . فإن رسالته – صلى الله عليه وسلم – عامة لجميع الناس فى كل عصر من العصور قال تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » [1] فتلك من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه .

(١) سورة سبأ : الآية ٢٨

أما سائر الرسل فقد كانوا يبعثون إلى أمم خاصة ، وقد يتعدد الرسل فى وقت واحد لأمم مختلفة أو لأمة واحدة ، فقد كان لوط وإبراهيم مرسلين فى عصر واحد ، كلاهما إلى غير أمة الآخر ، وكان موسى وهارون مرسلين معا إلى فرعون وقومه وبنى إسرائيل .

والمعنى : قل يامحمد مناديا الناس جميعا من عاصرك منهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة حيث يبلغ عنك الحاضر منهم الغائب ، والموجود منهم من سيوجد : قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما خلقا وملكا وتصرفا ، ومن كان كذلك فلا معبود بحق سواه ، ولا يصح أن يكفر برسوله المؤيد بآياته .

(فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : هذا من جملة ما أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتبليغه للناس ، مفرع على ما بين لهم من رسالته إليهم .

والمعنى : وحيث كنتُ رسوله إليكم فآمنوا بالله الذى بينت لكم عظمته وآمنوا برسوله النبي الأمى ، الذى جاءكم بكتاب فيه علوم الأولين والآخرين . وهو لا يقرأ ولايكتب ، وذلك من براهين رسالته ، ومع كونه رسولا إليكم فهو يؤمن بالله تعالى وبكتبه التى أنزلها على رسله السابقين له ، ويؤمن بالقرآن الكريم الذى هو من كلمات الله وكتبه ، فهو يسبقكم إلى الإيمان به ، واتبعوه فى كل مادعاكم إليه فعلا وتركاً رجاء أن تهتدوا باتباعه إلى مطلوبكم من سعادة الدارين .

ووصفه – صلى الله عليه وسلم – بالنبي الأمى بعد وصفه بالرسالة لمدحه والإشارة إلى نعته فى الكتابين – التوراة والإنجيل – تقريرا لأمر نبوته حتى يقبلوا على الإيمان به .

(وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ
ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾) .

المفردات :

(يهْدُونَ بِالْحَقِّ) : يرشدونهم بكلمة الحق .

(وبِهِ يَعْدِلُونَ) : وبالحق يعدلون فى الأحكام .

(أَسْبَاطًا أُمَمًا) : أى قبائل صارت أمما ، وأصل السبط ولد الابن أو البنت .

(فَانْبَجَسَتْ) : فانفجرت .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ) : وجعلنا السحاب يظلهم من الشمس .

(الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) : المن صمغة حلوة ، والسلوى السُّمانى .

التفسير

١٥٩ ـ (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) :

كلام مستأنف لدفع توهم حرمان أسلاف قوم موسى من كل خير ، بعد تخصيص من يتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكتابة الرحمة والتقوى والإيمان بكلمات الله فى الآية السابقة ، ولبيان أن اليهود ليسوا كلهم كما حكيت أحوالهم ، بل منهم أمة يهدون الناس بالحق وبه يعدلون :

والمعنى : ومن قوم موسى جماعة يهدون الناس بهدى الحق ، وبالحق يعدلون فى الأحكام الجارية فيما بينهم ، وذلك قبل أن يبدلوا توراتهم ، ويدخلوا فيها مالم ينزله الله تعالى بها ، فقد كان فيها هدى ونور حينئذ ، كما قال تعالى : « إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . . » الآية[1] . وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « لَيْسُوا سَوَآءً مِّن أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدونَ » الآيات[2] .

ويجوز أن يكون المراد بهم من آمنوا منهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأن يكون المراد بتلاوتهم آيات الله تلاوة القرآن الكريم ، وهذا هو الظاهر ،

١٦٠ - (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا) :

شروع فى بيان بعض النعم التى أنعم الله بها على قوم موسى ، برهم وفاجرهم واعلم أن السبط فى اللغة معناه ولد الولد ، ولما كان بنو إسرائيل هم ذرية أولاد إسرائيل[3] الاثنى عشر ، فلذا أطلق عليهم أسباط ، لأنهم أولاد أولاده ، وقد شاعت هذه التسمية فيهم حتى أصبحت حقيقة عرفية ، وهى فيهم كالقبيلة فى ولد إسماعيل عليه السلام .

والمعنى : وصيرناهم اثنتى عشرة أمة ، كل أمة منهم ترجع إلى ولد من أولاده الاثنى عشر فكانوا لهذا أسباطًا له ، أى أولادًا لأولاده هؤلاء ..

وتأنيث اثنتى مع أن المعدود مذكر وهو أسباط ، لتفسيره بالأمم ولأن الجمع يؤنث وصفه وكذا فعله الذى يسند إليه .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ) :

كان العطش قد استبد بقوم موسى ، وهم فى التيه ، فاستسقوه - أى طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم الماء الذى لم يجدوه فى صحراء التيه - فاستسقى موسى ربه بأن دعاه أن يمن على قومه بالماء ليشربوه حتى لا يهلكوا عطشاً ، فأوحى الله إليه أن اضرب

(١) سورة المائدة : الآية ٤٤

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١١٣ إلى ١١٥

(٣) إسرائيل هو يعقوب عليه السلام

بعصاك الحجر ليخرج منه الماء لهم ، فضربه فورًا بعصاه كما أمره ربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بقدرة الله تعالى ، لكل سبط من أسباطهم عين خاصة بهم ، عرفوها بذاتها حتى لا يختلفوا على مائهم .

ويفهم من ذلك أن كل سبط منهم كان عدد أفراده كثيرًا ، حتى جعل لهم هذا العدد من العيون بعدد أسباطهم .

وقد أباح الله لموسى أن يختار أىَّ عصا ليضرب بها ، وأى حجر ليضربه بالعصا التى يختارها ، فلم يعين له هذا ولا تلك ، قال الحسن : ماكان إلاحجرا اعترضه ، وإلا عصا أخذها ، ولعل الله تعالى أراد بتكليف موسى — عليه السلام — بضرب الحجر بعصاه ، ليكون خروج الماء بذلك معجزة له ، حتى يزدادوا بنبوته استيقانا ، ويقبلوا على العمل بما جاء به من التوراة ، فلقد كان إيمانهم ضعيفاً ، ولذا عبدوا العجل وطلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة .

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ) : كانت حال بنى إسرائيل فى التيه سيئة ، فإن صحراء التيه كانت عديمة الشجر مفقودة الظلال ، فلذلك كانوا فى أشد الحاجة إلى مايقيهم حرارة الشمس التى يزيدها اتقادًا انعكاسها على رمال الصحراء .

ولقد تفضل الله فأزال متاعبهم من جهة الماء بتفجير تلك العيون التى مر بيانها ، ومن جهة الحر بأن جعل الغمام يلقى ظلاله عليهم ، ويقيهم حرارة الشمس ، حيث أرسل السحاب فوقهم فى مقامهم ومسيرهم ، فحال دون وصول أشعة الشمس إلى حيث يقيمون أو يسيرون ، وبقيت مشكلة الغذاء الذى لا مصدر له فى التيه ولا يصل إليهم به أحد ، فتفضل الله عليهم بإنزال المن والسلوى ليكونا طعاماً لهم . أما المن فهو صمغة حلوة تشبه البرَدَ فى منظره [1] ، والشهد فى حلاوته ، ويسمى الترنجين ، وأما السمانى : فهى طيور معروفة بلذة لحومها ، مطبوخة أو مشوية ، فكانوا يتغذون بالسلوى ويتحلون بالمن حيثما شاءوا .

---

(١) البرد : قطع من الثلج كحب الحمص غالبا ، ينزل مع المطر .

وحين أنزلهما الله عليهم ، قال لهم متفضلا على لسان نبيه موسى : (كُلوا مِنْ طَيِّبَاتِ مارَزَقْنَاكُمْ) وبذلك الأمر الكريم أباح الله لهم أن يغتذوا بلذائذ هذا الرزق الكريم الذى أنقذهم به من الهلاك جوعاً ، وهم فى تيههم منقطعون عن العالم ، وكان من حق هذه النعم أن تقابل منهم بشكرها .

(وَمَا ظَلَمُونَا ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى وما ظلموا الله ولا بغوا عليه بكفرانهم نعمته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم خاصة ، فلا يتخطاهم ضرره وسوء عاقبته .

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾) .

المفردات :

(هَذِهِ الْقَرْيَةَ) : هى بيت المقدس أو أريحاء ــ على ما قيل .

(وَقُولُوا حِطَّةٌ) : من الحط وهو الوضع والطرح ، والمراد بها أن يطلبوا حط ذنوبهم وطرحها عنهم بغفران الله لهم .

(وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) :وادخلوا باب القرية التى أمرتم بدخولها خاشعين خاضعين لله شكرًا له على تمكينكم من دخولها .

(رِجْزًا) : أى عذابًا .

التفسير

١٦١ - (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيآتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) :

بين الله فى الآية السابقة أنه أنعم على بنى إسرائيل وهم فى التيه فأنقذهم من الهلاك فى صحرائه ، بما أخرجه لهم من ينابيع الماء ، ، وأنزله إليهم من لذيذ الغذاء ، كما بين أنهم ظلموا أنفسهم بكفران تلك النعم التى لا يستحقونها ، وكان عليهم أن يشكروها ويعتبروا بما أصابهم من العقوبات على مخالفاتهم . وجاءت هذه الآية وما بعدها فى إثرها لبيان طرف آخر من آثامهم غير ما مر من كفرانهم بتلك النعم الجليلة ، والغرض من سوق ذلك كله تذكير اليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - بما صنعه أسلافهم ، حيث قابلوا فضل الله عليهم ونعمه بالجحود والتنكر لها ، وأنه إذا خبث الأصل كان فرعه مثله ، فلا غرابة أن يتنكروا للحق كما تنكر أسلافهم .

والمعنى : واذكرْ أيها الرسول لليهود المعاصرين لك ، إذ قيل لأصولهم من قِبَلِ الله تعالى ، على لسان موسى ، أو على لسان يوشع بعد موته-عليهما السلام - اسكنوا هذه القرية - بيت المقدس أو أريحاء - بعد أن نصركم الله على قومها الجبارين عباد الأوثان-حين استجبتم لما أمرتم به من جهادهم . وادخلوا من بابها سجدا خاشعين خاضعين لله شاكرين له على نصركم عليهم ، لا دخول المتجبرين المستكبرين أهل البطر والخيلاء فإن نصركم من عند الله لامن عند أنفسكم فلا يليق بكم أن تشمخوا بأنوفكم وتستكبروا على من حولكم ، واتجهوا إلى ربكم قائلين له:حِطَّةٌ وغفرانٌ منك يا الله لذنوبنا ، تأكيدًا لتواضعكم ، واعترافاً منكم بتقصيركم ، فإن فعلتم ذلك يغفر لكم الله ما مر من خطيآتكم ، ولا نقتصر على ذلك ، بل سنزيد المحسنين على المغفرة ثواباً لا حد له .

وقد كان أمر بنى إسرائيل بدخولهم تلك القرية ، بعد انتهاء مدة عقوبتهم فى التيه وكانت أربعين سنة يتيهون فيها فى صحرائه ، ولا يجدون لهم منفذًا إلى أرض الله ، حتى

إذا مرَّت تلك المدة ، أمرهم الله بجهاد الجبارين فى تلك القرية ، التى تعتبر عاصمة لإقليمها ، فإذا سقطت فى أيديهم سقط إقليمها معها . وكان موسى قد أمرهم بدخولها بقوله : « يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَاتَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ولما كان دخولها يستلزم قتال أهلها ، وهم جبناء لا يحبون القتال فلذا أجابوه بقولهم : « يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » فانظر إلى فساد عقلهم حيث تمنوا خروج الجبارين طواعية بغير قتال ليحلوا محلهم بعد خروجهم ، ولما أجابوا موسى بهذا الجواب الحقير : « قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فأصروا على موقفهم وقالوا : « يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » فطلب موسى عقابهم بقوله : « فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فأجابه بقوله : « فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » راجع الآيات من ٢١ إلى ٢٦ من سورة المائدة .

فلمَّامرَّت مدة التيه ، دعاهم يوشع لقتال الجبارين بعد وفاة موسى (على الراجح) فاستجابوا له فنصرهم الله تعالى عليهم .

موازنة بين ما فى البقرة وما هنا

جاء الأمر هنا بالسكنى حيث قيل : (اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا) ولكنه فى البقرة أمر بالدخول حيث قيل : « ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا » ولاتناقض فى ذلك ، فإن الدخول لغرض السكنى ، وعطف الأكل هناك بفاء الترتيب (فكلوا) لأنه يكون بعد الدخول ، وعطف بالواو « وكلوا » لأن السكنى أمر ممتد ، والأكل يكون معها لا بعدها ، والواو للمعية وذكر هناك « رَغَدًا » ولم يذكر هنا ، لأن الأكل بعد الدخول عقب النصر يكون ألذ ، أما بعد السكنى والاعتياد على المكان ، فإنه يكون أقل لذة فلذا لم يذكر معها ، ولا تنافى بين قوله هنا : (وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) بتقديم القول على الدخول ، وقوله فى البقرة « وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ » بتقديم الدخول على القول ، لأن المأمور به فى الآيتين

هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ، فإن الواو لمطلق الجمع فلا تفيد ترتيباً ولا تعقيبا .

١٦٢ ـ (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) :

أى فبدل الذين ظلموا من هؤلاء ـ وكلهم كانوا ظالمين [1] ـ قولا غير الذى قيل لهم ، فقد أمروا بالتوبة والاستغفار بأن يقولوا حطة لذنوبنا وغفران لها ، فوضعوا مكان ذلك قولا آخر لا خير فيه تكبرًا وعتوا ، ولم يذكروا فضل الله عليهم فى الانتصارات ونعمته عليهم بالإسكان فى تلك القرية بعد التشريد فى التيه أربعين عاماً وهكذا يفعل عتاة الجيوش المنتصرة . يتكبرون فى الأرض ، ويستعلون على الناس وينسبون الانتصار لأنفسهم ، وينسون فضل الله ـ تعالى ـ عليهم .

ومن المفسرين من ذكروا أنهم قالوا بدل (حطة) حنطة بزيادة النون ، استخفافاً بالله واستهزاءً بموسى ـ لعنهم الله ـ ولكنا لم نجد نصاً فى ذلك يمكن الاعتماد عليه ، سوى قوله ـ تعالى ـ عقب ذلك : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) فهو يفيد أن التبديل كان بقول ظالم شديد الظلم بحيث استحقوا بسببه أن ينزل الله عليهم عقبه (رِجْزًا) أى عذابا (مِنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) أما حقيقة العبارات التى قالوها وظلموا بها ظلماً فظيعاً ، فلم يرد بها نص ، فلهذا لم نشأ أن نتحمل عهدته ونقدمه للقارىء تفسيرًا لما قالوه .

ولا تنافى بين قوله هنا : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ) ، وقوله فى البقرة : « فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » فإن ظلمهم يستلزم فسقهم ، فهم ظالمون فاسقون فكلا الوصفين فيهم .

---

(١) لأن (من) فى (منهم) للبيان وليست للتبعيض .

(وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾) .

المفردات :

(الْقَرْيَةَ): مدينة أيلة ، (حَاضِرَةَ الْبَحْرِ) : قريبة منه .

(يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ) : يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت .

(حِيتَانُهُمْ) : المراد بها أنواع السمك المختلفة .

(شُرَّعًا) : جمع شارع أى : ظاهرة على وجه الماء . من شرع علينا إذا دنا وأشرف .

التفسير

١٦٣ - (وَاسْأَلْهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ . . .) الآية :

لايزال الحديث عن سيئات اليهود وآثامهم موصولا ، فقد أمر الله رسوله محمدًا -صلى الله عليه وسلم - فى هذه الآية ، أن يسأل يهود زمانه المعاصرين له سؤال تقرير وتقريع بما يفيد أنهم عريقون فى تجاوزهم لحدود الله تعالى .

والمراد : إعلانهم بأن ما أخفوه عن غيرهم من مآثمهم ، أطلع الله رسوله عليه و لك شاهد بنبوته - صلى الله عليه وسلم - فإن مثل ذلك لايقوله إلا من اطلع على كتبهم ، أو سمعه من علمائهم ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - أمى لا يقرأ ولا يكتب ، فلا سبيل له إلى اطلاعه عليها ، وعلماؤهم لا يصرحون له ولا لغيره بما يفضح أسرار أصولهم وأجدادهم من المخازى والسيئات ، فلا سبيل إلى معرفتها إلا أن يوحى الله إليه بها ، والقرية التى كانت حاضرة البحر هى أيلة ، وهى قريبة بين مدين والطور ، وهذا هو مانقل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وعن ابن شهاب هى طبرية . وقيل غير ذلك والمعنى : واسأل أيها الرسول

من عاصرك من اليهود عن حال أهل القرية التى كانت مشرفة على البحر ، حين يظلمون ويتجاوزون حدود الله فى يوم السبت بالصيد فيه وهو محرم عليهم ، تعظيماً لهذا اليوم الذى كان يوم راحة وعبادة لديهم ، كما حرم عليهم فيه الاشتغال بغيرها ، وكانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، حيث أدركت بغريزتها هدوء حركة الصيد فى هذا اليوم ، فكانت تطفو على وجه الماء آمنة . وكأن الله تعالى ـ يبعثها على الظهور فى هذا اليوم ابتلاء لهم ، وحين لايكونون فى يوم السبت لا تظهر على وجه الماء ولا تكون كثيرة لديهم .

(كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

أى مثل ذلك الابتلاء الشديد نبتليهم بسبب فسقهم وخروجهم على طاعة الله ـ تعالى ـ السبت اسم لليوم المعروف ، وأضيف إليهم فى قوله تعالى : « يوم سبتهم » لاختصاصهم بأحكامه ، ويجوز أن يكون مَصْدَرَ سَبَتَ اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة فيه ويؤيده قراءة : « يَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ » وكذا قوله تعالى « وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ » : أى ويوم لا يعظمون السبت ، لأنهم فى يوم آخر سواه .

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾) .

المفردات :

(مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ) : قال الأزهرى : المعذرة بمعنى الاعتذار ، وَعُدِّىَ بإلى متضمنة معنى الإنهاء والإبلاغ .

(بَئِيسٍ) : شديد ، (عَتَوْا) : تكبروا وأعرضوا .

(خَاسِئِينَ) : أذلاء صاغرين .

التفسير

١٦٤ـ (وإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا ..) الآية :

لا يزال الحديث موصولا عن مساوىء اليهود منذ عهد بعيد ، فقد بينت هذه الآية الكريمة : أن جماعة صالحة من أهل القرية التى كانت حاضرة البحر ومشرفة عليه ، دأبوا على وعظ أهلها وتذكيرهم بوجوب تنفيذ أوامر الله والانتهاء عن محارمه ، وفى جملة ذلك الصيد فى يوم السبت الذى جعله الله يوم عبادة ، وحرم الاشتغال فيه بغير العبادة من صيد وسواه ، كما بَيَّنَتْ أن جماعة أخرى من أهل الصلاح رأوا أن لافائدة من وعظ أولئك القوم المُصرِّين على المخالفة والعصيان فقالوا للواعظين : لماذا تشتغلون بوعظ هؤلاء المقيمين على العصيان ، الذين سيهلكهم الله ويستأصلهم بذنوبهم ، أو يعذبهم عذاباً شديدًا دون استئصال . يريدون بمقالهم هذا أن يكف الواعظون عن وعظهم لعدم فائدته فى قومهم فيجيبهم أولئك الوعاظ قائلين : إنما نواصل وعظهم اعتذارًا إلى الله ورجاء أن يتقى قومنا ربهم بتوالى وعظهم ، يقصدون أنهم باستمرارهم على وعظ أولئك المعرضين ، يهدفون إلى تحقيق غرضين، (أولهما) :أن يقدموا معذرة إلى الله حتى لا ينسبهم إلى نوع من التفريط فى النهى عن المنكر ، فإن الله أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا الناس وأن لايقنطوا من عدم الاستجابة السريعة إلى تعليمهم وإرشادهم (وثانيهما) :أن يستجيب الناس إلى الوعظ فكم من عاص تاب إلى الله بعد حين من وعظه .

والموعظة : العذر الذى يُتَنَصَّل به من الذنب .

وهذا التقاول الذى حدث ، إما أن يكون بين فريقين من الوعاظ ، كأنه قال بعضهم لبعض : لماذا نشتغل بما لا يفيد ، وإما أن يكون بين فريق صالح من الأمة لم يرضهم رفض قومهم للوعظ ، وبين طائفة الوعاظ إشفاقاً عليهم من جهدهم الضائع فى أمتهم ، كأنهم يقولون لهم : كفوا عن وعظهم فإنه عديم الفائدة .

أما قولهم : (اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) فالمقصود منه أن المعاصى والذنوب مآلها الاستئصال بالهلاك فى الدنيا ، أو العذاب الشديد فى الدنيا بدون هلاك ، أو فى الآخرة وقد يجمع الله فى الدنيا على العصاة الأمرين الإهلاك وتعذيبهم عذاباً شديداً ، دون الاستئصال أو المراد تعذيبهم فى الآخرة ، أو الجمع بين ذلك كله .

وليس المقصود من قول السائلين :(لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ . . .) إلخ : مجرد السؤال عن سبب وعظهم أولئك المعرضين أو عن حكمته ، بل المقصود منه نهيهم عن وعظهم لعدم فائدته كما تقدم بيانه ، وقد عدل به إلى هذا الأسلوب ، لأنه آكد فى النهى ، كأنه قيل : أى حكمة من الاستمرار فى وعظهم مع أنهم مصرّون على الذنب ومعاقبون من الله عليه أى : لاحكمة فيه فكفّوا عنه .

(قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

أى قال المرشدون للعصاة مجيبين من أنكر عليهم وعظ العصاة ومعتذرين عن مواصلة وعظهم : إنما نفعل ذلك ليكون معذرة لنا عند الله ، حتى لا نكون من المقصرين فى النهى عن المنكر ، ولعل ذلك يكون سبباً لإقلاعهم عما هم فيه من المعاصى .

١٦٥ - (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

أى فلما تركوا ما ذكرهم به وعاظهم ترك الشىء المنسى ، وأعرضوا عنه إعراضاً تامًّا ، أنجينا الذين ينهون عن المعصية التى من شأنها أن تسوء فاعلها وعاقبنا الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه ، بعذاب شديد لا رحمة فيه ، بسبب استمرارهم على الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى .

١٦٦ - (فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) :

بينت الآية السابقة أن الله تعالى عذبهم بعذاب بئيس لا رحمة فيه بسبب معاصيهم لعلهم يرتدعون ، وجاءت هذه الآية لتقرر أنهم لم يتأثروا بهذا العذاب ، بل استمروا فى ارتكاب ما نهوا عنه وزادوا فى طغيانهم فعوقبوا بمسخهم قردة فى خلقهم أو أخلاقهم أذلاء بعيدين عن الإنسانية صورة أو معنى .

وتحويل من عصى بالصيد يوم السبت ، إلى قردة حقيقة هو رأى جمهور المفسرين ، ومن العلماء من يرى : أن ذلك من باب التمثيل لسوء رأيهم وعدم اعتبارهم بالمواعظ ، فكما أن القردةَ لا تهتم بما وراء طعامها وإشباع غريزتها فكذلك هؤلاء فكأنه تعالى قال لهم : كونوا مثل القردة فى عدم الفهم والإدراك وسوء تقدير العواقب .

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾) .

المفردات :

(تَأَذَّنَ رَبُّكَ) : تأذن بمعنى آذن أى أعلم ، كتوعد بمعنى أوعد .

(مَنْ يَسُومُهُمْ) : من يذيقهم .

التفسير

١٦٧ - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوء الْعَذَابِ . . .) الآية.

لا توجد أمة تلاعبت بشريعتها وعبثت بها ، مابين إيمان وكفر ، وطاعة وعصيان مثل بنى إسرائيل .

ونظرا لتأصل الشر فيهم ، وسريانه فى دمائهم ، وتنقله فى أجيالهم سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، كما تشير إليه هذه الآية الكريمة :

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوء الْعَذَابِ . . .) :

أى : واذكر يامحمد وقت أن أعلم ربك الناس بما قضاه على بنى إسرائيل جزاء سيئاتهم وتمردهم المستمر ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب ، من إجلاء وتشريد ، وقد بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر ، فخرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ثم سلط عليهم الرومان مرة بعد أخرى - بسبب جرائمهم - فشردوهم ، وهدموا هيكلهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً[1] .

ولما جاء نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بالهدى ودين الحق تآمروا على قتله ، وعاهدوا قريشاً عليه فى غزوة الخندق ، فقاتلهم وأجلى من بقى منهم ، ثم توالى عليهم الإذلال والتشريد والقتل بعد ذلك ، أما نشاطهم الحالى فى كثير من المجتمعات - فإلى حين ، ولسوف يعود إليهم الإذلال والتشريد ، وما ربك بغافل عما يعملون .

ثم ختم الله الآية بقوله :(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) ليشير بذلك إلى أنه لا ينبغى لأحد عصى الله أن يأمن جانبه ويطمئن إلى حلمه فيستمر فى معاصيه ، فهو سريع العقاب لمن رأى الحكمة فى تعجيل عقابه ،ويشير بذلك أيضاً إلى أنه عظيم الغفران واسع الرحمة لمن تاب وآمن .

١٦٨ - (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ . .) الآية : توعدهم الله فى الآية السابقة بأن يبعث عليهم - إلى يوم القيامة - من يذيقهم سوء العذاب ، وجاءت هذه الآية لتبين أثرا من آثار هذا الوعيد وهو تفريقهم فى الأرض حتى لاتكون لهم شوكة ، وهذا التفريق والتقطيع فى الأرض بتسليط الله عليهم من يفرقهم فيها بسبب عصيانهم لله وإيذائهم للأمم التى يعيشون فيها .

والمعنى : وفرقناهم فى الأرض فرقاً وقطعاً[2] كل فرقة فى قطر من أقطارها ،وقلما يخلو قطر فيها منهم ، حتى لا تكون لهم شوكة ومنعة باجتماعهم فى قطر واحد يترتب عليه أذى

---

(١) ولما جاءت المسيحية لقوا من أهلها أذى كثيراً ، بغير شفقة ولا رحمة ، حيث شردوهم فى أنحاء الأرض ، وأحرقوهم وفرضوا عليهم أفدح الضرائب واستعبدوهم وكل ذلك بسبب جرائمهم ومؤامراتهم .

(٢) والتعبير عن فرقهم بالأمم فى قوله تعالى : « وقطعناهم فى الأرض أمما » للإشارة إلى أنهم حيثما يتفرقون فى الأرض يكونون أمما أى جماعات ، فتراهم يتجمعون ولا يسمحون بدخيل يكون بينهم ، يتعرف مكرهم ويطلع على مكايدهم ، وينبه الدولة التى هم فيها إلى مؤامراتهم وخطرهم .

كثيرًا لعباد الله ، ألا ترى أنهم لما اجتمعوا وصارت لهم دولة فى فلسطين تنفيذًا لوعد – بلفور – الإنجليزى فى النصف الثانى من القرن العشرين الميلادى ، آذوا جيرانهم من عرب فلسطين والأُردن وسوريا ومصر ، وعدوا على أراضيهم ، ولكن الله العلى القدير ، سلط عليهم جيش مصر وجيش سوريا فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ الموافق ٦ من أُكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فدكا حصونهم وأوقعا بجيشهم ، فقتلا منهم وجرحا وأسرا عددًا كبيرًا ، وحطما أسلحتهم وأجهزة الحرب لديهم ، من طائرات ودبابات وغيرها ، فى حرب خاطفة أذهلت أُمم العالم ، وحملتهم على تأييد العرب ضدهم فى استردادهم الأَرض التى سلبوها منهم وسيتحقق بإذن الله للعرب والمسلمين مزيد من النصر عليهم ، حتّى تزول دولتهم من أَرض العرب ، وتنتهى شوكتهم ومنعتهم ، ويعودوا إلى سوء العذاب والنكال الذى توعدهم الله به فى قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . . .) الآية .

أمَّا الصالحون منهم فى قوله تعالى: (مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ) فالمقصود بهم كما قال الطبرى– من آمنوا بالله ورسله الذين أرسلوا إليهم ، وثبتوا على دينهم قبل عيسى عليه السلام . وقيل: هم الذين أدركوا النبى – صلى الله عليه وسلم – وآمنوا به ، ونسب ذلك إلى ابن عباس – رضى الله عنهما –

وأما من هم دون ذلك فى قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ) فالمقصود بهم كفارهم وفساقهم فهم دون الصالحين وأحط منهم .

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

أى وامتحناهم بالنعم المختلفة من مال وخصب وعافية وولد وغير ذلك من الحسنات ، كما امتحناهم بالمحن المتنوعة من الجدب والتشريد ، والقتل والأَسر وغير ذلك من السيئات التى تسوءهم لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتوبون من غيهم .

(فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ
يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾) .

المفردات :

(خَلْفٌ) : المراد بهم هنا الأولاد ، وأكثر مايستعمل الخلْف بسكون اللام فى الشر ومنه :سكت أَلْفًا ونطق خَلْفًا ،وأكثر ما يستعمل الْخَلَفُ بفتح اللام فى الخير وأصل الخلف بصيغتيه ما يكون وراء غيره أو بعده .

(عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَى) : الْعَرَضُ : مالا ثبات له، وفى النهاية : العرَض-بالفتح-متاع الدنيا وحطامها. والمراد بهذا الأدنى : الدنيا . و أُشير إليها «بهذا» وهو للمذكر ، على تقدير : هذا الشىء الأدنى (١)

(مِيثَاقُ الْكِتَابِ) : المراد بالكتاب : التوراة . وبميثاقه : عهده الوثيق المؤكد .

(يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ) : يتمسكون به .

التفسير

١٦٩ - (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَى...) الآية :

---

(١) ويصح أن يكون المشار إليه ملحوظا ، وهو متاع الدنيا ، والأدنى : صفة لعرض ، والمعنى : يأخذون العرض الأدنى من متاع الدنيا وهو الحرام ، ولا يقتصرون على حلاله .

- أى : فجاء من بعد الصالحين والطالحين الأولين من بنى إسرائيل ذرية خلفهم ورثوا كتاب التوراة عن أسلافهم - وهم الذين عاصروا النبى - صلى الله عليه وسلم - يتعاطون العرض الأدنى من هذا المتاع الدنيوى ، وهو ما حرمه الله فى كتابهم من الأموال والعروض والوجاهة القائمة على الأضاليل ، ولا يقتصرون على ما أحله الله منها ، فقد كانوا يأخذون الرشوة على القضاء لصالح من يدفعها وعلى تغيير حكم الله فى التوراة عند الفتوى لقاء عرض زائل(1) وعلى تحريفها وسوء تأويلها لصالح زعمائهم ليحتفظوا بوجاهتهم لديهم ، ويقولون فى أنفسهم لا يؤاخذنا الله بما نأخذ ولا بما نقول ، بل سيغفر لنا ، زاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولهذا يصرون على الذنب ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى :(وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ) أى يرجون المغفرة والحال : أنهم إن يأتهم عرض محرم مثل الذى أخذوه يعودون لأخذه مصرّين على الذنب ، زاعمين المغفرة مع الاستمرار فيه ، فهم لا يرعوون ولا يتوبون

(أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ) :

أى ألم يؤخذ على بنى إسرائيل ميثاق التوراة وعهدها أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه دراسة تامة ، فعرفوا حلاله وحرامه ، فما بالهم يتعاطون الحرام ويصرون عليه ، ويقطعون بمغفرة الله لذنوبهم .

(وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى وثواب الدار الآخرة خير للذين يتقون الله فيتوبون إليه من كفرهم ومعاصيهم وقولهم على الله غير الحق وأخذهم مالا يحل لهم ، فإن متاع الدنيا قليل ومتاع الآخرة كثير دائم .

١٧٠ - (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) ،

أى : والذين يتمسكون فى أمور دينهم بالكتاب ، يقال مَسَّك بالشىء وتمسك به بمعنى واحد والمراد بهم - كما قال مجاهد وابن زيد - الذين آمنوا من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى - عليه السلام - فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة .

---

(1) قيل : كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاءهم المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم تحريفا وتبديلا لما فى التوراة - فحكموا له به .

وقد كأن تمسكهم بكتابهم على هذا طريقاً إلى إيمانهم بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وبما جاء به من عند الله تعالى ، وذلك أنهم رأوا مافيه من أوصاف خاتم النبيين ، فوجدوها منطبقة عليه – صلى الله عليه وسلم – وعلى ماجاء به من الهدى ، فسارعوا إلى الإيمان به ، والعمل بكتابه ، تمسكاً منهم بكتابهم الذى يوجب عليهم حينما يتحققون من أمارات نبوته ، أن يسارعوا إلى الإيمان به والعمل بكتابه ، فهو مهيمن على جميع الكتب السماوية ، مشتمل على أصول ماجاء فيها ، فمن عمل بالقرآن ، فقد تمسك بجميع الكتب السماوية لاشتماله عليها وانفراده عنها بما جاء فيه من الفروع المناسبة لحال الأمة الإسلامية ، التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

ويئول الأمر إلى أنهم يتمسكون بالقرآن الكريم [1] .

وقال عطاء : المراد من الذين يمسكون بالكتاب أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – والمراد من الكتاب القرآن الكريم .

ومعنى الآية : والذين يتمسّكون فى أمرهم كله بكتاب الله تعالى ويعملون بما فيه دائما واهتموا بالصلاة خاصة فأقاموها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ، إن الله لايضيع أجرهم فهم مصلحون ، والله لا يضيع أجر المصلحين .

وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات مع دخولها فى التمسك بالكتاب : لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإن من يقف مخلصاً بين يدى ربه خمس مرات فى اليوم والليلة يناجيه ويدعوه ، يستحى أن يفعل ذلك وهو مرتكب للفحشاء والمنكر ، ولهذا اعتبرت عماد الدين [2]

---

(١) لأن العمل بالتوراة بعد نزول القرآن قد نسخ بوجوب العمل بما فى القرآن ، فقد اشتمل على فروع تناسب مصالح المجتمع بعد بعثة محمد إلى يوم القيامة .

(٢) والتعبير عن التمسك بالكتاب بصيغة المضارع (يمسكون) للدلالة على أن التمسك به يجب أن يستمر ويتجدد فى جميع الأزمنة ، أما التعبير عن إقامة الصلاة بصيغة الماضى (وأقاموا الصلاة) فلأنها مختصة بأوقاتها الخمسة .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
محمد حمدي السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٠١١٥ - ١٩٧٨ - ٢٠٠٠ ٢٥،



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

الحزب الثامن عشر

الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٠

(﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾) .

المفردات :

(نَتَقْنَا) : رفعنا ـ (ظُلَّةٌ) : الظلة ما أظلك .

(بِقُوَّةٍ) : بجد وعزيمة ـ (وَظَنُّوا) : أى تيقنوا ـ وكثيرًا ما يستعمل الظن بمعنى التيقن كما هنا .

التفسير

١٧١ ـ (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ . .) الآية :

الربط : هذه الآية الكريمة متصلة بالآيات السابقة التى سجلت على بنى إسرائيل عنادهم وكفرهم بعد ما رأوا الآيات ، وبعد أن حقق الله لهم كثيرًا من الرغبات التى كانت تقتضى منهم الإيمان والشكر ، بدلا مما هم عليه من العصيان والكفر ، وقد كان مما طلبوا أن يأتيهم نبى الله موسى بكتاب من عند الله ، فيه بيان للتشريعات، وتوضيح لمعالم الحلال والحرام ، وقد جاءهم موسى بالتوراة مكتوبة فى الألواح ، قال تعالى: « وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا »[1] .

فلما قرأ عليهم التوراة، بادروا نبيهم بأن ما فيها لا يتحملونه ، لأنه إصر وحمل ثقيل عليهم لا يطيقونه، وكان هذا منهم عنادًا ، فحملهم الله على العمل بما فى التوراة بعد أن لم يجد معهم اللين ، بأن نتق الجبل فوقهم ورفعه رفعا حقيقيا كأنه ظُلَّة .

(١) الأعراف : من الآية ١٤٥ وقد مضى تفسيرها .

المعنى :

واذكر يا محمد وقت أن رفعنا الجبل فوق بنى إسرائيل فظللهم وتيقنوا أنه واقع بهم وساقط عليهم لعدم ثبات الأجسام الثقيلة فى الفضاء ،وقلنا لهم فى هذه الحالة المخيفة تقبلوا ما فرضناه عليكم فى التوراة ،وخذوه بجد وعزيمة وصدق ،(وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : أى تدارسوا تعاليمه وأحكامه واذكروها ،واعملوا بما فيها حتى لاتنسوها فإن الدراسة والعمل تجعل كتابكم غير منسىّ ولا متروك ، وفى دراسته على هذا النحو تطهير لقلوبكم وتزكية لنفوسكم وسلوك بكم سبيل الوصول إلى درجة المتقين .

وقد يقال : إن إيمانهم بعد رفع الجبل فوقهم حاصل بالإلجاء والإكراه وهو مناف للإيمان الصادق ، لأنه إنما يكون بالاختيار .

ويردُّ على ذلك بأن الله قد ترك لهم فرصة الاختيار مدة كافية قبل رفع الجبل ، ولم يؤمنوا لقسوة قلوبهم ،فكان هذا الإلجاء فى آخر أمرهم بمنزلة جهاد الكافرين والمشركين بعد أن وجهت الدعوة إليهم ليؤمنوا اختيارًا فأعرضوا وفى كلا الأمرين مصلحة لهم .

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾) .

المفردات :

(مِن ظُهُورِهِمْ) : من أصلابهم - (المُبْطِلُونَ) : المتبعون للباطل .

التفسير

١٧٢ - (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيَ آدَمَ . . . .) الآية :

الربط جاء فيما سبق بيان أخذ العهد على بنى إسرائيل ليأخذوا التوراة ويعملوا بما فيها ، وفى هذه الآيات بيان أخذ العهد على بنى آدم جميعًا ويدخل فيهم بنو إسرائيل لتتأكد مسئوليتهم عن عهدهم بدخولهم فى العهد العام .

المعنى : واذكر يامحمد الوقت الذى أخذ الله فيه العهد على ذرية آدم فى عالم الغيب (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ) : أى طلب منهم أن يعترفوا ويقروا بأن الله ربهم ومالك أمرهم ، وأنه لا إلٰه إلا هو ، بعد أن غرس فى نفوسهم ذلك وفطرهم عليه ، قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ »[1] وفى الصحيحين : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة . . . » وبعد أن هيأهم الله لقبول ذلك وجّه إليهم الخطاب بقوله : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) فكان جوابهم أن (قَالُوا بَلَىٰ) أى أنت ربنا وحدك لا شريك لك ، وبذلك الاستفهام التقريرى من الله بقوله : (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) والإجابة منهم بقولهم : (نعم) تمّ أخذُ الميثاق من الله على عباده .

(شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ) :

أى : قال الله شهدنا عليكم بما اعترفتم به حتى لا ترجعوا يوم القيامة فيما أقررتم به معتذرين بقولكم : إنا كنا عن هذا العهد غافلين - أى لا علم لنا به - ولا ندرى أننا عاهدنا هذا العهد ، ويجوز أن يكون بنو آدم هم الذين قالوا (شَهِدْنَا) تأكيدًا لموافقتهم على العهد بقولهم (بَلَىٰ) فتكون هذه الشهادة من جملة مقول القول .

ويقول بعض المحققين : إن هذا العهد تمثيل لخلقه تعالى إيّاهم على الفطرة السليمة ، الصالحة للاستدلال بالآيات الكونية على وجوده وربوبيته لهم ، وأن ذلك هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يُولد على الفِطْرة . . » الحديث .

---

(١) سورة الروم : من الآية ٣٠

١٧٣ - (أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ..) الآية :

أى أن الله تعالى أخذ عليهم العهد بربوبيته حتى لا يعتذروا عن شركهم بغفلتهم ، كما مر فى الآية السابقة ، أو يعتذروا بأن يقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبلنا وكنا ذرية لهم من بعد شركهم ، فأشركنا بشركهم، ونشأنا نقتدى بهم - كما قالوا : « إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] .

والمراد بيان أن الله أثبت بالحجة على كل نفس أنه أخذ الميثاق عليهم بتوحيده وأنه لا يقبل منهم عن الشرك الاعتذار بالغفلة والجهل أو التقليد للآباء .

(أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) : أى أتؤاخذنا فتعذبنا بما فعل المشركون من آبائنا والذنب ذنبهم وتجعل عذابنا مثل عذابهم ، مع قيام عذرنا بتقليدنا لهم وحسن الظن بهم ؟ ولكن هذا الاعتذار لايجديهم ،بعد إرسال الرسل مرشدين لهم ،مؤيدين لفطرة الله فيهم .

١٧٤ - (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) : أى ومثل هذا البيان البليغ الواضح نبين الآيات الناطقة بمصير المقلدين لآبائهم ليتفكروا فيهم ومن على شاكلتهم ، ولعلهم يرجعون عن غيهم وجهلهم وتقليدهم ، ويعودون إلى الرشد والهداية الصحيحة ، بحيث يعرفون ماوجب عليهم نحو خالقهم .

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾) .

---

(١) سورة الزخرف من الآية ٢٣ .

المفردات :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ) : واقرأ عليهم -(نَبَأَ) : خبر -(فَانسَلَخَ مِنْهَا): فخرج منها وتركها (فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) : أدركه وتمكن من الوسوسة له .

(الغَاوِينَ) : المُبْعَدِين فى الضلال - (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) : مال وسقط .

(يَلْهَثْ) اللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان .

(سَآءَ) : كلمة ذمٍّ مثل بئس ومعناها قبح .

التفسير

١٧٥ -(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا[١] .....) الآية : أى واقرأ يا محمد على من بعثت إليهم ومنهم اليهود، خبر الذى آتاه الله الدلائل والبراهين الدالة على الهدى والداعية إلى الرشاد فترك العمل بها كلية ونبذها وراء ظهره ولم يعرها التفاتاً وتفكرا ، فأدركه الشيطان بالوسوسة والغواية ، وصار قريناً وملازما له ، وازداد عصياناً وضلالا بذلك (فَكَانَ مِن الْغَاوِينَ): أى فصار من الراسخين فى الغواية والضلال بإعراضه عن الآيات البينات التى آتاه الله إياها .

١٧٦ - (وَلَوْشِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا. .) الآية : أى ولو أردنا هدايته إلى الحق بما أعطيناه من الآيات ، لرفعناه إلى الانتفاع بها والعمل بمقتضاها والوصول إلى الدرجات العالية والمنازل الرفيعة .

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ): أى ولكنه مال إلى الهبوط بسوء اختياره .

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ): بالإعراض عن تلك الدلائل الواضحة ، فانحط أشد انحطاط وارتدَّ أسفل سافلين . وحرم بذلك من مشيئتنا هدايته ، ورفعه من كبوته .

---

(١) اختلف فى تعيين الشخص الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فقيل هو بلعم بن باعوراء ، أو بلعام بن ياعرمن الكنعانيين ، أوتى علم بعض كتب الله تعالى ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، وقيل هو أمية بن أبى الصلت ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل فى هذا الزمان رسولا ورجا أن يكون ذلك الرسول ، فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حسده وكفربه، وقد أغفلنا ذكر اسم هذا الغاوى فى التفسير ، نظراً للاختلاف فيه، ولأنه ليس هناك سند مقبول يعتمد عليه فى تعيينه ، والله أعلم به والمهم هو مغزى قصته لاشخصه لأن شخصه لايتعلق بتعيينه غرض ، فلذا غفل القرآن ذكر اسمه ، وقد تبعناه فى ذلك .

ثم ضرب الله لصاحب هذه القصة مثلا يصور مبلغ تسفله وانحطاطه فقال :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) :

أى فصفة وحال هذا العالم فى الخسة والدناءة كصفة وحال أخس الحيوانات فى أخس أحواله ، وهى اللهث دائماً فى حالتى الراحة والتعب ، كما قال سبحانه : (إن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) : أى إن تطارده بالضرب والإهانة يخرج لسانه من آثار الإرهاق والمطاردة وإن تتركه دون مطاردة وإيذاء يخرج لسانه كذلك ، فشأنه واحد فى الحالين ، كذلك شأن ذلك العالم الذى آتاه الله علم آياته ولم يعمل بعلمه ، فإنه لم ينتفع بما علمه سواء أوعظته أم تركته فهو فى الحالين باق فى ظلمات الجهل ، والمراد من التشبيه ذم هذا الذى آتاه الله الآيات البينات ، فترك العمل بها .

(ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) : أى ذلك المثل الذى تقدم هو صفة وحال كل الذين كذبوا بآياتنا التى أوضحت لهم سبل الهداية والرشاد فلحقهم الذم لهذا الوصف القبيح (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) : أى فاذكر يامحمد لقومك المخالفين لك والمكذبين لرسالتك قصص المكذبين السابقين عن عناد واستكبار رجاء أن يتدبروا أمرهم ويعتبروا بما فى القصص من عبر ومواعظ « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [١] » ثم ختم الله هذه الآيات بقوله :

١٧٧ ـ (سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ...) الآية : أى قَبُحَ مثلا حالُ المكذبين لآياتنا التاركين لها عنادا واستكبارا مع وضوحها ، وقد ظلموا أنفسهم دون غيرهم حيث عرضوها للعذاب والعقاب بسبب ما اختاروا من التكذيب والعصيان . والمراد من هذه الآية المبالغة فى ذم هؤلاء الذين جمعوا بين التكذيب بالآيات وظلم أنفسهم بالمعاصى .

---

(١) سورة يوسف : من الآية ١١١

(مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾) .

المفردات :

(ذَرَأْنَا) : خلقنا ـ (لَايَفْقَهُونَ) : لايفهمون ولايدركون .

(الْغَافِلُونَ) : التاركون لما ينفعهم الساهون عنه .

التفسير

١٧٨ ـ (مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) :

لما أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام بأن يقص على أمته ـ عظة واعتبارا ـ قصص الذى آتاه الله الآيات فتركها عنادا واستكبارا ، عقب ذلك بقوله : (مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المهْتَدِى وَمَن يُضْلِلِ فَأُوْلئكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)ليبين أن الهداية إلى الحق بتوفيق الله للعبد ، وذلك لا يكون إلا لمن نظر فى آيات الله ، وسلك سبيل هداه ،

والمعنى : من يهده الله إلى دينه الحق بعد أن سلك طريق هداه ، فهو المهتدى دون سواه ، ممن سلك سبيل هواه ، ومن يتركه فى ضلاله لغفلته عن هداه ، فأولئك هم الخاسرون دنياهم وأخراهم .

١٧٩ - (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً . . .) الآية : أى والله لقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب فيها خلقا كثيرا من الثقلين ؛ الجن والإنس ؛ بسبب صرف وسائل الإدراك والمعرفة التى أودعناها فيهم إلى طريق الشر ، لسوء اختيارهم ، وكان من الممكن أن يسلكوا بها طريق الخير لو استعملوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم فيما ينفعهم ، فاستعملوا عقولهم فى فهم الآيات التى أنزلها الله إليهم ، وأسماعهمْ فى سماع الحجج التى أتتهم على لسان رسلهم ،وأبصارهِم فى النظر فى آيات الله التى نصبها لهم فى الآفاق ، وحثهم على النظر فيها والاعتبار بها ولكنهم لم يفعلوا فاستحقوا الخلود فى جهنم .

(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) : أى هولاء الموصوفون بتلك الصفات المتقدمة ، الذين أوغلوا فى الضلالة من الجن والإنس ، قد انحطت منزلتهم إلى الحضيض . فأشبهوا الأنعام التى لا تعقل ولا تدرك إلا بعض وسائل معيشتها (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) :أى بل هم أكثر ضلالا منها ، لأن الأنعام عندها شعور بالحاجة إلى الغذاء ، والبعد عما يضرها ، وهؤلاء ليسوا كذلك ، حيث عرفوا مايؤدى إلى هلاكهم ووقعوا فيه . (أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) : أى أولئك المماثلون للأنعام بل الأضل منها هم الكاملون فى الغفلة ، عما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

وفى هذه الآية الكريمة تقرير لمضمون ما سبق فى قوله :(مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) .

(وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾) .

التفسير

١٨٠ - (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا . . .) الآية :

بعد أن بين القرآن الكريم غفلة الغافلين التامة عن الله سبحانه وتعالى ، وما يحيق بهم من العذاب ، جاء يعلم المؤمنين كيف يذكرونه تعالى ، وكيف يعاملون

الملحلين بذلك، الغافلين عن الله، وعما يليق بمقامه العظيم؟ فقال: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ....) الآية :

أى ولله تعالى وحده أجمل الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأشرفها فسموه أيها المؤمنون بتلك الأسماء العظيمة التى علمكم إياها فى دعائكم إياه وندائكم له إجلالا لقدره وتعظيما لمقامه «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) : أى واجتنبوا الذين يميلون عن الحق فى أسمائه تعالى – حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم، كاشتقاقهم «اللَّاتَ» من الله، «والعُزَّىٰ» من العزيز، «ومَنَاةَ» من المنان – أو معنى يلحدون فى أسمائه، يسمونه سبحانه بغير ما سمى الله تعالى نفسه به، مما لم يرد به كتاب ولا سنة، لأن أسماء الله تعالى توقيفية – فيجوز أن يقول المؤمن فى دعائه مثلا: ياجواد – ولا يجوز أن يقول ياسخى، ويجوز أن يقول: ياعالم، ولا يجوز أن يقول: ياعاقل، وهكذا ....

(سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى سيعاقبون بإلحادهم فلا تتبعوا سبيلهم كى لا يحل بكم من العقاب ما سينزله الله بهم عقوبة ضلالهم المبين، وانحرافهم عن الحق بتسميته بما لم يأذن به الله .

وبعد أن أوضح القرآن حال الملحدين ومصيرهم، شرع يبيِّن حال المهتدين الداعين إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، القائمين بالعدل بين الناس فقال تعالى :

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾) .

المفردات :

(أُمَّةٌ) : جماعة . (كَذَّبُوا) : جحدوا . (سَنَسْتَدْرِجُهُم) :والاستدراج النقل درجة بعد أخرى صعودا ونزولا والمراد منه هنا نقلهم وتقريبهم إلى الهلاك بالنعم التى اغترُّوا بها ولم يؤدُّوا حقها . (كَيْدِى) : تدبيرى ،

(مَتِينٌ) : قوى . (وَأُمْلِى) : أمهل .

التفسير

١٨١ - (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ . .) الآية :أى وممن خلق الله من الثقلين جماعة تمسكوا بالحق ، وعملوا به ، ودعوا الناس إلى اتباعه والتزام طريقه ، فكانوا كاملين فى أنفسهم مكملين لغيرهم . (وَبِهِ يَعْدِلُونَ) : أى وبالحق يقيمون العدل بين الناس والوزن فى قضاياهم بالقسطاس المستقيم ، حتى يكونوا على الحق فى كل شئونهم ، وأطلق على الطائفة الهادية المهتدية كلمة - أمة - لأنهاتطلق على الطائفة ، التى توحدت كلمتها ، واتخذت منهجا واحدا فى طريقها إلى الحق ، فسلكت سبيل الله المستقيم الذى دعا إليه ،

١٨٢ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) :

بعدأن ذكر القرآن الكريم حال الهادين المهديين ،بين حال المكذبين بآيات الله التنزيلية والكونية ومآلهم ، ترغيبا فى طريق الأولين وتنفيرا من سبل المكذبين فقال تعالى : (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) :أى والذين أنكروا وجحدوا آياتنا ولم يعملوا بها ، بعد أن علموا عظيم نفعها وعلو شأنها ، وأنها معيار الحق ، ومصداق الصدق ، وميزان العدل ، كما يستفاد من إضافة الآيات إلى نون العظمة فى - آياتنا - « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » : أى جزاؤهم أننا سننقلهم ونقربهم إلى الهلاك شيئًا فشيئا وقليلا قليلا بسبب النعم الى اغتروا بتواليها عليهم فقد كانوا كلما أتوا ذنبا أعطوا نعمة[1] استدراجًا لهم[2] فظنوا لعظم غفلتهم عن الله وعن سننه فى خلقه أن ذلك إكرام لهم ، حتى يكون أخذه على حين غفلتهم عن العبرة به أخذا قويا ، كما يشير إليه قوله تعالى : « وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ » : أى وامهل

---

(١) ونسوا الشكر عليها .

(٢) قال فى الشهاب : إذا رأيت الله أنعم على عبده وهومقيم على معصيته فاعلم أنه استدراج .

هؤلاء المكذبين وأمدَّ لهم فى حبل النعم . (إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ) : أى إن انتقامى للمستدرَجين قوى لايدافع ، وسمّى الانتقام كيداً لأن فيه أخذ الظالمين المكذبين وعقابهم على خلاف ماكانوا يظنون ، فقد كانوا مغرورين بتوالى العطاء ، ويظنونه لطفاً بهم وإكراماً لهم ، ليكون العقاب شديداً ومضاعفا عند المفاجأة ، وتلك نتيجة الغفلة عن الله ، فيكون الجزاء من جنس العمل حيث يأتيه على حين غفلة منه فينزل به بأس الله « بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ » . أى فى الوقتين اللذين هما مظنة الراحة والأمن والطمأنينة .

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾) .

المفردات :

(جِنَّةٌ) : بكسر الجيم جنون ، (مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ) : أى العوالم التى اشتملت عليها السموات والأرض (يَذَرُهُمْ) : يتركهم ، (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون .

التفسير

بعد أن بين القرآن الكريم تكذيبهم بالآيات التى جاءت بها الرسل لهدايتهم ، شرع ينكر عليهم عدم تدبرهم فى رسالة الرسول مع قيام الأدلة على صحة رسالته وسلامة عقله فقال تعالى :

١٨٤ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّنْ جِنَّةٍ ...) الآية : أى أغفلوا عما امتاز به الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم من رجاحة العقل ، وصدق القول ، والأمانة الكاملة

فقد عرفوه بالصادق الأمين والمفكر السليم ، ولم يسبق منه ما يقتضى وصفه بخلاف ما عرفوه به ، فكيف أجازوا لأنفسهم وصفه بالجنون ، بعد أن جاءهم بالهدى والبينات من ربه ؟ إن هذا لشىء عجاب ، فقد صاحبوه أربعين سنة قبل البعثة عرفوه فيها بسلامة العقل وصدق الحديث ، وبما أن وصفه بالجنون صادر عن حقد وحسد دون تدبر ودون إنصاف فلذا أنكره الله عليهم ، وخصه بكونه منذرا ومبلغا لهم عن ربهم بقوله تعالى : (إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : أى ما محمد إلا محذر ومخوف من عقاب الله مُبين شرع الله بالحجة الواضحة والبرهان الصادق .

ثم وجه الله تعالى أنظارهم إلى ما فى الكون من آيات مرئية تثبت قدرته تعالى وحكمته فى إرسال الرسل لتصحيح عقائدهم الباطلة ، والسير بهم إلى مايوصلهم إلى نعيم الآخرة التى أنكروا مجيئها ، وكذبوا بالبعث بعد الموت فقال تعالى :

١٨٥ - (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شىْءٍ . . .) الآية : أى أعَمُوا عن التدبر فيما بين أيديهم من آثار قدرته تعالى ، ولم ينظروا نظر اعتبار وتدبر فيما يشاهدونه فى عالم السموات ، وعالم الأرض ، وفى مخلوقات الله جميعا (وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ) : أى أغفلوا كذلك ولم ينظروا إلى انتهاء حياتهم بالموت الذى يقتربون منه يوما بعد يوم ولحظة بعد لحظة فيقطع عليهم آجالهم وآمالهم قال تعالى : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » [1]

وفى هذا حث أكيد على المبادرة إلى التدبر فيما يرشدهم ويردهم إلى الصواب ، ويردعهم عما هم فيه من ضلال قبل فوات الأوان بحلول الموت الذى يعقبه الثواب والعقاب .

(فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) : أى وإذا لم يؤمن هؤلاء بالله ولم يصدقوا بالقرآن الكريم فبأى حديث بعد القرآن يصدقون ؟ - ولا حديث أصدق منه - ، فقد اشتمل على مايحقق سعادة العباد فى الدنيا والآخرة ، فقد كثر فيه الحديث عن ثواب الطائعين ترغيبا فى الطاعة ، كما أنذر العصاة كثيراً ليقوِّم اعوجاج العاصين ، قال تعالى : « اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

١٨٦ - (مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ . . .) الآية : أى - من يوقعه الله فى الضلال الذى اختاره فلا يجد هاديا يهديه من دون الله لأنه وحده يهدى من يشاء ويضل من يشاء

(١) الأنبياء : الآية ١

(وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) : أى ويتركهم فى تجبرهم الذى جاوزوا به حدود الله التى بينها لعباده وأرشدهم إلى الوقوف عندها - يعمهون - يتحيرون ويتخبطون فى ظلمات البغى والضلال « وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِن نُّورٍ » .

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾) .

المفردات :

(السَّاعَةِ) : المراد بها هنا يوم القيامة وقد يراد بها لغة جزء من الزمن .

(أَيَّانَ مُرْسَاهَا) : أى متى حصولها . أو متى وقوعها ؟ (لَا يُجَلِّيهَا) : لا يظهرها ويكشفها على وجه التحديد .

(ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : عظم أمرها على أهل السموات والأرض لما فيها من الأهوال .

(بَغْتَةً) : فجأة .

(حَفِىٌّ عَنْهَا) : بالغ العلم بها .

التفسير

بعد أن تحدث القرآن الكريم فى الآيات السابقة عن المهتدين والضالين ، تحدث عن الساعة التى هى مبدأ القيامة ، وبعدها يكون الثواب والعقاب فقال تعالى :

١٨٧ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ....) الآية : أى يسألك الناس يامحمد عن وقت مجىء الساعة التى يموت فيها الناس جميعا استبعادا لحصولها وتكذيبا لوقوعها إن كان السؤال من المشركين أو اختباراً لصدق نبوتك إن كان السؤال من جهة أهل الكتاب ، « أَيَّانَ مُرْسَاهَا » أى متى يكون مجيئها وثبوتها .

وليس لهم من هذا السؤال هدف صحيح ، وإنما قصدوا التهكم والإنكار أو امتحان محمد - صلى الله عليه وسلم - فى صدق رسالته كما تقدم وفى ذلك يقول الله تعالى حكاية عنهم : « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[1] ، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيب السائلين بقوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ) : أى قل لهم يا محمد : لا يعلم وقت مجيئها واستقرارها إلا الله وحده لا يتعداه إلى أحد من خلقه ، حتى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ) : أى لا يظهرها ولا يأتى بها فى وقتها غير الله تعالى وحده ، وفى هذا القول تأكيد بليغ وزيادة تقرير لما سبق من اختصاص علم الله تعالى بذلك (ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : أى عظم أمرها واشتد وقعها على أهل السموات والأرض بعد أن أعلمهم الله تعالى بما سيكون فيها من الشدائد والأهوال كما قال تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ » ، (لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً) : أى لا تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة ، وحينئذ تشعرون بثقلها لهول المفاجأة بها ، وبشدائدها وعقابها وفى هذا تقرير لنفى العلم بوقتها عمّن سوى الله تعالى واختصاصه سبحانه به وحده . (يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) : أى يسألك الناس يامحمد عن وقت وقوع الساعة ، مقدرين أن علمك بها كعلم من أحاط بالشىء وأدركه على حقيقته ، وهم مخطئون ، فى تقدير إحاطتك بوقت وقوعها ، يوضح ذلك أمره تعالى لنبيه بإعادة ما سبق أن ردّ به عليهم حيث قال : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ) :لا يعلم وقت مجىء الساعة إلا الله وحده دون سواه ، وفى هذا تأكيد وتعميق للمعنى المستفاد من الرد الأول مع ما يفيده ذكر لفظ الجلالة من هيبة ورهبة فى مقابلة جهلهم وتعنتهم فى طلب أمور لا يعلمها إلا الله وحده . وفى ختم الآية بقوله تعالى :(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) إشعار بأن منشأ السؤال هو جهل أكثرهم وأنهم لا يعلمون اختصاص الله بالعلم بها كما تقرر فيما سبق ولا يعلمون حكمة هذا الاختصاص ، وكلمة « أَكْثَرَ » تدل على أن القليل من الناس يعلمون تلك الحكمة بإرشاد من النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة الملك : الآية ٢٥

وفى إخفاء أمر الساعة حمل للمكلفين على العمل والجد فى الطاعة قبل أن تأتيهم بغتة ، إذ لو علموا وقتها لأهملوا واستمروا فى لهوهم وعصيانهم إلى أن يقترب وقتها فيتوبوا وقد لايستطيعون ذلك لمفاجأة الموت لهم أو لتمكن عادة العصيان فى نفوسهم ،ومن هذا القبيل إخفاء وقت الموت ،وإخفاء قبول الدعاء ، وإخفاء ليلة القدر ، ليظل المكلف مقيما على عبادة الله تعالى وطاعته ،وقد استأثر الله بعلم الساعة لمصلحة المكلفين كما فهم مما تقدم ، غير أنه ورد فى « السُّنَّةِ » ذكر علامات تدل على قرب وقوعها منها ضياع الأمانة .

(قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَاشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾) . .

المفردات :

(نَذِيرٌ) : منذر بوعيد الله للعصاة والكافرين .

(وَبَشِيرٌ) : ومبشر بوعد الله لكل من يؤمن بالله .

التفسير

١٨٨ - (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَاضَرًّا إِلَّا مَاشَآءَ اللَّهُ. . . .) الآية : أى قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك عن وقت مجىء الساعة لا أملك جلب نفع لنفسى ولا دفع ضرعنها ،(إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ) : أى إلا الشىء الذى أراد الله تعالى تمكينى من فعله ، فإنى أقدر عليه وأستطيعه باختيارى إياه ، وبهذا الاستثناء لايقال : كيف لايملك الإنسان لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ، مع مشاهدته.يفعل ما يصلح شأنه ، ويبتعد عما يضره ؟ (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوٓءُ) : أى ولو كنت أعلم الغيب ، والمناسبات التى تربط بين الأشياء ، ويصح بها ترتيب المسببات على أسبابها لحصلت كثيراً من الخير الذى ينفعنى ويمكن للإنسان تحصيله بأفعاله الاختيارية ،وفى هذا القول الكريم برهان واضح

على نفى علم الأنبياء بالغيب ، إذ لو ثبت لهم ذلك لاستكثر صلى الله عليه وسلم من الخير الذى ينفعه . وابتعد عما وقع له من ضرر وسوء وبخاصة فى سبيل تبليغ الدعوة ، وفى جهاد الكفار والمشركين ، (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : أى ما أنا إلا رسول من البشر اصطفاه الله لإنذار العصاة والكفار من النار ، وبشارة الذين يؤمنون بالله بالجنة ، خصنى الله بمعرفة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية لا أتعدى ذلك إلى العلم بالغيب الذى لايتوقف العلم بالأحكام والشرائع عليه ، قال تعالى : « هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا » .

وقد كشف الله من أمر الساعة ما يتعلق بمصلحة الإنذار من أنها آتية لاريب فيها وأنها اقتربت . وأما تعيين وقتها فليس مما يقتضيه الإنذار ، بل مما يضربه ، لأن إبهام وقتها أدعى إلى التخويف والترهيب ، ويجوز أن يكون قوله تعالى (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) متعلقا بالوصفين [النذارة والبشارة] ، ولايقال حينئذ إذا كان الله قد أرسله بشيراً ونذيرا للناس كافة ، فما وجه التقييد بقوله : (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن ثمرة الرسالة بالبشارة والنذارة إنما ظهرت فى المؤمنين خاصة ، فنص القرآن على محل النفع والفائدة ، على حد قوله تعالى : « هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » وقوله : « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » .

(* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾) .

المفردات :

(زَوْجَهَا) : الزوجة والمراد بها حواء .

(لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) : ليطمئن إليها .

(تَغَشَّاهَا) : غشيها وهو كناية عن الوقاع .

(حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا) : أى كان حملها خفيفا لايمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح .

(فَمَرَّتْ بِهِ) : فمضت به وترددت فى قضاء مصالحها من غير مشقة ولا كلفة .

(فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) : صارت ذات ثقل بسبب كبر الولد وقرب وضعه .

(دَعَوَا اللَّهَ) : تضرعا إليه .

التفسير

١٨٩ – (هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَهَا . . . .) الآية .

بيَّن الله فى أول السورة إجمالا كيفية خلق الناس ، وتصويرهم ضمن خلق آدم أبى البشر وتصويره ، ثم حتمها بنوع من التفصيل لكيفية هذا الخلق فقال تعالى :

(هُو الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) :

أى هو الله العظيم الذى بدأ خلقكم وحده أيها الناس ، من نفس واحدة ، هى نفس آدم عليه السلام ، دون أن يكون له شريك فى ذلك ، فتمت بهذا أعظم نعم الله على عباده ، ألا وهى إخراجهم من العدم إلى الوجود ، فالخلق هو النعمة الأولى على الإنسان .

والخطاب فى «خَلَقَكُم» لبنى آدم ، و« مِنْ» هنا ابتدائية كما أشير إليه فى المعنى كما أفادت الجملة الحصر– أى هو وحده الذى خلقكم .

ووصف النفس بواحدة للإشارة إلى وحدة الأبوة ، وللتعجيب بقدرته تعالى :(وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) أى وصيّر من جنسها زوجها وهى حواء ، وكانت من جنس النفس إتماما للنعمة ، إذ الجنس إلى الجنس أميل ، حتى يتم الأنس بين الزوجين ، والزوج يطلق على الاثنين اللذين بينهما تزاوج ، (لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) أى ليستقر نفسًا ويطمئن قلبا إليها ، وتزول الوحشة الحاصلة بالانفراد ، ويصير منهما بعد ذلك الذكر والأنثى ، فيبقى الجنس كما شاء الله بسبب التزاوج بين الرجل والمرأة ، وفى هذا النص بيان للغاية المقصودة من الزوجة المجانسة ، وهى سكون الروح وإيناس النفس وبقاء الجنس وعمارة الأرض

فأنت ترى أنه لما أراد الله تعالى بقاء العمران فى الدنيا وشاء له أن يكون منظمًا ومستقرًّا جعل السكن بين الزوجين ، حتى لا يملّا من الاختلاط ، فينصرف كل منهما عن الآخر فينقطع النسل ، (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) : أى فلما غشى الزوج منكم زوجته (حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا) : أى حملت حملا خفيفا فى بادىء الأمر ، لايمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح ، فإن كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة أخف مما يكون فى المراتب التى بعد ذلك . (فَمَرَّتْ بِهِ) : أى فمضت به ، وترددت فى قضاء المصالح من غير مشقة ولاعناء (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) : أى فلما صارت ذات ثقل ، وقرب وقت وضع حملها ، وأشفقا أن يكون غير سوى ، واهتمت هى وآدم بهذا الأمر الذى لم يعهداه من قبل ، تضرعا إلى الله ربهما كما قال تعالى :(دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) : أى تضرعا إلى الله ربهما المتولى وحده شئونهما بالتربية والرعاية ، القادر دون سواه على تحقيق رجائهما وإجابة دعائهما أن يعطيهما ولدا صالحا ، إذ قالا مقسمين : والله لئن أعطيتنا ورزقتنا ولدا صالحا سويا مستقيم الخلقة لنكونن من المخلصين لك فى الشكر على نعمائك التى لاتحصى ، ومن أعظمها تلك النعمة الجليلة ، نعمة الولد الصالح السوى .

١٩٠ - (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا . . .) الآية .

أى فلما استجاب الله تعالى دعاء الزوجين من ذرية آدم وحواء ، وأعطاهما ولدا صالحا ، أى كامل التكوين والخلقة (جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) : أى جعل الزوجان من ذرية آدم وحواء لله تعالى شركاء فى الولد الصالح فى تكوينه . حيث نسباه لبركة أوثانهم مع الله تعالى فالاشتراك وقع من ذرية آدم وحواء .

ويجوز أن يكون التأويل فى قوله : (جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ) بتقدير مضاف محذوف أى جعل أولادهما لله شركاء ، وجعل الكلام على حذف مضاف كثير ومعهود . ومنه قوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » : أى واسأل أهل القرية - وبهذا التفسير أو ذاك يندفع ما عساه يفهم من ظاهر الآية الكريمة من أن آدم وحواء هما اللذان جعلا لله شركاء فيما آتاهما ، وذلك يتنافى مع مقام خليفة الله فى الأرض الذى يقتضى التوحيد والشكر على إنعام الله باستجابة دعائه وزوجه .

ومما يدل على استبعاد وقوع الشرك من آدم وحواء أنفسهما قوله تعالى : (فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) فإنه يدل على أن الذين وقع منهم الشرك جماعة أكثر من اثنين ، وكذلك قوله تعالى : (أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

(فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :أى فعلا مقام الله وارتفع ، وسما قدره وتنزه اسمه عمّا يشركه معه هؤلاء الأغبياء ، ويسوونهم به فى إطلاق اسم الله عليهم ومن أوثانهم ، حيث اعتبروها شريكة الله فى الولد الذى أتاهما .

ولصاحب الانتصاف تأويل فى الآية قال : وأسلم الأقوال أن يكون المراد بالتثنية جنس الذكر والأنثى من غير قصد إلى معين بالشخص ، فكأنه قال جل شأنه ، خلقكم جنسا واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الذى هو الأنثى وقع من هذين الجنسين ما قد كان من شرك ، وكَيْتُ وكَيْتُ ، فالتثنية فى قوله : (جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ) مراد بها الجنسان من ذكر وأنثى وليس المراد خصوص آدم وحواء اه وهذا التأويل هو الذى نرتضيه ويشبه ما قلناه أولا .

ثم بيّن الله بعد هذا جهلهم وسخافة عقولهم ، وفساد آرائهم بهذا الشرك فقال تعالى :

(أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾) .

المفردات :

(صَامِتُونَ) : تاركون دعوتهم .

التفسير

١٩١ - (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا) : أى أبعد أن منح الله هؤلاء المشركين العقل وأرسل إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، داعيا إلى توحيد الله ، وسراجا منيرا ، أبعد هذا كله يشركون معه سبحانه فى الألوهية صنما أو غيره من مخلوقات الله مما ليس له قدرة على أن يخلق شيئا ولو كان ذبابا (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) : أى والحال أن ما عبدوهم يُخْلَقُون ، والمخلوق يكون محتاجا إلى غيره فلا يصلح أن يكون إلهًا معبودا.

وقد أفاد أسلوب الاستفهام فى الآية الكريمة الإنكار عليهم ، والتعجيب من حالهم وتوبيخهم على أن أشركوا مع الله مالا يصلح أن يكون إلـهًا ، كما نَبَّه على سخافة عقولهم ، وبطلان عقيدتهم .

ثم بين القرآن الكريم : أن هذه الأصنام التى لم تخْلُقْ شيئًا بل إنها مخلوقة وعاجزة ، لاتنفع غيرها ولاتدفع الضر عن نفسها فقال تعالى :

١٩٢ - (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) :

أى ولايستطيع هؤلاء الشركاء دفع أى ضر ينزل بمن عبدوهم مع الله ولا تحقيق أى نفع لهم ، بل ولايستطيعون نصر أنفسهم بدفع أى معتد عليهم ، وإن بلغ هذا المعتدى غاية الضعف كالذباب أو ما هو دون الذباب قال تعالى : « وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ »[1] وفى هذا بيان لتمام عجزهم وغاية ضعفهم .

ثم انتقل القرآن الكريم يبين عجزهم عما هو أيسر من نصر أنفسهم وعابديهم ، وهو مجرد إرشاد عابديهم إلى طريق مطالبكم دون تحصيلها فقال تعالى :

١٩٣ - (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ) :

أى وإن تدعوا أيها المشركون آلهتكم من دون الله لهدايتكم وإرشادكم إلى مصالحكم.... لايتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوا لكم طلبا بإرشادكم ، ولا يحققوا لكم رغبة ، كما يحقق الله رغبة العباد إذا لجأوا إليه ، فالخطاب للمشركين ، وضمير « هم » لآلهتهم ،

(١) سورة الحج : الآية ٧٣

ويجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين ، والضمير « هم » في تدعوهم للمشركين .

أى وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء المشركين إلى الهدى والعمل الصالح لايتبعوكم ، ولايستجيبوا لكم ، لأن الله طمس على بصيرتهم ، وختم على قلوبهم ، والقول الأول هو الظاهر المناسب للسياق ، ليكون الكلام سائرا على نمط واحد فى مرجع الضمائر . . .

(سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) أى سواء عليكم أيها المشركون فى عدم الإفادة من هذه الآلهة طلبكم منها ، وعدم طلبكم ، فحالكم لايتغير فى الحالتين ، كما أن حالها لايتغير فإنها لاتضر ولاتنفع . . . وفى هذا الأسلوب البليغ إرشاد إلى عدم اتباع هذه المعبودات الباطلة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾) .

المفردات :

(تَدْعُونَ) : تعبدون . (وَلِيِّىَ اللهُ) : متولى أمرى وناصرى .

التفسير

١٩٤ ـ (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ....) الآية :

فى الآيات السابقة طائفة من الحجج والبراهين جاءت لإبطال الشرك وتسفيه عقول المشركين.

ونظراً لتأصل عادة الشرك فى نفوس المشركين بتقليدَ من قبلهم واتباعهم إياهم ؛ فقد جاءت هذه الآيات الكريمة ، تحكى طائفة اخرى من الحجج التى تدحض الشرك وتدمغ المشركين بالخزى والجهل والعار ، مع بيان الفرق بين من تجب عبادته لقدرته ، ومالاتصح عبادته لعجزه ، حتى يمكن اقتلاع تلك العقيدة الفاسدة من جذورها واستئصالها من منابتها ، لتنتصر كلمة التوحيد وتعلو على أساس ثابت ، وتتضح بدليل قاطع فقال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ....) الآية : أى إن الأصنام وسائر الآلهة التى تعبدونها أيها المشركون من دون الله وتنادونهم لنصرتكم فى الشدائد ، عباد مماثلون لكم فى العبودية ، لأنهم مخلوقون لله ومسخرون وخاضعون لما خلقوا له مثلكم ، والأصنام جمادات ، مسخرة لأمر الله كما سخرت الأرض والسموات لأمره سبحانه وسننه فى الكون .

وإذا كانوا أمثالكم فإنه يمتنع عقلا ، أن تطلبوا منهم ما قد عجز تم عنَ مثله . وإذا كان الذين تدعون من دون الله أحياء مثلكم ، فالمماثلة تقتضى عجزهم كما عجزتم ، وإن كان ماتدعونه جمادا فهو أقل منكم حيث لاحياة له ولاعقل ، بل هو دون المماثلة لكم حينئذ ، فكيف ترفعونهم إلى مقام الألوهية ، وهم مثلكم أو أعجز منكم وأقل شأنا ، وفى قوله تعالى : (فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) : تقرير لعجزهم أى فنادوا أيها المشركون هذه الأصنام ، فإذا سمعوا نداءكم فلتكن منهم الإجابة لكم ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنهم قادرون على النفع والضر ـ ولام الأمر فى «فليستجيبوا» للتعجيز والسخرية والتهكم بهم .

وبعد أن قرعهم القرآن الكريم على عبادة عباد مماثلين لهم فى التسخير والخضوع لأمر الله ، عاجزين عما عجز عنه العابدون لهم ،أكد تقريعهم ببيان غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم ، إذ أوضح أنهم أحط منهم مرتبة وأقل درجة لفقدانهم وسائل جلب النفع ودفع الضر فى قوله تعالى :

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ....) الآية :

أى ليس لهؤلاء الأصنام أرجل يمشون بها كما تمشون بأرجلكم إلى أغراضكم ، بل ليس لهم أيد يأخذون بها بالعنف والقوة ما يريدون من غيرهم أو يدفعون بها عن أنفسهم وعابديهم بل ليس لهم أعين يبصرون بها أحوالكم ليحققوا لكم أغراضكم ، بل ليس لهم آذان يسمعون بها كلامكم ، ليستجيبوا لرغباتكم ، وإذا كان هذا هو شأن الجمادات التى تعبدونها من دون الله ، فلماذا ترفعونهم إلى مقام الألوهية ، ثم ترفضون الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستجابة لأمر الله تعالى ؛ ومن كان هذا شأنه فهو أحط منزلة من مستوى المماثلة بينكم وبينهم، فكيف يكون لهم مقام الألوهية والعبودية ، « إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » ، تعالى الله عما يشركون .

وبعد أن بين القرآن الكريم أن شركاءهم لايقدرون على شىء أصلا ، وأنهم أحط منهم درجات ،أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يلزم المشركين ويفحمهم بعجزهم وعجز آلهتهم . فطلب منهم أن يلحقوا به ضررا مًّا فقال تعالى : (قُلِ ادْعوا شُرَكَآءَكُمْ ....) الآية : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين للتهكم بهم وإفحامهم وإلزامهم الحجة ، نادوا شركاءكم وأحضروهم واستعينوا بهم علىَّ ، ثم اجتمعوا أنتم وهُمْ وبالغوا فى بذل أقصى ما تستطيعون فى تدبير الكيد والمكر فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب أموركم وإحكام مكركم ، ولا تؤخروا ما قررتم إنزاله بى من عقاب فإنى لا أبالى بكم ولا أعبأ بمكركم ؛ وأساس هذا القول عظم الثقة بالله تعالى وأنه ولى الصالحين ، كما قال تعالى . حكاية عن حال نبيه (إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ):أى لا أبالى بكم وبشركائكم ، لأن المتولى لأمرى وناصرى هو الله وحده ، الذى نزل الكتاب الناطق بأنه وليِّى وناصرى وأن شركاءكم لايستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ):أى وقد جرت سنته تعالى ، أن يتولى وحده رعاية الصالحين من عباده ، وحفظهم ، وأنه ينصرهم ولايخذلهم .

ومما تقدم يتبين أن الاستفهام فى قوله:(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ) . . . الخ للإنكار المراد منه النفى ، كما أفاد الأسلوب غاية التهكم بهم والسخرية من تدبيرهم .

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾) .

المفردات :

(تَدْعُونَ) : تعبدون .

التفسير

١٩٧ - (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ....) الآية :

بعد أن بيَّن الله فى الآية السابقة ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عزيز بولاية الله ومعتصم بنصرته ، جاء ببيان أن الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله عاجزة لاتستطيع نصرهم فى الشدائد ، بل ولاتستطيع دفع الضر عن نفسها إذ قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ...) الآية : أى والأصنام التى تعبدونها أيها المشركون من دون الله لاتستطيع نصركم فى الشدائد والنوازل ، بل ولاتستطيع دفع الضر عن نفسها إذا هو لحق بها .

وهذه الآية وإن تقدم معناها ، إلا أن تكرار هذا المعنى مطلوب لاقتلاع جذور الشرك التى تأصلت فى نفوس المشركين ، ثم ذكر القرآن الكريم حالة أخرى من أحوال ضعفها وهوانها تنفرهم من عبادتها ، والاعتماد عليها فقال تعالى :

١٩٨ - (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَايَسْمَعُوا وتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ) :

أى وإن تنادوا أيها المشركون آلهتكم من الأصنام لترشدكم إلى ما تطلبون من صلاح الحال لايسمعوا نداءكم ولايستجيبوا لطلبكم لتمام عجزهم وضعفهم : (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ) .

أى وتراهم أيها الناظر يقابلونك بعيون وصورة كأنها ناظرة إليك وهى لاتنظر ، إذ هى جماد لايرى ولايبصر .

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم وضمير (تَدْعُوهُمْ) للمشركين أي وإن تدعو أيها النبي هؤلاء المشركين إلى الهدى والإيمان لايسمعوا لك سماع فهم وإدراك ، لأن سبل الهداية قد سدّت عليهم بسوء اختيارهم ، وتراهم أيها النبي ينظرون إليك وهم لايبصرون رفعة مقامك وجلال قدرك لعمى قلوبهم وطمس بصيرتهم فلم يدركوا ما فى دعوتك من الهدى والرشاد .

وعلى هذا تكون الآية السابقة للتنديد بنفس الأصنام ، وهذه الآية للتنديد بعبَدة الأصنام والأوثان .

وفى هذا التفسير – على الرأى الثانى – إشارة لطيفة تؤخذ من قوله تعالى : (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ) : لإدراك الفرق بين طمس البصيرة فى الكافرين حتى ينظروا وهم لايبصرون ، وبين ما منحه الله للمؤمنين من منارة الإيمان التى تنيرللبصيرة ما هو كامن مستتر فى بعض النفوس بمجرد النظر إليها ثم يتبين له صدق فراسته بالمخالطة والمعاشرة ، كما يشير إلى ذلك قول الله عز وجل فى خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ »[1] فالكافر ينظر ببصره ، وهو أعمى البصيرة ، بسبب ما ران على قلبه من حجب الكفر والمعاصي والمؤمن ينظر بالفطرة مع فراسة الإيمان ، فيرى ببصيرته بعض صفات المرئى ، قبل أن ينطق ويتكلم ، ولهذا كان يوجّه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال واحد فى الأسلوب من عدة أشخاص ، فيجيب بعضهم بقوله : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ » ويجيب آخر بقوله : « أَطِعْ أَبَوَيْكَ » ، ويجيب ثالثا بقوله : « أَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ » ، ومنشأ ذلك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لهم كالطبيب ، فيوصى كل شخص بما يناسبه حسب ما انكشف له من التقصير والعيوب بإلهام من الله ، ونور بصيرته ، وهكذا من هذا القبيل نظرة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجاب له من غير تردُّدٍ ، لأنه رأى منه بأصل الفطرة ما لم يَرَهُ غيره ، وكذلك السيدة

(١) سورة محمد ، من الآية : ٣٠

خديجة رضى الله عنها حينما أدركت فضل النبي صلى الله عليه وسلم ولمست فيه كمال صفاته، فآمنت به، وكانت من قبل قد اختارته زوجًا لها مع فقره وغناها، وكان ذلك بعد أن رفضت كثيرا من أشراف قريش ليكون أحدهم زوجًا لها.

(خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾).

المفردات :

(الْعَفْوَ) : السهل اليسير من أخلاق الناس.

(بِالْعُرْفِ) : بالمعروف وهو ما شرعه الله لعباده وعرف حسنه شرعا وعقلا من عادات الناس.

التفسير

١٩٩ - (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) :

لما بين الله فى الآيات السابقة فساد عبادة الأصنام وعناد الكافرين جاء بعد ذلك بإرشاد نبيه صلى الله عليه وسلم، إلى اللين فى معاملة الناس عامَّةً تيسيرا عليهم وتأليفا لقلوب الجاحدين، وتسكينا لثورة جماحهم لعلهم يعودون إلى الحق وحسن الاستماع فقال تعالى :

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) : أى أقبل يا محمد السهل اليسير من أخلاق الناس، وتساهل معهم فيما اعتادوه، من أعمال وعادات لاتخالف ما جئت به. وأمرهم بما شرعه الله لهم، وهو ما تقر بحسنه وصلاحيته العقول السليمة وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى العفو : الفضل الزائد عن حاجة الناس من أموالهم، ليكون الأخذ مستعملا فى المُحَسّ دون تجوز. كما فى قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ». أى الزائد عن حاجتهم.

والأظهر حمل الآية على المعنى الأول، وهو العفو بمعنى القبول .... مع مراعاة تقييده بقوله تعالى : (وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ) أى بالمعروف لك عن طريق الوحى، فلا عفو حينئذ فيما هو مطلوب شرعا، ويبقى العفو عامًّا فيما يجوز التسامح فيه.

قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » والمعروف مأمور به فى العبادات والمعاملات ، ومنها المبايعات وأحكام النكاح ، ولأن المعروف هو شريعة الله للناس ، وعليه يتوقف إصلاح حالهم فى الدنيا والآخرة جاء القرآن الكريم مقررا له فى آيات كثيرة ، من ذلك : ما حكاه عن التوارة والإنجيل من وصف النبى صلى الله عليه وسلم .وذلك فى قوله :

« يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ » ، وماجاء فى قوله تعالى : « وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » ، وفى مبايعة النساء : « وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ » وفى معاشرتهن بالمعروف ، وفى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » .

ولما كان الأمر بالمعروف قد يؤدى إلى سفاهة بعض الجاهلين وإيذائهم للنبى عليه السلام- أمره الله تعالى بالتسامح فى قوله : (وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) : أى وأعرض عن سفاهة الجاهلين الناشئة عن حقدهم وحسدهم ، وجهلهم ، واترك مؤاخذتهم بمثل سفههم ، فقد يؤثر الحلم والعفو فى السفيه فيرجع إلى الصواب ويلوم نفسه .

ولقد كان لحلمه- صلى الله عليه وسلم- وإعراضه عما يسوءه من قومه أثر كبير فى إسلام من كان يسفّه ويعارض ، بعد أن لمس وامنه صلى الله عليه وسلم ، هذا الخلق الكريم ، قال تعالى : «وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وإنما يحسن العفو إذا لم يؤد إلى تعطيل ماشرعه الله .

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾) .

المفردات :

(يَنْزَغَنَّكَ) : يَجُرَّنَّك للشر والإفساد ، ونَزْغُ الشيطان وساوسه .

(فَاسْتَعِذْ) : استَجِرْ بالله وتحصن .

التفسير

٢٠٠ - (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

روى عن ابن زيد قال : لما نزل قوله تعالى:(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَكَيْفَ الغَضَبُ يَارَب ؟» فنزل قوله تعالى : (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

أى وإن يوسوس لك الشيطان أيها المؤمن وسوسة شديدة ويدفعك إلى فعل الشر والإفساد دفعا قويا بالتشكيك فى الحق وتزيين الباطل ،(فَاسْتَعِذْ بِاللهِ) : أى فالتجئ إلى الله وتحصن واستعن به على دفع وساوسه ونزغاتك (إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أى إنه تعالى وحده عظيم السمع لكل مسموع ، (عَلِيمٌ) محيط علمه بكل شىء فيسمع دعاءك ويعلم إخلاص قلبك وصدق نيتك فإذا صدقت فى القول وأخلصت فى التضرع إليه عصمك من شره ، والخطاب فى الآية للرسول صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته لأن الله قد عصم رسوله صلى الله عليه وسلم من نزغات الشيطان وقبول وسوسته . وفيما يلى بيانه :

فإن العبد إذا التجأ إلى الله واستعان به ، دخل فى مقام العبودية الخاصة ، فيتحصن بها من الشيطان ، وقد قال جل شأنه : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » . فالشيطان لاسبيل له يسلكه إلى قلب العبد إلا إذا وجد فى عمله ثلمة يدخل منها إلى قلبه ، كما يؤخذ ذلك من قوله تعالى : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ » . فالانسلاخ من الآية ثُلْمة نَفَذَ منها الشيطان لمن انسلخ عن آياته

ثم أتبع هذه الآية قوله تعالى :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾) .

المفردات :

(مَسَّهُمْ) : أى أصابهم . (طَائِفٌ) : أى خاطر . (الغَىّ) : الضلال والفساد .

التفسير

٢٠١ - (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) :

أى إن الذين اتقوا ربّهم وخافوا عذابه فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، من عادتهم أنهم إذا نالهم/ وأصابهم خاطر من خواطر الشيطان ، وأصابتهم منه وسوسة تزين لهم المعصية ، تذكروا مقام ربهم ، واستحضروا هيبته وجلاله ، وتذكروا أوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، فإذا هم مبصرون بنور ربهم طريق الهدى والرشاد . والمراد بالشيطان شيطان الجن .

٢٠٢ - (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) :

بعد أن نبه الله ، وحذر من وسوسة شياطين الجن ، جاءت هذه الآية للتحذير من إخوانهم شياطين الإنس .

أى وإخوان شياطين الجن من شياطين الإنس مثلهم فى الإفساد يساعدونهم فى الإغواء فما يزالون يعضدونهم بتزيين المعاصى لبعض الناس ، (ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) : أى لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يُصِرَّ من وقع فى حبائلهم على تنفيذ غوايتهم ، وسلوك طريق الضلال .

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩).

المفردات :

(اجْتَبَيْتَهَا) : طلبتها . (بَصَآئِرُ) : ما تبصر به عقولكم من الآيات .

(فَاسْتَمِعُوا) : فاقصدوا سماعه . (وَأَنصِتُوا) : واسكتوا متأملين معناه .

(تَضَرُّعًا) : تذللا . (وَخِيفَةً) : وخوفاً . (الغُدُوِّ) : أول النهار .

(الآصَالِ) : جمع أصيل : وهو آخر النهار والمقصود من الغدو والآصال هنا جميع الأوقات .

التفسير

٢٠٣ - (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ...) الآية .

بدأت هذه الآيات ببيان نوع من الغيِّ المشار إليه في الآية السابقة (وَإِخْوَانُهُم يَمُدُّونَهُم فِي الغَيِّ ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ) وذلك ماحكاه الله بقوله تعالى : (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ) الآية.

أى وإذا لم تجىء إليهم أيها الرسول بما طلبوا من الآيات والمعجزات قال هؤلاء المتعنتين ساخرين : هلاَّ جئتنا بما طلبناه من الآيات كى نصدق رسالتك .

فأمر الله نبيه أن يسمعهم الجواب الشافى ردًّا على سخريتهم بقوله : (قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّى) : أى قل لهم يا محمد ليس لى طريق أتبعه سوى اتباع ما يوحى به الله إلىَّ من شرائعه أعمل بها وأبلغها وليس لى أن أقترح شيئا من المعجزات والآيات ، ثم أرشدهم يامحمد إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وقل لهم :(هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) : أى هذا القرآن الذى أوحاه الله إلىَّ يبصِّر عقولكم ويهدى قلوبكم إلى قبول الحق (وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :وهذا القرآن أيضا بما اشتمل عليه من الحجج الواضحة والدلالات الظاهرة يوصلكم إلى أعلى درجات الإيمان وهو كذلك رحمة شاملة جاء بها نبى الرحمة المهداة .

وتلك الهداية وهذه الرحمة لاينالهما ساخر ولا مستهزىء . «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » .

٢٠٤- (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) :

أشار الله تعالى إلى القرآن وثمراته فى نفع العباد بقوله فى الآية السابقة : (هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). وفى ذكر هذه الفوائد حمل للناس على أن يقرأوا القرآن ليتعبدوا بتلاوته ، وليتبصروا فى آياته ، حتى يكون لهم هدى ورحمة . وأشار فى هذه الآية إلى ماينبغى إذا قرئ القرآن من الاستماع والإنصات إليه توصلا إلى الانتفاع به .

أى وإذا قرئ القرآن من أى قارئ ، فيجب على من حضر مجلس القرآن ، أن يحسن الاستماع إليه بوعى وقصد وتدبر ، وأن ينصت فلا يتكلم احتراما لكلامه العزيز ، وتعظيما له ، راجين بحسن الاستماع والإنصات إليه رحمة الله .

وإنما جمع بين الاستماع والإنصات ، لأنهما معا أعون على الفهم والتدبر وأتمُّ فى الانتفاع وأرجى لرحمة الله سبحانه وتعالى ،فضلا عما فيه من الأدب مع الله واحترام كلامه جلَّ شأنه ؛ والأمر بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن عام فى جميع الأحوال التى يقرأ فيها القرآن .

٢٠٥ - (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ ....) الآية .

بعد أن أمرنا الله تعالى بالاستماع والإنصات لتلاوة القرآن ، أمرنا بذكره تعالى بصفة عامة ، تزكية للنفس .

أى واذكر ربك أيها المسلم فى نفسك بينك وبين ربك ، بعيدا عن الرياء والسمعة : متذلّلا ، خاشعا لربك ، خائفا من عذابه ، واذكره بلسانك ذكرا وسطا بين السر والجهر : كما تذكره فى نفسك ، وليكن ذكرك له فى الغدو والآصال ، أى فى أول النهار وآخره ، والمراد بهما هنا جميع الأوقات ، حسبما يتيسر للذاكرين ، ثم ختم الله الآية الكريمة بقوله : (وَلَاتَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ) :أى ولاتكن أيها المسلم من جملة الغافلين عن ذكر ربك بأن لاتذكره تعالى ، أو بأن تكون غائب القلب حين الذكر .

٢٠٦ - (إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) :

أى : إن الملائكه الذين هم فى مكان الرفعة عند ربك ، والقرب من رضاه ، لايستكبرون عن عبادته ، بل يؤدونها حسبما أمروا بها كاملة وافية كما أمر الله ، وينزهونه عن كل ما لا يليق به سبحانه ، وله وحده يخضعون . ويتذلّلون .

والمقصود من ذكر الملائكة حث البشر على أن لايستكبروا عن عبادته ، ولا يقصروا فى أدائها فى أوقاتها ، فإنهم أولى بالتزلف إلى الله لشدة احتياجهم إلى عفو الله عن ذنوبهم ؛ من الملائكة الذين خلقوا للطاعة : « لَايَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ » .

سورة الأنفال

آيات هذه السورة خمس وسبعون آية ،وهى مدنية إلا من قوله تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا . .) الآية(٣٠)إلى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ . .) الآية (٣٦) لأن موضوعها ائتمار قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة .

وشأن هذه السورة شأن سائر المدنى من القرآن ، إذ يكثر فيها قواعد الشرع التفصيلية ، كالجهاد والغنيمة والأسرى وأحكام القتال .

موجز لما اشتملت عليه السورة :

١ ـ بدئت سورة الأنفال بالسؤال عن الغنائم ، ومن له الحكم فيها وجاء من بعده ما يلى :

٢ ـ صفات المؤمنين الكاملين .

٣ ـ ذكر نعمة الله على المؤمنين بإمداده إياهم بالملائكة تبشيراً لهم .

٤ ـ بيان حرمة الفرار من القتال إلا لخُطَّة مرسومة كأن يكون الفَارُّ متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة .

٥ ـ بيان أن النصر بتوفيق الله تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) .

٦ ـ الأمر بطاعة الله ورسوله والنهى عن الإعراض عنه .

٧ ـ الاستجابة لأمر الله ورسوله قبل فوات الأوان .

٨ ـ وجوب اتقاء الفتن حتى لاتصيب الصالحين بشؤم الظالمين .

٩ ـ النهى عن الخيانة .

١٠ ـ تقوى الله سبب للنصر وتكفير السيئات .

١١ ـ ذكر نعمة الله الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم ، (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..)

١٢ ـ عناد الكفار ووصفهم القرآن بأنه أساطير الأولين ، وطلبهم العذاب إن كان القرآن حقا بدلا من أن يطلبوا الهداية .

١٣ ـ إنفاق الكفار الأموال للصد عن سبيل الله ، ثم تكون عليهم حسرة وسببا للغلبة عليهم .

١٤ ـ بيان أن دخول الكفار فى الإسلام سبب لغفران ما سبق من ذنوبهم .

١٥ ـ الأمر بقتال الكفار حتى ينتهى الشرك ويكون الدين لله .

١٦ ـ بيان مستحق الغنائم .

١٧ ـ ذكر نعم الله على المؤمنين فى « بدر » .

١٨ ـ بيان أن أسباب النصر على الأعداء : هى الثبات وذكر الله تعالى ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم التنازع ، والصبر ، وترك الرياء والبطر ، والتوكل على الله تعالى .

١٩ ـ ذكر عاقبة تزيين الشيطان للكفار .

٢٠ ـ بيان أن تغيير أحوال الأمم والأقوام أثر لتغيير ما بأنفسهم من الأخلاق والعقائد والأعمال .

٢١ ـ بيان أن نقض العهود سبب للتنكيل بمن غدر ونبذ العهد .

٢٢ ـ وجوب الاستعداد للعدو بقدر الطاقة للإرهاب ، حتى لا يُؤْخَذُ وا على غرة .

٢٣ ـ الحث على الإنفاق فى سبيل الله .

٢٤ ـ الجنوح للسلم متى جنح العدو لها لأن الحرب فى الإسلام ضرورة تقدر بقدرها .

٢٥ ـ إيجاب الله على المؤمن قتال عشرة ثم تخفيف ذلك بأن أوجب عليه قتال اثنين .

٢٦ ـ بيان أن قتل الكفار أولى من أخذ الفدية فى بدء الإسلام .

٢٧ ـ الأمر بعرض الإسلام على الأسرى وإنذارهم سوء عاقبتهم إن خانوا .

٢٨ ـ ذكر ولاية المؤمنين بعضهم لبعض ، والإنذار بسوء عاقبة الفرقة .

٢٩ – بيان أن الكفار بعضهم لبعض ولى ، وأن المؤمنين أولى بذلك .

٣٠ – بيان أن المهاجرين والأنصار هم المؤمنون حقا ، وأن ثوابهم عظيم .

٣١ – بيان أن المتأخرين فى الإسلام والهجرة مؤمنون ، وأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾) .

المفردات :

(الْأَنفَالُ) : هى الغنائم واحدها نَفَل بتحريك الفاء ، وقد تطلق على ما يعطى زيادة على السهم من المغنم .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ) : فاجعلوا لأنفسكم وقاية من عقوبة الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) : وأصلحوا الأحوال التى بينكم بالمساواة والمساعدة ، وقال الزجاج : معنى ذات بينكم : حقيقة وصلكم ، والبين : الوصل أى : فاتقوا الله وكونوا مجمعين على ما أمر الله ورسوله .

(وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) : خافت وفزعت .

التفسير

١ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . .) الآية .

وجه المناسبة بينها وبين سورة الأعراف :

جاء فى الأعراف بيان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم ، وجاء فى الأنفال : ذكر ما جرى بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قومه .

وجاء فى الأعراف : أن القرآن هدى ورحمة ، وذلك فى قوله تعالى : « هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ، كما جاء فيها الأمر بالاستماع له إذا قرئ ، وذلك فى قوله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا » .

وجاء فى الأنفال : ذكر حال المؤمنين عند ذكر الله فيه ، وذلك قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) ، إلى غير ذلك من المناسبات .

وقدمت سورة الأنفال على التوبة لتصديرها بالبسملة ، وحذفها من التوبة ليكونا كسورة واحدة فإن موضوعهما واحد .

سبب النزول :

أن المسلمين اختلفوا فى قسمة غنائم « بدر » فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ، ولمن الحكم فى قسمتها ، للمهاجرين ، أم للأنصار ، أم لهم جميعا ، فنزلت الآية لبيان أن الحكم فى قسمتها بين المقاتلين يرجع إلى الله ورسوله .

والأنفال الغنائم ، وسميت الغنائم أنفالا ، لأنها زيادة فيما أحلَّ الله لهذه الأمة ، مما كان محرما على غيرها ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى حديث له : « وَأُحِلَّتْ لى الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحلَّ لِأحدٍ قَبْلِي » أو لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر فى الجهاد من الثواب الأخروى أو زيادة على السهم لمصلحة يراها الإمام .

والسائلون هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد سألوه عن قسمة الغنائم ، وعمَّن له الحكم فيها كما تقدم فى بيان سبب النزول ، فأجيبوا بقوله تعالى : (قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) أى حكمها مختص بالله ورسوله ، يحكم الله فيها بحكمته ، والرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضا إلى رأى أحد .

وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم بينهم غنائم بدر بالسواء .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ) : أى إذا كان أمر الغنائم لله وللرسول ، فاجعلوا لكم وقاية تقيكم من شر الاختلاف والتخاصم والتنازع وذلك بالرضوخ لحكم الله ورسوله ، لتنجوا من عذاب الله تعالى ، أو فاتقوه تعالى فى كل ما تأتون وتذرون من النيَّات والعقائد والأعمال ، (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)أى : وأصلحوا ما بينكم من الأحوال والصلات التى تربط بعضكم ببعض ، وإصلاحها بالوفاق والتعاون ، والمساواة ، وترك الأثرة ، لأن إصلاح ذات البين واجب ، يتوقف عليه قوة الأُمة وعزتها ، ومنعتها ، وتحفظ به وحدتها .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : أى فى أمر الغنائم وغيرها بامتثال أمر الله ، واجتناب نهيه حسبما أبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرسول يطاع فى أمر الدين ، لأنه مبلغ عن الله تعالى ، ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم .

ويتوقف على طاعة الله ورسوله النجاة والفوز بالثواب فى الآخرة .

عن أبى أمامة الباهلى قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : «فِينَا مَعْشَرَ أصحابِ بدرٍ ، نزلتْ حين اختلفنَا فى النَّفَل ،وساءت فيه أخلاقُنا فنزعه اللهُ من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسَّمه عن بَوَاءٍ - يقول على السواء » يفسر الراوى البواء بالسواء ، فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين .

وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا فقال : لِيَرُدَّ بعضُكم على بعض ،(إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) : أى إن كنتم مؤمنين ، فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ، ورسوله ، فإن كمال الإيمان يدور على امتثال هذه الأوامر .

ولأهمية إصلاح ذات البين ، وكمال العناية به وسط الأمر به ، بيْن الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله. وفى التعبير بقوله تعالى : (إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال .

٢ - (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

قال العلماء : هذه الآية تحريض على التزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة الغنيمة ، والمراد بالمؤمنين الكاملو الإيمان ، والمراد بذكرهم الله تعالى ذكرهم بقلوبهم لعظمته وسلطانه وجلاله ، أو لوعده ووعيده ، ومحاسبته لخلقه ، سواء صحب ذلك ذكر اللسان أم لم يصحبه ، وسواء ذكروه بأنفسهم أم ذُكِّرُوا به .

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بخمس صفات :

الأولى : أنهم إذا ذكر الله تعالى ، خافت وفزعت قلوبهم ، استعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه ، ولا شئ أعظم من القرآن فى التذكير بالله والتخويف من مخالفته ، قال تعالى فى سورة الزمر : «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»[١] والاطمئنان المذكور فى قوله تعالى : «أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ»[٢] لاينافى الخوف من الله تعالى ، لأنه عبارة عن شرح الصدور بنور المعرفة والتوحيد ، وهو يجامع الخوف ، وقيل ذكر الله : هو أن الرجل يهم بمعصية فيقال له : اتق الله ، فيبتعد عنها خوفا من عقابه عز وجل .

الصفة الثانية : أنه إذا تليت عليهم آيات الله تعالى قوى إيمانهم وتصديقهم وتيقنهم بربهم ، ونشاطهم فى أعمالهم ، وزيادة الإيمان ثابتة بنص القرآن ، قال تعالى : «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»[٣] ، والآيات كثيرة فى ذلك ، وأيضا فإن كثرة الأدلة تقوى المدلول عليه ، وتثبته .

الصفة الثالثة : أنهم على ربهم يتوكلون ، فلا يعتمدون على غيره ولا يفوضون أمورهم لسواه ، والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فالمؤمن يتوجه إليه ، وإياه يدعو فيما يطلب منه ، مع الأخذ بالأسباب وعدم تركها ، ومراعاة سنن الله فى الكون التى لا تتبدل ، ولا تتغير ، ومن تركها كان جاهلا مؤاخذا .

---

(١) الزمر : الآية ٢٣ (٢) الرعد الآية : ٢٨
(٣) الفتح : الآية ٤

الصفة الرابعة : إقامة الصلاة، وإقامتهم الصلاة ، قيامهم بها مستوفية لأركانها من قيام وركوع وسجود ، وقراءة وذكر ، ومحافظتهم على مواقيتها ، مع الخشوع لله ، والانعاظ بتلاوة القرآن، وهذه هى الإقامة التى يستفيد بها صاحبها ما جعله الله تعالى ثمرة للصلاة ، الانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) : أى ومما أعطيناهم من الرزق، ينفقون فى وجوه البر والخير ، امتثالا لأمر الله عز وجل ، ثم وصف الله تعالى إيمانهم بقوله : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) : أى أولئك الذين ذكرت صفاتهم الحميدة ، هم المؤمنون حيث جمعوا ، بين أفاضل الأعمال القلبية ، وأعمال الجوارح ، وفى التعبير بقوله تعالى : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) إشارة إلى علو مكانة أولئك المؤمنين ، المتصفين بتلك الصفات ، وانحصار الإيمان فيهم ، حتى كأن سواهم ليسوا بمؤمنين ، لأن الإيمان بلا ثمرة ، هو والعدم سواء ، ثم بين جزاءهم بقوله عز وجل : (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) من الكرامة والزلفى ، والدرجات العلية فى الجنة ، وفى التعبير بقوله : (عِنْدَ رَبِّهِمْ) إيذان بأن ما وعدهم الله به من الدرجات ، متيقن الحصول ، مأمون الفوات حيث إنه ربهم ومالك أمرهم .

(وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أى وستر لذنوبهم وعطاء كريم لا ينقضى أمده ، ولا ينتهى عدده ، وهو ما أعده لهم فى الجنة مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، والكريم من كل شىء أحسنه .

(كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾) .

المفردات :

(كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ) : أى أخرجك من بيتك بالمدينة إلى بدر (بِالْحَقِّ) : أى بالحكمة والصواب (يُجَادِلُونَكَ) : يراجعونك ،(فِي الْحَقِّ) المراد بالحق هنا القتال ـ وسيأتى بيانه (إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ) : العير أو النفير .

(غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ) : الشوكة الشدة والقوة ، ويقال : السلاح ، وغير ذات الشوكة : العير التى ليس فيها قتال .

(يُحِقَّ الحَقَّ) : يظهره ويعلنه ـ (بِكَلِمَاتِهِ) : بأمره لكم بالقتال أو بوعده لكم بإظهار الدين وإعزازه .

(لِيُحِقَّ الحَقَّ) : ليظهر الإسلام ـ (وَيُبْطِلَ البَاطِلَ) : المراد بإبطال الباطل أن لا يجعل له شوكة .

التفسير

٥ - (كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)

هذه الآية الكريمة هى بداية الحديث عن غزوة بدر ، وقد تقدمها بيان حكم الأنفال ، أى الغنائم ، لأن السورة نزلت بعد اختلاف المسلمين على قسمة أنفالها - كما تقدم بيانه - فكان بيان حكمها أهم ليحسم الخلاف بين المسلمين .

قال المبرد فى معنى الآية مايلى :

الأنفال ثابتة لله والرسول وإن كرهوا ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا ، وقال غيره : امض لحكم ربك فى الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت لأمر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وإن كرهوا .

وأقرب المعانى فى وصل هذه الآية بما قبلها أن يقال : حال المؤمنين فى كراهتهم قسمة الغنائم بحكم الله بعد اختلافهم عليها كحالهم فى كراهتهم القتال حينما أخرجك ربك من بيتك بالحق - وهو الظفر بإحدى الطائفتين العير أو النفير - وهم لقتال النفير كارهون - وسبب كراهتهم لقتال الكفار فى غزوة بدر ، أنهم خرجوا وهم غير مستعدين استعدادا كاملا للقتال ، فإنهم خرجوا للقاء أبى سفيان ومن معه للاستيلاء على القافلة التى قدموا بها من الشام بتجارتهم ، ولم يكن فيها سوى قلة من الرجال وكان الاستيلاء عليها أمرا يهم المسلمين ، لأن ذلك يقصم ظهور المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم واستولوا عليها ، وتفصيل ذلك أن عير قريش لما أقبلت أخبر جبريل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمقدمها ، فعرض النبى - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين أن يخرجوا للاستيلاء عليها ، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة . النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم أموالكم إن أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة فقال : واللات والعزى لايكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزر ونشرب الخمور ، ونقيم القينات والمعازف بِبَدْرٍ ، فيتسامع جميع العرب بخروجنا وأنَّ محمدا لم يصب العير ، وأنَّا قد أخفناه ، فمضى بهم إلى «بدر»[1] ، فنزل

(١) بدر : اسم بئر حفرها بدر بن قريش بين مكة والمدينة ، كان العرب يجتمعون حولها فى سوق سنوية لهم .

جبريل عليه السلام ، وقال يامُحمدُ إنَّ اللهَ وعَدكم إحدى الطائفتين ، إمّا العيرُ ، وإمّا النفيرُ - أى مشركى مكة - فاستشار النبىُّ صلى الله عليه وسلّم أصحابه فقال ما تقولون؟ إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ، فالعير أحب إليكم أم النفير . . ؟ فقالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم رد عليهم فقال : « إنَّ العيرَ قَد مضَت على سَاحِل البحر ، وَهَذا نَفيرُ قريشٍ قَد أقبَلَ ، فقالوا :يارسولَ اللهِ عَليَك بالعيرِ ودعِ العدو. . . . فقام أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - فتحدثا فأحسنا ، ثم قال المقداد بن عمرو رضى الله عنه : يارسول الله امض لما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت ، لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : « اذْهَب أَنتَ وربُّكِ فقاتِلا إنَّا هَاهُنَا قَاعِدونَ ؛ وَلَكنِ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا مَعَكُما مُقاتِلُونَ . . . . ، فوالَّذى بعثَك بالحقِّ لو سِرتَ بنَا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له -صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له ، ثم قال : أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّها الناسُ - وهو يريد الأنصار - لأنهم قالوا له حين بايعوه عند العقبة : إنَّا برآء من ذمتك[1] حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِمَّتِنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف أن تكون الأنصار لاترى عليهم نصرته : إلا على عدو دهمه بالمدينة ، فقام سعد بن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يارسول الله : قال : أجل ، قال : آمنَّا بِك ، وصدَّقناك وشهدنا أنَّ ماجئتَ به هو الحقُّ وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمعِ والطاعةِ ، فامضِ يارسولَ اللهِ لما أردتَ فنحنُ معك ، فوالَّذى بعَثك بالحقِّ لَوْ استعرضتَ بِنَا هذا البحرَ فخضتَه لخضنَاه معك ماتخلف منَّا رجل واحد ، وما نكره أن تَلْقى بِنَا عدونا ، وإنَّا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعلَ اللهَ يُريك منَّا مَا تقرّبه عينُك ، فَسِر بِنَا على بركة الله ... ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسرّه قول سعد بن معاذ ثم قال : سيروا على بركة الله ، وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

٦ - (يُجَادِلُونَكَ فِى الحَقِّ بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) :

المعْنى : يراجعونك فى الحق - وهو لقاء النفير - أى جيش العدو - ويؤثرون عليه لقاء العير للاستيلاء على تجارتهم ، مع أن فى لقاء النفير عز المسلمين وإلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم ، فلقد قال بعضهم : إنما خرجنا للقاء العير ، ولم نستعد للقاء العدو .

(١) الذمة : العهد .

وقد وعدهم الله تعالى إحدى الطائفتين من غير تعيين ، فتعلقت آمالهم بطائفة العِير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لهم لايحتاج إلى مشقة كبيرة ، فى إحرازه والحصول عليه لضعف حاميته ، ولذلك لم يستعدوا للقاء العدو ، وتخلف كثير من الصحابة بالمدينة .

ثم ظهر لهم أنَّها فاتتهم وقد نجت ، وأن طائفة النفير قد خرجت من مكة بكل ما عند قريش من قوة ، وقد قربت منهم ، وأنه تعيّن عليهم قتالها ، وأنها هى الطائفة التى وعدهم الله - تعالى - لأنه لم يبق غيرها ، فصعب على بعضهم لقاؤها لقلة عددهم وعُدَدِهم ، ولعدم استعدادهم ، فطفقوا يعتذرون للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تبين لهم الحق ، فقالوا ما قالوه من عبارات الإقدام على لقاء العدو كما مرّ بيانه .

(كَأَنَّما يُسَاقُونَ إِلَى الموْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ) :

أى كأنهم لفرط جزعهم ورعبهم يساقون إلى الموت سوقا لامهرب منه، وهم ينظرون إليه بأعينهم ، ولم يدر بخلدَهم أن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بالمشركين وذلك ما حكاه الله بقوله :

٧ - (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُمْ) :

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله بالمؤمنين مع ماهم فيه من الجزع وقلة الحزم ، لعدم استعدادهم الحربى لقتال جيش فاجأهم ، ولم يكونوا يدرون أنه ملاقيهم ، فقد خرجوا للقاء - العير كما تقدم - .

والمعنى : واذكروا وقت أن وعدكم الله إحدى الطائفتين - العير أو النفير - أنها لكم تتسلطون عليها ، وتتصرفون فيها كيف شئتم : طائفة أبى سفيان مع التجارة ، أو طائفة أبى جهل مع الرجال الذين خرجوا من مكة لحربكم .

(وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تكُونُ لَكُمْ) :

المراد بغير ذات الشوكة : العِير ، فإنها لم يكن لها شوكة أى قوة لقلة الرجال فيها حيث لم يكن فيها إلا أربعون فارسا .

وفى هذا التعبير تعريض بكراهيتهم للقتال وطمعهم فى المال .

(وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) :هذا معطوف على تودّون منتظم معه فى سلك التذكير . . . .

والمعنى : واذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين ، وأنتم تحبون ملاقاة أدناها ، والله يحب أن تلاقوا أعلاها ليظهر الحق الذى أراده بوعده لكم إحدى الطائفتين من غير تعيين ، وبينه بكلماته المنزلة على رسوله صلى الله عليه وسلم فى محاربة ذات الشوكة ، أو يريد الله ذات الشوكة ليثبت الحق ويعليه بأمره الملائكة بإمدادكم ، وبما قضى من أسر المشركين وقتلهم وطرح صناديدهم فى قليب بدر ، وإظهار الدين واعزازه .

(وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) : أى ويفنى آخر مشركى مكة وأعوانهم ويستأصلهم فإن دابر القوم آخرهم الذى يكون من ورائهم ، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك من قبله ، والمراد إهلاكهم جميعا ، وقد هلك أكابرهم وعصابة المستهزئين ، وهم أئمة الكفر فى مكة ...

والمعنى : أنكم تريدون سَفْسَافَ الأمور ، والله يريد معاليها ، فإنه يريد ما يُعْلِى كلمة الحق ، ويسمو برتبة الدين وأنتم تريدون الغنائم السهلة ، وشتَّان بين المرادين .

٨ - (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ) : أى يقره ويُثَبِّتَهُ لأنه الحق والمراد به الإسلام أى أنه تعالى اختار لكم ذات الشوكة : ليظهر الإسلام - وهو الحق - ويبطل الباطل - وهو الشرك ، بنصركم على أهله .

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) : أى ولو كره المشركون أصحاب الاعتداء والطغيان .

وليس فى الآية تكرار ، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر ، والحق الثانى هو الإسلام ، وهو المقصد : والأول هو الوسيلة له .

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾) .

المفردات :

(تَسْتَغِيثُونَ) : تطلبون الغوث والنصر على عدوكم ، والغوث التخليص من الشدة .

(فاسْتَجَابَ) : فأجاب دعاءكم .

(مُرْدِفِينَ) : أى مُتْبِعين بعضهم بعضا ، بأن يكون بعضهم فى إثر بعض ، أو مُتْبِعين المؤمنين لهم ، بأن يكونوا خلفهم :

(وَلِتَطْمَئِنَّ) : لتسكن .

(عَزِيزٌ) : لايغالَب فى حكمه .

(حَكِيمٌ) : يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

التفسير

٩ - (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) :سبب النزول :عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر ، نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلثمائة رجل وبضعة عشر رجلا ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل نبى الله القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تَهْلَكْ هذه العصابةُ لا تُعْبَدْ فى الأرض ؛ فمازال يهتف مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ،وقال يانبى الله : كفاك مُنَاشدَتَك ربّك فإنه سينجزلك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ) الآية . . . .فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا وأسر سبعون .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة تذكيرًا للمؤمنين بأنه تعالى لم يتخل عنهم حين لجأوا إليه واستغاثوا به ، وقتما رأوا قلتهم وضعف استعدادهم أمام جيش المشركين الكثير العدد ، القوى الاستعداد ، بل أمدهم بالملائكة من عنده .

وقد أسندت الاستغاثة فى الآية إلى المؤمنين ، مع أن سبب النزول الذى تقدم ذكره يحكى أنها كانت من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يعبّر باستغاثته عمّا فى نفوس المؤمنين ، وجرت به ألسنتهم من لجوئهم إلى الله - تعالى - لينصرهم .

والمعنى :

واذكروا أيها المؤمنون حين كنتم تستغيثون ربكم ، وتطلبون منه النصر على عدوكم الذى جاء بخيله ورجله ، وعَدَدِه ، وعُدَّتهُ ، وأنتم لم تكونوا مستعدين للقائه حيث كنتم تريدون العير ، ولا علم لكم بالنفير ، فأجاب استغاثتكم ودعاءكم بأنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين أى متتابعين ، بعضُهم فى إثر بعض ، كأنما يردف بعضهم بعضا ، أى يتبعه إياه .... ويجوز أن يكون معنى (مُرْدِفِينَ) متبعين المؤمنين لهم بأن يتقدموهم فى المعركة ليطمئنوهم ويثبتوهم .

١٠ - (وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ) : أى وما جعل الله إمدادكم بالملائكة عيانا لأمر من الأمور ، إلا ليبشركم بأنكم منتصرون ، ولتطمئن به قلوبكم ، وتسكن به نفوسكم ، ويزول خوفكم واضطرابكم . فتثبتوا ويتم لكم النصر .

وفى قصر الإمداد بالملائكة على البشرى والطمأنينة : إشعار بعدم مباشرتهم للقتال وأن الغرض منه هو تقوية قلوب المؤمنين المقاتلين ، وتكثير عددهم أمام المشركين ، وسيأتى بسط الكلام فى ذلك قريبا .

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ) : أى وما النصر فى الحقيقة إلا من عند الله تعالى ، ولكنه - سبحانه - أجرى سنته على ربط المسببات بالأسباب ، ليأخذ بها العباد .

(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ) : لا ينَازَعُ فى حُكْمِه ، ولا يغالَبُ فى أقضيته .

(حَكِيمٌ) : يفعل كل ما يفعله لحكمة ومصلحة ، ولذا أمدكم بأسباب النصر على عدوكم ، فتمَّ لكم بفضله النصر عليهم ، وكذلك يسلط الله الحق على الباطل ليدمغه فإذا هو زاهق ، فثقوا بالله وتوكلوا عليه ، ولا تقنطوا من حصول النصر إذا كثر أعداؤكم ، بل أدوا واجبكم من الثبات والصبر ، والكفاح على قدر طاقتكم ، والله يعينكم وينصركم ، (كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[1] .

(١) البقرة : الآية ٢٤٩

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلرُّعْبَ ۚ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾) .

المفردات :

(يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ) : أى يُغَطِّيكم الله ويشملكم بالنعاس ، والنعاس فتور فى الحواس وأعصاب الرأس ، يعقبه النوم ، يضعف الإدراك ولا يزيله .

(أَمَنَةً مِّنْهُ) : أى أمنا من الله وطمأنينة .

(رِجْزَ الشَّيْطَانِ) : أى وسوسته وتخويفه لهم .

(وِلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ) : الربط الشد ، ويقال لكل من صبر على أمر ربط على قلبه

(الرُّعْبَ) : الخوف والفزع .

(كُلَّ بَنَانٍ) : أى كل طرف من أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وقيل : كل أصبع من الأصابع ، وتطلق البنان أيضا على كل طرف من أطراف الإنسان كاليد والرجل .

(شَآقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ) : المشاقة : المعاداة والمخالفة .

التفسير

١١ - ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية .

بعد أن ذكر الله سبحانه استغاثة النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بربهم فى غزوة بدر ، واستجابته لهم ، بإمدادهم بالملائكة للبشرى بالنصر ، ولاطمئنان قلوبهم ، ذكر مِنَّةً أخرى ، هى جعله النعاس غالبا عليهم ، مغطيا لمشاعرهم ، تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم ، من الفَرْق العظيم بينهم وبين عدوهم ، فى العدد والعدة .

وإنما كان النعاس مانعا من الخوف ، لأنه ضرب من الذهول والغفلة عن الخطر ، وكان فى الليلة السابقة للقتال ، لتستريح أعصابهم ، فيصبحوا مقبلين على المعركة بجد ونشاط ، وقد جاء فى هذا النعاس عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن الأسود ولقد رأيناه وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى تحت شجرة حتى أصبح .

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ . . . .﴾ الآية .

تحكى هذه الجملة نعمة أخرى كان لها شأن كبير فى النصر على المشركين ، وكان جيش المسلمين قد نزل بعدوة الوادى القريبة من المدينة ، بعيدا عن الماء فى أرض رملية وسبخة ، أمّا المشركون فقد نزلوا على ماء بدر بالعدوة القصوى فى أرض جلدة ، فأصبح المسلمون لايجدون الماء ليشربوا ويغتسلوا ويتوضأوا .

فكان هذا الموقف مزرعة لأحاديث الشيطان النَّفْسيَّة ، المحطمة للعزائم المدمرة للقلوب ، فلقد حدثهم أن العطش سوف يضعف قواهم ، ويساعد المشركين فى القضاء عليهم ، فأدرك الله المؤمنين بلطفه ، وأنزل عليهم من السماء مطرا سال به الوادى ، فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى الدنيا ، واغتسلوا وتوضأوا وملأوا الأسقية وتلبدت الأرض السبخة حتى ثبتت عليها الأقدام ، على حين كان المطر كارثة على المشركين ، فقد تحولت به أرضهم الجلدة إلى أو حال لايقدرون معها على الحركة فى القتال .

وبهذه النعمة أذهب الله عن المسلمين رجز الشيطان ووسوسته وحقق لهم النصر ، والمعنى : وينزل عليكم من السماء غيثا ، لكى يطهركم به من الأحداث ، ومن وعثاء السفر ، ولكى

يذهب عنكم وسوسة الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويشدها بالصبر والطمأنينة وليثبت به الأقدام عند لقاء المشركين .

١٢ - (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) :

أى واذكر يامحمد للمؤمنين نعمة أخرى أنعم الله بها عليهم ، حين يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فى تثبيتكم للمؤمنين ، فثبِّتوا الذين آمنوا لينتصروا على أعدائهم .

واختلفوا فى كيفية تثبيت الملائكة للمؤمنين فى غزوة بدر الكبرى ، فقال جماعة : إنهم ثبَّتوهم بالبشارة وتكثير عددهم ، ونحوهما ، مما تقوى به قلوبهم ، وتشتد عزائمهم فى القتال ، فإن الآية لم تصرح بأسلوب التثبيت حتى يحمل عليه فيها ، ولم يكن تثبيتهم بالقتال معهم ، لأن الملك الواحد كفيل بإهلاك قريش لو كان يقاتل المشركين مع المؤمنين ، فحيث كان المثبتون من الملائكة ألفا أو أكثر ، فلابد أن تثبيتهم معنوى لا قتالى ، ولذا - قال تعالى - ،عقب الأمر بالتثبيت : (سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) وقد روى أن الملك كان يتشبه بالرجل الذى يعرفونه ، فيقول : أبشروا فإن الله ناصركم . وقال آخرون : أُمروا بمحاربة المشركين ، وجعلوا قوله تعالى : (فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) تفسيراً لقوله سبحانه : (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) روى أنهم كانوا يرَوْن رءُوسا تسقط عن الأعناق من غير ضارب ، وروى عن سهل بن حنيف - رضى الله عنه - قال : لقد رأيتُنا يوم بدر ، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك ، فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

والمتأمل فى هذه الروايات يجدها بلا أسانيد صحيحة ، فلا يمكن التعويل عليها ، فالراجح أن الملائكة لم يقاتلوا ، بل كانوا يثبتون المؤمنين بالقول ويكثرون عددهم أمام العدو ، ليُصابُوا بالرعب منهم .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : (فاضرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ واضرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) خطابا للمؤمنين ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : سألقى فى قلوب الذين كفروا الفزع والخوف منكم ، لتتمكنوا من إصابتهم ، فاضربوهم فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ،

فلن يقدروا عليكم ، والمراد بالضرب فوق الأعناق ، ضربهم فى أعاليها سواء أكان الضرب فى الرقاب أم فى الرءوس ، والمراد بضرب كل بنان : أن يضربوا أصابعهم أو أطراف أبدانهم ، كالأيدى والأرجل ، فكل ذلك يطلق عليه بنان ، حقيقة أو مجازا .

١٣ - (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى ذلك الذى تقدم من الجمع بين ضرب الرقاب وضرب الأطراف ، حاصل بسبب أنهم خالفوا الله ورسوله ، ومن يخالف الله ورسوله ويتنكر لدينه ، عاقبه الله فإن الله شديد العقاب وقد عاقبهم الله بذلك فى الدنيا ، وسوف يعاقبون بأشد منه فى الآخرة ، ولذا عقبه - تعالى - بقوله :

١٤ - (ذَلِكُمْ فَذُوقُوه وأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ) : أى ذلكم العقاب العاجل فى الدنيا فذوقوه ، وأن لكم فى الآخرة عذاب النار بسبب كفركم .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾) .

المفردات :

(زَحْفًا) : الزحف فى الأصل مصدر زحف الصبى إذا دبَّ قليلا قليلا وهو جالس ، أو حبا وهو يجُرُّ رجليه ، ثم أُطلق على المشى الثقيل المتوالى وعلى الجيش إذا كثر ، لأن حركته بطيئة بالنسبة لحركة الفرد ، والمراد به فى الآية المعنى الأخير .

(فَلَاتُوَلُّوهُمُ الأَدبَارَ) : فلا تديروا ظهوركم لهم ، والمقصود نهيهم عن الفرار من قتال العدو بأية صورة .

(إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ) : قال فى مجمع البيان : التحرُّفُ فى الأَصل الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف . ا.هـ والمقصود من قوله : (إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ) إباحة استدبار العدو والفرار من وجهه لغرض حربى ، كالوقوف فى موقف أصلح للقتال ، أَو قتال طائفة أُخرى أهم ممن يلاقونهم .

(أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ) : أى منحازا ومنضما إلى جماعة أُخرى من المؤمنين ليقاتل معهم .

(بَآءَ) : أى رجع .

التفسير

١٥ - (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ)

هذا خطاب للمؤمنين الذين هم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن سيأْتى بعدهم إلى يوم القيامة ، كلفهم الله فيه بالثبات عند لقاء الكفار فى حروبهم معهم ، جىء به فى تضاعيف قصة بدر ، إظهاراً للاعتناء به ، وحثًّا على المحافظة عليه ، فإن فيه عزّ المسلمين وسلامتهم وسلامة دينهم .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فى القتال أعداءكم الكفرة ، وهم جمع كثير ، وأنتم عدد قليل - كما كان الحال فى غزوة بدر - أو كنتم مثلهم أو أكثر منهم عددا ، فلا تولوهم أدباركم ، ولاتَفرُّوا من لقائهم ، بل اصبروا واثبتوا ، فإن النصر مع الثبات والصبر .

١٦ - (وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ . . . .) الآية .

ومن يولّ الكفار يوم اللقاء دبره ، ويفر من القتال ، إلا متحرفا لقتال بأَن يترك موقفه إلى موقف أَصلح منه للظفر بالعدو ، أَو يتجه إلى قتال طائفة أُخرى من الأَعداء ، أَو كان منحازا إلى جماعة أُخرى من المؤمنين ليقاتل معهم : من يولّ الكفار فى القتال دبره فى غير هذه الأَحوال المستثناة ، فقد رجع من الغزو بغضب عظيم من الله ، ومرجعه فى الآخرة ومآله جهنم وبئس المرجع والمصير .

وفى الآية دليل على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف لقتال أو المتحيز إلى فئة - أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجْتَنِبُوا السَّبعَ الموبقَاتِ ، قالوا يارسول الله وما هنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ باللهِ ، والسِّحْرُ ، وقتلُ النفسِ الَّتى حرَّم اللهُ تَعَالَى إلَّا بالحقِّ ، وَأَكلُ الرِّبا ، وأَكلُ مالِ اليَتيمِ ، والتولىِّ يومَ الزَّحفِ ، وقذفُ المحصَناتِ الغافِلَاتِ المؤمناتِ » .

واعلم أن أكثر أهل العلم ذهبوا إلى أن حرمة الفرار إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف ، لقوله تعالى : « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُن مِّنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وإنْ يَكُنْ مِّنكُم أَلفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] وأخرج الشافعى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فَقَدْ فَرَّ .

وعن محمد بن الحسن : أن المسلمين إذا كانوا اثنى عشر ألفا لم يجز الفرار أصلا لحديث ورد فى ذلك[2] .

والظاهر أن الأمر متروك لقائد المعركة الأمين الشجاع ، فإن رأى الثبات أمام العدو : ثبت ، وإن رأى غير ذلك : انسحب بجيشه حتى تتاح له فرصة الاستعداد القوىِّ للقاء العدو ، لئلا يلقى بجنود الله إلى التهلكة فى معركة غير متكافئة بسبب كثرة العدد ، أو قوة الأسلحة وفتكها الذريع .

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾) .

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٦

(٢) جاء فى هذا الحديث قوله - صلى الله عليه وسلم - : « وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يؤتى اثنا عشر ألفا من قلة » وأحد رواة هذا الحديث أبو سلمة العامل ، وهو متروك الحديث .

المفـردات :

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا) : أى وليعطى الله المؤمنين إعطاءً حسنا من عنده ، فهو من الإبلاء بمعنى الإعطاء ، ومنه قول زهير :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم فَأَبْلَاهُمَا خير البلاء الذى يُبْلَى(١)

(مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) : أى مُضعِفُ كيد الكافرين ومبطل حيلهم .

التفسير

١٧ - (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ) :

عادت هذه الآية بالحديث إلى غزوة بدر .

والمعنى : إذا كان الله تعالى : قد أمدكم أيها المؤمنون بأسباب النصر ، من إنزال الملائكة لتأييدكم وإنزال المطر عليكم ، وأمره لكم بالثبات وغير ذلك ، فأنتم لم تقتلوهم بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بتأييدكم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وتسليطكم عليهم .

وقيل إن المعنى : إن افتخرتم بقتلهم فلاوجه لافتخاركم ، فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وذلك لما روى أنهم حين انصرفوا من معركة بدر غالبين غانمين ، أقبلوا يتفاخرون ، يقول قائلهم : قتلت وأسرت ، وفعلت وتركت ، فنزلت الآية لينتهوا عن الافتخار ، وليعْزُوا النصر إلى الفاعل المختار سبحانه وتعالى .

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ) : بعد أن خاطب الله المؤمنين بما تقدم ، خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك ، ليبين للمؤمنين أن الأمر لله فى شأن رسوله ، كما أن الأمر له ـسبحانهـ فى شأنهم ، حتى يتمكن هذا المعنى من نفوسهم ، ويستقر فى قلوب المؤمنين إلى يوم الدين .

والمقصود من رميه صلى الله عليه وسلم ، ما حدث منه من قذف التراب فى وجوه المشركين كما ذكره الحافظ بن حجر وأيده بعدة طرق ، فعن حكيم بن حزام(٢) قال : (لما كان يوم بدر ،

---

(١) أى فأعطاهما خير العطاء الذى يعطى .

(٢) كان حكيم بن حزام مشركا فى وقت غزوة بدر ، ثم من الله تعالى عليه بالإسلام ، وكان من خيرة المسلمين .

أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] فأخذ كفًّا من الحصى فاستقبلنا به ، فرمى به وقال : (شاهت الوجوه) فانهزمنا ، فأنزل الله عز وجل : (وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) أخرجه الطبرانى وإسناده حسن .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلىٍّ : نَاوِلْنى كفًّا من حصى ، فناوله فرمى به وجوه القوم ، فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت : (وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) الآية . أخرجه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح [٢] .

وقد اشتمل النص الكريم على نفى الرمى من النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : (وَمَارَمَيْتَ) وإثباته له بقوله : (إِذْ رَمَيْتَ) وليس هذا من باب التناقض بنفى الشىء وإثباته ، فإن النفى منصب على الرمى من جهة خلقه وخلق آثاره ، فإنه فعل الله وليس فعل الرسول ، والإثبات موجه إلى كسب الرسول أى إلى فعله الظاهر .

المعنى :

ومارميتَ يا محمد الحصباء المخلوطة بالتراب بقدرتك الذاتية ، حين رميتها يوم بدر فى وجوه المشركين ، فامتلأت بها عيونهم ، وشغلوا بها عن قتالكم ، ولكن الله تعالى هو الذى ألهمك إلقاءها ، وأقدرك على رميهم بها ، وأوصلها مع قلتها إلى عيون المشركين جميعهم ، - وهم نحو الألف - فالله تعالى هو الذى رماهم بها حقيقة ، وأما رميك لهم فهو بإقدار الله ، وربطا للمسببات بأسبابها الظاهرة ، ولولا ذلك ما حدث الرمى ولا آثاره ، واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه تعالى ، وإنما لهم كسبها ومباشرتها ، قال الإمام الرازى : أثبت - سبحانه - كونه صلى الله عليه وسلم راميا ، ونفى كونه راميا ، فوجب حمله على أنه صلى الله عليه وسلم رمى كسبا ، والله رمى خلقا .

وقال ابن المنبر : علامة المجاز أن يصدق نفيه حيث يصدق ثبوته ، ثم قال : فلمَّا أثبت الله سبحانه الفعل للخلق ونفاه عنهم ، دل على أن نفيه على الحقيقة ، وثبوته على المجاز بلاشبهة .

---

(١) أى أمر عليا - رضى الله عنه - بإحضار كف من حصباء الوادى فأحضرها فأخذها الرسول - الخ وسياق فى الحديث التالى مايدل على ذلك .

(٢) مجمع الزوائد جـ ٦ ص ٨٤

وقد كتب علماء التوحيد فى خلق أفعال العباد ، وكتب علماء التفسير فى هذه الآية كلاما طويلا ، فمن شاء المزيد فليطلبه فى المطولات .

(وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) : أى ولكى يعطى المؤمنين عطاء حسنا فى غزوة بدر ، سمع استغاثتهم وعلم إخلاصهم فنصرهم ، إن الله سميع لدعائهم واستغاثتهم ولكل مسموع ، عليم بنياتهم وإخلاصهم وبكل معلوم .

١٨ - (ذَلِكُمْ وأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ) : الإشارة بـ« ذَلِكُمْ » راجعة إلى ماتقدم من البلاء الحسن ، والبلاء بمعنى العطاء كما تقدم بيانه .

والمعنى : ذلكم البلاء أى العطاء الحسن للمؤمنين ، وتوهين الله كيد الكافرين وإبطاله ، هما المقصودان من تهيئة أسباب النصر للمؤمنين على الكافرين .

(إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾) .

المفردات :

(تَسْتَفْتِحُوا) : تطلبوا الفتح وهو النصر . (فِئَتُكُمْ) : جماعتكم .

التفسير

١٩ - (إن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ وإن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...) الآية .

الخطاب فى هذه الآية للمشركين ، نزلت بعد غزوة بدر وسبب خطابهم بما جاء فيها ، أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجُنْدَيْن ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وفى رواية أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان : اللهم ربنا ، ديننا القديم ، ودين محمد الحديث ، فأى الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك ، فانصر أهله اليوم .

والمعنى : إن تطلبوا - أيها المشركون - الفتح - أى النصر - فقد جاءكم النصر على خلاف ما تشتهون - حيث نصر الله رسوله ودينه - عليكم وعلى دينكم ، وإن تنتهوا عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاداته ، فالانتهاء خير لكم من مواصلة حربه ، فقد ذقتم بسببها القتل والأسر والهوان ، وإن تعودوا إلى قتاله ، نعد إلى نصره عليكم ، وتمكينه من إذ لالكم ، ولن تدفع عنكم جماعتكم شيئا من الأضرار ولو كثرت حشودكم ومقاتلوكم ، وحقيقة الأمر أن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾)

التفسير

٢٠ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنتُمْ تَسْمَعُونَ) :

بعد أن بين الله تعالى فى آخر الآية السابقة أنه سبحانه مع المؤمنين ، أمرهم بطاعته .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، بالعمل بما أنزله الله إليكم فى كتابه ، وبينه لكم رسوله ، ولا تنصرفوا عن رسوله فيما بيَّنه لكم عن الله ، وأنتم تسمعون القرآن الناطق بالحثِّ على طاعته والثواب عليها ، والزجر عن مخالفته والعقاب عليها .

٢١ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) :

أى ولاتكونوا أيها المؤمنون مثل المنافقين الذين قالوا بأفواههم ، سمعنا القرآن موهمين بذلك القول أنهم تَقبَّلُوا ما سمعوه وآمنوا به ، وهم فى الحقيقة لايسمعونه سماع تقبُّل وإذعان ، بل سماع نفاق وإدهان .

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾).

المفردات :

(الدَّوَابِّ) : جمع دابة ، وتتناول الإنسان والحيوان ، مأْخوذة من دبَّ على الأَرض أى مشى على هِينتِهِ . (الصُّمُّ) : الذين لايسمعون . (الْبُكْمُ) : الذين لاينطقون . (لَتَوَلَّوْا) : لانصرفوا .

التفسير

٢٢ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ) :

تضمنت هذه الآية الكريمة ، بيان سوء حال المشبه بهم فى الآية السابقة ، وهم الذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ، مبالغة فى تحذير المؤمنين من التشبه بهم .

والمعنى :

إن شر من يدب على الأَرض ويمشى عليها ، هم أُولئك الصم الذين لايسمعون ، البكم الذين لاينطقون ، الذين لايعقلون شيئا لفقدهم عقولهم ،وقد وصف الله الكافرين بتلك الأَوصاف مع أنهم يسمعون ويتكلمون ويعقلون ، تنزيلا لهم منزلة مَنْ حُرِم من هذه المزايا العظيمة ، لأَنهم تركوا الاهتداءَ بها إلى الحق ،وأَهدروا الانتفاع بها فيما يسعدهم فى الدنيا والآخرة ، فكانوا كمن فقدها ، وقد جاءَ وصفهم بأَنهم لايعقلون ، بعد وصفهم بالصم البكم تأْكيدًا لسوءِ حالهم ، فإِن الأَصم الأَبكم إذا كان له عقل ، يستطيع أَن يَفْهم ويُفهِم غيره بالإِشارة ، فإِن فقد العقل فقد بلغ الغاية فى سوءِ الحال .

٢٣ - (وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ) :

أى ولو علم الله فى هؤلاء الصم البكم الذين لايعقلون ، خيراً يؤدى بهم إلى الحق ، لأسمعهم سماع تدبر ، ينتهى بهم إلى أن يعقلوا الحق وينطقوا به ، ويسيروا على منهاجه ، ولو أسمعهم القرآن مع ما هم فيه من فقدان الخير وسوء الحال ، لانصرفوا وهم معرضون عن تقبُّله والإيمان به ، والعمل بموجبه .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾) .

التفسير

٢٤ ــ (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) :

بعد أن تحدث الله عن الكافرين بأنهم صم بكم لايعقلون ، عاد بالحديث إلى المؤمنين ، ليرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، وقد تكرر نداؤهم بوصف الإيمان لتنشيطهم حتى يقبلوا على امتثال ما يَرِدُ بَعْدَهُ من الأوامر ، وتنبيههم إلى أن اتصافهم بالإيمان يستوجب ذلك .

والمعنى :

يأيها الذين شرفهم الله بالإيمان المستوجب لكل خير ، استجيبوا لله وللرسول بحسن الطاعة ، إذا دعاكم الله على لسان رسوله لما يحييكم فى الدارين حياة طيِّبة ، من الجهاد والاستقامة على منهاج الحق والعدل ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وثواب الآخرة . واستدل بعض العلماء بالآية على وجوب إجابة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا نادى أحدًا وهو فى الصلاة ، فإن الأمر يشملها ، وعن الشافعى أن ذلك يبطلها ، وأيد القول بذلك

بما أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أنه -صلى الله عليه وسلم- مرَّ على أُبىٍّ بن كعب وهو يصلى ، فدعاه فعجل فى صلاته ، ثم جاء فقال له النبى : (ما منعك من إجابتى ؟) قال : كنت أصلى ، قال : « أَلَمْ تُخْبَرْ فيما أُوحِىَ (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) قال : بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « لأُعلمنّك سورةً أعظمَ سورةٍ فى القرآن : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) هى السبع المثانى » .

ورأى بعض العلماء أن إجابة الرسول فى الصلاة ، وإن كانت واجبة كما دل عليه الحديث والآية ، إلا أنه لا دلالة فيهما على أنها لاتقطع الصلاة ، بل يجب استئنافها من جديد بعد أن قطعت بإجابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحكى الرويانى أنها لاتجب ، وتبطل الصلاة بها ، فإن المصلى قائم بين يدى ربه ، وهو مشغول بطاعته ، وما جاءت الرسالات إلا لذلك ، وإنما تجب الاستجابة التى دعت الآية إليها ، فيما عدا وقت الاشتغال بالصلاة ، ولعل القائلين بذلك لم يطلعوا على هذا الحديث . . . وتوسط بعض العلماء بين الرأيين فقال : إذا نادى النبى صلى الله عليه وسلم أحداً وهو يصلى فإنه يقطع صلاته إذا كان الدعاء لأمر يفوت بالتأخير ، ومثل ذلك مثل ما إذا رأى المصلى رجلا أعمى وصل إلى بئر ، ولو لم يحذره لهلك ، فإنه يقطع صلاته ويحذره، ثم يستأنفها ، وحمل أصحاب هذا الرأى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب الذى ورد فى الحديث على أنه كان لأمر هام بدليل قوله تعالى : « إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » ، فلذلك قال له الرسول : (مامنعك من إجابتى ؟) يريد بذلك أنه كان عليه أن يقطع صلاته ليجيبه صلى الله عليه وسلم .

ونحن نقول : إن الظاهر أن ذلك كان فى صلاة النافلة ، فإنها لو كانت فرضا لكان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بالمسلمين جماعة وفيهم أُبَىٌّ بن كعب راوى الحديث ، فلا يكون حينئذ مجال لنداء الرسول له ، فالأولى قصر الكلام على صلاة النافلة .

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

قبل الكلام على تفسير هذا النص الكريم نقول :

الحول بين الشيئين الفصل بينهما ، تقول هذا الشىء يحول بينى وبينك ، تعنى أنه يفصل بينكما ، قال صاحب القاموس : (كل ما حجز بين شيئين فقد حال بينهما) يعنى فقد فصل بينهما .

وهذا المعنى غير مُتَصَوَّرٍ فى حق الله تعالى، فإنه ــ سبحانه ــ ليس جسما متوسطا بين المرء وقلبه ، يحول بينهما ويفصل اتصالهما ، ولهذا يجب تأويل قوله تعالى :(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) بما يتفق مع القواعد الشرعية، وقد ذهب المفسرون فى تأويلها مذاهب نختار منها ما يلى :

يرى الحسن وقتادة :أن هذه مجاز عن شدة قربه ــ تعالى ــ من عبده بعلمه فهى ، مثل قوله تعالى : «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» وفى هذا المعنى تنبيه إلى أنه ــ تعالى ــ مطلع على مكنونات القلوب ، حتى ما يغفل عنه أصحابها ، وأنه ينبغى أن يبادر العباد إلى تصفيتها من علائق الشيطان ، حتى تكون مخلصة لوجه الله الكريم ، فكأنه ــ سبحانه ــ بعد أن أمرهم فى صدر الآية بالاستجابة لله ورسوله ، أشار لهم هنا إلى وجوب الاخلاص فى الاستجابة ، لأنه تعالى قريب من قلوبهم بعلمه ، يعلم إخلاصها ونظافتها ، ويعلم ضد دلك ، فيجزى كلاًّ منهم حسب حالهم .

والمعنى على هذا : واعلموا أيها المؤمنون أن الله ــ تعالى ــ قريب من قلب عبده ، يعلم إخلاصه ونفاقه فى الاستجابة لله ولرسوله ، واعلموا أنكم إليه يوم القيامة تحشرون لا إلى غيره ، فيجزيكم حسب مراتب أعمالكم التى أحاط بها علمه .

ويجوز أن يكون المراد من الآية الحث على المبادرة إلى الاستجابة لله ورسوله ، بالعمل الصالح والنية الطيبة قبل أن يدرك الإنسان الموت ، فيندم على التقصير .

وكأنه قيل : واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه بمنع إمداده له بالدم الذى هو مادة الحياة ، إذ يقبض روحه ، ويبطل نبضه ويمنعه بذلك من التصرف ، فتفوته الفرصة التى هو واجدها ، وهى التمكن من العمل الصالح ، وإخلاص النية ، فليبادر المرءُ إلى الاستجابة لله ورسوله ، قبل فوات الفرصة ، واعلموا أنكم إليه تحشرون للحساب والجزاء .

ويمكن أيضا أن يكون المعنى : واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه إن لم يستجب لله ورسوله ، وذلك بأن يطمس على قلبه فلا يهتدى إلى رشاد ، واعلموا أنكم إليه تحشرون ، فلا يجد المسىء ما ينقذه من عقابه .

٢٥ ــ (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً) :

أى واتخذوا لكم وقاية من ذنب لايقتصر وباله على الذين ظلموا أنفسهم ، بتوريطها فى المعاصى ، بل يعمهم وغيرهم بشؤمهم . (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :يعاقب منخالفه ولم ينفذ أوامره ، أو وافق على مخالفته ، أو ترك الإنكار على المخالفين ، وأهمل وعظهم وتذكيرهم .

والآية الكريمة خطاب للمؤمنين فى كل عصر ، فلا يقتصر حكمها على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والمقصود من الآية أن لايترك العصاة بدون زجر ، بل يؤخذ على أيديهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» [(١)] فإن لم يفعل المؤمنون ذلك ، وقعوا فى الفتنة ، أى أثموا وأذنبوا - لأنهم قصَّروا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبذلك لم تقتصر الفتنة - أى الذنب - على من باشر المعصية وحده ، بل عمته وغيره ، قال صلى الله عليه وسلم : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده ، أوشك أن يعمهم الله -تعالى- بعقاب» أخرجه الترمذى وأبو داود عن قيس بن حازم عن أبى بكر رضى الله عنه ، وأخرج الترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم ، ووا كلوهم ، وشاربوهم ، ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، «ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» .

(وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾) .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .

التفسير

٢٦ - (وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ . . .) الآية .

الخطاب هنا للمهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : واذكروا أيها المؤمنون من اهل مكة وقتما كنتم مستضعفين من مشركيها ، يؤذونكم بالقول والفعل ، لضعفكم وقلتكم وهوانكم عليها ، فكنتم لذلك تخافون دائما أن يتخطفكم مشركو مكة ، ويأخذوكم بالإيذاء وسلب الأموال من آن لآخر ، فآواكم الله بالمدينة حين هاجرتم إليها ، إذ أنزلكم من أهلها فى مأوى يقيكم شرَّ من استضعفوكم وآذوكم ، وأيدكم وقواكم بنصره بمظاهرة الأنصار . والإمداد بالملائكة فى بدر ، فثأرتم بذلك ممن أخرجوكم وآذوكم . ورزقكم الله من الطيبات بما نلتم من المغانم . ولم تحل لأحد قبلكم ، منحكم الله كل هذه النعم لكى تشكروه على إسدائها .

وقيل : الخطاب عام للمؤمنين فى كل عصر ، يذكرهم الله فيه بإنعامه عليهم حين يكون عدوهم أكثر منهم ، يخافون أن يتخطفوهم لكثرتهم ، فإنه - تعالى - حينئذ يؤويهم ، أى يحل لهم مأوى يتحصنون به من أعدائهم ، ويؤيدهم وينصرهم عليهم ، ويرزقهم من طيبات الأرض التى يستولون عليها منهم ، كما يرزقهم من مغانمهم .

والرأى الأول أنسب بالحديث عن غزوة بدر التى جاءت هذه السورة لتفصيل شئونها .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾) .

المفردات :

(لَا تَخُونُوا اللهَ والرَّسولَ) : الخيانة بمعنى الانتقاص مما ائتمنت عليه ، والمراد بها هنا عدم العمل بما أمر الله به ورسوله .

(فِتْنَةٌ) : أى ابتلاء وامتحانا ، أو سبب فتنة ، أى سبب إثم وعذاب إذا خولف أمر الله فى الأموال والأولاد .

التفسير

٢٧ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ . . . .) الآية .

لايزال الحديث موصولا مع المؤمنين . وسبب نزول الآية ، على ما رواه الزهرى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بنى قريظة واحدا وعشرين ليلة وفى رواية البيهقى خمسا وعشرين ليلة . فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح إخوانهم بنى النضير : على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات من أرض الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ [١] . فأبوا وقالوا أرسل لنا أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر . وكان مناصحا لهم ، لأن ماله وعياله كانوا لديهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ، فقالوا : يا أبا لبابة ماترى ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ . فأشار بيده إلى حلقه - يعنى أنه الذبح فلا تفعلوا - قال أبو لبابة : والله مازالت قدمَاىَ عن مكانهما ، حتى عرفت أنى قد خنت الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، ثم انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد . وقال : والله لا أذوق طعاما ولاشرابا حتى أموتَ أو يتوب الله علىَّ ، فلمَّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره قال : أمَا لو جاءنى لاستغفرت الله له ، أما إذ فعل ما فعل . فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه . فمكث سبعة أيام لايذوق طعاما ولا شرابا حتى خرَّ مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك ، فقال والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله بيده ، ثم قال أبو لبابة : إن تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى ، فقال صلى الله عليه وسلم : يَجْزِيكَ الثلث أن تصَدَّق به ، ونزلت هذه الآية .

---

(١) وسبب امتناع الرسول عن إجابتهم ، أنهم خانوا عهدهم معه وانضموا إلى قريش فى غزوة الخندق ، وكادت تحصل بانضمامهم مع كارثة للمسلمين ، لولا لطف الله ، راجع قصتهم فى السيرة .

وذكر آخرون فى سبب النزول غير ما تقدم ، ولا مانع أن تنزل الآية لعدة أسباب من نوع خيانة الأمانة .

ومضمون الآية شامل لجميع المؤمنين ، ولكل مأمور به أو منهى عنه ، فإن أمانات الله ورسوله تشمل جميع التكاليف ولذا جاءت بالأسلوب العام .

والمعنى :

يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله ورسوله وتخونوا ما كُلِّفتم به من التكاليف فهى أمانات الله لديكم . فلا تتركوا فريضة فرضها عليكم . ولاتباشروا منهيا عنه حرمه عليكم كإفشاء سرٍّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو للمسلمين ، أو إنكار أمانة مودعة لديكم ، أو غُلول فى مغنم . وأنتم تميزون الحلال من الحرام . والحسن من القبيح . والضر من النفع . وتعلمون تبعة خيانة الأمانة وعقابها .

التفسير

٢٨ - (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) :

أى وليكن معلوما لديكم ومستقرا فى نفوسكم أن أموالكم وأولادكم امتحان من الله لكم ، فلا تجمعوا أموالكم من مصادر أثيمة ، ولاتصرفوها فى أغراض محرمة ، ولايحملنكم حبكم لأولادكم على معصية الله تعالى بسرقة مال أو طلب رشوة ، أو سوء تربية أو غير ذلك مما حرمه الله ، واعلموا أن الله عنده أجر عظيم وثواب جزيل ، لمن مال إليه وآثر رضاه على محارم الله ، فكسبوا أموالهم من حلال ، وصرفوها فى غير معصية ، وربوا أولادهم على طاعة الله وحذروهم من نقمته .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾) .

المفردات :

(يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) : يجعل لكم هداية تفرقون بها بين الحق والباطل . أو نصرا يفرّق بين حقكم وباطل سواكم .

التفسير

٢٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .....) الآية :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن خيانة الله ورسوله ، وخيانة الأمانات ، وحذرهم من الفتنة بالأموال والأولاد ، كلفهم هنا بأن يتقوه فى أمرهم كله ، ووعدهم على ذلك خير الجزاء .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا إن تتقوا عقاب الله وتخافوا غضبه وسخطه ، يجعل لكم ما تفرقون به بين الحق والباطل ، من الإلهام إلى الخير والطاعة والإعانة عليهما وكراهة الشر والمعصية والوقاية منهما ، ومن النصر الذى يفرق بين حقكم وباطل سواكم بإعزازكم وتكثير سوادكم ، وتوسعة رقعة أرضكم ، وإذلال الكافرين وانتقاص عددهم والاستيلاء على بلادهم ، ولايقتصر الأمر على ذلك ، بل يكفر عنكم سيئاتكم ويسترها لكم فى الدنيا ، ويغفرها لكم ولايعاقبكم عليها فى الأخرى ، والله صاحب الفضل العظيم على عباده ، فلايضيق فضله عن تكفير سيئاتكم ، وغفران ذنوبكم ، وأنتم أولياؤه .

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾) .

المفردات :

(يَمْكُرُ) :المكر؛ تبييت نية الشرّ؛ (لِيُثْبِتُوكَ) :ليحبسوك ويوثقوك .

(وَيَمْكُرُ اللهُ) : أى يحبط مكرهم .

التفسير

٣٠ - (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوك أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ....) الآية .

هذه الآية نقلت الحديث من تحذير المؤمنين من مخالفة الله ورسوله ، إلى بيان عداوة الكافرين وسوء مقاصدهم نحو رسولهم ودينهم . وأن الله محبط كيدهم .

وسبب نزولها : أن قريشا لما رأت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحت له شيعة وأصحاب من أهل المدينة . ورأوا هجرة مسلمى مكة إليهم . وعرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا من أهلها منعةً . فَحَذِرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قصى بن كلاب . التى كانت قريش لاتقضى أمرا إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون فى أمره - عليه الصلاة والسلام - فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل كان من أمره مارأيتم . وإنا والله ما نأمنه . فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا . ثم تربصوا به أن يصيبه ما أصاب أشباهه الشعراء قبله من الموت . فاعترض آخر قائلا : لئن حبستموه كما تقولون . ليخرجن أمره من وراء هذا الباب إلى أصحابه ، فَلَأَوْشكوا أن يثبُوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا برأى . فقال آخر : نخرجه من أرضنا وننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا ، فلا نبالى أين ذهب . وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا . فرد قائل : والله ما هذا برأى . ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه . وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به . والله

لو فعلتم ما أمنتم أن يحل على حيٍّ من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه ، ثم يسير بهم إليكم ، فيطؤكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم منكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، فكِّروا فى رأى آخر ، فقال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً ، نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى سيفا صارما ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرّق دمه فى القبائل جميعا ، فرضوا عنا بالعقل (١) فعقلناه لهم فقال قائل : هذا هو الرأى ، فوافقوا عليه ، وتفرّقوا على ذلك .

فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لاتَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه ، فلما كانت عتمة (٢) من الليل ، اجتمعوا على داره يرصدونه متى ينام ؟ فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعلىٍّ ـ كرم الله وجهه ـ : نم على فراشى وتَسَجَّ ببردى (٣) فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم وكان الرسول إذا نام ينام فى برده هذا ـ انتهى : من ابن إسحاق بتصرف .

والمعنى :

واذكر يامحمد حين يمكر بك الذين كفروا من مشركى مكة ويُبيِّتُون نية الشرّ نحوك ليجعلوك حبيسا فى محبس يعدونه لك ويقيِّدونك فيه بالحديد ، حتى لايتصل بك أحد ممن تدعوهم إلى الإسلام ، أو يقتلوك بسيوفهم على أيدى شبان أقوياء أنسباء منهم ، فيتفرّق دمك فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن ينتقموا لك منهم ، أو يخرجوك من مكة ، ويمنعوك بذلك من الاتصال بأهلها لدعوتهم إلى الإسلام ، ويحرموك بهذا الإبعاد من وطنك

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ) :

المكر : تبييت نية الشر مع قصد الضرر بالخصم ،فإذا استعملت هذه الكلمة فى جانب الله فالمقصود بها المجازاة على المكر كما هنا ، لأنه ـ تعالى ـ لا يبيِّت نية الشرّ لعباده ، ويحب أن يتوبوا فيرضى عنهم ويغفر لهم .

(١) العقل : الدية . (٢) العتمة : ثلث الليل الأول . (٣) أى تغط ببردى ، والبرد : ثوب مخطط .

والمعنى :

ويمكر مشركو مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتبييت نية قتله بأيدى شبان من جميع القبائل ، ليتفرّق دمه بينها ، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتال جميع العرب ، ويرضون بديته ، ولكن الله محبط مكرهم ، بتيسير خروجه من بين أولئك الشبان الذين اجتمعوا أمام بابه ليقتلوه عند خروجه .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم خرج عليهم ليلا وهم أيقاظ وبأيديهم سيوفهم ، وكان يقرأ قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِن خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » فعموا عنه ولم يبصروه ، وسار حتى التقى برفيق هجرته - أبى بكر رضى الله عنه - وسارا حتى بلغا الغار الذى أويا إليه حتى ينقطع الطلب ، ثم استأنف رحلته مع أبى بكر على ظهر ناقتين وافاهما بهما عبد الله بن أريقط - وكان هاديا ماهرا أمينا وكان على دين قومه - حتى وصلا إلى المدينة بسلامة الله تعالى ، وبذلك أحبط الله مكرَ قريشٍ ، والله خير من يحبط المكر ويجزى أهله [1] .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾) .

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) : ما سطره الأوّلون من القَصَص .

التفسير

٣١ - (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ...) الآية :

المعنى : وإذا تتلى على قريش آياتنا التى أنزلناها على محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا

(١) انظر تفصيل قصة الهجرة فى كتب السيرة ، فقد حدثت فيها أحداث نجى الله رسوله منها « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

عنادا وإباء للحق : لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذى جئتنا به ، ما هذا إلا ماسطَّرهُ الأَولون من القصَص والحكايات ، وليس كلام الله تعالى ، وحيث كان كذلك فنحن قادرون على الإتيان بمثله . وجمهور المفسرين على أن قائل هذا هو النضر بن الحرث ، كان يذهب إلى أرض فارس والروم يتسمع أخبارهم عن كبارهم ، ويذهب إلى اليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل ، وإسناد هذا القول إلى قريش ، لأَنه كان من زعمائهم وكانوا موافقين على ما يقول .

وهذا القول واضح البطلان ، فإنه تحداهم عشر سنين أن يأتوا بمثله ، وجعل يتحداهم حتى نزل بهم إلى سورة واحدة ، فلم يستطيعوا إلى تحقيق زعمهم سبيلا ، ثم قارعهم بالسيف فعجزوا عن تحقيق زعمهم ، ولو كانوا قادرين لأَبطلوا حجته فى إعجازه وبذلك ينتهى أمره ، ولم يزل يكافحهم حتى دانوا للقرآن ، ودخلوا فى دين الله أفواجا هم وغيرهم من العرب وسواهم .

ولايزال هذا التحدى باقيا إلى أن تقوم الساعة ، وسوف يعجز غيرهم كما عجزوا بل غيرهم أجدر بالعجز منهم ، فهم فرسان البلاغة ، والمالكون لأَزمة الفصاحة فكيف بسواهم ، وإعجاز القرآن ليس مقصورا على بلاغته وفصاحته ، بل لأنه أيضا شامل لأَخبار الأَنبياء ، مصحح لما جاء عنها خطأً فى التوراة والإنجيل ، كما هو شامل لما جاء فيهما من تشريعات صالحة للبقاء ويزيد عليهما ماهو صالح للجنس البشرى إلى أن تقوم الساعة ومن إعجازه أنه تحدث عن خلق هذا الكون من دخان (غاز) ولم يعرف ذلك العلماء إلا حديثا ، كما تحدث عما سوى ذلك من الكونيات التى أقرها العلمُ الحديث ، إلى غير ذلك من فنون إعجازه ، وكل ذلك جاء به سيدٌ كريم لايعرف القراءة ولا الكتابة كما قال تعالى : « وَمَاكُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَاتَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ »[1] .

---

(١) العنكبوت الآية : ٤٨ ، ٤٩

(وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ
عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا
كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾).

المفردات :

(يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : أى يمنعون المسلمين من الطوافِ بالمسجد الحرام عام الحديبية . حيث كانوا يريدون العمرة .

التفسير

٣٢ - (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ . . . .) الآية .

لايزال الحديث موصولا فى بيان معارضة قريش للدعوة الإسلامية .

وقائل هذا الكلام هو أبو جهل بن هشام ، كما أخرجه البخارى والبيهقى فى الدلائل ، وقيل : قائله النضر بن الحارث ، روى أنه لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم عن القرآن « إنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » قال له : ويلك إنه كلام الله تعالى فقال :
(... اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ . . .) الآية .

والمعنى :

واذكر أيها الرسول حين قالت قريش تهكما وكذبا ، على لسان زعمائهم : اللهم إن كان هذا الذى جاءنا به محمد هو الحق المنزل من عندك فأنزل علينا حجارة كثيرة من السماء ،

أو ائتنا بعذاب شديد الإيلام غير إنزال الحجارة ، ليكون ذلك برهانا لنا على أنه من عندك ، أو ليكون عقوبة لنا على إنكاره ولو كان هؤلاء طلاب حق لطلبوا الهداية إليه ، بدل طلبهم إنزال العذاب بهم ، ولكنه العناد والتكبر على حق جاء به سواهم ، وإسناد القول إليهم جميعا مع أن القائل أحدهم ، لموافقتهم على ما قال :

٣٣ - (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) :

جاءت هذه الآية لبيان السبب فى إمهالهم وعدم التعجيل بعقوبتهم استجابة لدعائهم

والمعنى :

وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب الذى طلبوه وأنت بينهم ، فقد أكرمهم الله برسالتك فيهم ، فمنع عنهم عذاب الاستئصال الذى كان ينزل بمن قبلهم لكفرهم برسلهم .

والمقصود من الآية الكريمة الإخبار بأن تعذيب قريش بعذاب الاستئصال - والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم - غير مستقيم فى حكم الله وقضائه .

(وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) :

أى وما استقام فى حكمنا وقضائنا أيضا أن يعذبهم الله وفيهم من يستغفره ، وإسناده الاستغفار إلى جميعهم ، مع أنه صادر من المؤمنين وحدهم ، لأنهم مو جودون بينهم .

وعن ابن عباس أن المراد بالاستغفار استغفار من سيؤمن بعد : والمقصود من كلام ابن عباس أن السبب الثانى لعدم تعذيبهم ، هو أن الله ادخر لهم الإيمان ، وأنهم سوف يستغفرون الله تعالى بعده ، وقد حدث ذلك عام فتح مكة .

٣٤ - (وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) :

وأى سبب لهم يقتضى أن لايعذبهم الله ، وهم يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام ، ويمنعونهم منه حقيقة كما كان ذلك عام الحديبية ، أو حكما كما فعلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى ألجئوهم إلى الهجرة ، وحرموهم بذلك من المسجد الحرام ، ولكن الله تعالى إنما حماهم من عذاب الاستئصال لوجود الرسول فيهم ، واستغفار المؤمنين منهم ، ولولا ذلك لاستحقوا العذاب لصدهم عن بيت الله وعن دينه .

(وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : وما كان أولئك المشركون الصادون عن المسجد الحرام مستحقين ولاية أمره حتى يصدوا المؤمنين عنه بحكم ولا يتهم له ، وما المستحقون لولايته إلا المتقون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ولكن أكثرهم لايعلمون ذلك ، فلذا كان منهم ما كان من صدهم المؤمنين عنه .

ونسبة عدم العلم إلى أكثرهم ، يؤذن بأن بعضهم يعلمون ذلك ، ولكن يجحده عنادا ، أو المراد بالأكثر الجميع ، كما يراد بالقلة العدم ، يقال : هذه أرض قلَّما تنبت ، أى لاتنبت أصلا .

(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾) .

المفردات :

(صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ) : المراد بالبيت الكعبة ، وبصلاتهم عنده الصلاةُ فى المسجدالحرام حوله . (مُكَاءً) : صفيرا ، من مكا يمكو إذا صفر . (تَصْدِيَةً) : تَصفيقًا ، من الصَّدى ، وهو رجع الصوت ، أو من الصَّدِّ وهوالمنع معَ قَلْب إحدى الدالين ياء. (لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : ليمنعوا الناس عن دينه ،فهو سبيل موصل إلى رضوانه .(حَسْرَةً) : نَدَمًا وَغمًّا .(يُحْشَرُونَ) : يساقون .

التفسير

٣٥-(وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) : تضمنت الآية السابقة أن المشركين لايصلحون لولاية المسجد الحرام ، وجاءتْ هذه الآية والتى تليها لبيان السبب فى عدم صلاحيتهم لذلك ، وهو عدم استقامتهم فى عبادة ربهم ، وصدِّهم الناس عن دين الله .

روى أنهم كانوا يطوفون عراة رجالا ونساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون ، فنزلت الآية لذلك ، وعلى هذا تكون تسمية الطواف صلاة لأنهم يفعلون ذلك عبادة وصلاة فى زعمهم ، أو لعلَّهم كانوا يدعون الله - تعالى - أثناء ذلك والدعاء يسمى فى اللغة صلاة .

وروى أنهم كانوا يفعلون ذلك عندما يصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يزعمون أنهم يصلون ، فى حين أنهم كانوا يريدون بذلك أن يخلطوا على الرسول صلاته ، فنزلت الآية تحكى قبح ما صنعوا .

والمعنى :

وما كان دعاؤهم عند البيت الحرام ، أو ما يسمونه صلاة ويضعونه موضعها ، إلا صفيرا وتصفيقا ، ومن كانوا كذلك فلا يصلحون لولاية أمر البيت ولا يصح لهم أن يصدُّوا ويمنعوا الناس عنه ، إذ أنهم لايعرفون ما ينبغى فى عبادة رب هذا البيت .
(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) :

قيل : المراد بالعذاب القتلُ والأَسر يوم بدر ، وقيل : عذاب الآخرة ويبدو من إطلاق العذاب ، أن الآية وعيد لهم بما يعمُّ عذاب الدنيا والآخرة ، لا بأَحدهما .

والمعنى :

وحيث كانت صلاتكم عندالبيت على هذه الصورة من الصفير والتصفيق فإنكم تستحقون عذاب الله ، فذوقوا العذاب بسبب كفركم بالله وبما يجب له من الإعظام والإجلال ، فى العقيدة والعبادة .

٣٦ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ....) الآية .
نزلت هذه الآية فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، يطعم كل منهم يوما يذبح فيه عشرا من الإبل ، والآية عامة الحكم وإن نزلت بسببٍ خاص .

والمعنى :

إن الذين كفروا بما جاء به دين الإسلام ، ينفقون أموالهم الآن فى حرب المسلمين ، ليصدُّوا الناس عن دين الله ، فسينفقونها مستقبلا فى هذا الغرض ، ثم تكون عاقبتها عليهم ندما وغمًّا ، لضياعها وتلفها دون تحقيق مرادهم ، ثم يغلبون آخر الأمر .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) :

بعد أن بيّن الله فى صدر الآية المصير الدنيوى للذين ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ، وهو الحسرة والندامة والهزيمة بيّن - سبحانه - فى عجزها المصير الأخروى للكافرين ، محاربين وغير محاربين .

والمعنى :

والذين أصرُّوا على الكفر ، إلى جهنم يُساقون لا يبرحونها ، فليس بعد الكفر ذنب .

(لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾) .

المفردات :

(لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ) : ليعزله ويفرزه : (فَيَرْكُمَهُ) : فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض ، قال صاحب القاموس : مازَه يَميزُه مَيْزاً عزله وفرزه .

التفسير

٣٧ - (لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ...) الآية . هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة .

والمعنى :

والذين كفروا يُحشرون ويُساقون إلى جهنم لكى يميز الله الكافر والخبيث المستحق للعقاب، ويفرقه ويعزله عن المؤمن الطيِّب المستحق للثواب، ويجعل الله الخبيث من الكفار بعضه على بعض ، فيجمع هذا الصنف الخبيث كله ، فيجعله فى جهنم جزاء وفاقا لما فعلوا ؛ أولئك هم الخاسرون الكاملون فى الخسران ، لأنهم خسروا أنفسهم والنعيم المقيم الذى فاتهم .

ويجوز أن يكون المعنى : والذين كفروا يُحشرون إلى جهنم ، ليميز الله الخبيث من الطِّيِّب من الناس والأموال ، ويجعل الخبيث من الكفار وأموالهم ، بعضه على بعض ، فيجمعه جميعا ، فيجعله فى جهنم .... الخ .

وإنما جمعت أموالهم معهم على هذا الرأى ليزداد بها عذابهم، كما هو الشأن فيمن يكنزون الذهب والفضة ، كما قال تعالى : «...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ * »[1] .

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾) .

المفردات :

(سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) : طريقتهم فى انتقام الله منهم ؛ (فِتْنَةٌ) : شركٌ وضلال .(مَوْلَاكُمْ) : ناصركم.

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٤ ، ٣٥

التفسير

٣٨ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) :

تحدثت الآيات السابقة عن مساوئ الكافرين ، من الصدِّ عن المسجد الحرام وعن الإسلام ، وإنفاقهم المال فى سبيل ذلك ، كما بيَّنت عقوبتهم عليهما .

وجاءت هذه الآية لتفتح لهم باب الأمل فى رحمة الله وغفرانه إن انتهوا عن غيهم ، وتتوعَّدهم إن هم أصرُّوا على كفرهم بالانتقام منهم .

والمعنى :

قل أيها الرسول : للذين كفروا فأشركوا بالله وأنفقوا المال ليصدوا عن سبيله - وهو الإسلام - قل لهم : إن ينتهوا عمَّا هم فيه ويتركوه ويؤمنوا بما جئتهم به ، يغفر لهم ما قد مضى من شركهم ومعاصيهم - فإن الإسلام يطهرهم من ذنوبهم قبله - وإن يعودوا إلى مناوأة الإسلام ، مصرِّين على عداوته والكفر به ، فلينتظروا انتقام الله منهم ، فقد مضت سنة عقاب الأولين الذين تحزَّبوا على رسلهم وكفروا بهم ، إذ عاقبهم الله بشتىَّ العقوبات ، ونصر أنبياءهم عليهم ، وأعلى كلمتهم ، ولستم بأعظم شأنا منهم ، وقد رأيتم باكورة انتقامه منكم فى غزوة بدر .

٣٩ - (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

وقاتلوا أيها المؤمنون هؤلاء المشركين إن لم ينتهوا عمَّا هم عليه من الشرك - وقاتلوهم - حتى لايوجد شرك بالقرب منكم ، ويكون الدين حولكم لله لتأمنوا غدرهم وشرَّهم ، فإن انتهوا عن الكفر بعد ما أظهرتم الشدة عليهم ، وكفُّوا عن القتال فكُفُّوا عنهم ودعوهم لله ، فإن الله بما يعملون بصير ، فيجازيهم على إسلامهم ، ومايحدث منهم بعده من طاعة ومعصية .

٤٠ - (وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) :

وإن استمَروا على توليهم وإعراضهم عن الإسلام ، فاستمِروا على قتالهم ، واعلموا أن الله - تعالى - متولّ أموركم ، فثقوا به وتوكلوا عليه ولا تبالوا بهم ، نعم المولى لا يضيع من تولى أمره ، ونعم النصير لايغلب من نصره .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
محمد حمدي السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٠١١٦-١٩٧٨ — ٢٥٠٠٢


Bibliotheca Alexandrina
0362334